

@ayedh105

جذوع وفروع

مُذَوِّعٌ وَفُزَّعٌ

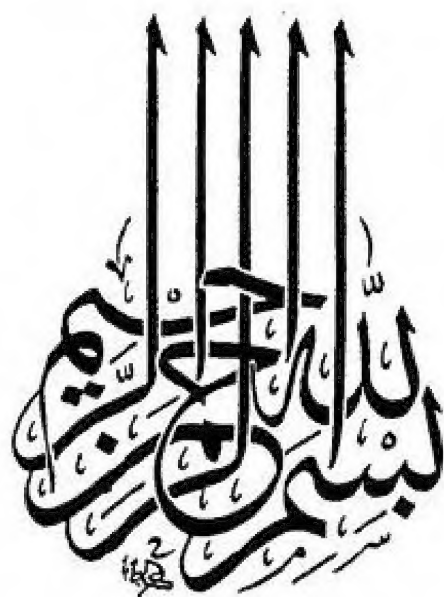
تأليف

عبد الرحمن بن زيد السويدي

الجزء الثالث

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

حقوق الطبع محفوظة
لدار السويداء للنشر والتوزيع
ص.ب ٨٤٩٢ - الرياض ١١٤٨٢
٤٧٦٩١٠٦ ☎



قصة رقم (٢٠)

بُهَيْسَةُ بنت أوس

تحت قبة السماء الزرقاء الصّافية المرصّعة بالآلئ المتوهّجة بعد أن إنفض
الرجال من مجلس سيدهم إثر تدارسهم لأحوال القبيلة وما استجد من أخبار القتال
في تلك الحرب الطاحنة التي تدور رحاها بين الحيين منذ أمد طويل دون نتيجة
اللهم إلا بتراكم أعداد إضافية من القتلى والجرحى وتوغل جروح الثارات بين
الخصمين وتفاقم الشر بينهم يوماً بعد يوم، وتشابك أطراف المسألة مما يجعل حلها
صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

في هذا الجو جلس الحارث بن عوف المري على بساط صوفي كان الرجال قد
جلسوا على طرفه قبل تفرقهم من مجلس سيدهم، يتململ في مجلسه يتكئ على
يده تارة ويتحامل على قناة رمحه تارة أخرى، فاقترب منه أخوه حارثة بعد أن استنكر
منه هذا التملل وقال له:

— ما بك يا أبا أسماء؟

: لا شيء، لا شيء. يقول ذلك محاولاً إخفاء ما يعتلج ب صدره.

— أراك متململاً في جلستك، هل آذاك هذا الفراش الخشن؟

: أبداً، وقد تعودنا على أخشن منه.

— أو قد ساءك كلام القوم قبل قليل؟

: ولا هذا، فهؤلاء الرجال كل واحد منهم قد تعصب لرأيه وتصلب في موقفه،

وكلما جاولنا رفق فتق إنبعج شق جديد.

— أنت سيدهم وأمرك فيهم مطاع.

: لا بأس، ولكن كثرة اللجاج في القول، والغلو في الطلب قد تذهب بنور الحق.

—: ما أراك الليلة إلا متراجعاً عن موقفك!؟

: ويلك ياخارجة، ماذا تعني؟ يقول ذلك بنبرة حادة.

—: كنت تنبس بالكلمة فتصغي لها الآذان وتغوص في سويداء قلب كل فرد من القوم؟

: ولا أزال. يقول ذلك بنبرة ثقة.

—: إذا ما بك الليلة على غير عادتك!؟

: أمر لا أعلم كنهه يجول في ذهني. آه ...

—: قد يكون محاولة للتهرب من واقع الحال إلى واقع آخر أكثر استقراراً.

: تهرب !! ماذا تعني ياخارجة!؟

—: عفوك يا أبا أسماء !! يقول ذلك وهو يريد أن يلطف الجو بحديث آخر؟

: لو لم تكن أخي لفعلت بك ما فعلت. يقول ذلك بنبرة حادة.

—: يحاول خارجة تغيير مجرى الحديث بقوله: إن صدق حدسي أنك تفكر في

خطية إحدى بنات سادات العرب.

: كلاً. يقول ذلك بصوت منساب هادي.

—: إذا لم يصدق ظني.

: ومنى صدق ياخارثة!؟ فلو أردت أي فتاة من بنات سادات العرب وخطبتها من

أبيها فإنه لن يردني.

—: بلا شك يا أبا أسماء، ولكن ليس على الإطلاق.

: ماذا تقول!؟

—: أقول ربما وُجدَ من يرد طلبك.

: يرد طلبي !! ومن هو!؟

—: أوس بن لأم، سيّد طيء.

: يردني!؟ يقول ذلك وهو يسترجع قواه متحفزاً.

—: ذلك توقع، لا يقين.

- : لن يهدأ لي بال حتى أقف على هذا الأمر.
- : لا يشغل بالك يا أبا أسماء.
- : لقد أثرت كوامنه في صدري، أنا سيّد ذبيان لا أظن أن أحداً من سادات العرب يرد لي طلباً.
- : غير سيّد طيئ.
- : والله لأقطعن الشك باليقين. يا غلام، يا غلام.
- : سمعاً وطاعة.
- : جهزنا للسفر غداً.
- : أمرك مطاع.
- : لتكن معنا ياخارجة.
- : معكم !!
- : لترى يعينك وتسمع بأذنك نقبض حدسك وتخمينك.
- : أمر سيّد ذبيان.

وتجهز الركب، وقبيل إنبلاج خيوط الفجر الأولى توجه الركب ميممين الشمال الغربي، ترفعهم الروابي والحزون وتخفضهم الشعاب والوهاد، تنفر من أمامهم أسراب الطباء بخشوفها، وتحفل منهم صوار المها، ويهرب من أمامهم خيط النعام برئالها، يضحون في مكان ويعشّون في موضع غيره، تصافح خدودهم نسيمات الربيع الباردة في الصباح الباكر، وتقبل جباههم نسائم الأصيل بقبالاتها اللاسعة كلما قطعوا مرحلة من مراحل مسيرهم باتجاه الشمال، وعلى ضوء تلك النار المتراقص لهبها في المساء قال الحارث:

- : حدثنا ياخارجة بما يذهب عنا عناء التعب.
- : بأي حديث نبدأ؟ بأخبار انتصارات قومنا على خصومهم؟
- : لا تفعل، لا تحدثنا أحاديثاً تنكأ الجراح وتدمي القلوب، وإنما نريد أحاديثاً تروّج عن النفس وتزيل التعب.
- : أتريد حديثاً ربما قد سمعته وتناقله الركبان؟

— آه !! لقد أصبحت لا أعي من الأحاديث التي سمعتها قبل مدة قصيرة إلا رواسيها.

: كأنك تريد من أحاديث الأَصْهار المنتظرين بأبنا أسماء!؟

— وماذا عندك من أحاديثهم؟

: لدي حديث يجمع بين الكرم والوفاء ونهاية مأساة.

— عليّ به.

: قيل أن النعمان بن المنذر خرج يتصيد على فرسه اليعموم، فأجراه على إثر غير وحش فذهب به الفرس في الأرض على إثر طريدته، فلم يقدر اللحاق بها وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء بمطرها، فطلب ملجأً يلجأ إليه فدفع إلى بناء، فإذا فيه رجل من طيء يقال له حنظلة ومعه امرأة له فقال لهما: هل من مأوى؟ فقال حنظلة: نعم، فخرج إليه فأنزله في بيته، ولم يكن للطائي غير شاة، وهو لا يعرف النعمان فقال لامرأته:

— أرى رجلاً ذا هيئة، وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة؟

: عندي شيء من طحين كنت ادخرته فاذبح الشاة لأتخذ من الطحين ملة^(١)، فأخرجت المرأة الدقيق فخبزت منه خبزة الملة، وقام الطائي إلى الشاة فاحتلبها ثم ذبحها فاتخذ من لحمها مرققة مفيدة وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها، وجعل يحدثه بقية ليلته، فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال:

— يا أخا طيء، اطلب ثوابك أنا الملك النعمان.

: أفعل إن شاء الله.

— اطلب ما تريد.

: معاذ الله أيها الملك أن أطلب جزاء ضيافتي لضييفي، أنت ضيف الله حللت في بيتنا فاطعمناك مما رزقنا الله لا نريد بذلك جزاء.

— كأني بك يا أخا طيء لا تملك غير هذه الشاة التي ذبحتها لي البارحة.

: الله رازق كريم، من رزقنا بها يرزقنا بغيرها.

(١) الملة: خبزة تشوى في جمر النار وملتها حتى تنضج وتدعك بالسمن وغيره.

— : مادمت كذلك فبارك الله فيك، ولكن إن أحاجتك الأيام بعد فاذكرنني . بعد

إصغاء تام.. لله درّ هذا الطائي ياخارجة !! ثم ماذا بعد؟ هكذا نطق الحارث .

: ركب النعمان فرسه ولحق بالخيل ميسماً الحيرة، ومكث الطائي بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبة وجهد وساءت حاله فقالت له امرأته:

— : لو أتيت الملك أحسن إليك ورفع عنك ضائقك.

: ولكنني أخشى أن يقال جاء الطائي يطلب جزاء ضيافته.

— : لا تخف، فهذا ملك لن يخطر بباله مايدور في ذهنك، وأقبل الطائي إلى

الحيرة فوافق قدومه يوم برّس النعمان، وإذا هو واقف بخيله وسلاحه في يوم

برّسه الذي لا يقدم إليه أحد في ذلك اليوم مهما كان إلا قتله، فقال النعمان:

— : ما جاء بك اليوم يا أخا طيبي؟

: أبيت اللعن !! ما كان علمي بهذا اليوم؟

— : والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس إبني لم أجد بداً من قتله، فاطلب

حاجتك من الدنيا، وسل ما بدا لك فإنك مقتول.

: أبيت اللعن !! وما أصنع بالدنيا بعد نفسي؟

— : إنه لا سبيل إليها.

: إن كان ولابد، فاجعلني حتى ألم بأهلي فأوصي إليهم وأهبيء حالهم ثم

أنصرف إليك.

— : فأقم كفيلاً بموافاتك.

التفت الطائي إلى شريك بن عمرو بن قيس الشيباني وكنيته أبا الحوفزان، وهو

رديف الملك حيث كان واقفا بجانب النعمان وقال له:

ياشريك يا بن عمرو هل من الموت محالة يا أخا كل مضاف يا أخا من لا أخاله

يا أخا النعمان فك اليوم ضيفاً قد أتى له طالما عالج كرب الموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به، فوثب إليه رجل من كلب يقال له قراد بن أجدع

فقال للنعمان:

— : أبيت اللعن !! هو عليّ.

: أفعلت ؟!

— : نعم.

فضمَّته إياه، وأمر للطائي بخمسمائة ناقة، فمضى الطائي إلى أهله بعد أن جعل الأجل حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل، فلما حال عليه الحول وبقي من أجله يوم قال النعمان لقراد:

— : ما أراك إلا هالكا غداً يا قراد.

: قال قراد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولي فإن غداً لناظره قريب
فلما أصبح الصباح ركب النعمان في خيله ورجله متسلحاً مثلما كان يفعل
حتى أتى الغريين فوقف بينهما وأخرج معه قراداً وأمر بقتله، فقال له وزراؤه:
ليس له أن تقتله حتى يستوفى يومه، وكان النعمان يشتهي أن يقتل قراداً ليفلت
الطائي من القتل، فلما كادت الشمس تجب وقراد قائم مجرد في إزاره على
النطع والسياف إلى جانبه أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عين بكى لي قراد بن أجدعا رهيناً لقتل لا رهيناً مودعا
أته المنايا بغية دون قومه فأمسى أسيراً حاضراً الموت أضرباً
فبينما هم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد وقد أمر النعمان بقتل قراد.

— : يا الله !! هكذا قال الحارث وهو يضرب أحد كفيه بالآخر.

: ولكن قيل له ليس لك أن تقتله حتى يأتي الشخص فتعلم من هو، فكف حتى
انتهى إليهم الرجل فإذا هو الطائي.

— : يا الله !! الطائي؟! يقول ذلك بتعجب المظمئن.

: نعم، لقد جاء الطائي، فشق ذلك على النعمان فقال للطائي ما حملك على
الرجوع؟

— : قال: الوفاء بالوعد.

: قال: وما حملك على الوفاء بالوعد؟

— : قال ديني.

— : فقال النعمان: الوفاء بالوعد !! والله ما أدري أيهما أوفى وأكرم، أهذا الذي نجا
من القتل فعاد، أم هذا الذي ضمنه؟ والله لن أكون ألأم الثلاثة.

— : لله در هذا الطائي ما أوفاه.

: فأمر النعمان بترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السنة.

— : فقال الطائي.

ما كنت أخلف ظنه بعد الذي أسدى إلي من الفعال الخالي
ولقد دعيتي للخلاف ضلّلتني فأبيت غير تمجدي وفعالي
إني امرؤ مني الوفاء سجيّة وجزاء كل مكارم بذال
: ما أجمل ما فعل العمان.

— : ولم يكتف بذلك، بل أمر بهدم الغريين.

: الغريين !! كأنني لم أذكر من أمرهما شيئاً.

— : الغريان بناءان أو قبتان أقامهما النعمان على قبري نديميه الذين قتلهما وندم

على قتلهما وصار يطليهما بدم من قتل يوم نحسه.

: آه، لقد ذكرت، لقد ذكرت، وماذا بعد؟

— : لقد عفا عن فراد بن أجدع والطائي فرفع الطائي عفيرته قائلاً:

ألا إنما يسمو إلى المجد والعلا مخاريق أمثال القراد بن أجدعا
مخاريق أمثال القراد وأهله فإنهم الأنخيّار من رهط تبعي
: يا الله !! حقاً إن هذا الحديث يجمع بين الكرم والوفاء ونهاية الماساة.

وفي الصباح استمر الركب في مسيرهم فقال الحارث:

— : لقد كان لحديثك البارحة وقع كبير في نفسي.

: ألم تسمعه من قبل؟

— : بلى، ولكن قد مر علي سماعي له مدة طويلة، وعندما سمعته البارحة أصاب

من نفسي موقعاً حسناً.

: الآن أحد أقطاب الحديث من طيئ الذين شددنا الرحال نحو أرضهم؟

— : لم يكن ذاك فحسب، ولكنني وجدت له استقرار في نفسي لا أدري ما مبعثه؟

: قد يكون حبك للكرم؟

— : هذا الجانب يطرب له كل عربي ويرتاح لمباشرته.

: قد يكون الوفاء هو الذي شدك إلى الحديث؟

— : وهذه خصلة أيضاً يتصف بها العربي بصفة عامة ويشتهر بالتمسك بها آخرون مثل أحننا الطائي.

: أجل ما جعل الحديث يغوص إلى أعماق نفسك هو نهاية تلك المأساة الدموية؟

— : المأساة !! المأساة !! نعم، وكم من المآسي التي يجب وضع حد لها.
: ولماذا لا يوضع حد لها؟

— : لأنها تتعلق بأكثر من طرف. يقول ذلك وهو شارد الذهن.
: صحيح.

— : حدثنا ياخارجة واحمل عنا عناء الطريق، يقول ذلك بعد أن عاد من شروده الذهني.

— : ماذا تحب من الحديث مع هذا الصباح الوضيء؟

— : لا يخفأك ما يطرف النفس وينسيها لواعجها.

: سأحدثك عن صاحبك حديثاً ربما تكون قد سمعته.

— : صاحبي !! من تعني؟

: أعني أوس بن حارثة.

— : آه، ماذا عندك عنه؟

: يحكي أنه وفد على ملك الحيرة عمرو بن هند ذات يوم هو وحاتم الطائي.

— : ونعم الوفد.

: فما كان من عمرو بن هند إلا أن خطرت بباله أن يختير الرجلين ليرى أيهما

أفضل من صاحبه، وكان الرجلان ذروتين شامختين من ذرى طيء إحداهما

بالسؤدد، والثانية بالكرم والمروءة.

— : ماذا فعل؟

: لقد استدعى عمرو أوساً على حدة فقال له: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال:

أبيت اللعن !! إن حاتماً أُوْحِدْهَا، وأنا أُحْدِهَا، ولو ملكني حاتم وولدي

وَلُحْمَتِي لوهبنا في غداة واحدة.

— يا الله !! ما أعظمه من رجل !!
فقال له: عد إلى نزلك مكرماً يا أوس.

— ثم ماذا؟

: ثم دعا عمرو حاتماً على حدة دون أن يعلم بدعوته لصاحبه، ولا ما قال له،
فقال يا حاتم: أنت أفضل أم أوس؟ فقال حاتم: أبيت اللعن أيها الملك !! إنما
ذكرت أوساً ولأحد ولده أفضل مني، فقال عمرو: عد إلى منزلك يا حاتم
مكرماً، هذا والله السؤدد.

— تلك عظمة الرجال يا خارجة، ثم ماذا؟

: أكرمهما عمرو وأحسن وفادتهما وجباهما من الهدايا والهبات.

— إنهما كفوا لما أعطيا وماذا بعد؟

: آه !! هناك حكاية أوس بن حارثة مع النعمان بن المنذر التي قال فيها أوس:
يقول لي النعمان لا من نصيحة أرى حاتماً في قوله متطاولاً
له فوقنا باع كما قال حاتم ومالنصح فيما بيننا كان حاولاً
— لقد ذكرت هذه القصة.

: وحكاية خطبة ماوية من ثلاثة نفر من أقطاب طيء.

— أسمعني إياها.

: قدم من الجبلين أوس بن حارثة الجديلي، وزيد الخيل النبهاني وحاتم بن
عبدالله الطائي وكلهم من طيء على ماوية يخطبونها فأخذ كل منهم يذكر
أفعاله وما جرأه على خطبتها فقال أوس:

أما ري ما يخطبك من حي مذ حج	كأوس بن لأم أو كزيد وحاتم
فإن تنكحي زيداً وفارس طيء	إذا الحرب يوماً أقعدت كل قائم
ومعقل نيهان الذي يتقى به	ردى الدهر عند الحادث المتفاقم
وإن تنكحي ماوية الخير حاتماً	فما مثله فينا ولا في الأعاجم
فتى لا يزال الدهر أعظم همّه	فكأك أسير أو معونة غارم
رأى أن ما يبقى من المال هالك	فأعطي ولم يحفل ملامة لائم
وإن تنكحيني تنكحي غير فاحش	ولا حافر حرف العشيرة هادم

ولا متى يوماً إذا الحرب شمرت بأنفسها نفسي فعال الأشائم
وإن طرق الأضياف ليلاً وعرسوا وجدت ابن سعدي بالقرى غير حاتم
فأي إمرء أهدى لك الله فاقبلي فإني كريم من عروق الأكارم
—: أحسنت، أحسنت بما قلت. يقول ذلك وهو يسرح طرفه كأنه ينظر إلى ما
وراء الأفق.

: ألا تريد أن نُضَحِّيَ يا أبا أسماء؟

—: وهل قطعنا من الطريق ما يستوجب الإستراحة؟

: لقد قطعنا التلبوت خلفنا، وتلك رِغَان رَمَّان عن يسارنا وشعاف سلمى عن
يميننا ومن دونها جبل الرِّيَّان تلوح ذروته العالية التي يتقطع من دونها السراب
وغير بعيد عنا وادي الرِّحْبَة.

—: إذا نحن في ديار بني أسد؟

: نعم، فهذا ترف وفرتاح عن يسارنا وسميراء عن يميننا بمطلع الشمس، ولم يبق
بيننا وبين ديار طيء إلا مرحلتين أو ثلاث ونصل إلى هدفنا، وهذه الرياض
الغناء، والفياض الفيحاء تجذب الإنسان لأن يرتاح فيها.

—: لك ما تريد ياخارجة، أنخ ركابنا ياغلام.

: ليتنا على الخيل فنطرد ذلك الصُّوَّار من المها، أو ذلك الجول من الحمر
الوحشية.

—: نحن على جناح سفر ويكفينا من الصيد ما يأتي به غلامنا.

: لكن هذه الغزلان والمها التي ذكرها الراعي النميري يصعب على الإنسان أن
يمر عليها دون أن يصيد منها.

—: وما قول النميري؟

: قال من قصيدته:

كأنما نظرت دوني بأعينها عين الصرمة أو غزلان فرتاح

—: حقاً، إن الصيد هنا متوفر.

وبعد استراحة تمكن الركب خلالها من تناول الغداء، استأنفوا رحلتهم إلى هدفهم حتى أسدل الليل رداءه على الكون فأناخوا مطيهم، وأوقدوا النار وأحاطوا بها يصطلون ويشترون مما صادوه في مسيرهم آخر ذلك اليوم، ودارت أحاديثهم كل مدار من الذكريات التي مرت على كل واحد منهم حتى داهم أجفانهم النعاس فأوروا إلى مضاجعهم وأخلدوا إلى النوم حتى انبلجت تباشير الفجر في اليوم الثاني حيث شدوا رحالهم نحو وجهتهم وفي الطريق قال الحارث:

— : حدثنا ياخارجة، إنى أرى لأحاديثك أثر طيب على نفسي، فلقد نقلتني إلى جو من الطمأنينة والراحة النفسية.

: أتريد حديثاً عن أصهار المستقبل؟

— : ولم لا ؟!

: يقال إن وفوداً من كل حي من العرب وفدوا على النعمان بن المنذر وفيهم أوس بن حارثة.

— : ما أكثر ما تتجمع الوفود عند ملك الحيرة النعمان؟ أيها !!

: طلب النعمان حلة من حلل الملوك وقال للوفود: احضروا في غدٍ فإنني ملبس هذه الحلة أكرمكم.

— : ترى من هو أكرم هذه الوفود الذي سيختاره النعمان؟ فالكل سيدفع إلى هذا الاجتماع الحاشد.

: نعم، لقد اجتمعوا من الغداة مسرعين عدا أوساً.

— : ألم يحضر؟

: لقد تخلف عن الحضور وقال: إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء بي أن لا أكون حاضراً وإن كنت المراد فسأطلب.

— : لله دره، هكذا تمنع الأبى، وماذا جرى؟

: لما جلس النعمان ولم ير أوساً مع الحضور قال: إذهبوا إلى أوس وقولوا له: إحضر آمناً مما خفت منه، فحضر وألبس الحلة.

— : لا شك أن هذا سيوغر صدور من حوله.

: هذا ما حصل، فقد حسده من حضر بالمجلس، وامتد سعيه هذا الحسد إلى أناس من أهله.

- : إلى أهله ؟!
- : لم يكتف الحاضرون بذلك، بل طلبوا من الحطيئة الشاعر أن يهجو أوساً، وجعلوا له مكافأة ثلاثمائة ناقة.
- : وبم يهجوهُ ؟!
- : شاعر مقذع مثل الحطيئة قد يفعل تحت إغراء الهبة.
- : هل هجاه ؟
- : لا، فلقد اعتذر عن هذا الأمر قائلاً: كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منه ثم قال:
- كيف الهجاء وما تنفك صالحة من ظهر لأم بظهر الغيب تأتيني
- : لله دره، إذا كان الحطيئة لم تغره الجائزة السخية فلن يجدوا من يتعرض له بسوء.
- : بل وجدوا.
- : من ذا الذي يتعرض لهذا الرجل الكريم ؟
- : لقد تصدى لهذا الأمر بشر بن أبي خازم الأسدي حين قال: أنا أهجوهُ.
- : تعساً له.
- : لكن ثلاثمائة ناقة قد جذبت لسانه عندما وهبوها له.
- : وماذا قال ؟
- : لقد هجاه فأفحش وذكر أمه سعدى.
- : وماذا فعل أوس ؟
- : أغار على النوق فاكتسحها وأخذها فهرب بشر والتجأ إلى عشيرته في بني أسد ومنعوه من أوس ورأوا تسليمه عاراً عليهم.
- : لقد تذكرت الآن أنني سمعت القصة.
- : فجمع أوس قومه من طيء وسار بهم إلى بني أسد فالتقوا بظهر الدهناء واقتتلوا قتالاً شديداً حيث هُزِمَتْ بنو أسد شر هزيمة وقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب بشر فجعل لا يأتي حياً يطلب جوارهم إلا امتنع عن إجارته عن أوس.

— : أما قلت لك إنه شاعر تعس، وأين ذهب؟
: لقد هرب ولجأ عند جندب بن حصين الكلابي بأعلى الصمان فأرسل إليه
أوس يطلب بشراً فأرسله إليه.

— : لقد وقع في يد من لا يرحمه.
: بالفعل، لقد أوثق أوس كتاف بشر ثم دخل على أمه سعدى قائلاً لها: لقد
أتيتك بالشاعر الذي هجاك.

— : بشر !!

: ولا غيره، الذي يقول من قصيدة له:
فيا عجباً عجت لآل لأم فليس لهم إذا عقدوا وفاء
وانكاس إذا استعرت ضروس تخلى عن مخافتها النساء
حلفت لتأتينهم قواف لها من بعد هلكهم بقاء
— : وماذا فعلت به؟

: ماذا تتوقعين أن أفعل به!!؟ لقد آليت على نفسي لأقتله قِتْلَةً تحيين بها أبد
الدهر!

— : تقتله !! أو خير من ذلك يابني!!؟

: ما هو ؟

— : إنه لم يجد له ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، فوقع في يدك.
: نعم، لقد سقط في يدي.

— : إننا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس.

: ماذا تقولين؟

— : من حقي عليك يابني، إلا أطلقت من إساره ورددت عليه إبله، وأعطيته من
مالك مثل ذلك، ومن مالي مثله.

: أطلقه !! وأعطيه من مالي وقد قال من قصيدة له:

ألا أبلغ بني لأم رسولاً فبئس محل راحلة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب
وما أوس ولو سود تموه بمخشي العرام ولا أريب

أنوعدني بقومك يابن سعدى وذلك من ملومات الخطوب
وحولي من بني أسد عديد ميين بين شان وشيب
هم ضربوا قوائس خيل حجر بعجب الرده في يوم عصب
— : وإن قال ذلك يابني، فأعطه وأرجعه إلى أهله سالماً فإنهم قد أيسوا منه.

: كأنني لم أصدق ما تسمعه أذناي، أماء!! ماذا دهاك!!؟

— : لا شيء، ولكنني أرى ذلك.

: أنكافيء من أساء إلينا بمثل هذه الهيات!!؟

— : نعم يابني، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه.

: لا يغسل هجاءه إلا مدحه!! يقول ذلك بصوت مجرور وهو مطرق إلى الأرض.

— : مالك واجم هكذا يابني؟

: يعز علي أن أفعل، رجل عفر بسمعتنا التراب، يكون جزاؤه هذه الهبة

السخية!!؟

— : إتبع مشورتني يابني ولن تندم، فإن تلك الرتوش التي نفنها لسانه على جبين

سمعتنا الناصع، لن يمحوها سوى لسانه الصقيل بلحسها مرة أخرى.

: آه، ما أصعبها من لحظة.

— : يابني إن الثلاثمائة ناقة التي سال لها لعابه ولقلق من أجلها لسانه بما نكره من

القول، إذا أعذتها إليه وأعطيته مثلها فإنه سيعترنم لسانه مرة أخرى بما يغطي

على تلك الترهات.

: رأي صائب، رأي صائب يا أماء!! يقول ذلك وهو يغادر الجزء الذي تقيم فيه

من بيت الشعر، متوجها إلى الجزء الخاص بالرجال والذي يوجد به بشر، وما

إن وقف عليه حتى قال له:

— : يابشر، ما تقول إنني فاعل بك؟

: تململ بشر في وثاقه وقال:

إني لأرجو منك يا أوس نعمة وإني لأخري منك يا أوس راهب

وإني لأمحو بالذي أنا صادق به كل ماقد قلت إذ أنا كاذب

فهل نافعي في اليوم عندك إنني سأشكر إذ أنعمت والشكر واجب

فدى لابن سعدى اليوم كل عشيرتي بني أسد أقصاهم والأقارب
تداركني أوس بن سعدى بنعمة وقد أمكنته من يدي العواقب
— : إن سعدى التي هجرتها قد أشارت عليّ بكذا وكذا.

: لله درها من سيدة كريمة إبنة سادة كرام، وأم لسيد كريم.
وأمر أوس بحل كتافه وحمله على فرس جواد، ورد عليه ما كان أخذه منه،
وأعطاه من ماله مئة من الإبل.

— : أعطاه!!

: نعم لقد نفذ مشورة أمه.

— : ماذا فعل بشر؟

: رفع يده إلى السماء وقال: اللهم أنت الشاهد عليّ ألا أعود إلى شعر إلا أن
يكون مدحاً في أوس بن حارثة وانطلق لسانه بمدحه يقول من قصيدة له:
كفى بالنأي من أسماء كاف وليس لحبها إذ طال شافي؟
إلى أن قال:

قليني قد رأيت العيس ترمي	بأيدها المفاوز عن شراف
عوامد للملا وجنوب سلمى	على أعجازها ركن العطاف
إلى أوس بن حارثة بن لأم	لربك فاعلمي إن لم تخافي
فما صدع بخبة أو بشرج	على زلق زوالق ذي كهاف
تزل اللقوة الشفواء عنها	مخالها كأطراف الأشافي
بأحرز موئلاً من جار أوس	إذا ماضيم جيران الضعاف
وما أوس بن حارثة بن لأم	بغمر في الأمور ولا مضاف

وغير ذلك من القصائد.

— : هذا ما جعلني أحرص على مثل هذا المحتد العريق بالسؤدد والكرم والجود
ياخارجة، ماذا الذي أراه يلوح من بعيد وكأنه صفحة السيف الصقيل؟
: تلك شماريخ جبل أجا قد حال دونها السراب فبدت تتراقص خلفه وكأنها
السيف المهتز.

— : يعني أننا اقتربنا من منازل من قصدناهم؟

- : نعم، إنني أرى شخص بعيد كأنه صاحب مطية وهو مقبل علينا وربما سألناه
عن حي أوس.
— لك ما تريد.
- : لقد اقترب منا الآن، لنسلم عليه، ها هو يرد التحية.
— أريتك يارجل، أين ينزل أوس بن حارثة؟
: من أنتم؟ وماذا تريدون به؟
— نحن ركب من ذبيان ولا نريد به إلا الخير.
: إصدقوني القول.
— لم يأتك منا غير الصدق.
- : إنه غير بعيد عنكم، خلف تلك الرعان الممتدة، فلقد اصطحبت من إنائه
هذا الضحى، ولا يحول بينكم وبينه سوى مسافة قصيرة.
— أحسنت صنعاً، حقاً ما يقوله الرجل، فهذه الأنعام قد انداحت مع ذلك الربيع،
وتلك الإبل قد اندلقت من جانب تلك الفيضة.
: إذاً سنجده الآن في حيّه فعليك بحث الركاب.
— سنصله بعد قليل من الوقت مع هذه الثنية.
- : هذه البيوت قد رصّع بعضها بَطِينِ تلك البرقاء وبعضها قد امتد إلى حافة تلك
الفيضة.
— حقاً إن هذه بيوت الحي، ويبدو أن ذاك البيت الكبير الممتد في طرفها هو
بيت أوس.
: فالنقصده مباشرة.
- هذا رجل بحدائنا ممتطياً صهوة جواده، وعليه ملامح تدل على أنه من ذوي
الشان.
— قد يكون أوساً.
: ربما، أتعرفه؟
— لا.

- : ها هو استقبلنا بالترحاب.
- : حياكم الله أيها الركب، حللتهم أهلاً، ووطئتم سهلاً.
- : أبقاك الله، لنا حاجة إلى أوس بن حارثة.
- : من أنت أيها السيد الكريم؟
- : أنا الحارث بن عوف المرى.
- : حياك الله، وأنا أوس بن حارثة، فما هي حاجتك؟
- : لقد جئتك خاطباً.
- : خاطباً !! لست هناك.
- : ماذا تقول؟
- : ما سمعت.
- : إصرف ركابنا يا غلام، يقول ذلك وهو يكاد أن ينفجر غضباً ولم يستطع أخوه خارجة ثبته عما عزم عليه، بينما سار أوس في طريقه إلى بيته.
- : لتتريث قليلاً يا أبا أسماء. هكذا قال خارجة.
- : بعد كل ما قاله ابن سعدى لنا.
- : لم يكن الخطأ منه وحده.
- : ماذا تعني؟
- : لقد أخذتك العجلة يا أبا أسماء.
- : سأل عن حاجتي فأجبت.
- : لبتك أجلت البوح بحاجتك حتى تنزل في بيته.
- : كيف يردنا ابن سعدى بهذه الطريقة؟! أما علم أنني سيد ذبيان؟
- : بلى، ولكنه أيضاً سيد طيء، وكل يرى في نفسه ما يرفعها.
- : والله لو علمت أنه سيفعل ما فعل لما توجهت إليه.
- : قد يحول سوء التقدير في تصويب الضربة يا أبا أسماء مما يحدث عنه نتائج غير مستحبة.
- : أفصح عما تقصد؟

— : لو تريت قليلاً حتى نحل ضيوفاً عليه، فقد استقبلنا بوجه بشوش، وترحيب متدفق، لربما حصلت على مرادك.

: حقاً، لقد استقبلنا الرجل بالترحاب والبشر، ولكن في العجلة الندامة. هذا ما كان من الركب، أما أوس فبعد أن وصل إلى بيته استقبلته زوجته العيسية وقالت له:

— : من الركب الذين وفدوا إليك فلم يقيموا ولم ترحب بهم؟

: إنه ركب مُرِّي !! آه... إنه الحارث بن عوف المري سيد ذبيان ومعه رفيقه.

— : مالك لم تستزلهم ؟

: لقد استحمقني.

— : بماذا؟

: بخطبته مني.

— : خطبته !! لماذا لم تزوجه إحدى بناتك؟

: أزوجه ؟!

— : نعم، هذا سيد من سادات العرب.

: وإن يكن سيذاً، فنحن أعلى منه شأنًا وأرفع مكانة.

— : لم يحاول النيل من مكانتك.

: صحيح، ولو حاول ذلك فسيلاقي مايكدر صفوه.

— : رجل جاء من بلاد بعيدة، من أرض قومه من خلف وادي الرمة في أعالي

القصيم يريد شرف مصاهرتك وترده؟!

: أخشى ألا يكون هذا مقصده؟

— : ثق أنه لم يقطع كبدا البداء مع رفاقه على ركايبهم إلا ويريد إضافة شيء من

سؤددك في قومك إلى سؤدده في قومه.

: وإن لم يكن هذا هدفه؟

— : مالي أراك متسائلاً؟

: أخشى أن يكون قصده الإساءة إليّ.

- : كن واثقاً مما أقول.
- : أجل لماذا بادرني بالخطبة وهو على كور مطبته وأنا على صهوة جوادي، دون أن ينزل في بيتي ويستريح بعض الوقت؟
- : قد تكون العجلة دفعته إلى ذلك.
- : لا أظن.
- : المهم، ألا ترى أنه من العار علينا أن يأتي الرجل إلى حيننا حتى إذا دنا من بيتنا يرجع دون أن يحل ضيفاً علينا؟
- : هذا صحيح، ولقد رحبت به وبرفيقيه، ولكنه تصرف هذا التصرف فلقي جوابي عليه وانكفاً من مكانه.
- : عليك باللحاق به، وثنيه عن غايته وأعدده ليحل ضيفاً علينا ثم زوجه إحدى بناتك الثلاث.
- : أخشى ألا يعود.
- : اعتذر له.
- : قد لا يقبل العذر مادام في سرّة الغضب.
- : تستطيع الاعتذار إليه بأنك كنت في حالة غضب قبل قدومه فصادف مجيئه تلك الحالة وحدثت تلك النبوة غير المقصودة.
- : والله إن نفسي تنازعني هذا الأمر، ولولا دافع المروءة باعتباره ضيفاً علينا، وقد حل في جزء من أرضنا لما ذهب إليه.
- : أنت سيّد طيئ الذين يكرمون الضيف، ويذرون العاني، ويجيرون الخائف، ويحجون الضعيف.
- : سأذهب إليه، يقول ذلك وقد انطلق على ظهر جواده حتى لحق بالركب فقال:
- : يا حارث، نشدتك الله أن تعود إلى بيتي وضيافتي.
- : لن أعود إلى بلد صدت عنه.
- : لا تؤاخذني يا حار، لقد صادفتني وأنا في سورة الغضب من أمر ليس لك به شأن فحدث مني ما حدث، فارجع ضيفاً معزراً مكرماً في بيتي.
- : أرجع !!

- نعم ولك ماتريد، وما أتيت من أجله.
- : وهل تعنى ما تقول؟
- بكل تأكيد.
- : لنعد ياخارجة، اصرف أعناق المطي ياغلام.
- مرحباً بك ياسيد ذبيان في أرضنا وعلى الرحب والسعة.
- : بورك فيك ياسيد طيئ.
- تفضل هنا، اللين ياغلام !!
- هكذا أمر أوس غلامه لمباشرة الضيوف باللين وأوعز إلى آخرين بنحر الجرز وذبح الخراف، ليتناول الضيوف غداءهم من شوائها وعشاءهم من فقارها.
- ودنف أوس إلى القسم المخصص للنساء واستعدى ابنته الكبرى قائلاً.
- اقتربي مني «ياعفراء».
- : سمعاً وطاعة ياأبي.
- أي بُنيّة، هذا الحارث بن عوف سيد ذبيان وهو من سادات العرب، جاء لك خاطباً ويقربنا راغباً فماذا تقولين؟
- : خاطباً !! خاطباً !! لست لذلك يا أبي.
- ولم، يا بُنيّة ؟!
- : لا تفعل يا أبي.
- لماذا؟
- : كما تعلم يا أبي أن في خُلُقِي بعض الجِدَّة، ولست ابنة عمه فيرحمني ويتجاوز عما يجده مني، وليس جاركم فيستحي منكم ويغضى عما يراه مني، وأخشى إذا وجد ماوجد أن يطلقني ويعيدني إليكم.
- بارك الله فيك يا بُنيّة، إذهبي لشأنك، ثم نادى ابنته الثانية قائلاً: اقتربي مني يا «أميمة».
- : سمعاً وطاعة يا أبي.
- أي بُنيّة، هذا الحارث بن عوف سيد ذبيان جاء لك خاطباً فماذا ترين؟
- : خاطباً!! ولكني لا أصلح له.

— : لماذا؟

: كما تعرف يا أبي أنني فتاة خرقاء، وليست يدي صنّاعة لا آمن أن يرى ما يكرهه مني فيطلقني.

— : بارك الله فيك يا أميم !! إذهبي لشأنك وأبعثي لي أختك بهيسة.
: سمعاً وطاعة.

— : إقتربي مني يا بهيسة، أي بُنيّة !! هذا الحارث بن عوف سيد ذبيان وهو سيد من سادات العرب قد جاء إلينا خاطباً.
: خاطباً !!

— : نعم، قد جاء إلينا خاطباً ويقربنا رغباً.

: أنت وذاك.

— : يعني أنك غير ممانعة؟

: الأمر بيدك يا أبي.

— : ولكنني عرضت الأمر على أختيك عفراء وأميمة فاعتذرت عفراء بأن في طبعها حدة قد لا يتحملها سيد من سادات العرب واعتذرت أميمة أنها خرقاء لا تتقن عمل بيتها ولا صنعة متطلباتها.

: إنني أختلف عنهن يا أبي، إنني والله الجميلة وجهاً، والصنّاعة يداً، والرقيقة لحلقاً، والنجيبة أبا، فإن طلقني فلا خلف الله عليه خيراً.

— : بارك الله فيك يا بهيسة، يقول ذلك وهو يربت على كتفها ثم يردف قائلاً:
عودي إلى شأنك يا بنية وعاد أوس إلى ضيفه وجبينه يتلأل وضاء وبشراً، وقال له: على بركة الله قد زوجتك ابنتي الصغرى بهيسة.

: لقد قبلت هذا الزواج.

— : لن تبيت عزياً هذه الليلة.

: بارك الله فيك. يقول ذلك وهو شارد الذهن يستعيد في ذاكرته بداية هذه الأمنية التي داعبت مخيلته عندما كان عند أهله بمحض الصدفة، ثم بدأ من أجل تحقيق هذه الأمنية رحلته الطويلة من بلده يحث الركاب التي طوى عليها البيداء المترامية مجتازاً الوهاد والأودية والشعاب، مخترقاً الفياض الفيحاء

والرياض الغناء من أجل تحقيق هذا الهدف الذي تغلغل في شغاف قلبه، لا من قلة فتيات السادة العرب، ولكن من أجل إشباع رغبة في ذاته، وإرضاء لما يشعر به من الأنفة والكبرياء، حينما سأل أخاه ذلك السؤال الذي أثار هذه الفكرة من أساسها، ذلك السؤال الذي طرحه فيما إذا كان يوجد سيد من سادات العرب سوف يرده إذا جاءه خاطباً لابنته؟ وقد لازمت هذه الأنفة طيلة مسيره إلى هدفه حتى اصطدم رأسه بتلك الصخرة الصلدة فدارت به الأرض وتداعى بنيان كبريائه للسقوط، لكن تلك اليد البارة قد تداركت الأمر بقوتها السحرية المؤثرة وحالت دون تصدع البنيان، حينما أسرع برفء تلك الصدوع وترميمها، وشدها إلى بعضها وإبعاد شبح الانهيار عنها، بدأت تلك الأجزاء المتصدعة بالالتئام والتماسك، عندما رأى الحارث ذلك الفارس الذي انقضت به فرسه تسحب من خلفها عجاجتها وكأنها تجر ذيلاً طويلاً ناصعاً، وما إن وصل فوقها فارسها وتحدث إليه في الأمر حتى ارتفع طموح كبريائه شامخاً وعادت إليه روح معنويته العالية وشعر في تلك اللحظة بالطمأنينة إلى تحقيق هدفه، وعندما عاد إلى مضارب القوم وجد من البشاشة وحسن الاستقبال ما مسح من نفسه آلام تلك الصدمة ورتق فتوقها وأبرأ جراحها، وكانت كلمات أوس بمثابة البلسم الشافي لكل تلك الآلام حينما سمع منه أنه زوجه ابنته الصغرى وهي غاية ما يريده باعتبارها الغضة عوداً، البضة جسماً، المتدفقة حيوية وربما الأجل والأملح من أختيها، إذا لقد عادت إليه كرامته التي كادت أن تهوي في ذلك الرد العنيف الذي واجهه عند قدومه إلى صاحبه، ولم يبق بينه وبين تحقيق غايته فعلياً سوى مرور سحابة ذلك اليوم الذي مضى منه حوالي نصفه.

هذه الأخييلة مرت به سريعاً أثناء جلوسه إلى جانب مضيفه، لم ينتبه إلى بعض ما يقوله أثناء مرور تلك الخواطر والخيالات في ذهنه ولم ينتبه إلا والغلام يطوف بقطع من الشواء وأقداح من اللبن ليأكلوا ويشربوا.

وفي المساء ضرب البيت المخصص للزواج، وحينما مضى من الليل ما

مضى دخل أوس وضيغه إلى بيت العرس ومكثا فيه قليلاً ثم زفت العروس إلى
بعلمها، بعد أن بارك أوس لصهره وغادر المكان، وخلي الحارث بعروسه بذلك
الخباء فرحب بها بينما كانت منشغلة ببعض شأنها داخل الخباء وترد عليه
وهي في حالها، فجلس منتظراً فراغها مما هي فيه، وطال عليه الانتظار حيث
نفذ صبره فقال:

— هل فرغت من شأنك؟

: لا يزال بيدي ما يشغلني.

— ليس هذا مقام لما تقومين به.

: لن أجلس بدون عمل يلهيني ويكون له فائدة لي.

— لا بأس، ولكن ليس في هذا المكان.

: وماذا تريدني أن أفعل؟

— ألقني ما في يديك وتفرغي لبعلك.

: ما في يدي لن يلهيني عنه.

— ولكن هناك ما هو أهم مما في يدك.

: ماذا تقصد؟

— إتركي ما في يدك واقتربي مني، أو أنني مقبل إليك.

: أتريد هذا الأمر بين أهلي وإخوتي؟

— أجل، أجل، ولماذا نصبوا لنا هذا البيت إذا؟

: والله لن يكون ذلك أبداً.

— ماذا تقولين؟

: أقول ما سمعت والله لن يكون ذلك في بيت أبي وبين أهلي وإخوتي فالتزم

بهذا الأمر حتى تغادر المكان.

كانت هذه الجمل التي سمعها من عروسه ذات وقع سيء في نفسه، فظل

جاثماً في مكانه لا يتحرك، بينما تتصارع في ذهنه عدد من الأفكار

والتساؤلات، لماذا أمتنعت عليه؟ هل أوعز إليها أبوها أن تفعل هكذا؟ أم أمها

هي التي أشارت عليها بذلك؟ أو يكون هذا الأمر قد ابتدعته بنفسها دون معرفة أبيها؟ ولماذا امتنعت عليه؟ هل كان ذلك بدافع الحياء من أهلها وذويها؟ إن كان ذلك هو هدفها فليست مصيبة فيما ذهبت إليه، لأن أهلها هم الذين زفوها إليه، وليس في ذلك حياء مادام حسب النهج المتعارف عليه، أم أن تمنعها بنفسها لأنها زوجت إياه على كره منها، فأصبحت تكرهه وأرادت أن تبرر موقفها بعامل الحياء؟ قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن ليس هناك ما يبرهن على ذلك فنبرات صوتها عادية وطبيعية، وعلى العكس فابتسامة الرضى والاطمئنان تكسو محياها وتتوج تغرها، وكلمات الترحيب التي تفوهت بها على قلتها تنبئ عن شعور بالتودد والفرحة، إذا ما هو السبب في امتناعها بنفسها؟ وهل كان هذا التمتع من قبيل جذبي إليها والتعلق بها أكثر وأكثر لتشدني إلى نفسها؟ وهي ترى أن ذلك أفضل من لو أنها بذلت نفسها إلي من أول إشارة رأتها وأول عبارة سمعتها، هذا التمتع الذي تعتقد بعض النساء أنها بتصنعه أو ركوبه تجذب الرجل إليها أكثر فأكثر، إذا كان هذا هدفها فقد تخطيء، لأن بعض الرجال لا يتحمل مثل هذا التمتع، ويرى فيه نوعاً من ترميغ كرامته وكبريائه على الأرض، فهو في هذه الحالة قد تعزف نفسه عنها وربما وصل الأمر إلى الطلاق، وتعض هي إصبع الندم ساعة لا ينفعها ندمها، وربما لم يبين لها أبوها مكانتي بين قومي، فقد يكون في مفهومها، أنني أحد أجلاف العرب، ولم تعرف أنني سيد ذبيان بقضها وقضيضها؟ فإذا كان أبوها لم يوضح لها ذلك فهل أجلى لها الأمر؟ لا، لا، لست ممن يتحدث عن نفسه، بل أترك الغير يتحدثون عني، أما والله لو علمت هذه الفتاة الطائفة الغرّة أن الذي أمامها سيد تهتر أمامه فرائص الرجال لما جلست إزاءه تتشاغل بهذا العمل الذي بيديها وكأنها أمام صبي صغير، أمن المعقول أنها لا تعرف من أنا؟ هذا غير ممكن لأن أباه لا بد أنه قد أفهمها وأخذ رأيها فيمن ستزف إليه هذه الليلة، أتراها تريد أن تمتحن قوة صبري وتحملي؟ وثبت بالفعل أن الغزال اللطيف يمكن أن يتلاعب بأعصاب الأسد الشرس؟ قد تكون نحت هذا المنحى، ولولا ذلك لما صارت تقترب مني تارة وتبتعد أخرى متشاغلة بما في

يدها من عمل، هل انقضَّ عليها كما ينقض العقاب الكاسر على فريسته فأبذد تمنُّعها وأحطَّم كبرياءها؟ وما تراها أن تفعل في هذه الحال؟ ستصيح، سيرتفع صراخها، ومن ذا الذي يفرع لها؟ أهلها وقد زوجوني إياها !! وقد لا تنبس بكلمة واحدة، لا، لن أفعل ذلك، تأبى علي مروتني أن أقدم على مثل هذه الخطوة، إنني لو فعلت ذلك لاعتبرتني متهافتاً عليها، إن كبريائي تأبى علي أن أتهافت مندفعاً إليها كاندفاع الفراش إلى ضوء النار، سأجعلها هي التي تسعى إليّ وتجري خلفي أجل، إنني سيد ذبيان، ومن تكون بالنسبة لي؟ فتاة طائفة غرة في عنفوان شبابها، سأكون كالجبل الشامخ الذي لا تحركه الرياح ولا ترعزعه الرعود والأمطار والسيول، وتتحطم على صفحته وذراه الأعاصير، سأثبت في مكاني ولن أترحز عنه، سوف أتجاهل حركاتها بجواري، ومتى رأنتي كذلك ستندفع نحوي، ولن يمضي وقت قصير إلا وقد ارتمت في حضني، سأجعلها تتوسل إليّ، وتلتصق بي، سأكلمها من مكاني دون اكتراث بما تفعل. ومضت الساعات تتوالى، فداهم الكرى أجفان العروسين كل في مكانه عندما كان غارقاً في أفكاره حتى تبليج ضوء الفجر من الشرق، وما إن طلعت الشمس ونثرت أشعتها الذهبية حتى جاءت إحدى الجواري لإيقاظ العروسين.

* * *

وفي الصباح نادي الحارث بالرحيل، فجهزت أم العروس ابنتها بما يلزمها من حوائجها وودعوا الحي، فسار الظعن باتجاه الجنوب الشرقي نحو ديار فزارة، وشيئاً فشيئاً حتى توارت الأظعان في سمت الأفق عن أعين الذين يودعونها بنظراتهم وعلى رأسهم أم العروس التي كانت تتشوق إلى مصاحبة ابنتها في بداية مشوار حياتها الجديدة ولو لبضعة أيام، غير أن زوجها منعها من ذلك، ومضى ذلك اليوم حيث بات الركب ليلتهم حين وجدوا المكان الملائم، وفي الصباح استأنفوا مسيرهم بحثون الخطى للعودة إلى أهلهم ترفعهم الروابي وتخفضهم الوهاد، تمتد أمامهم البید، وتنطوي تحت أخفاف مطيهم الفيعان، يجتازون غابات الطلح والعوسج تصافح أعضاد مطيهم أزهار

القيصوم وشقائق الشيخ وذرى العرفج، في تلك الرياض والفياض الفيحاء،
تجفل أمامهم أسراب الغزلان، يرون أزوال النعام مثني وثلاث ورباع في خيط
واحد، تعطر أنفاسهم روائح الأعشاب والشجيرات الفواحة، يشنف أذانهم
أنغام الطيور الصادحة على أغصان الدوح الهائل، وأخرى مفردة فوق أفواف
الأزاهير حتى حان وقت الغذاء، فأناخوا ركابهم، وطعموا مما معهم من الزاد
بالإضافة إلى الشواء من الحيوانات التي اصطادوها في مسيرهم ثم استأنفوا
السير، وعند حلول المساء أمر الحارث غلامه أن يميل بظعينة زوجته عن
الطريق ليستريحوا ويبيتوا ليلتهم، وعندما أرادوا النوم دنف الحارث إلى مكان
زوجه على بعد من أصحابه، فوجد منها الترحيب والبشاشة، فكان لذلك وقع
طيب في نفسه، أيقن معه أنها تراجعت عن الموقف الذي رقفته منه عندما
كانت عند أهلها، لهذا تآقت نفسه إليها، وأعدت له فراشاً لينام عليه، وبدأت
تتشاغل عنه بينما كان في انتظار أن تفرغ مما تشاغل به فقال لها:

— بهيسة!! يقول ذلك بنعمة تودد.

: لبيك ياسيد ذبيان.

— إقتربي مني.

: ماذا تريد يا أبا أسماء؟

— هل فرغت من شأنك؟

: شأني!! وماذا تريد مني؟

— ماذا أريد؟! أريد أن ننام معاً على هذا الفراش.

: لست إلى ذلك ياسيد ذبيان.

— لماذا؟

: لا والله لا يكون، أكما يفعل بالأمّة الجبلية؟ على قارعة الطريق؟!

— ماذا تقولين؟ يقول ذلك بنبرة غضب.

: أكما تلاقى السيئة الأخيدة من سابها؟

— لقد تحملتك عندما كنت عند أهلّك، والآن نحن في البرية وليس عندنا أحد.

: لا والله، حتى تصل إلى مضارب قومك، وتنحدر الجرز وتذبح الغنم، وتدعو

الحرب إلى وليمة العرس، وتعمل لي ما يعمل لمثلي.

— : هاه!! ماذا تقولين؟ يقول ذلك وهذه الجمل تتساقط في مسامعه متتالية يشعر معها وكأن قطعاً من الثلج تتساقط على جسمه فتمتص تلك الحرارة المتأججة في عروقه وتخمّد أوارها، وتبدلها إلى دفعات باردة من الدم الذي يكاد أن يتخثر عند ذلك ثاب إلى عقله وتمعن بتلك الجمل التي أوردتها، فوجدتها تمثل الحقيقة والواقع الذي تطمح له كل فتاة حرة كريمة من أن يكون لقاءها بزواجها حسب الأعراف والتقاليد المتفق عليها لكونه قد تملكها بالزواج لا بالسبي والنهب، ولذلك فلا بد من إتمام مثل تلك الترتيبات لحفل الزواج قبل أن يدخل بها، هذا أمر واقع، ولكن من يدري أهى تعني هذا الواقع بعينه أم تراها فصدت مثل هذه الأمور ذريعة لتتمنع عليّ بنفسها؟ لا أظن ذلك، أجل ما الذي جعلها تسلك هذا الطريق؟ أما علمت أمام من تقف هذه الفتاة الغيرة؟ لو علمت أنها تقف أمام سيد مغوار تهتز أمامه فرائص الرجال الأبطال فما بالك بفتاة صغيرة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، صحيح لو نظرنا للأمور من هذا الجانب فلا تساوي مقاومتها عندي شيئاً، لكنها أدلت ببيان يفت عضد القوة الجسدية، لم أتوقع من فتاة غضة في مثل سنّها أن يصدر منها مثل هذا الكلام، نعم إن فتاة مثلها في عنفوان شبابها وقوة رغبتها قد تقع على زوجها وتسقط في حضنه لا أن تتمنع عليه وكأنها بلغت سن عدم مبالاة المرأة بزواجها في مرحلة البرود العاطفي، إنني استكثر منها هذا الموقف وهذا ولا شك يعود إلى أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن تكون الفتاة قد زوجنيها أبوها على كره منها ولذلك أحببت أن تماطل وتتعلل بمختلف الحجج حتى تشفي ما في نفسها من كوامن الغيظ، أو أن يكون لها شأن آخر ونظرة أخرى للأمور، لن أذهب بعيداً في هذا الأمر، فسوف يتبين لي أي هذين الاتجاهين يدور في ذهنها هذا إن لم تكن فتاة مغرورة تريد أن تشبع غرورها في هذا الميّن والمساطة فإذا كانت كذلك فلن تبقى عندي يوماً واحداً وسوف أعيدها مع غلامي هذا عندما أتبين حقيقتها، هاه!! قد تكون الفتاة أحببت أحد شبان قومها وجئت إليها وقد أشرفت على الخمسين وهي لا تريد أن تسلم عودها الغض وبشرتها البضة سوى

لفتى في سنها، إذا ورد هذا الاحتمال فسوف تندم ندامة الكسعى، ولكن على كل حال دعني أترث الليلة، لن أكون أعجل منها سأنتظر، لكن كانت تريد مني الصبر بضعة أيام حتى نصل إلى أهلنا ونكمل ما تتطلبه عادات الزواج، سأصبر عنها حتى لو افتضى الأمر شهراً أو شهوراً، وكما تمنعت عليّ فسأتمنع عليها، لن أتنازل عن ذرة واحدة من كرامتي في سبيل تحقيق نزوة عابرة مادامت قد أعدت الفراش وتشاغلت عني، سأهملها حتى ولو اقتربت مني، والله لأجعلنها تحبو علي الأرض لتفترب مني هذه الليلة أو ليلة قابلة، وسيكون بامتناعي عنها وعدم اكترائي بحركاتها المغربة وكلماتها الرقيقة ما يجعلها تتوق إليّ، وتحاول الالتصاق بي، يا الله!! ما أبرعها في اختيار هذه الكلمات اللطيفة، والجميل الجذابة، إنه سلاحها الذي تظن أنها ستؤثر به عليّ وتجعل قلبي يهفو إليها، ولكن هيهات، لقد عزمت على ما عزمت عليه، وستجدني كالصخرة الصلدة التي لا تلينها قطرات المطر الصافية الباردة التي تتساقط عليها كانت هذه الجملة آخر ما دار في خلده قبل أن يستسلم للنوم.

وفي الصباح استمرت القافلة بالمسير لأربعة أيام بلياليها لا يخطر على بال الحارث أن يكلم زوجته إلا بنبرات حادة أحست معها أنه صار بنفسه ما فيها، ولذلك فقد ألانت له الجانب، وصارت تختار ألطف الحديث بأرق العبارات وأكثر الكلمات تأثيراً لملامسة شغاف قلبه، حتى إذا أطل الظعن على أحياء ذبيان، كان محط أنظار أهل الحي حيث اتجهت القافلة إلى قرب منزل سيد ذبيان، وضرب للعروس بيت جديد، وأمسى هذا الحدث حديث المتدييات وتناقلته الأفواه في كل منزل، وفي صباح اليوم الثاني نحرت الجزر وذبحت الأغنام ونودي في الحي والأحياء المجاورة: أن هلموا إلى الطعام، وبقي الناس طيلة ذلك اليوم طاعمين شاربين، وتوافد المهنئون على سيدهم من مختلف الأحياء، وفي المساء دلف الحارث إلى بيت زوجته الجديدة، فاستقبلته بالترحاب والملاطفة وكانت قد أعدت له فراشاً ومتكئاً، وما إن أخذ مجلسه حتى بدت تسمعه عبارات الترحيب والتودد إليه مما جعله يندفع إليها بشوق

- ويقترّب منها، لكنّه رآها متشاغلة عنه كالعادة في ترتيب أشياء داخل بيتها الشعري، تلاطفه بالحديث وتداعبه ببعض الملح حتى انهرس الليل فقال لها:
- أما فرغت مما في يدك يا بهيسة؟
: لا يزال بيدي ما ترى.
- اتركي كل شيء بيدك فليس هذا وقته.
: ولكنه يحتاج إلى استكمال.
- قلت لك دعيه واقتربي مني.
: وماذا تريد؟
- تعلمين ماذا أريد، لقد وصلنا إلى أهلنا، ونحرنا الجزر وذبحنا الغنم وأقمنا وليمة العرس لأحياء ذبيان القرية منا ولم يبق ما تحنّجين به.
: فعلاً لقد قمت بكل شيء على أكمل وجه.
- أجل اقتربي مني، ثم دنا منها.
: لا والله لن يكون هذا!!
: لماذا؟
- : لقد ذكر لي فيك من الشرف والسؤدد ما لم أراه.
— ماذا تقولين؟ يقول ذلك بلهجة حادة.
- : أيها لك عيش، يطيب لك منام، وتلد لك النساء، وعيس وذبيان تتقاتل فيما بينها!!؟
- هاه !! ماذا تقولين ؟!
: أقول ما سمعت.
- وماذا أفعل بهم؟
: أخرج إلى هؤلاء القوم وأصلح ما بينهم حتى إذا توقفت الحرب عد إلى أهلك.
- أخرج إليهم !!؟ يقول ذلك بصوت مجرور.
- : نعم، فأنت أهل لذلك، أنت سيد مطاع لك من الوجاهة بين قومك ما يجعلك محل التقدير عندهم، وسيد كريم تستطيع أن تتحمل ديات القتلى.
- وكيف السبيل إلى ذلك؟!

: بحكمناك وكياستك وسؤددك تستطيع إنهاء هذه الحرب الطاحنة، لتمسح بذلك دموع اليتامى، وتخفف من آلام الشكلى وتبقي على حياة رجال صناديد، وزهرة شباب غرض ليوم تدعوكم الحاجة إليه للذود عن حماكم وحماية محارمكم وأموالكم.

— صحيح، صحيح يردد هذه الكلمة وهو غارق في التفكير ثم يستأنف إنها والله الحرب التي أفنت الرجال وأيّمت النساء وأيّمت الأبناء.
: أنت لها يا أباء أسماء.. أنت لها.

كان لهذه الكلمات والجمل أشد الوقع في نفس الحارث، فظل متكئاً على تلك الأريكة التي أعدتها له زوجته، لا يأبه بالكلمات والجمل اللطيفة التي ترددها وهي جالسة على طرف الفراش حتى غلبها النوم، أما هو فإن أصداء تلك الجمل التي قالتها له قد فجرت في نفسه طاقات جديدة، ومكث ليلته تلك يستعرض الخطط التي قد يتمكن بموجبها من إنهاء تلك الحرب، ومرت في ذاكرته الأسماء التي يمكن أن تساعد في هذه المهمة العسيرة سيما وأنها قد استعرت بين القبيلتين منذ وقت طويل، وثار الموتور من الواتر، وبقي من لا تزال لواعج الثأر تتأجج في صدره على واتره، والتهبت حزازات القلوب، وتعمقت الجراح بين بني العم، وكثر من يوغر صدور قوم على آخرين، وازدادت الأيامي، وتزاحم الأيتام من الجانبين، ولهذا فإن المسؤولية كبيرة وثقيلة لا يتحملها سوى صناديد الرجال، أترى من يعينني على هذا الأمر؟ هناك خارطة ابن سنان، وأخوه هريم بن سنان، وحرمة بن الأشعر، وابنه هاشم بن حرمة، سوف أسعى في هذا الأمر في صبيحة الغد.

ومنذ الصباح الباكر شرع الحارث بالصلح وعرض الأمر على من يثق بهم فطابت نفوسهم لهذه البادرة الرائعة، وسفر السفراء بين الفريقين فتقاربت وجهات النظر بين الطرفين، وكان أول من قام بالحملة حرمة بن الأشعر المري، لكن المنية لم تمهله فهلك، ثم قام بها بعده ابنه هاشم بن حرمة المري واجتمعت عبس وذبيان بقطن وذلك لإبرام الصلح، لكن حصين بن

ضمضم المري قد خرج بفرسه وهو آخذ برسها، فقال له الربيع بن زياد العبسي: مالي عهد بحصين، قم إليه بابيحان العبسي، فاعتنم حصين هذه السانحة ليأخذ بثأر أبيه قبل أن يتم الصلح فقتل بيحاناً بأبيه، ولما رأى بنو عبس وحلفاؤهم ما حدث انحازوا وقالوا: لا نصالحكم وقد غدرت بنا بنو مرة، وتناهض الحيان وكاد الصلح أن يفشل لو لم يتدخل خارجة بن سنان المري في الأمر حيث قال: إدعو لي إبني يزيد فأخذه ودفعه إلى أبي بيحان قائلاً: هذا وفاء من ابنك، قال بيحان: اللهم نعم وبقي عنده تلك الليلة وأياماً بعدها، وجدَّ الجدُّ في هذه الساعات والأيام الحرجة واجتمع كبار القوم ومن بيدهم الحل والعقد، وهم يحاولون جاهدين تطويق مثل هذه الحوادث الجانبية التي قد تكدر الصفو، وتُفْشِلُ الاتفاق في محاولة للتعجيل في إبرام هذا الاتفاق وعلى رأس هذه القوة المفكرة هرم بن سنان المري والحارث بن عوف المري سيد ذبيان ثم حمل خارجة بن سنان مئتي بعير لأبي بيحان مقابل إطلاق صراح ابنه المرتهن بولد أبي بيحان، وكانت هذه بداية لنقطة هامة وهي احتساب القتلى من الجانبين الذين لم يؤخذ بثأرهم واحتساب دية من لم يؤخذ بدمه من الفريقين وتعاقدا على أن يؤخذ الفضل ممن هو عليه، وتتملص البعض تحت ثقل هذه الديات، وعند ذلك برز سيّدا مرة، مرة أخرى وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وتحملا ديات القتلى من مالهما عن الفريقين وكانت ثلاثة آلاف بعير على ثلاث سنوات وتم الاتفاق بين الفريقين، وانطفأت جذوة الحرب المشتعلة منذ مدة طويلة بين الجانبين، وعندها ترنم زهير بن أبي سلمى المزني بقصيدته الرائعة الخالدة التي ملأت الأسماع منذ ذلك الوقت لا يزال يرن صداها إلى يومنا هذا مخلداً فيها ذكر هذين السيدين ومن معهما على ما قاموا به من حقن الدماء وإنهاء الاقتتال بين الفريقين.

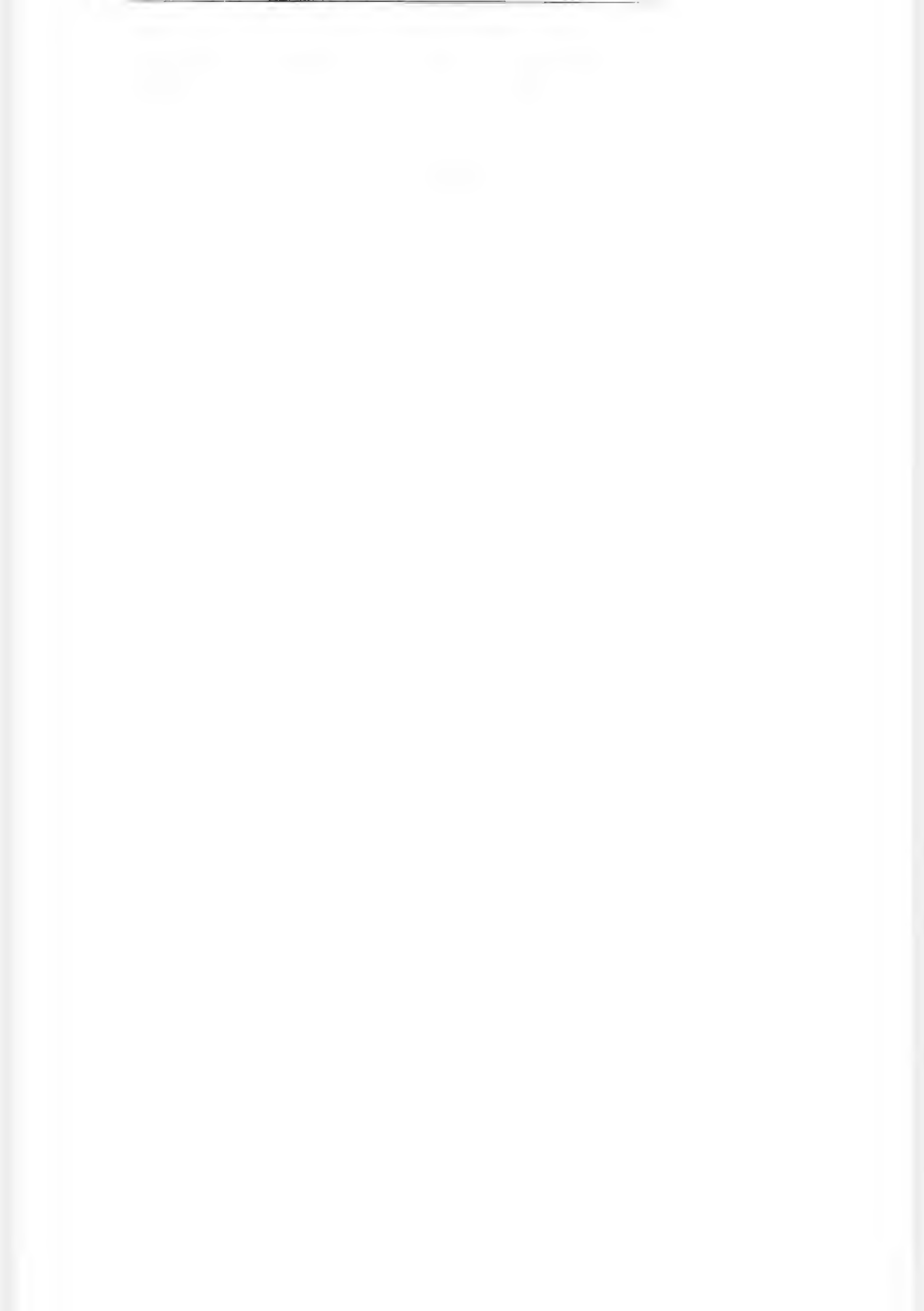
وفي تلك الأمسية الربيعية عاد الحارث بن عوف من مجلس القوم إلى بيته ليجد زوجته بهيسة تقف بانتظاره تفتح له ذراعها وتضمه إلى صدرها قائلة له: الآن عد إلى أهلك قرير العين، رضي الفؤاد، فهنيئاً لك على ما قدمت لبني

قومك الأقربين وبني قومك الأبعدين، هذه اليد البيضاء التي مددتها لن تنسى لك ولصاحبك ماكرٌ ليل وراء نهار وصدق والله زهير حيث قال:

فأقمست باليت الذي طاف حوله	رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سجيل ومبرم
تداركتما عسا وذيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما أن ندرك السلم واسعا	بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن	بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما	ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
تعفى الكلام بالمئين فأصبحت	ينجمها من ليس فيها بمجرم
ينجمها قوم لقرم غرامة	ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
فأصبح يحدى فيهم من تلادكم	مغانم شتى من إفال مزيم

كانت آيات هذه القصيدة ترن في مسامع الحارث بنبرات صوت زوجته الرقيقة العذبة وكأنه يشعر بتاج أبدي وضع فوق رأسه بيد هذه الزوجة النبيلة الرائعة فلفها بزراعيه وبات عندها تلك الليلة وبني بها، وانجبت منه البنين والبنات.

قصة رقم (٢١)



كُلُّ يَدٍ وَمَا قَدِّمَتْ

ما كادت خيوط الفجر تنبثق من الشرق حتى تنبه الشيخ من نومه فمد بصره الضعيف وبخلق بعينه الغارقتين قبل فترة قصيرة بالنعاس علّه أن يحقق ما إذا كان يرى تباشير الصباح حقاً أمّا أنها تراءت له من وسن النوم، ولم يتضح له ما أراد، فرفع رأسه من بين تلك الأغطية التي تلف جسمه، وعندها قال بصوت خافت: لا إله إلا الله، أصبحنا وأصبح الملك لله الحي القيوم، هذه تباشير الفلق أطلت علينا من الشرق هل أوقف إبني؟ أم أتركه قليلاً حتى تجب صلاة الفجر؟ وكان ابنه النوري غير بعيد عنه يرى حركاته ويسمع كلماته فبادره بقوله:

— : أسعد الله صباحك يا أبي.

: وصباحك، هل أنت مستيقظ يا بني؟

— : لقد استيقظت من نومي قبل ساعة فقممت وسخّنت لك ماء الوضوء، وترثت قليلاً لم أرد إيقاظك حتى تجب صلاة الفجر.

: آه!! لقد حدثني نفسي قبل قليل أن انهك من نومك ففضلت التريث حتى يحين وقت الصلاة.

— : عظم الله أجرك يا والدي.

: لم أسمع أذان الفجر في الحي حتى الآن؟

— : لا يزال الوقت في بدايته، ونحن بانتظار سماع الأذان بين لحظة وأخرى. كانت الأصوات جرشة إثر النوم مما جعلها تتشابه في نبراتها.

: ها هو المؤذن قد رفع صوته بالأذان لننهض يا بني.

— : أرجو أن تنتظر قليلاً حتى أشعل النار مرة أخرى لكي تندفأ عليها وتجفف يديك بعد الوضوء.

: كأنك أبطأت يابني؟! :

— : لقد خمدت النار التي اشعلت قبل ساعة، وما أنذا أقدح بالزناد لأشعل النار من جديد، ولكنه زناد أجزم لا يقدح من الشرر ما يشعل النار.
: أما عندك غيره؟! :

— : بلى، بلى لكنه قد أشعل «الوذْيَحَة» الآن. يقول ذلك بنيرة فرح.
: حسناً، لقد اشتعلت النار. يقول ذلك وهو يحاول رفع الأغطية عن جسمه.
— : دعني أساعدك على النهوض، لتتوضأ من هذا الماء الساخن.
: باستطاعتي القيام لولا هذه الأغطية علي.

— : لقد خفت عليك من البرد فأردت أن تدفئك، لقد أزحتها عنك.
: مهلاً يابني، حتى لا أثقل عليك بجسمي.
— : لست ثقيلاً، دعني أَعْضُدُّ لك وأرفعك من الفراش حتى تصل إلى مكان الوضوء.

: ها أنذا قد وصلت.

— : تفضل، دعني أختبر الماء لأرى مدى سخونته، إنه مناسب.
: سلمك الله يابني. يقول ذلك وهو يشرع بالوضوء.
— : عظم الله أجرك يا أبي. هاهم الرجال قد توافدوا من أطراف الحي، لنصلّي جماعة على صعيد هذا المسيل قرب البيت كالمعتاد فدعني أوصلك إلى المسجد.

: أعطني عصائي.

— : سأعضد لك مع العصا.

وبعد أداء صلاة الفجر أخذ النوري والده إلى المكان المخصص له، وأجلسه على أريكة ليتكىء على شداد المطية الموضوع على الأرض، بينما شرع بوضع الحطب على النار فارتفع لهبها وبدأ يعمل القهوة بحمسيها ثم سحقها بالهاون النحاسي حيث سعل بصوته الرئان مع حفقات المدق في جوفه،

وتحلق الرجال حول كانون النار للاصطلاء وطلب الدفء، ثم تناول القهوة مع التمر «القدوع» وتجاذب أطراف الحديث وتبادل الآراء واستعراض ما استجد في الحي ليلة البارحة، وما جاء به الركبان من أخبار حتى فرشت الشمس بساطها الذهبي على الأرض، وامتدت أظلة الأشجار والجبال والبيوت والناس والأنعام وغيرها من كل شيء شاخص، لتمثل هذه الخطوط الموازية نقشة رائعة على هذا الأديم الذهبي المتألق، عند ذلك بدأ الرجال في مغادرة مجلس أبي النوري كل ذاهب لشأنه، بينما أسرع النوري بتحضير فطور والده من الحليب الطازج الذي حلب لتوه من الضرع، إضافة إلى خبزة قد شواها له في ملة النار، وهشمها وفركها بالسمن، بينما أوعز إلى رعيان الإبل والغنم ليسرحوا بانعامهم إلى المرعى، وجلس يؤانس والده بالحديث، ثم نقله إلى مشراق البيت ليدفأ بأشعة الشمس التي يقال عنها: «فاكهة الشتاء» حيث اجتمع عنده بعض كبار السن من سكان ذلك الحي، وجلسوا يتبادلون أطراف الحديث عن ذكرياتهم وما مر عليهم من تجارب هذه الحياة، يدير عليهم النوري القهوة بين الحين والآخر منتبهاً لوالده يضع تحته بين الحين والآخر من لين الفرش كلما رآه يتململ في مكانه.

يصنف لأحاديث هؤلاء الأشياخ بكل حواسه وما مر عليهم من ذكريات في مختلف شئون الحياة، يتذكرون سنوات الخصب التي مرت بهم وكل واحد بدلي بدلوه فيما جرى له بتلك السنوات من المرباع بالمكان الفلاني، والمقيظ على المورد الفلاني، أو بجانب رفاقه سكان القرى ليسقى مواشيه من آبارهم، وعادة ما يختتم المتحدثون هذه الذكريات، بالحمد لله والثناء عليه قبل أن ينتقلوا إلى ذكر السنوات المجيدة، وما وقع لهم من مواقف محرجة، أو متاعب مضنية في جلب الميرة من الموارد الشحيحة في البلدان المجاورة، ثم يأخذ حديثهم منحى آخر، وهو ما يتعلق بالغزو والسلب والنهب، قبيلة تغير على قبيلة لتقتل بعض رجالها وتأخذ مواشيها، وربما أغار بطن أو فخذ من قبيلة على بطن أو فخذ من نفس القبيلة للغرض ذاته، وهو الغزو والسلب والنهب

والقتل مما يتعبرونه مجالاً للتفاخر فيما بينهم، ويعتبرون ما يؤخذ من الجانب الآخر مغنماً حلالاً لا لشيء، إلا أنه من الأعداء وإن كانوا من بني جلدتهم كما قال القطامي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أغاناً

وعندما يتحدث الشيخ منهم هذا الحديث عن نفسه أو عن رفاقه تراه يتحدث بكل حواسه، يرتفع جسمه وينتصب فوق الأرض ويكاد أن يتناول في مجلسه حتى ليحسب الرائي أنه واقف، تتحرك يداه بالإشارات في كل اتجاه، تخرج الكلمات من فمه بنبرات حادة متوثبة، تعيد له حيويته وعنفوانه وكأنه يواجه رفاقه الآن، وغالباً ما تنتهي هذه الأحاديث بالتوجد على عودتها والتمني بأن يعود الشيخ شاباً ليمارس ما كان يمارسه في شبابه من تلك الغزوات، وعندما انتهى أحد الشيوخ من حديثه سأله النوري:

— لماذا تمنى أن تغزو يا أيا فياض؟

: لنكسب يا بني.

— وممن تكسبون؟

: من القوم أي الأعداء.

— وهل تعتبرون آل فلان أبناء عمكم من أعدائكم؟

: هاه!! ليسوا بني عمنا الأقربين. يقول ذلك بنبرة خافتة.

— ولكنهم من نفس القبيلة.

: صحيح، ولكنهم فئدة بعيدة عنا بعض الشيء ولذلك نعتبرهم.

— تعتبرونهم أعداء لكم.

: ليس كما تقول بالضبط، ولكن إذا أتيت لنا فرصة أخذنا من حلالهم، وهم

كذلك إذا وجدوا فينا مكسر عظم أخذوا من أموالنا.

— ليت الأمر يقتصر على الأموال لكان ذلك أسهل، ولكن ذلك يعداه إلى

الرجال وتلك هي المصيبة.

- : الرجال!! آه، تقصد المدافعين عن أموالهم أو الذين يريدون استردادها.
- : نعم، هؤلاء الرجال الذين نذهب حيانهم ثمناً لعصص بعير أو قرن عترة وأشياء تافهة.
- : أراك اليوم تتكلم على غير عادتك!!؟ يقول ذلك بلهجة تعجب.
- : منذ أن نشأت وهذا رأيي.
- : أوه، إنك لا تحب «علوم» الرجال وأحاديث البطولات.
- : بطولات!! على من؟! :
- : على «القوم».
- : على بني قومكم كما قال الشاعر:
- أسد علي وفي الحروب نعمة فتخاء تنفر من صغير الصافر
- : لا تقل هذا يا بني، فلو حضرت ذلك الوقت لما تجرأت أن تتكلم بمثل هذا الكلام.
- : بل قد حضرته يا أبا فياض ولكنني ضد هذه الفكرة.
- : أجل كيف تستطيع أن تعيش؟
- : من اقنع بما رزقه الله من مال حلال ونماء يستطيع أن يعيش من ريعه دون حاجة للاعتداء على حقوق الآخرين.
- : دعنا من الرزق، ولكن كيف تبرز بطولتك؟
- : عندما يتطلب مني الوضع ذلك، كالدفاع عن النفس أو كيان القبيلة أو حمي الحي أو أي معتد أجنبي.
- : ولكن يجب أن تمارس هذه الأعمال قبل طلبها منك.
- : دون إغارة على الآخرين.
- : يبدو أن ابنك يا أبا النوري من عالم آخر.
- : لا تلمه يا أبا فياض فهذه جبلته.
- : قد لا ينفعك وقت الحاجة. أكرمكم الله يقول هذه الجملة وهو يغادر المكان.
- : إجلس، إجلس هل أغضبك النوري؟

: آه!! لا ولكن لدي حاجة أريد قضاءها.

وأطرق النوري يعيث بجمر النار بالملقط ليضع فوقها دلة القهوة حتى لا تبرد، وهو يتخيل ما يدور في نفسيات مثل هؤلاء الشيوخ الذين أفنوا زهرة شبابهم بمثل هذه الأعمال العدائية ضد الآخرين، ويدعون أنها من الكسب الحلال، وأن ممارستها من البطولات التي يجب أن تسجل لهم بينما هي لا تعدو كونها مناوشات بسيطة تنتج عن الحصول على مكسب هزيل غير حلال، يغامر الواحد منهم بحياته وحياة الآخرين من أجل أن يكسب عدداً من الأشياء أو بعير واحد أو قليل من طعام. بينما لو شمر عن ساعده وعمل في أي مجال من مجالات الرزق لأدرك لقمة الحلال الطيبة، هذه الأرواح التي ترهق، وهذه الأجسام التي تعاق عن الحركة أو أداء وظائفها بعرج أو عور أو كتع وغير ذلك لم تكن في سبيل الدفاع عن النفس، والذود عن الكيان، أو المحافظة على تراب الوطن، بل تذهب في أمور تافهة، يذهب الغزو عشرة، أو عشرين أو مئة وربما أقل أو أكثر، فيغيرون على أموال الآخرين ويأخذونها إن لم يكن هؤلاء قد انتبهوا لذلك، وعندما يأتيهم الصريخ يفرعون إلى أموالهم، ويحصل الكر والفر حول هذه الأموال وتميل الكفة مع أحد الفريقين فقد ينتصر المدافعون ويستردوا أموالهم، وقد ينتصر المغيرون فيأخذون هذه الأموال، ويفتسمونها، يأخذ عقيد الغزو نصيبه من طيبها، ثم يوزع الباقي حسب نظرته لرفاقه، هذا فارس مغوار يأخذ نصيباً طيباً، وهذا أقل منه شأنًا يأخذ دونه، وذلك من سائر الناس يأخذ نصيبه من العوراء والزوراء والمنكسرة، إيه!! ما ذنب أولئك القوم الذين أخذت مواشيهم؟ لاشك أن عمل هؤلاء سيدفع أولئك على إعادة الكرة وغزو أولئك مرة أخرى وربما استعادوا أموالهم مع أموال خصومهم، وربما سقط ضحايا من الجانبين، وهكذا تفنى هذه الأعداد من البشر في سبيل إرضاء نزوة عابرة، ويظل البعض يتشدد بمثل هذه المغامرات في المجالس، وينبجح بما حصل عليه منها.

ولم ينتبه النوري من تكفيره إلا عندما غلت الدلة على النار وأطفأت الجمر.

وبعد أن تفرق الرجال من المجلس قبيل أذان الظهر شرع النوري في إعداد الغداء لوالده كعادته لا بكل أمره إلى زوجته، لا لتقصير قد أدركه منها وإنما لكي يطمئن في إعداد طعام والده والعناية به، وبعد أن تناول طعامه توضاً وأدى صلاة الظهر جماعة مع رجال الفريق حيث أعد فراشاً لوالده لكي ينام عليه نومة القيلولة في كنف البيت، وقبل أذان العصر استيقظ الشيخ من نومه قد أعد له الماء الساخن ليتوضاً لصلاة العصر، وإذا النار قد اضطرم جمرها، فأجلسه النوري بقربها ليتصلّى ويجفف الماء عن يديه ووجهه، وبعد صلاة العصر شرع في عمل القهوة للرجال الذين جلسوا حول النار التماساً للدفء وارتشاف القهوة، وبدأوا مجاذبة أطراف الحديث حتى أضفى الليل رداءه الداكن القادم من الشرق على الكون، حيث أدوا صلاة المغرب وانفض الرجال إلى بيوتهم ولم يبق سوى النوري ووالده، فقدم له عشاءه وبقي يؤانسه بالحديث تارة، ويحاول العودة معه إلى أعماق ذكرياته حين يسأله عن بعض المواقف التي مرت عليه، وعلاقات بعض الأمور ببعضها مما جعل الشيخ يشعر وكأن من يحدثه واحد من أترابه الذين خاضوا معه تجارب الحياة، ومروا بحلوها ومرها، ولم ينتبها إلا وقد أذن لصلاة العشاء الآخر فحضر رجال الحي إلى المسجد بقرب بيت الشيخ مراعاة لظروفه وأدوا صلاة العشاء وبدأت جلسة السمر حول كانون النار بقرب دلال القهوة التي شرع النوري في عمل طبخة منها وضرب الحديث في هذه الأمسية منحي آخر، وهو التفاخر بين القبائل العربية، وأن تلك القبيلة أفضل من الأخرى لقوة شوكتها، وكثرة عددها، وبسالة رجالها، إلى أن قال أحد الحاضرين: إن الفخذ الفلاني ليس به رجل طيب، وأن فخذهم ليس فيهم رجل رديء، هذا التطرف الذي أثار حفيظة النوري فاعترض على المتحدث قائلاً:

— قولك يا أبا غازي يحتاج إلى دليل.

: ماذا تعني؟

— لقد جردت الفخذ الفلاني من قبيلتكم من أي علامة طيبة ونفيت عن فخذكم

أي إشارة رديئة وهذا مالا يكون.

: هذا هو الواقع.

— : قد يكون في اعتقادك، غير أن هناك من الرجال من لا يوافقك على ما قلت،
وسيمنعون حقوقهم ويقفون دونها.

: إذا كانوا كما تذكر فاليدافعوا عن حقهم في الحادثة الفلانية.

— : إذا كان حكمك عليهم مبنياً على حادثة تافهة كذلك التي أشرت إليها فلا
ينبغي أن يطلق الحكم عليهم جزافاً.

: جزافاً!! يقول ذلك بلهجة استنكارية.

— : نعم، إن الحكم العام على فخذ كامل يضم مئات الرجال الفضلاء من خلال
خطأ ارتكبه فرد واحد فهذا لا يعتبر حكماً عليهم جميعاً.

: أجل، أجل إنه حكم عليهم. يقول ذلك بنبرة تأكيد.

— : لا أوافقك، لا يمكن أن يؤخذ المجموعة بجريرة واحد أو حتى مجموعة منهم،
ولو كان الأمر كذلك لجرّ فلان على رفاقك مثلما أحدث ذلك الرجل لرفاقه.
: فلان ليس منا.

— : آه!! إنه ابن عمكم، ولكنه عندما ارتكب ذلك الخطأ تبرأت منه وأخرجته من
حضيرتكم.

: لا، لا لم أخرجته ولكنه... ولكنه.

— : أنت يا أبا غازي أكبر مني سنأ، وقد تكون أعرف مني ببعض الأمور، ولكن
الطيب والردبيء من الرجال نسبي في كل قبيلة بل كل بطن وفخذ وعشيرة
وربما في الأسرة الواحدة، وكذا الحال بالنسبة للشجاعة والكرم والمروءة، فقد
يكون في العشيرة أو الفخذ أو البطن أو القبيلة رجل واحد يرفع سمعتها ويعلى
صيتها فتضرب شهرتها الآفاق من أجل هذا الرجل الذي يلتف تحت كنفه
عشرات الآلاف من الرجال فيقود هذه القبيلة إلى المجد والسؤدد.

: صحيح، ولكن هناك اختلاف بين قبيلة وأخرى.

— : أنا معك في هذا، غير أنه في كل مجموعة من الناس تجد الخير والشر
والخصال الحميدة والسيئة، وتتفاوت هذه الخصال من شخص لآخر.

لكن آل فلان ليس بهم من الخصال الحميدة شيء.
: لا تقل هذا، أليس فيهم فلان الكريم المشهور، وفلان الشجاع المقدام، وفلان الحكيم الراسخ.

— : بلى، بلى، يقول ذلك بنبرة تراجع واستسلام.
: هذه من الخصال المحمودة عند الناس، فقد لا تتوفر الشجاعة عند كل الناس بدرجة واحدة، كما لا تتوفر الكرم كذلك بنفس المقدار، فهناك اختلاف بين الناس، رجل شجاع قاطع لكنه قد لا يقرى ضيفه ورجل كريم بذال قد لا يتجاسر على عمل بطولي وهكذا بقية الخصال.
: كثيرهم الرجال الكرماء الشجعان الشعراء.

— : إذا توفر في الإنسان أكثر من خصلة طيبة فهذا حظه الذي وهبه الله.
: المهم أنك رجعت إلى رأيي.

— : لم أعد إلى رأيك، ولكني أقول إن الأمور نسبية بين الناس ولا ينبغي أن نسقط حق هذه المجموعة من الناس، كأن يكونوا عشيرة أو فخذ أو قبيلة أو شعب من أجل خطأ ارتكبه واحد منهم، كما لا ينبغي أن نرفع أخرى من أجل عمل جليل أو إقدام نبيل قام به أحد أفراد هذه القبيلة.
: يعني أن نترك الناس يتساوى فيهم الرفيع والوضيع.

— : قلت لك يا أبا غازي أن كل إنسان بحقه من الحياة، وما قدمت يداه من خير أو شر، ثم إنكم وهؤلاء القوم الذين تتعالى عليهم فخذين من بطن واحد من قبيلة واحدة، فكيف يحلو لك ولأمثالك أن ترفع من قدر هؤلاء وتحط من قيمة الآخرين بمثل هذه المجالس، وتذهب إلى أبعد من ذلك بمحاولتك سلخ هذا الفخذ من القبيلة باختلاق الحكايات والأقاويل التي تدلل بها على صحة ما ذهبت إليه لكي يصدقك من بالمجلس وربما تناقلتها الأجيال من بعدكم.
: هاه!! لم أقصد ذلك.

— : وإن لم تقصده فقد تناقلها الأفواه، وتصبح هذه الأمور مما ينقل عنك، وقد تسبب حزازات في النفوس وقد يتعدا الأمر ذلك إلى عواقب وخيمة، إضافة إلى أنه يعتبر من الغيبة التي نهانا الله عنها في محكم كتابه العزيز.

: إذا تصبّحون على خير. كانت هذه آخر جملة يقولها أبو غازي حين غادر هو وصاحبه المكان.

لم يبق بالمكان سوى النوري ووالده الذي أخذ النوم يداهم جفنيه، فرتب له ابنه الفراش، ودثره بالغطاء الكافي الذي يحميه من البرد، وجلس النوري إلى جانب النار في ساعة تأمل وكأنه يناجي نفسه، الله أكبر!! ما بال هؤلاء الناس يرتكبون مثل هذه الأخطاء في حق بعضهم البعض؟ وينجرفون وراء أهواء أنفسهم؟ هذه العشيرة يمدحونها ويرفعونها فوق السحاب، وتلك يسحقون بها الأرض، وأخرى يسلخونها من كيان القبيلة الأم، من أجل ماذا؟ من أجل أن هذه العشيرة قد فعل عقيدتها أو أحد أفرادها فعلة طيبة فهم يرفعونها حتى تناغي السحاب، وتلك يخفضونها من أجل أن عقيدتها انخزل في موقف من المواقف، أو ارتكب أحد أفرادها خطأ معيناً قد لا يكون مقصوداً وقد يكون قوت الحرص، وربما لم يعلموا أن هذه العشيرة أو القبيلة التي ارتفعت في اعتبارهم وكأنهم متساوون في الخصال الحميدة والمزايا الحسنة، مع أن فيهم الكثير من غناء البشر الذين يشبهون غناء السيل حين يخيل لمن يراه أنه جسماً شاخصاً بينما هو لا يساوي شيئاً، فمصيره على جلهة الوادي يخمد بمكانه فتذروه الرياح بعد يوم أو يومين ولا يبقى له أثر يذكر، وفي المقابل فإن تلك القبيلة أو العشيرة الممتهنة أو المحتقرة تضم بين أفرادها عدداً من الرجال ذوي الخصال الحميدة والصفة السامية، ولكن لظرف أو آخر لم يبرزوا تلك المزايا التي يمتازون بها، بل برز غيرهم من ذوي النظرات القصيرة أو التصرفات الهوجاء فارتكبوا الأخطاء مما أساء إلى قبيلتهم، ثم جاء هؤلاء المتشدقون في المجالس فأضفوا ستار تصرف أولئك الأسود على بقية أفراد قبيلتهم أو عشيرتهم، وفي مثل هذه المجالس لا يكتفون بعشائر قبيلتهم من رفح هذه وخفض تلك، بل يتعدونهم إلى القبائل العربية الأخرى التي قد تعود لنفس الجذم الذي تعود إليه قبيلتهم أو إلى جذم آخر، فيصفونهم بأدنى الأوصاف ويلصقون بهم أقبح السمات، ويحوكون حول ذلك الأفاقيص التي

تشبه الأساطير حتى تلصق تلك السمة أو السمات بهم كما يضيفون ما يستطيعون إضافته من الكنى والألقاب التي قد يعيرون بها، وربما قامت الفتن والمشاكل بسببها كل ذلك أساسه أهواء النفوس ونسج الخيال، إيه!! هذا ما يحصل وإلا فما معنى قول أبي غازي إن آل فلان ليسوا منا. وقد التصقوا بنا التصاقاً وإنما هم كما يقال من قبيلة أخرى، وربما لا يعرف لهم قبيلة ينتمون إليها، ويستند في معلوماته هذه على متحدث مثله، قد يكون في نفسه ما فيها على هذه العشيرة أو القبيلة، بينما إذا سألت أفراد تلك العشيرة المعنية العارفين أخبرك أنهم من صلب هذه القبيلة التي ينتمي إليها المتحدث أو أحد فروعها، إذاً ما الذي حمل هذا المتحدث مثل أبي غازي على الخوض في حديث لا يرجي من ورائه سوى الدخول في أمور لا طائل منها؟ وهل هناك فرق بين هذه القبيلة أو تلك إلا ما يبرز به رجالها من الأفعال الخيرة والخصال الحميدة؟ أما هذه الترهات التي تبذر وتغذى في هذه المجالس فالأفضل أن يقضى عليها بالتزام تعليمات ديننا الإسلامي الحنيف «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» إذا كان هذا النص أو ما في معناه فما بالك بفضل العربي على العربي أو العشيرة على العشيرة أو القبيلة على القبيلة؟! ليت الناس يناقشون في جلساتهم هذه من الأمور ما يعود عليهم بالنفع بدلاً من التعرض للآخرين واغتيالهم على مستوى الأفراد والجماعات!!

كان هذا الحديث الذاتي آخر ما دار في ذهن النوري قبل أن ينام ليلته تلك، وهذا دأبه في معاملته لوالده في كل يوم خاصة عندما أصبح والده محتاجاً إلى خدمته، يسهر على راحته، يحرم نفسه الراحة ليوفرها لوالده، يحرم نفسه لقمة الطعام ليقدّمها لوالده، تمرّ الظروف الصعبة فيتحمّلها على كاهله في سبيل راحة والده، وفي تلك السنة الشهباء التي مرت على الناس فقد الطعام لدرجة الندرة، ولم يبق للنوري غير ناقته الوحيدة التي يتنقلون على ظهرها من مكان إلى آخر ويحلبها ليسقي والده من حليبها، وذات ليلة أبعدت

في مرعاها فذهب للبحث عنها حيث لا يوجد لوالده طعام غير حليبها، وقد أحضرها من مفلاها حين مضى من الليل ثلثه وعندما حضر وجد الحبي قد هجعوا، ووالده قد غرق في النوم، فحلب الناقة وأتى بحليبها وجلس عند رأس والده لا يريد إيقاظه من نومه مخافة إزعاجه، فظل جالساً منتظراً لعل والده أن يستيقظ من نفسه ليجد ابنه عند رأسه ومعه الحليب، وكان في صراع نفسي مع ذاته، هل يوقظ والده وينغص عليه نومه من أجل تلك الشربة من الحليب؟ أم يتركه نائماً ساغباً تلوى أمعاءه لساعات الجوع؟ لكنه فضل إبقاءه نائماً، إذ ربما إذا أحس بالجوع استيقظ ليجد ما يسد رمقه وهكذا تمضي الساعات والنوري ممسك بالإناء على راحته جالساً عند رأس والده، ينتظر أي حركة منه تدل على استيقاظه، لكنه لم يفعل حتى حانت ساعة استيقاظه العادية قبيل أذان الفجر، فتنبه من نومه ورفع الغطاء عن وجهه ليجد ابنه جالساً عند رأسه وعلى راحة يده إناء الحليب فنهض من فراشه وهو يقول بفرع:

— :النوري!!؟

: ليلك يا أبي. يقول ذلك بصوت لطيف.

— : ماذا تعمل هنا؟

: معي قطرة حليب أحضرتها لك.

— : حليب!! متى عدت يا بني؟

: عدت بعد صلاة العشاء بساعة تقريباً، حيث لم أجد الناقة إلا بالمكان الفلاني، وحال وصولي إلى هنا احتلتها لك لكنني وجدتلك نائماً فلم أرد التثغيص عليك وإيقاظك من نومك، فجلست عند رأسك علك أن تستيقظ من نفسك دونما إزعاج مني، لكن هذا لم يحصل سوى الآن.

— : منذ ذلك الوقت وأنت جالس عند رأسي!!؟

: نعم يا أبي، وماذاك؟

— : لقد عذبت نفسك يا بني.

: فداك روعي يا أبي، تفضل هذا الحليب.

- : حقا إنه بارد!
- : هكذا أردته ليبرد كبذك في هذا الجو الحار.
- : جزاك الله خير جزاء يابني، وليتك أيقظتني حين أحضرت الحليب لشربته وأرحتك من الجلوس عند رأسي طوال الليل. حقا لقد أتعبتك يابني.
- : لم أشعر بأي تعب في سبيل راحتك، فداك نفسي.
- : بذر الله لك الذرية الصالحة ليخدموك كما خدمتني في كبري.
- : تقبل الله دعوتك يا أبي.
- : خذ الإناء، لقد شربت وارتويت.
- : ولكنه لم ينقص، وقد نمت طاويا على لحم بطنك.
- : لقد أخذت إرادتي، وحسب الإنسان يابني من الطعام ما يقيم صلبه، لقد شعرت بالرّي والشبع معاً من هذا الحليب، فاشرب بقيته لأنك سهرت جائعاً عند رأسي والحليب بيدك.
- : والله لن أذوقه وقد خصصته لك.
- : لكنك لم تذق شيئاً.
- : لقد تعشيت.
- : من أين؟ إنني أعرف أنه لا يوجد بالبيت ما يسد الرمق غير هذا الحليب فاشرب بقيته أو أعطه لأهل بيتك.
- : والله لن يدخل حلقي، ولن يذوقه أحد غيرك فربما اشتهيته بعد قليل.
- : وأنت؟
- : سأعمل القهوة بعد صلاة الفجر وسأكتفي بشرب فناجين منها، فأرجوا أن تأخذ شربة منه أو تشربه كله قبل أن يجتمع علينا الرجال لأداء صلاة الفجر.
- : أرجوك أن تأخذ ولو شربة منه.
- : لقد حلفت يا أبي، روعي فداك.
- : الحمد لله. يقول ذلك بعد أن شرب الحليب.
- : هنيئاً مريئاً.
- : واستمرت تلك السنة الشهباء بظلمها الثقيل على صدور الناس، وعشرت ناقة

النوري فانكسرت يدها مما دعاه إلى نحرها وتوزيع لحمها على سكان الحي، وبعد فترة من الزمن اشترى جملاً لينتقلوا عليه فيما لو طراً على رفاقه نجعة إلى مكان معين، وعندما لاح بارق الرسمى بادر الرجال إلى إرسال رائدهم إلى المكان الذي تخيلوا عليه المطر، وعندما عاد عزموا على الرحيل إليه، وما إن وصلوا إلى هناك ونصبت البيوت الشعرية في أصيل ذلك اليوم الخريفي، قام أبو النوري متوكئاً على عصاه يهتز تارة ويعندل أخرى، يمشي خطوة أو خطوتين ويقف بعدها للاستراحة حتى وصل إلى الجمل المبارك، فمسح ظهره ووضع يده على سنامه يتجسسه ليرى مدى سمته، في هذه اللحظة كان ابنه النوري ينظر إليه من خلف البيت الذي نصب لتوه فتبادر إلى ذهنه أن أباه قد قرّم على اللحم الذي مضى عليه مدة طويلة لم يذقه، وعند ذلك رتب لوالده فراشه ثم أسرع إليه وأمسك بمؤخرة عضديه ودرّجه بخطواته الوئيدة المتعثرة حتى أوصله إلى فراشه، وأوقد النار ثم شحذ سكينه وأسرع إلى الجمل فنحره واستخرج من شوائه الكلى والقلب على الفور، وسارع بشواء قطع منها على النار وتقديمها لوالده الذي استغرب هذا الأمر حيث لم يكن معهم من الأغنام شيئاً يمكن أن تذبح ولم يكن بالأرض صيد يتوقع أن يصطاد منه، وقد نزلوا لتوهم في هذا المكان الجديد، عند ذلك بادر ولده متسائلاً:

— من أين أتيت بهذا الشواء الذي أشم رائحته؟

: هذا رزق من الله رزقنا به.

— الله رزاق كريم، هل صدت صيداً في هذه الأرض؟

: نعم يا أبي. يقول ذلك وهو يتسم.

— تسلم يمينك، وما هي صيدتك؟

: ستعرفها عندما تذوق لحمها.

— الأرض مجدبة، والصيد هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع.

: ولكن هذا الصيد لا يخلو من الدسامة.

— دسم!! غريب صيد سمين في هذا الدهر؟! رحم الله زماناً بل أزمنة مرت علينا

لا يمر أسبوع إلا وقد صدنا فيه من الظباء والوعول ما نشاء.

: لا تزال الدنيا بخير يا أبي، تفضل، هذه القطعة التي اشتويتها لك على عجل.
— : سلمت يمينك يا بني، سلمت يمينك. هاه!! ما هذا؟

: ما بك يا أبي؟ أهى حارة أو لم تنضج؟
— : لا، لا، ولكن هذه لحمة بعير!! يقول ذلك بنبرة مجرورة. أليس كذلك يا بني؟
: بلى، بلى.

— : عسى ألا تكون قد نحرت الجمل؟! يقول ذلك بدهشة.
: فداءك الجمل وما حمل.

— : أنحرت جملك الوحيد الذي يعتبر عماد حيائك تنقل عليه وتحلب عليه
الميرة لبيتك؟!

: هو فداك، وسيعوضنا الله خيراً منه.
— : ولكن من أين يا بني؟ من أين ستجد جملًا مثله في هذا الوقت من هذه السنة
الشهباء.

: سيرزق الله فتفضل من هذه الوذر من اللحم مادامت ساخنة قبل أن تبرد.
— : لقد أحسست وكأنني أغص بها، لا أستطيع جرعتها مما أنا فيه.

: نفسي فداك يا أبي، هل تحس بشيء معين أو ألم؟
— : أبداً، ولكن تكدرت نفسي عندما علمت بأنك نحرت جملك.

: وقفز النوري من مكانه وأكب على رأس والده يقبل جبينه وعينه وهو يقول: لم
أنحره إلا من أجلك.

— : من أجلى!! يقول ذلك باستغراب.
: نعم من أجلك فداك نفسي، فقد رأيتك تحس ظهره وتمسك بسنامه فظننت

أنك قد اشتهيت اللحم وقطع من الشحم الذي قد مضى وقت طويل لم تذقه.
— : لا والله يا بني، كما تعرف أنني ضعيف البصر خائر القوى فلما كنت بالقرب

منه تخطيت إليه حتى دنوت منه وتجسسته لأرى مدى قوته وسمنه ليتحمل
نقل بيتنا وأمتعتنا وميرتنا إلى المكان المريع، ولم يخطر ببالي ما خطر ببالك.

: لا بأس عليك يا أبي، فالله الذي يسره لنا سوف يسر لنا خير منه بحوله وقوته،
وعليك أن تأكل من هذه الأوصال لتقطع بها فرمك. يقول ذلك وهو يتأهب

للعودة صوب البعير المذبوح.

ثم نادى رفاقه ليساعدوه على سلخ الجمل ونادى في الحي إلى العشاء في تلك الليلة، كان الشيخ يلمح تلك القطيعات من اللحم المشوي على جذوع أضراسه البالية ويقايا أسنانه الناسعة وتدور في ذهنه بعض الأخيلة التي نتجت عن الموقف إذ كيف تسرع ابنه ونحر جملة الوحيد بمجرد أنني تجسست ظهره لأعرف ما إذا كان سميناً أم لا، إذا كان فعل هذا دون أن أطلب منه، فكيف الحال لو أنني طلبت منه شيئاً؟ بلا شك أنه سيحققه مهما كان عسيراً، لكنه في هذا الموقف أساء إلى نفسه، فالوقت غير مناسب الآن، وهذا الجمل هو عماد حياته بعد الله، ينقل عليه بيته إذا ظعن رفاقه، وفوق ظهره يجلب قوت أهله من العراق والأحساء، خاصة وأنه على قدر من السمن حيث يكتنز في سنامه مثل أنفه من الشحم، وهذه الدرجة من السمن في الوقت الحاضر نادرة لمرور هذه السنة المدهرة على الناس، ولو أراد البحث عن مثله لشرائه في هذا الوقت لما وجده إلا بأغلى الأثمان إيه!! الحمد لله على ما قدر، لقد فات كل شيء، وقد يفكر القوم بالارتحال من هذا المكان إلى موطن فيه العشب قد كبر، وعند ذلك لن يجد ما يحمل عليه بيته، هداك الله يابني، لقد قطعت رأيك على الحدس والتخمين، والله لم يخطر على بالي إنك ستفعل ما فعلت، لقد أحببت وأنا أجس ظهر الجمل أن أطمئن إلى سمنه، ولقد فرحت كثيراً، واطمأنت نفسي حينما لمست سنامه بحجم أنفه، والله لو علمت أنه سينحره لما وقفت عليه، هداك الله يابني، لو كنت قد اشتريت اللحم لأخبرتكم، ثم إنني رجل قد جربت الأمور، وعاصرت أوقات الشدائد والرخاء، وعركتني الأيام وصهرتني، أعرف متى يطلب الإنسان ما يريد، ومتى يقتنع باليسير الذي يسد رمقه تمشياً مع متطلبات الوقت الذي يعيش فيه، تمر علينا السنة أو السنوات ونحن لا ندري ماذا نختار من أنواع الطعام ناعمين في رغد العيش، وتمضي علينا السنة أو السنوات الأخرى ولا يكاد الواحد منا يجد فلقه تمر أو شربة لبن، والله لو تذكر يابني السنة التي ولدت فيها وجف حليب أمك ولم نجد لك مرضعة ترضعك مما جعلنا نستعين بعنز اشتريتها لك من

عرب مجاوين لتعيش على حليبها فترة من الزمن، حتي يسر الله لك من ترضعك، نعم يابني هذه السنوات لا تدوم بخيرها أو شرها، وأراك في هذه السنة الشهباء تنحر أعز ما تملك من الماشية على أساس التخمين، إيه، لقد فات الفوت ولا مأساة على ما فات فعسى الله أن يعوضك خير مما جدت به لوالدك لتدسم به كبده، ولتدسم به أكباد سكان هذا الحي بكامله ومن يفد إليهم من الضيوف في هذه الليلة فجزاك الله خير الجزاء على ما فعلت.

كانت هذه آخر جملة خطرت بذهن الشيخ حينما حضر إليه ابنه في هذه المرة ومعه قطع من رقاق اللحم من فقار الظهر وخبائبه ليشوبها لوالده ويقدمها له، بينما اشتغلت النساء يساعدن صاحبة البيت في طبخ هذه الوليمة للجزور بكاملها وما تتطلبه من طعام يكفي لسكان هذا الحي بأكمله، وتقاطر الناس رجالاً ونساء وأطفالاً مع أذان المغرب إلى منزل النوري لتناول طعام العشاء الذي ما إن جهزته زوجته ومساعداتها تلك الصواني الكبيرة المتوجة بكتع من لحم الجزور حتى عَضَّد النوري لوالده وأجلسه بقرب الصينية التي تحمل فقار الظهر وعليها السنام، وهي أغلى ما يقدم لأعز الضيوف، فوقف النوري مرحباً بالجميع على شرف والده بمناسبة قدومهم ونزولهم في هذه البقعة الجديدة من الأرض قائلاً:

— : تفضلوا، سموا حياكم الله على هذه «اللَّحْيَسَة»، وكان قد حلَّ على الحي في نهار ذلك اليوم فريق من الضيوف حيث قال أحدهم.

: لحيسة!!! ماذا يعني مضيفنا؟ موجهاً كلامه لأحد جلسائه من سكان الحي.

— : يعني هذه الصواني من الطعام.

: هذه لحسة أو لحيسة!!!؟

— : نعم.

: اللحسة أو اللحيسة هي الطعام القليل الذي تكاد أن تلحسه بإصبعك مرة أو

مرتين أو ثلاث، أما هذه المائدة الممدودة من الصواني التي لا أكاد أرى طرفها فليست كما تذكر.

- : ممن تكون أيها الضيف الكريم؟
 : من القبيلة الفلانية.
- : هذا واضح من لهجتك، ولكنني أردت التأكد، وكون مواطن قومك بعيدة عنا
 فقد تكون لا تعرف عن قبيلتنا هذه الخلّة.
- : ماذا تعني؟ يقول ذلك متحفزاً.
- : ألا تعرف أن هذا البطن من قبيلتنا الكبيرة وهم الأسلم من شمر هم
 المشهورون بأهل «اللحيصة»؟
- : لم أعرف هذا من قبل.
- : ليكن في علمك إذاً.
- : وهل هذا هو اسم مثل هذا النوع من الطعام؟
- : لا، ولكن إذا قدم لك أحد من أفراد هذا البطن طعاماً قل ذلك أم كثر فإنه
 يرحب بك بقوله تفضل على هذه «اللحيصة».
- : لماذا تسمون الطعام باللحيصة؟
- : آه!! نريد بذلك أن ندلل على قلة قيمة ما قدم من طعام مهما كان كثيراً
 بالنسبة للضيف، إذ أن قدره وقيّمته أكبر بكثير من قيمة ما قدم له، وما هذا
 المقدم إلا ما يساوي لحصة تلحسها بإصبعك من الطعام.
- : يا الله!! أصواني بهذا الحجم عليها لحم جزور بكاملها تسمونها اللحيصة.
- : ذلك لشهرتنا بهذه السجية أما سمعت قول الشاعر تركي بن رخيص:
- أَفَلَّ اللَّحِصَةُ يَوْمَ رَغِي الْأَطَارِفِ وَضِدَّ الضُّدَيْدِ لَيَا هَبَا كُلِّ نَسَاسِ
 هُمْ سُرُورَنَا مِنْ شَرْقٍ لِأَشَيْفٍ مَاعِيفِ سَوْرٍ يَذُرِّي يَوْمَ الْآثَاقِ يَاسِ
- : لأول مرة أسمع هذا، إنني أسمع عن كرم هذه القبيلة بجميع بطونها دون
 استثناء وكرم القبائل المجاورة لها لكنني لم أتصور أحداً يفعل ما تفعلون!!
- : ستر الله الحال يا ابن الأجواد، فكل قبيلة من القبائل العربية يبطونها وفروعها
 فيها حقها من الكرم والجود والشجاعة والمروءة وغير ذلك من السجايا
 الحميدة بالإضافة إلى المزايا الأخرى.

: ولكنكم تمتازون على غيركم في هذا الجانب .
— كل إنسان دون عانيه يا ابن الأجواد، ولقد الهيتك بحديثي عن تناول طعام العشاء.

: لقد تعشيت واستفدت. خلف الله عليكم.
لازالت هذه الكلمة «الحيصة» تطن في أذن هذا الضيف حتى عندما اضطجع في فراشه، يا الله!! ما أكرم هؤلاء القوم الذين يعتبرون مثل هذه الوليمة الكبيرة بمثابة «لُحْيَسَة» وخلافاً للمألوف، فما يسمى بهذا الاسم هو الشيء القليل جداً الذي يلحسه الإنسان بإصبعه من الإناء لمرة أو عدّة مرات ويكون ملتصقاً بطار الإناء أو القدر من بقايا الطعام، أما ما يقدم على تلك الصواني مثل الأكداس المتوجه بفقر الظهر وكنع اللحم فيسمونها لحيصة فهذا مالا يستطيع أحد أن يصدقه، يا الله!! إذا كانت هذه الوليمة الكبيرة يسمونها لحيصة، فما هو اسم الوليمة الكبيرة عندهم؟ لا شك أن هذا من باب تقدير الضيف عندهم فقدر الضيف عندهم أكبر بكثير من كل ما يقدم له من طعام مهما كثرت كميته، وللضيافة عندهم مكانة مرموقة، فقد اشتهر من بذر هذه الدوحة المظلة وتعهد بسقيها حتى كبرت وساح ظلالها على هذه المنطقة بأكملها ألا وهو حاتم بن عبدالله الطائي وبقيت تاجاً شامخاً على رؤوس أحفاده، وهؤلاء الأحفاد قد حافظوا عليها، كما عمت فاعليتها معظم من سكن هذه الأرض وشاهد بعينه هذه الجبال أجا وسلمى وorman وما جاورها وهذا لا ينفي عدم وجود هذه السجية في مناطق أخرى من الجزيرة وغيرها فإلى الغرب من هذه المنطقة هناك «مصوت بالعشاء» وإلى الشمال والغرب والشرق والجنوب من هذه الجبال من الرجال الأسخياء والكرماء مالا يحصى عدده، لكنني لم أسمع من يسمى مثل هذه الوليمة بهذا الاسم، إن مثل هذه الوليمة مما يقدم لذوي الشأن ويرحب المضيف بضيوفه وهو رافع رأسه يعتقد بقرارة نفسه أنه قدم له الواجب كاملاً غير منقوص، يا الله!! أرايت الفرق بين هذا الرجل وذاك الرجل الذي أمرحنا عنده قبل عشرة أيام ولم يقدم لنا عشاءنا إلا بعد منتصف الليل عصيدة رخوة هي ماتيسر له بدون شك وقد عذرناه على

ذلك، لولا أنه قد بقي يحزن ويزن ويحزن أكثر من ساعة، وحينما دفعها إلينا
رقد غلبنا النوم رحب بنا عليها وكأنه قدم لنا جزوراً كاملة!! سبحان الله مغير
المفاهيم بين الناس، ولو أن كلمات الترحيب وحدها قد تكفي مع ماتيسر من
طعام لكن البعض يقدم القليل ويرى أنه كبيراً دون أن يعتذر، ومثل هؤلاء
يقدمون الكثير ويرونه قليلاً جداً مع الاعتذار عن التقصير.

* * *

بقي ذلك الحي من العرب، وأراف الله عليهم في مكانهم فلم يتحركوا عنه
وجلبوا أموالهم فتكاثر، وعاشوا بقية سنتهم في رغد من العيش والنوري دأبه
وهمه العناية بوالده والوقوف على راحته ليل نهار، سيما وأنه في تلك السنة قد
إنهارت قواه الجسمية، فصار ابنه يحمله من مكان إلى آخر، من فراشه إلى
مكان جلوسه، ينقله إلى الشمس للتشرق في فصل الشتاء، حتى إذا حميت
عليه نقله إلى الظل قليلاً، فإذا أحس بالبرد نقله إلى الشمس وهكذا دواليك
طول النهار، وفي الليل تارة يقربه من موقد النار التماساً للدفء وأخرى يبعده
عن الموقد إذا أحس بصلو حرارتها، وفي فصل الصيف يحمله من رف أورفة
البيت إلى ظله إذا امتد في الضحى أو سويغات الأصيل بحثاً عن نسيمات
الصبا الباردة، وفي القيلولة وقت احتماء حرارة الشمس يكون جالساً بقربه ومعه
مروحة من الخوص يحركها حول وجهه ليبرد بها عليه ويلطف الجو عنده، ينقله
إذا أراد قضاء حاجته في الخلاء، وإذا أراد أن يتوضأ للصلاة ينقله بعيداً عن
البيت، ويساعده على التوضؤ، لا يشعر بالممل، ولا ينغص عليه الضجر،
وكلمات إجابته لوالده لييك و«سم» أي سمعاً وطاعة، تصاحب هذه الكلمات
ابتسامة عريضة لا تفارق محياه، وتظل تتركز على ثغره، يحاول إدخال السرور
إلى نفس والده بشتى الطرق يبقى بجانبه يعمل له القهوة التي يجتمع عليها
رجال الحي يتجاذبون أطراف الحديث، ويشركون الشيخ معهم في أحاديثهم
ليعيدوه إلى ذكرياته القديمة التي يشعر معها وكأنه عاد إلى تلك الأيام الخوالي،
في مثل هذه الأحاديث يحاول ابنه النوري إبراز أفعال والده التي

تميز بها، وذلك ليرفع معنويته من هذه الأحاديث ينبش من ذاكرته قصة عفوهِ
عن خصومه وسعيه بالصلح بين رفاقه لإطفاء نار الحرب بين الطرفين والقضاء
على الكراهية بين ذينك الحيين من رفاقه، لذلك انتعش الشيخ لسماع هذا
الخبر ولما رأى النوري تحفز والده ورغبته في رواية القصة قال:

— : لترك رواية تفاصيل هذه القصة للوالد.

: بارك الله فيك يا بني.

— : أرى بعض الرفاق يريدون سماع تفاصيل ما حدث من لسانك.

: كلكم يا أبنائي تعرفون ما للجار من حرمة ومكانة عند العرب منذ القدم، ولا
يخفاكم أن كل حي من أحياء العرب لابد أن يوجد به إنسان قد يتصف
بالأعمال الشريرة طبعاً أو تطبعاً، وقد يكون عنده نزعة من سوء الحظ.

— : لا شك أن في كل حي حقه من الخير والشر.

: في إحدى السنوات نزل بقرب حينا صاحب بيت من قبيلة أخرى وجاور أحد
رفاقنا حيث نزل بجانب بينه وبقي الرجلان متجاورين حتى أصبحا كالأخوين،
وظل هذا الرجل يرحل مع رحيلنا وينزل مع نزولنا ما يقارب الستين.

— : بالتأكيد أنه وجد اللين وطيب المعشر يا أبا النوري.

: هذا شيء وارد يا بني، سيما وأن طبيعة الرجلين قد تطابقت، وليس هذا المهم.

— : ما هو المهم إذا؟

: آه، في إحدى الليالي حصل نزاع بين جذعان من شباب الحي فيهم ابن ذلك
الجار الذي لحقته إهانة من أحد سيئي الحظ من الشباب، فما كان من ابن
جاره إلا أن نافح دونه ووقف بجانبه بكل ما يملك من قوة فوقعت بين هذا
وبين شاب من الحي الفلاني مشادة كلامية ثم مضاربة أسفرت عن بعض
الرضوض في الجسم والشجاج في الرأس مما حمل والده أن يركب رأسه
فيأتي متهدداً متوعداً فتقابل والدا الشابين الضارب والمضروب.

— : أوه، يعني أن المسألة قد كبرت!!

: نعم، ذهب فلان إلى حيه يستفزع بهم وقام فلان في حيه كذلك، وكادت

الفتنة أن تنشب، وتواعد الحيان غداة غد.

— : إنا لله وإنا إليه راجعون، وماذا فعلت يا أبا النوري؟

: كان رجال حيناً لا يعصون لي أمراً، ولكن هناك مشكلة تعتبر من أحد المعوقات لتلافي ما قد يحدث.

— : أية مشكلة تعني؟

: لقد كان بيني وبين شيخ ذلك الحي شيئاً في النفوس مما يجعل كل منا لا يكلم صاحبه، وفي هذه الحالة لو بقيت بمكاني فسوف تكبر المشكلة، لكنني ضغطت على نفسي وتنازلت عما فيها على رفيقي وبادرت بالذهاب إليه تلك الليلة، ولما رأيته قد أتيت إليه فرح بمقدمي ورحب بي فتعانقنا وقبل كل واحد صاحبه وسعينا من لحظتنا تلك بتطويق المشكلة فأحضرنا والد الفتى المضروب ووالد الفتى الضارب وجميع أطراف المشكلة وراضينا بينهم.

— : هذا والله فعل الرجال الذين يتولون قيادة رفاقهم.

: لم نكتف بهذا، بل أخذنا على كلا الطرفين تعهد بعدم العودة لمثل هذه المشاحنات التي تحدث من الصغار وتنازل جريرتها الكبار، ونودى في الحيين في ليلتها أن الموضوع قد انتهى برضى الطرفين، وليس هناك ما يدعو للتحفز لمواجهة يوم الغد، وبذلك انطفأت وخمدت تلك الفتنة التي ستنشب بين الحيين من بطن واحد من قبيلتنا.

— : جزاك الله خيراً يا أبا النوري، هكذا عظمة الرجال لاتبين إلا في وقت الشدة.

: بل هو ما يفرضه الواجب يا بني، إذا أخذ الرجل على عاتقه مسؤولية حيه يكون هدفه الصلاح والسعي بالحسن بين الناس.

* * *

كانت الشمس تترنح في كبد السماء في صكة عمي، ترسل أشعتها الحارة إلى الأرض ليلتهب ما لامسته تلك الأشعة حرارة واتقاداً بحيث أصبحت رمضاء الأرض لا تكاد تطاق في تلك القيلولة في هذا الوقت حان وقت صلاة الظهر فقام النوري وحمل والده بعيداً عن البيت لقضاء حاجته قبل أن يتوضأ، وعندما أنزله على الأرض كان صَفْنُ الشيخ قد ارتخى من الحر ولامس الأرض «فَنَزَّ» من

مجلسه ولاحظ ابنه ذلك فعمد إلى وضع كفه تحت الصُّفْن لتقيه حرارة
الرمضاء حتى «يدفق الماء» وبعد أن أراق الماء رأى النوري والده وقد انهمرت
عيناه بالدموع وأخذ يبكي ويتشنج وتذرف عيناه بالدموع حتى اخضلت
لحيته فحمله إلى ظل البيت وكان النوري يتلوى ألماً مخافة أن يكون قد أساء
إلى أبيه دون أن يعلم، أو أن حرارة الرمضاء قد آذته وعندما أوصله إلى الظل
وأجلسه في مكانه أكب عليه يقبله ويمسح الدموع عن وجنتيه ولحيته وهو
يقول:

- : ما بك يا أبي؟ فذاك روحي، أرجو ألا أكون آلمتك؟
: أبداً، أبداً، يا بني. يقول ذلك بصوت متهدج.
— : هل آذتك الرمضاء؟
: لا والله يا بني. يقول ذلك وهو يكاد يغص بالكلمات.
— : أجل ما الذي أصابك؟ عسى ألا أكون آلمتك أثناء حملي لك؟
: ولا هذا يا بني، فأنت ألطف بي من الأم بصغيرها.
— : هل يؤلمك شيء بجسمك أثناء خروج البول؟
: الحمد لله، لا أشكو ألماً.
— : قد يكون طراً عليك أمر من الأمور جعلك تبكي بهذه الدرجة؟
: ولم يخطر ببالي شيء.
— : أجل ما الذي أبكاك؟
: لقد سبقني وبزيتني يا بني. يقول ذلك بكلمات تخرج من أعماقه.
— : سبقتك!! وبزيتك بماذا!!؟
: سبقني بشيء كنت أتمنى لو لم تسبقني إليه.
— : لم أفهم ماذا تعني؟
: آه، بلا شك يا بني إنك من الأبناء البررة بآبائهم، فجزاك الله خير الجزاء.
— : هذا واجب عليّ، وبأداء الإنسان لواجبه فليس له فضل.
: لا شك، أرأيت يا بني ما تقوم به من أعمال مبرّة نحوي؟

- : هاه!! ميرة؟ يقول ذلك بانبهار.
- : نعم ميرة، فلقد كانت ثمار غرس غرسته في والدي يرحمه الله.
- : ثمار غرس!!؟ يقول ذلك بدهشة.
- : كل عمل تقوم به الآن في سبيلي فقد سبقتك إليه وقمت لوالدي بعمل مثله،
واحدة بواحدة إلا هذه.
- : ماذا تعني؟
- : أعني وضعك لكفك تحت صفني لوقايتي من حرارة الرمضاء أثناء قضائي
لحاجتي.
- : أهذا مايكيك يا أبي!!؟ يقول ذلك بدهشة ثم يستأنف إن بودي لو أضعك
بين جفني عيني وأطبق عليك كما أطبق على جوهرة رأسي لا يؤذيك حر ولا
يلسعك قر.
- : سلمت عينك يا بني، وبذر الله لك الذرية الصالحة التي تجزيك بمثل عملك
هذا أو أفضل منه.
- : لا تجعل هذا الأمر يكبر في نفسك يا أبي.
- : إنني والله يا بني أتمنى لو فعلت بأبي كما فعلت بي ولكنك سبقتي إلى هذه
الخلة.
- : إنني أتمنى خدمتك بأي مجال يؤدي إلى راحتك:
- : لم تقصر في شيء، بل زدت علي ما فعلته بأبي، فجزاك الله خير الجزاء بحق
من ينادي باسمه للصلاة، أعطني الماء لأتوضأ.
- وأخذ النوري والده للمكان الذي يتوضأ فيه خلف حاجر البيت، وبعد أن
انتهى حمله إلى المصلي لأداء صلاة الظهر، وبعد قضاء ركعتي المسجد
سرح النوري في خيال فسيح، الله أكبر ما أعظمك يا أبي!! كان يتأسف على
عمل من أعمال الميرة يعتبرها قد فاتته، ومن أجل ذلك انهمرت دموع الأسى
حتى تبللت لحيته، واستمر يكي من أجل أنه لم يفعل مثل هذه الفعلة، متعنا
الله بحياتك يا أبي يامن يطمح إلى المبرات لأنه يعلم علم اليقين أن لكل يد

ماغرست، إن غرست هذه اليد خيراً فسوف تجني منه خيراً، وإن بذرت شراً فسوف تجني ثمار ما بذرت، يا الله!! أنظر لهذه الجملة التي تلفظ بها والدي، كل ما تفعله بي يابني الآن قد فعلته بأبي من قبل إلا هذه فقد سبقتني إليها!! كان يتمنى من كل قلبه لو أتاحت له الفرصة ليفعل بوالده ما فعلت، هكذا الأبناء البررة يحاولون أن يخدموا والديهم بكل ما وسعهم ذلك، بكل صغيرة وكبيرة من أجل خدمة إلى أقل حركة مثلما فعلت، يسعون لراحة والديهم، يكدحون بالنهار لتأمين لقمة العيش لهم، ويسهرون بالليل على راحتهم، أما حينما يقعدون فإنهم يكادون يلزمونهم في إقامتهم، لا يفارقونهم لحظة واحدة إلا وقدموا لهم فيها خدمة معينة، أطال الله في عمرك يا أبي لكي تقوم بخدمتك على الوجه الذي يرضيك عنا.

* * *

لم يكد المجلس يتكامل بعد ظهر ذلك اليوم حتى أناخ إثنان من الضيوف ركابهما، فنهض النوري من مكانه ورحب بهما وهش في وجوههما وبش وسبقهما إلى مجلس الرجال الذين نهضوا من أماكنهم حيث حل الضيفان في صدر المجلس، وأسرع النوري بإدارة القهوة عليهما ودار الحديث في المجلس فقال أحدهما.

— : لقد رأينا بطريقنا يوم أمس مأساة وأي مأساة كفانا الله وإياكم شرها.

: مأساة؟! هكذا رد النوري باستفهام.

— : نعم لقد أقبلنا يوم أمس قبيل الظهر على المورد الفلاني لسقي ركابنا وأخذ حاجتنا من الماء، ويا هول ما رأينا.

: عسى ألا يكون سقط أحد في البئر؟

— : سقوط الإنسان بالبئر رغماً عنه قد يحدث ولا يلحق نفسه ملامة إلا إذا كان قد أهمل، ولكن ماشاهدناه هو عمل الإنسان نفسه.

: هل حاول إنسان أذية نفسه؟

— : ليته كان كذلك، وإنما أذية أقرب الناس إليه.

: بريك ماذا حدث؟ يقول ذلك النوري باندفاع.

— : حينما أقبلنا على البئر كما سبقت الإشارة، وإذا برجلين يتعافران حول البئر وقد سيطر أحدهما على الآخر وطرحه أرضاً وبرك على صدره، وبدأ يأخذ من التراب المخلوط بدم الغنم وعطن الإبل ويحشي به فم الرجل الذي سيطر عليه بيده اليمنى بعد أن وضع ركبتيه على صدره وأمسك يديه الإثنتين بيده اليسرى.

: يا الله!! هذا يعني أنه سيطر عليه وأرغمه وأهان.

— : وعندما لمحنا من بعيد أن الرجل المغلوب رجل مسن ولحيته بيضاء، وأن الذي غلبه رجل شاب أصغر منه سنًا أخذتنا النخوة والحمية وتوأثنا عن ركابنا لنصرته، ففزعنا الرجل عن صدر الشيخ ورمينا به بعيداً وأمسكه أحدنا، وتوليت مساعدة الشيخ الطريح على الأرض فأسندته ونفضت ما على لحيته من التراب، فنظر إليّ وأجهش باكياً.

: يا الله قد تكون هذه دموع الفرح، حيث جاءت فرجة من الله أنقذته من هذا الموقف الحرج.

— : ليته كان كذلك.

: أجل ما باله يبكي؟ قد يكون الرجل الذي جاثماً على صدره آلمه وانهكه؟! :— ولا هذا.

: أجل ما يبكيه؟.

— : لقد بدأ يلفظ ما في فيه من التراب ويتمضمض بالماء ثم أجهش بالبكاء قائلاً: ليتكم تركتموه على صدري.

: هاه!! يقول ذلك وقد جحضت عيناه.

— : نعم إنه يردد هذه الجملة، ليتكم تركتموه ولو ساعة من الزمن ليبرد لهيباً في صدري.

: يرد لهيباً في صدره!! يقول ذلك النوري باستغراب.

— : نعم، ثم يردف قائلاً: ويشفي ما أشعر به من ألم نحو ذنب إترفته يدي هذه. : ما هو ذنبه؟

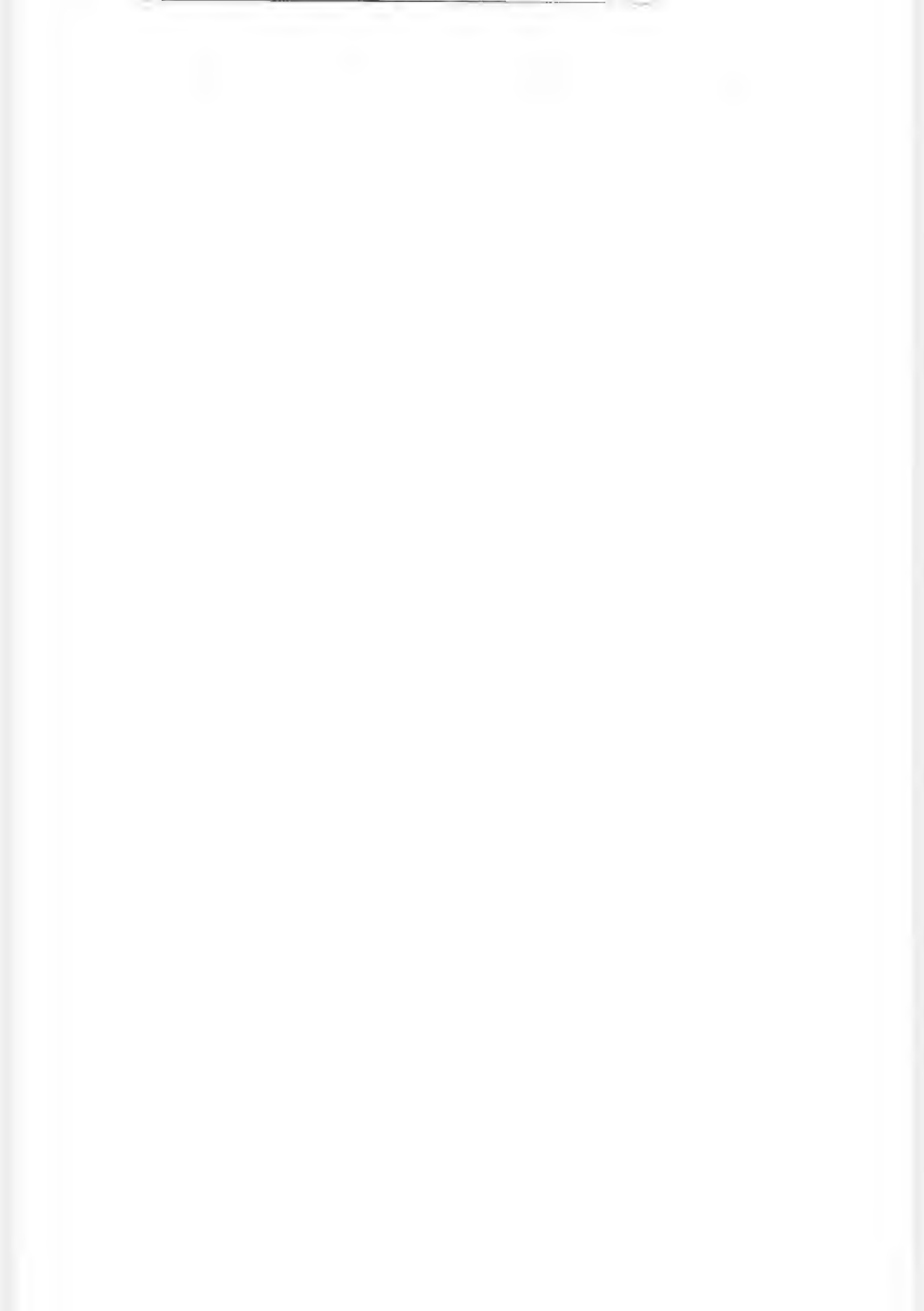
- : لقد وجهت إليه نفس السؤال فقال قولاً ليتني لم أسمع.
- : هاه!! ماذا قال؟
- : قال أتدري من هذا الذي كان جاثماً على صدري ويملاً فمي بالتراب؟
- : قلت له لا.
- : قال: هذا إبني الأكبر والوحيد الباقي. وعندها دامت بي الأرض واحمرت الدنيا ثم اصفرت واسودت في عيني ولم أنطق ببنت شفة ثم استجمعت قواي مرة أخرى وسألته: إبنك؟؟
- : إبنه؟؟
- : لقد استأنف إنه ابني الوحيد.
- : أبداً، لا تصدق، لم يكن إبنه.
- : إنه ابنه بالفعل، يشبهه تماماً، وقد قلنا له لو كان هذا إبنك لما فعل بك ما فعل، أتدري بماذا رد علينا؟
- : لا. يقول ذلك باندهاش.
- : لقد قال لنا كلمات متقطعة بين نشيجه وبكائه ليتنا لم نسمعها: إن ما فعله إبني لا يساوي شيئاً مما فعلته بوالدي.
- : قبحه الله!! من أب ضال قاطع، وقطعه الله من ابن عاق مجاهر.
- : وعندها مادت بنا الأرض مرة أخرى وكدنا أن نقضي عليهما معاً.
- : إنهما نبتة فاسدة. يقول ذلك وهو لا يكاد أن يصدق ما يسمع.
- : ثم انخرقت عيناه وأجهش بالبكاء مرة أخرى وقال في صوته الأجش: يا بني إنني أشعر بأسى وحسرة يكاد يتقطع منها قلبي كلما ذكرت ما فعلته بوالدي، وإنني أعاند إبني في بعض الأحيان حتى يهيج غضباً ويبدأ بتعذيبي، وإنني أجد بقسوته علي ما يريح نفسي مما فيها من لواعج الألم على ما فعلته بوالدي.
- : قطعه الله وقطع ولده من بعده.
- : فقلت له لا تفعل، فربما جاء لولدك ابن يفعل به كما يفعل بك، فقال: لا شك، لا شك يا بني فكما تدين تدان.
- وتركناه مع ابنه وروينا ركاينا ثم غادرنا المكان، ومن لم يصدقنا فليذهب إلى

هناك وربما وجدتهما يتعافران مرة ثانية.

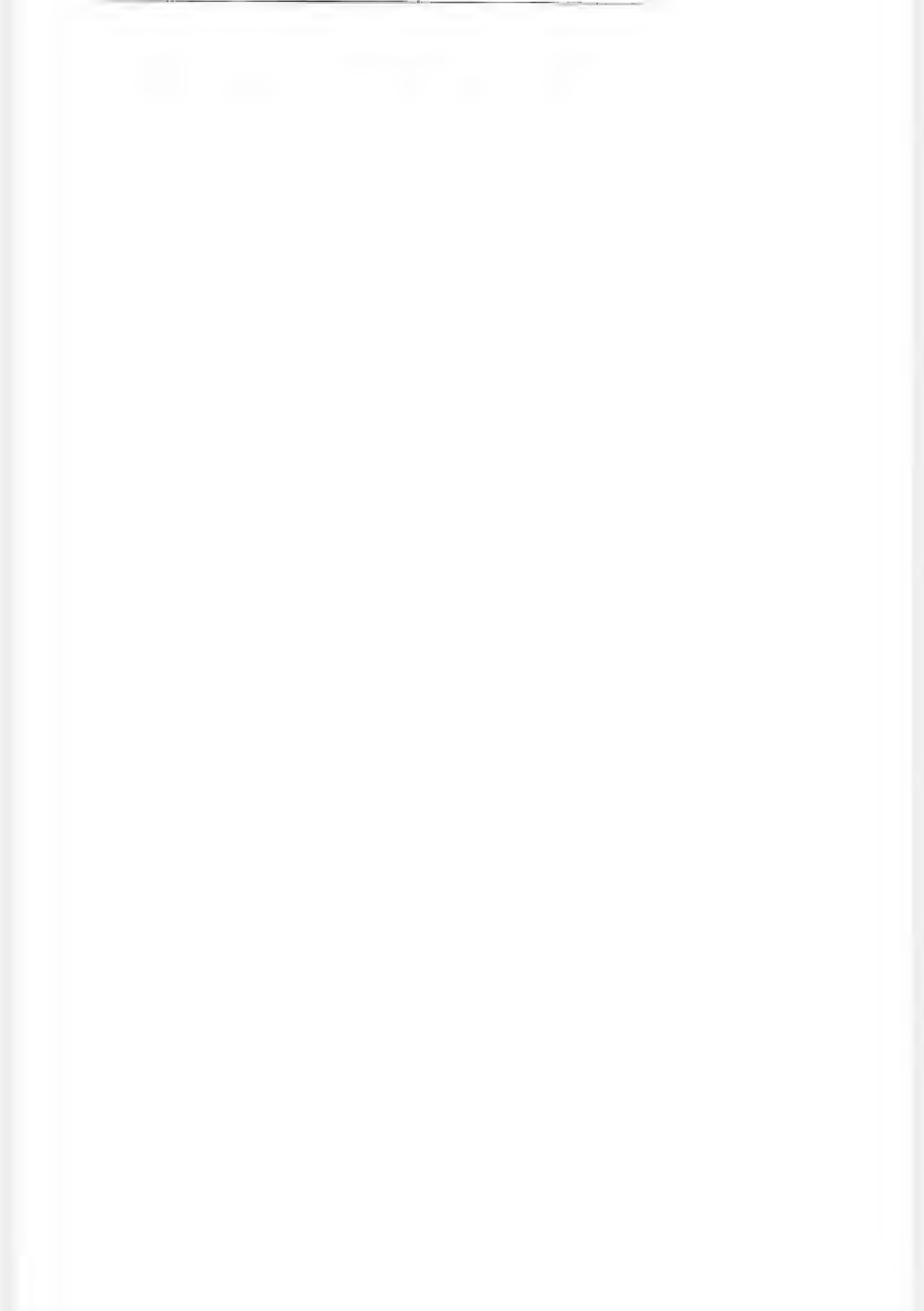
: قطع الله بذرة هذه ثمرتها.

كان هذان الضيفان يحدثان القوم بما جرى أمام أعينهما وقد فكا النزاع بأيديهما، والنوري لا يكاد يصدق ما تسمع أذناه لا يصدق أن ابناً يتجراً أن ينظر لوالده مجرد نظرة شرر فضلاً عن أن يسمعه كلمة نابية، وأبعد ما يكون في ذهنه أن يناله بأذى جسده، ويقشعر بدنه كلما استعاد في مخيلته ذلك المقطع من حديث الضيف، أيعقل أن يشب ابن علي صدر والده، ويضع ركبتيه في بطنه ويملاً فمه بالتراب؟ والله لولا أن هذين الرجلين أحدهما شيخ والآخر كهل ما صدقتهما، والله لو لم يظهر عليهما التأثير مما جرى، حيث تكاد تتساقط دموع الشيخ من شدة التأثير أثناء حديثه لما صدقت حديثهما البتة، وتلك الجملة التي أنهى بها الشيخ حديثه، من أن من لم يصدق ما قلناه فالذهب إلى نفس المكان وربما وجدتهما في حالة مماثلة، ياللهول!! ابن يتجراً ويؤدي أباه جسدياً بهذه الصورة!! ياالله!! ويجد الأب في ذلك لذة في مثل هذا العمل السادي!! يااللخزي والعار، حين يحاول هذا الأب أن يكفر عما اقترفت يده في حق والده بهذه الطريقة البشعة، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتتساقط الدموع لتبلل لحيته وخداه، ثم يطلب ممن أفلته من هذا الوحش المفترس أن يتركه ولو فترة إضافية حيث استمرراً هذا التعذيب الجسدي لعله أن يكفر عنه ما اقترفه من ذنب، ويتهدج صوته بين آلام التعذيب الجسدي ولذة السادية التكفيرية التي يشعر معها أنه بإلهابها لجسده تبرد لديه كوامن نفسية عميقة وتتناقض الدموع من عينيه معبرة عن امتزاج الحالتين معاً، حالة الألم وحالة الفرح والتشفي!!؟ سبحان الله!! هذا الإنسان يمر بأطوار تتفاوت بين القوة والضعف حتى يأتي عليه اليوم الذي يصبح فيه وكأنه الطفل الصغير يتأثر من أي شيء حوله، يملك من الحساسية ما يجعله تتناثر دموعه على وجنتيه وكأنه الطفل الرضيع حين تكف أمه عنه نديه، سبحان الله!! هذه الدموع التي تمثل آخر مخزونه المعنوي، لا يخرجها إلا في حالات نادرة، كفقد حبيب لديه، أو ساعة فرح مفاجيء أو لحظة

إقدام حرجه، فهي آخر ما ينثر من كنانته، أصبح في هذه السن يبذلها في كثير من الأوقات كبعض النساء، وقد يعتبرها وسيلة تعبيرية عن رغبة في نفسه أو رهبة في فؤاده، وربما كانت تعبيراً عن أسي على شيء فاته، أو يحاول بها غسل درن متراكم وعالق في نفسه، يا الله!! انظر تزامن هذا الحدث، شيخ يبكي وتنهمر دموعه على لحيته التي يغطيها التراب والرغام وفتاة الرمن من أجل التكفير عما في نفسه نحو والده، ويبكي شيخ اليوم وتبلل لحيته ويجهش وبطيل البكاء من أجل أنه فاتته حركة معينة يعتبرها مبرة ولم يفعلها بوالده، يا الله!! شيخ يدفن ابنه في خديه وغلاصمه ووجنتيه صفعاً ولكماً، وآخر يمسح ابنه دموعه ويتابع على خديه ووجنتيه وعينيه وجبينه تقبيلاً ولثماً، أحدهما يتلمس بيده بشرته ويعدد الأورام والكدمات في وجهه، والآخر يشعر بحرارة مواقع القبلات على صحيفة وجهه، هذا قد أحسن إلى والده كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفُضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ وذاك خالف منطوق هذا الأمر الإلهي الصريح، أحدهما يتألم لأنه فاتته خدمة معينة أن يؤديها، والآخر يتألم لعدم إدراكه أقل القليل من خدمة والده، بل إنه أساء إليه وآذاه، يد قدم صاحبها لوالده ما استطاع وبوده لو أتاحت له فرصة في كل حركة ليعخدم بها والده، وأخرى قدم صاحبها لوالده الأعمال السيئة السوداء، هاتان اليدان تختلفان كل الاختلاف، يد تجني الثمار الطيبة والورود الغضة كما غرست ويد تدميها الأشواك، وتتعمق فيها الجراح كما بذرت وكل يد وما قدمت.



قصة رقم (٢٢)



جحر يسعك لن يضيق بي

سحبت ساعات الانتظار الثقيلة جسمها الطويل على رأس «منيرة» وهي تعوم في تلك الليلة الخرمس في أحد شرفات القصر الشامخ، لا يؤانسها سوى تلك الداروي المنتشرة على أديم السماء الزرقاء الصافية، وكأن هذه النجوم تسامرها وتداعبها يزوغانها ولمعانها منذ احتلت مكانها بتلك الشرفة في الثلث الأول من الليل، ودارت عجلة الزمن بدقائقه وساعاته ومرت تلك الداروي من فوق رأسها تكاد أن تلامسه، ثم مالت إلى المغيب وهي تغمز بلمعانها وكأنها تلوح بيدها مودعة تلك الشابة التي لا تزال تنتظر من سيعود إليها في الساعات المتأخرة من الليل وربما قبيل السحر غير عابثة بحركات صويحيباتها من النجوم المندلية إليها من عنان السماء، ذلك أن ما تنتظره أهم بكثير عندها ممن حولها، ولهذا فقد جلست تنتظره على أحر من الجمر، لتسمع منه خبراً يفيد عن زوجها الذي حكمت عليه الظروف أن يغادر البلد ويلجأ في أحد كهوف الجبل الغير بعيد عن البلد ويختفي هناك لإرضاء طموحاته تاركاً زوجته عند أهلها الذين هم طرف النزاع معه، واكتفى بإرسال أصدق أصدقائه إلى البلد ليستطلع له الأخبار، ويزوده بما يحتاج إليه من الماء والغذاء ويمر على زوجته في لحظات عابرة ليطمئننها عن زوجها، هذا القادم الذي ترهف سمعها لوقع خطواته وتبحلق بعينها لترى خياله، لتسرع إليه وتسمع منه من الأخبار ما يسرها عن وضع زوجها، وقبيل أذان الفجر الأول بساعة سمعت وقع خطى وثيدة، يمشي صاحبها حيناً وربما على أمشاط أقدامه ثم يتوقف قليلاً يلتصق بالجدار برهة، ويستمر في السير أخرى وكأنه يخاتل صيدة ليصطادها، عند ذلك نزلت من الشرفة وانسابت نحو الشبح القادم لا تكاد تلامس الأرض رغم كونها في الأشهر الأخيرة من

الحمل، وعندما وصلت الباب وقفت خلفه برهة ثم نبرت بصوت خافت:

— : حسين.

: نعم.

— : مالك تأخرت هذه الليلة على غير عادتك؟

: فضلت البقاء خارج البلد حتى يهجع الناس.

— : لماذا؟

: لقد سمعت من الأخبار ما جعلني أحترز وتأخر إلى هذا الوقت.

— : أخبار !!

: نعم، لقد سمعت أنهم علموا بمجيئي إلى هنا وثبوا الأعين ونشروا الرُصْدَ لمحاولة الإمساك بي.

— : وماذا يريدون بك؟ ليس لك شأن بالأمر ولست خصماً لهم حتى يترصدون لك.

: ولكنني صديق لصاحب الشأن.

— : المهم، كيف حال عبدالله؟

: بخير والله الحمد.

— : لست مقتنعة بذلك.

: ألم تصدقيني؟

— : بلى، ولكن الهواجس لا تترك أحداً إلا وتدب إلى نفسه وتقلقه.

: هواجس !!

— : يخيل إليّ أنه يمر في وقت حرج وصعب يجب أن أشاطره فيه أعباءه.

: تشاطرينه !! وأهلك؟

— : أهلي على اعتبارهم، وقدرهم فوق رأسي وجوف عيني ولكنني سأقف مع زوجي.

: هل ضايقت أحداً؟

— : لا يخلو العود من الدخان إذا اشتعلت في طرفه النار، فيؤذى العينين ويزكم الأنف.

- : أخبريني من ضايقتك، لأنقل ذلك إلى زوجك فينتقم منه.
- ليس هذا المهم يا حسين.
- : ما هو المهم إذا؟
- المهم أنني زوجة، والزوجة يتوجب عليها أن تقف بجانب زوجها في محنته جنباً إلى جنب، تحمل عنه جزءاً من مسؤوليته تهون عليه مصائبه، تخفف عنه آلامه.
- : ولكن في وضعه الحالي، ووضعك الحاضر قد ينعكس المفهوم.
- ماذا تعني؟
- : أقصد أنه كما تعلمين يعيش متنقلاً من كهف إلى كهف في الجبل متخفياً عن رصد خصومه، وأنت في هذا الوضع من الحمل قد لا تستطيعين مجاراته، وفوق ذلك قد تكونين عبئاً عليه.
- دعك من هذا، وأخبره أنني سأحضر إليه معك في المرة القادمة.
- : تذهبين إليه؟!
- نعم، سأصاحبه في رحلته على خيرها وشرها.
- : ولكنه كما قلت لك يمر بظرف عصيب يتخفى في كهوف الجبال.
- لهذا أردت مشاطرته مصاعبه، و«جحر يسعه لن يضيق بي».
- : هاه!! هل أنت مصممة؟
- كل التصميم، ولولا مخافة من غضبه علي لصاحبتك الآن قبل الاستئذان منه، ولكنني أفضل أن أستأذنه في هذا الأمر.
- : سأنقل له ما طلبته مني.
- بل أخبره أنني قادمة معك في المرة الثانية إذا أذن لي.
- : أبشري، أبشري.
- ستجد قرية الماء وجراب التمر في المكان المعهود.
- : أستودعك الله.
- انتظر قليلاً هذه وقع خطوات المؤذن ليؤذن أذان «النِّبَاه» الفجر الأول.
- : ها هو قد تعدى من الشارع ودخل المسجد.

— : صاحبك السلامة.

في الليلة المحددة، كانت تنتظر في شرفة القصر على أحر من جمر الغضا مجيء حسين يحمل معه الإذن لها بأن تصاحبه لرؤية زوجها، وما إن سمعت وقع خطاه حتى نزلت إلى الباب تستطلع الخبر حيث علمت منه بموافقة زوجها على زيارتها له لمدة قصيرة لتطمئن نفسها عليه فكادت أن تطير من شدة الفرح، فأشارت إليه لأخذ الطعام والماء، وأن يسير أمامها على مسافة معقولة أثناء اجتيازهم الشوارع والطرق، حتى لا يفطن أحد من حراس القصر أو العيون المبتوثة على مداخل البلد ومخارجها بعد أن خرجت إليه من باب خلفي، وهكذا سار حسين كمعاده مع طرق خلفية تتبعه في ظلمة الليل الحالكة، يسمع وقع خطواتها الوئيدة، وهي تسمع وقع خطواته وترى شبحة من بعيد، في تلك الليلة الخرمس، يمشي في الطريق الذي لا يخلوا من التعاريج والمنحنيات فإذا غاب شبحة عنها توقف قليلاً حتى تجتاز ذلك المنعطف وتراه، ثم يستأنف المسير، وهكذا دواليك حتى خرجا من البلد، ثم استمر أمامها بمسافة معقولة، وكان مسيرهما مشياً شديداً لا يرقى إلى درجة الهولة أو الركض، ولكنه يقارب الهولة، حتى اجتازا مرحلة الخطر، وقد انصرم من الليل ثلثيه، فشعرا بالأمان نوعاً ما، وإن كانت تساورهما أحياناً نوازع الخوف من أن يتنبه أحد الحراس، ويوعز لمن يرسل بطلبهما، فلذلك تجدها أحياناً تقارب المسافة بينها وبين رفيق زوجها، حتى إذا انبلجت تباشير الصباح كانا قد اقتربا من المكان الذي يأوي إليه زوجها من الجبل، عند ذلك لاحظ حسين تباطؤها بالسير فظن أن التعب قد أخذ منها مأخذه، بعد مسيرة ما يزيد على ثلاث ساعات على الأقدام بمشوار واحد سيما وهي امرأة حامل في أشهرها الأخيرة عند ذلك قصر الخطو لها فرآها تضلع في مشيتها فظنها من تأثير الثقل، عندما وصلا إلى الجبل وأرادا الصعود إلى الكهف لم تستطع الصعود إلا بالزحف تارة، والتأرجح على الصخور تارة أخرى، تحتاج في بعض الأحيان إلى مساعدة رفيق زوجها بالإمساك بطرف يدها حتى تجتاز تلك الصخرة، وعندما أسفر النور اتضح لحسين أنها تسير حافية القدمين لا نعال عليها،

فسألها: أين نعليك؟ أجابته لقد عثرت بإحداهما ونحن بحواف البلد فانقطع سيرها ورميت بها، ولم أستطع المسير بنعل واحدة فرميت بالأخرى بعد مسافة من الأولى، فسألها: وتمشين كل هذه المسافة وأنت حافية!! لماذا لم تخبريني؟ فأجابت: لقد مشيت، فقال لها: ولكن الأرض حثة تأكل النعال، فما بالك بالأقدام؟! فردت عليه: لا تأبه بهذا الأمر، كل شيء يهون مهما كان صعباً في سبيل رؤيتي لزوجي والاطمئنان عليه، لكن حسينا ذهل عندما رأى الدم يبقى على الصخور التي تمشي عليها من قدميها فأسرع على الفور ورمى لها بنعليه، لكنها رفضت لبسها، غير أنه ألزمها بلبسها ولسوء الحظ فقد وجدتهما كبيرتين جداً على قدميها مما قد يعوقها عن المشي، وقد تنزلق بهما مع تلك الصخور الملساء ففضلت عدم لبسهما، واستمرت تقطع بقية المسافة سيراً على قدميها الحافيتين من صخرة إلى صخرة، وهو يمشي أمامها يساعدها أحياناً بالإمساك بطرف يدها إذا وصلت مرقى صعباً في الصخور الجرانيتية الوردية الملساء، ومع يزوغ شمس ذلك الصباح، أطلت بوجهها الصبوح على الكهف الذي يختفي فيه زوجها في الصفحة الثانية من الجبل، وكان يتربص مجيئها، يشرف تارة ويختبئ أخرى، وعندما رأى الزولين أسرع إليهما يسابق خفاق الجناحين فوجدتهما على تلك الحال، وكاد أن يصعق عندما رأى زوجته تزحف على تلك الصخور تارة وتمشي متأرجحة تارة أخرى تضلع مما أصاب قدميها أثناء سيرها حافية، ورأى رفيقه منتعلاً، فاندفع بغضب يقول: أتمشي بنعلين ورفيقة سفرك حافية؟ فبادرت زوجها قائلة: لم يقصر والله ابن ملاقي بمجرد معرفته أنني أسير حافية، علماً بأنه لم يدر بذلك إلا بعد أن أسفر النور، فقدم لي نعليه لكنهما لا تناسبني لأن قدميه أكبر من قدمي، وخشيت إن لبستهما أن أنزلق على هذه الصخور فيؤثر ذلك على حملي، ولذا رددتها إليه وفضلت المشي على قدمي، عند ذلك تقدم حسين إلى الكهف بما معه من ماء وطعام، وبقي عبدالله يدرج زوجته ممسكاً بعصديها من صخرة إلى صخرة حتى وصلا إلى الكهف في عرض الجبل حيث حلت هناك، وبعد كلمات الترحيب أفضت إليه بالأسباب التي جعلتها

تشوق إلى رؤيته لأنه قد نسي إلى سماعها أن زوجها قد قتل وأخفى خبره عنها، وما عملية تردد حسين عليها ونقله للأخبار المطمئنة إلا من باب تهدئتها حتى تضع حملها، وقد فعل ذلك والدها، وبعد سماعها لهذا الخبر سرت فيها الهواجس وأصبحت تشك في كل شيء حولها، ولا تصدق أي خبر حتى ترى زوجها بعينها، فهذه أولى الأسباب التي حملتها على المجيء، ثم أبدت لزوجها السبب الثاني الذي جعلها تأتي إلى هنا قائلة له:

— : لقد أتيت إليك لأساعدك.

: تساعديني!!؟ يقول ذلك بدهشة.

— : نعم، لأقف إلى جانبك وأحمل عنك جزء مما تحمل.

: كانت لهذه الكلمات وقعاً مؤثراً في قلب زوجها الذي انطلق لسانه قائلاً:

وَنِعْمُ وَأَلْفَ نَعَمٍ يَا ابْنَةَ الْأَجْوَادِ مِثْلَكَ مَنْ يَقِفُ مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ وَلَكِنْ..

— : ولكن ماذا!!؟

: الوضع غير مناسب لوقوفك معي الآن.

— : هذا وقت الحاجة وهذا ما يستدعي الوقوف.

: صحيح، لكن كما ترين، مطارده الآن من قبل خصومي، ويجب أن أكون

خفيفاً أنتقل من مكان إلى مكان دون أن يكون هناك ما يعوقني.

— : وإذا أردت التنقل فلن أعوقك.

: هاه!! ليس في ذلك شك، لكنك بوضعك الحالي تحتاجين إلى الراحة.

— : راحتي بقربك، في أي مكان تعيش فيه، والمكان الذي يسعدك لن يضيق بي،

حتى لو كان جحر عفر.

: حياك الله!! يقول ذلك وهو كالمبهوت.

— : من هذا المكان اعتبرني جزءاً منك، ولن يفصل عنك.

: لا بأس، لكنني الآن في وضع حرج كما تريني في هذا الكهف بنصف

الجيل، حتى ليصعب وصولك إليه أو خروجك منه والانتقال إلى مكان آخر.

— : أين تريدني أن أذهب؟

- : تعودين إلى أهلك حتى يتضح الأمر وينجلي الموقف.
- : بيت خرجت منه، لن أعود إليه إلا وأنت إلى جانبي.
- : هاه!! هل آذاك أحد؟
- : كل أذية بسببك تهون عليّ حتى ولو كانت من أقرب الأقربين.
- : يدّ آذتك أو ستؤذيك والله لأقطعها من أصلها.
- : لست حريصة على القطيعة، لأن اليدين مشيتان في جسد واحد، فأى منهما جذمت كف الأخرى أعنبر نفسي خاسرة.
- : رأى سديد، لو نظر الجانب الآخر للأمر بهذا المنظار.
- : المهم أنني سأكون بجانبك، أونس وحدتك، وأخفف عنك بعض همومك.
- : هاه!! حياك الله. يقول ذلك وفي ذهنه أشياء وأشياء.
- : إن لم أقف معك في هذا الظرف الحرج، فمتى تراني أقف معك؟
- : هذه من علامات النبل في المحتد الأصيل!! خذي راحتك.
- يقول ذلك وهو يغادر المكان.

ولم تصدق منيرة أنها وصلت إلى الأرض فاستلقت على جال الكهف تحتها فراش بسيط من نسيج الوبر «ساحة» وبدت متعبة إثر هذا المشوار الحاد الذي قطعته مرة واحدة على غير عادتها بحملها الثقيل، فرنقت عيناها من الإعياء والنوم، ولما رآها زوجها على هذه الحال طلب منها أن تضطجع لتنام وتأخذ قسطاً من الراحة، وهكذا غطت في نوم عميق، بينما جلس مستنداً على تلك الصخرة التي تسد جانباً من فم الغار، وهو يتخيل حالة هذه الزوجة الوفية التي لم يطبق لها جفن إلا لماماً منذ أن حصل النزاع بينه وبين بني عمه وخصومه في نفس الوقت، هذه الزوجة التي دبت في نفسها الهواجس خوفاً على زوجها، وصارت تتخيل مالا يكون من الأشياء، إيه!! هكذا المتخوف تجتمع عليه أشياء كثيرة، وتتحوّل عليه الهموم وتتجاذبه النوازع طالما بقي يفكر في أمر من الأمور، سيما إذا كان شديد الحرص عليه، يخيل إليه أن كل حركة موجهة إليه، حتى أنه ليظن في بعض الأحيان أن هبة الريح هي من

أجله، إن كانت باردة حسبها جاءت هكذا لكي تلسعه بلفحها البارد، وإذا كانت حارة ظنّها فصدت إيذاءه بسمومها، سيما قلب المرأة الرقيق، وعاطفتها المتأججة بالحنان، ولولا أنها على هذه الدرجة من اللطف لما جاءت تسحب نفسها في هذا المشوار المضني على قدميها، هكذا بنات الرجال، وإلا فإنها تعرف من تخاف عليه كل هذا الخوف، تعرف أنه الذي عصرته الأيام وعركته الظروف فاخرجت منه إنساناً يعرف بالجرأة والتصميم، وعقلاً يتصف بالرزانة والتدبير، رجلاً لو أراد القطيعة مع خصومه لطالتهم يده، فهم غير بعيدين عنه إلا بمقدار ما ينالهم كفه، ولو أراد ذلك لفعل عندما كان خصمه يتوضأ على طرف جاية الماء لا يفصل بينهما سوى مسافة قصيرة جداً لدرجة أنه يناله بسيفه وهو جالس في مكانه، ولكنه لم يرد القطيعة، فلعل الأمور أن تتحسن ويسود التفاهم والوثام وينال كل ذي حق حقه حسب طموحاته، يعلم الله أن من تخافين عليه لم يدخل قلبه الخوف قط، ولكنه يداري الأمور فلعل وعسى، رغم أن الجانب الآخر قد بدأت منه بعض المضار بإساءتهم إلى أناس هم أقرب الناس إليّ كوالديّ. ثم هذه الزوجة التي ربما نالتها المضايقة، فجاءت إليّ ولكنها لم تحاول الإفصاح لي عما نالها، إيه !! سامحهم الله. أتخافين عليّ يامنيرة!! يالك من طيبة القلب، لو استطاعوا الإمساك بي لفعلوا حيث لم يدخروا وسعاً في ذلك عندما اقتطعت أذواداً من إبلهم وتصرفت بها رغم العيون التي بينونها، والرصد الذين يشرونهم في كل مكان لم يسعفهم الحظ للظفر بي، فقد نجاني الله منهم، واستمر تزويدي بالأخبار أولاً بأول، كل يوم يبرمه تأتيني الأخبار التي تجمع لي ويأتيني بها رفيقي كل ليلة، مع التموين بالماء والغذاء، ثم أراك يابنة العم تتخوفين عليّ بهذه الدرجة، وتكلفين نفسك مشقة المسافة وعناء الطريق وتأتين إليّ، تريدان حمل جزء من مسؤوليتي، هذا شعور طيب أتقبله منك، ولكني لا أريد أحداً أن يحمل عني جزء من مسؤوليتي التي ترضي تطلعاتي وطموحاتي، سأتحملها بنفسي خيرها وشرها، إنما وجودك عندي قد بيعت في نفسك الطمأنينة لأنك أصبحت تحت مظلة من يحمي المنضوي تحت كنفه، وهذا مالا نلومك عليه، ولو أنني في الوقت الحاضر في وضع

غير مناسب ولكن مادمت قد لجأت إليّ فسأحملك واعتبرك من ضمن المهام المنوطة بعائقي فلا تخافي، وكوني مطمئنة، وكما قلت بنفسك إن مكاناً يسعك فلن يضيق بي، قد يكون لوجودك إلى جانبي مايؤنس وحشتي في وحدتي، وهذا الوضع له ثمنه في وضعي الحالي، ولكن على كل حال مادمت قدمت إليّ فأهلاً وسهلاً وعلى الرحب والسعة، قدم خطت إليّ خطوة فلن أردّها، وبالذات خطوة من إنسانة عزيزة على نفسي، ستكونين أمانة في عنقي، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

كانت هذه الجملة تدور في ذهنه قيل أن يتنحّج رفيقه حسين قادماً إليه من الكهف المجاور ومعه دلة القهوة وشيئاً من التمر ليتناولوا طعام الإفطار من التمر والقهوة، ومع تناول القهوة أفضى إليه رفيقه بالأخبار التي جمعها بجعبته. أفاقت منيرة من النوم بعد أن أخذت رغبتها منه فوجدت زوجها لوحده فبادرته قائلة:

- : أين رفيقك؟
: لقد كلفته بمهمة يعود منها هذه الليلة.
— : من متى وأنت في هذا الكهف؟
: آه، منذ يومين، ويمكن أن نتنقل عنه هذه الليلة أو غداً.
— : تنتقل عنه!!؟
: نعم، فقد تكون رصد خصومنا قد اهدت إليه.
— : ولماذا لا تنتقل بعيداً عن أعينهم؟
: إن لي هدفاً من البقاء قرب البلد لاستطلاع ما يستجد من أخبار لأكون على بينة من أمرى.
— : ما يستجد من أخبار!! ولكن ذلك قد يضرّك، فربما نالتك طائلتهم.
: عسى الله أن يذري ويستر علينا، ولي نية للانتقال من هذا المكان.
— : حسب ما سمعت وما عرفت فإن ما ترويه الآن غير قريب منك مادمت في وضعك الحالي.

: ماذا تقولين؟

— : أقول إن كانت لك النية إلى التزوح عن هذا المكان فلا تتأخر يوماً واحداً.

: هل في الأمر ما يدعو للاستعجال؟

— : مكوثك هنا غير بعيد عنهم ليس في صالحك، ولن تزيدك الأخبار التي تحصل عليها إلا مضرة.

: صحيح، أما هذه فأنت على حق، لقد انحاز الناس ضدنا ولم يبق معنا غير العدد القليل تحت ستار الصمت، وربما نالتهم طائلة العقاب.

— : لقد تنكر لكم الكثير ممن تعدونهم من أقرب أقاربكم أو أصدقائكم.

: بلا شك، ولكن نخشى أيضاً إن أبعدنا عنهم أن يقل عددهم يوماً بعد يوم.

— : وربما سلم البقية الباقية منهم من طائلة الأذى.

: أما هذا فعلى جانب من الصحة.. لكن..

— : لا تقل لكن، فابتعادك قليلاً لن يؤثر في عدد أصدقائك وربما انضم إليهم أعداد إضافية ولو بعد حين.

: كيف؟!

— : بابتعادك قليلاً يخف الكابوس على من يبينون ولاءهم لكم الآن، ومتى خف

الضغط عنهم أصبح بإمكانهم أن يطمئنوا على أنفسهم، وأن يعملوا على استمالة أعداد أخرى إليهم.

: هذه الفكرة قد غابت عن بالي فذكرتها.

— : أنت أدري ببواطن الأمور مني، ولكن هذا ما تراه لي حسب الواقع الذي عشته.

: لا بأس!! وكما قلت لك إن بقائي هنا لفترة معينة ثم انتقل إلى مكان آخر.

— : إن كنت كما ذكرت فلا تتأخر، فالوقت ليس في صالحك مادمت هنا.

: صحيح، لن يستطيع أحد أن يأتي إليّ هنا.

— : إذا انتقلت إلى مكان آمن فقد تجد من يساعدك في ذلك المكان أو تتيح الفرصة لمن يصلك في المكان الآمن.

: بلا شك، وسنتحرك من هذا المكان غداً. يقول ذلك وهو شارد التفكير.

- : مالي أراك سارحاً في تفكيرك؟
 : لا شيء، لا شيء، ولكنني أفكر في كيفية الانتقال من هنا.
 — : ما الذي يعوقك؟
 : لا شيء. يقول ذلك وهو يفكر بها، ولكنه لا يريد البوح لها بأنها هي من العقبات التي تعوق المسيرة.
 — : وفهمت ما يدور بخلده من خلال نظرة رمقها بها أثناء الحديث فقالت: لا يهملك أمري سأسير أمامكم أينما سرتم.
 : لم يكن هذا ما يخيفني. يقول هذه الجملة مراعاة لشعورها.
 — : مجرد أن ننزل عن هذا الجبل سيصبح السير عندي سهلاً، لكنني في هذا الجبل أجد صعوبة في السير عليه مخافة أن أنزلق ويتأثر حملي.
 : أعانك الله يا ابنة العم على ماأنت فيه.
 — : وسلم رأسك، فما دام رأسك سالماً فلن أشعر بأي تعب.

* * *

ومضت سحابة ذلك اليوم، وفي المساء أسلمت منيرة نفسها لنوم عميق بعد التعب والجهد الذي لاقته من عناء الطريق بينما بقي زوجها يترقب وصول رسوله الذي بعثه في الصباح وسرح في تفكير عميق في ضوء ما أخبرته زوجته من أن الكثير من رفاقه قد تحولوا عن تأييده ومناصرته إلى خصومه، أو إلى الالتزام بالصمت، وكان هذا التحول إما بسبب ضغوط خصومه عليهم أو اتقاء لشهرهم، الله أكبر ما أعجب هؤلاء الناس!! بالأمس كنت أثق بهم تمام الثقة، وكانوا يعدونني بالوقوف إلى جانبي، بل أكثر من ذلك فقد إندفع بعضهم إلى المجاهرة علناً بمناصرتي في كل منتدى ومجلس يكتظ بالرجال، ثم لا يلبث اليوم إلا أن يسحب الفراش من تحت قدمي!! إيه، هؤلاء المتقلبون ممن لا يوثق بكلامهم مثل هؤلاء الناس يجب أن يكون المرء منهم على حذر، إيه، لقد صدق والله الشاعر حين قال:

جزى الله الحوادث كل خير أبانت لي عدري من صديقي

هذه المصاعب والنوازل هي التي توضح للإنسان من يحبه ومن يكرهه، من يسانده ومن يخذله من الناس البعيدين عنه أو من أقرب أقاربه، في مثل هذه الظروف الصعبة يتضح الإنسان على حقيقته، حينما تصقله حرارة الضائقة يتبين للإنسان معدنه، إن كان ذهباً أو نحاساً، إن كان فضة أو نيكلاً، فالإنسان مثل المعدن الذي لا تلتئم أجزأؤه الدقيقة وتماسك ولا يبرق لونه إلا إذا صهر تحت حرارة النار ولهبها، إنني لا ألوم الناس البعيدين عني في تصرفاتهم، ولكنني ألوم بني عمي ولحمتي، ألوم يديدي الذين جرفهم التيار معه، وأصبحوا يتنكرون لي الواحد بعد الآخر، وينضمون إلى خصومي. لا حول ولا قوة إلا بالله، قد يكون هذا الميل منهم بسبب ما يلاقونه من ضغط الخصوم، ويريدون اتقاء شرهم بهذا الإعلان الظاهري حتى يسلموا، وربما كان سبب ذلك عدم رؤيتهم أية بادرة تدل على تقدم في طريقي، أترى اليأس قد دب في نفوسهم؟ لا، لا يمكن أن أصدق أن اليأس سيدخل إلى نفوسهم بهذه السرعة، والدليل على ذلك أن البعض منهم قد لاذ بالصمت حتى يتبين الأمر. وقد يكون تنكرهم لي صحيحاً، لأنهم صاروا يذهبون إلى أعوان خصومي، يتناولون القهوة عندهم، يبادلونهم الأحاديث، يستمعون إلى وجهة نظرهم، يؤيدونهم إلى ما يذهبون إليه، ولكن صدق حدسي إن ذهاب أنصاري إلى أنصار خصومي من باب المجاملة واتقاء تسلطهم، حيث أصبح بعض هؤلاء متطرفين في تصرفاتهم، فذاك فلان قد بدأ يتصرف وكأن الأمر له، هذا يقدمه وذاك يؤخره، هذا يركيه وذاك يتهمه، ذاك يثبته في مكانه والآخر يجلبه عن بلده، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل وصل الأمر بمثل هذا الرجل أن يتصرف في شئون أبناء عمي؟ أل هذه الدرجة وصل بك الأمر يا ابن الأجواد تتصرف بمصائر الناس؟ لقد ترك له الحبل على الغارب بحيث وصلت أذيته للآخرين، ولا غرو في ذلك، فحتى ابنة عمي وزوجتي قد تلقت من المضايقة ما حملها على المجيء إلي وهي في هذه الحالة، إيه!! سيفرجها الله القائل في كتابه العزيز: ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ صدق الله العظيم، ستسير الأمور من حسن إلى أحسن إن شاء الله، وستعودين يامنيرة إلى بيتك في بلد أهلِكَ وأجدادك

معززة مكرمة، وسوف يتبين الخبيث من الطيب، وستختفي هذه الرؤوس المشمعة، وتختفت هذه الأصوات العالية أمام صوت الحق، وستشمخ هذه الجباه المطأطئة وتنطق هذه الألسن الصامته إن شاء الله، في وقت ليس ببعيد، هاه!! هذا صوت وقع خطوات؟؟ قد يكون رفيقي حسين، نعم إنه هو لننتقل إلى الكهف الثاني بعيداً عن المرأة.

وبوصول حسين وما معه من نتائج المهمة الموكلة إليه تعززت الفكرة عن الانتقال من هذا المكان إلى مكان أكثر أمناً وأبعد عن عيون الخصوم.

وفي الليلة الثانية عندما أسدل الليل ستاره على الكون انسل ثلاثهم من الكهف حاملين معهم ما خف من الطعام والماء وبدأ عبدالله يساعد زوجته للنزول من تلك الصخور حيث نمشي تارة ونزحف أخرى حتى نزلوا إلى الأرض فقال لرفيقه: أنا لا أستطيع أن أمشي ممشي زوجتي حيث أن مسيرها بطيء ولا أطيق ذلك، وسوف أسير أمامكما بحيث لا تختفیان عن نظري، وأكون على بعد عنكما لا نكوّن ثلاثتنا صوتاً أو زواً يلفت النظر، وهكذا استمر سيرهم طيلة الليل حتى إذا انبج الصبح، وقد قطعوا مرحلة طيبة من المسافة، التفت عبدالله فوجد رفيقه وزوجته وهما على مسافة منه، فرآها تضلع في مشيتها فربّع لهم في مسيره حتى لحقوا به، ورأى زوجته تمشي حافية القدمين فاندفع يقول:

- | | |
|---|--|
| ١ - ذَبِّ النَّفْوَ لِمُعْزِلِ الْعَيْنِ يَا حَسَيْنَ | وَشَلِّ لَهَا مِنْ رَدْنِ ثَوْبِكَ لِيَانَةَ |
| ٢ - وَقَطِّعْ لَهَا عَنْ سَبْتِ الْأَقْدَامِ طَرَقَيْنِ | عَنْ الثَّعْلِ لَا يُلْحَى أَرَيْشُ الْعَيْنِ إِذَا نَهَ |
| ٣ - يَا حَسَيْنَ وَاللَّهِ مَا لَهَا سَبْتٌ رَجُلَيْنِ | يَا حَسَيْنَ شَيْبٌ بِالضَّمِيرِ هَكَفَانَةَ |
| ٤ - جَنْبَ حَثَاثِ الْقَاغِ وَضَرْبَ لَهَا اللَّيْنِ | وَرَبْعَ لَهَا يَا حَسَيْنَ وَمَشَ مَشِيَانَةَ |
| ٥ - لَا يَدُ مَا جِئَا عَنْ الضِّلَعِ مِفْفَيْنِ | وَصَيُورَ مَا نَاطَى النَّفْوَ وَليَانَةَ |
| ٦ - وَإِنَّ شَلِّهَا يَا حَسَيْنَ بَرَمَا بَهَا شَيْنِ | تَرَى الْخَوِيَّ يَا حَسَيْنَ مِثْلَ الْأَمَانَةِ |
| ٧ - يَا حَسَيْنَ مَا يَشْتَكُ كُودَ الرَّدَيْنِ | وَلَا تَرَى الطَّيِّبَ رَسِيْعَ بَطَانَةِ |

فتصاحكت بصوت مرتفع وبإدارته بقولها: هذه النعال قد أمسكتها بيدي حين

وجدتها تعوقني في المشي لأنها أكبر من قدمي ففسختها، ولا عتب على رفيقنا في هذا، فقال لرفيقه لقد سارت الرجل الآن ومن الأفضل لنا أن نبقي في صخور هذا الجبل حتى يجيء الليل لنسرى ونواصل رحلتنا باتجاه الشمال حتى نتمكن في الليلة القادمة من اجتياز هذه المسافة بين الجبل والنفود. — ولكننا سنحتاج إلى بعير ليحمل لنا الماء إذا وصلنا إلى النفود، لأننا سنكون بحاجة إلى الماء الكافي لتلك المسافة. هكذا بدأ عبدالله هذا الحوار. صحيح، إنها مسافة طويلة خمسة أيام بدون ماء في ذلك النفود.

— ماذا ترى يا حسين؟

: لدي جمل قد أودعته عند أحد رفاقي يمكن أن أمر عليه وأخذه ليكون زاملة لنا ننقل عليه ماءنا.

— إن رفاقنا كثير، ولو عرجنا على أي واحد منهم فسوف يفرح بقضاء حاجتنا ولكننا لا نريد ذلك.

: إن مثل هذا الإجراء ربما أوقعنا تحت أعين الخصوم ليرصدوا مسيرنا، لكن جملي الوحيد لن يلفت النظر لا بزوله ولا بجبرته.

— لا تخف يا ابن مسطح لا تخف. يقول ذلك وهو يريت على كتفه.

: لكن الحيلة واجبة، أليس كذلك؟

— بلى، بلى. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

: إذا سوف أسرى هذه الليلة ولا يصبح الصباح إلا وأنا عند رفيقي فأحضر جملي منه في الليلة الثانية.

— يعني موعدك الليلة القابلة؟

: إن شاء الله، موعدنا الليلة القادمة، فهل ستمكثان هنا أم ستواصلان السير.

— ربما نمكث هنا يوم غد لكي تستريح هذه المسكينة المتعبة حتى تأتي إلينا القابلة.

: إذا على بركة الله، يمكنكما أن تستريحا في هذا المكان، وسأعود إليكما

ومعي كل ما يلزم لهذه المسافة إن شاء الله.

— هل ستعرف الطريق الذي سنضرب عليه؟

- : تمام المعرفة.
- أنا لا أعني الطريق العابر.
- : وكذلك أنا لا أعنيه، فالطريق السالك قد يكون فيه من الرصد ما يحول بيننا وبين اجتيازه، لكن هناك طرق أخرى أعرفها تماماً، فأنا ابن النفود وأعرف مسالكه وطرقاته.
- بارك الله فيك يا ابن ملائي.
- : وأنجارك من كل سوء، إذا أستودعك الله إلى لقاء في الليلة القادمة إن شاء الله. وما إن غادر حسين المكان حتى عاد عبدالله إلى زوجته فبادرته قائلة:
- أين ذهب رفيقك؟
- : رفيقي ونعم الرفيق، وصدق والله المثل القائل: رب أخ لك لم تلده أمك.
- أين ذهب؟
- : لقد ذهب لإحضار زاملة لنا تنقل ماءنا وزادنا أثاء اجتيازنا للنفود.
- زاملة!!
- : نعم، سيحضر لنا بعيراً لنقل ماءنا وطعامنا، فالنفود صعب ومظمأة ليس فيها ماء لمسافة خمسة أيام بلياليها حتى نصل إلى جُبة.
- خمسة أيام بدون ماء!! وهل جبة بهذا البعد؟
- : نعم خمسة أيام لأننا لن نسلك الطريق السالك، وإلا فإن جُبة ليست بهذا البعد، وسنأخذ ما يكفيننا من الماء على ظهر البعير.
- والبعير ألا يحتاج إلى ماء؟
- : بلى، ولكنه يصبر هذه المدة، فالإبل في مثل هذا الوقت من السنة في براد الجو ترد الخمس وربما السدس.
- ألا يوجد طول هذه المسافة ماء؟
- : أبداً، كلها رمال ومهالك حتى نصل إلى جبة.
- ليتني علمت بذلك، لأخذت معي عدد من القرب الكبيرة لملئها بالماء.
- : سيتدبر الأمر رفيقنا من عند أصحابه، فهم قد أعدوا لمثل هذا الأمر عدته.
- هل سبق أن قطعت النفود قبل هذه المرة؟

: نعم في سفرني الأولى قبل سنوات ولكن من غير هذا الموضع، بل مع موضع تتوفر به موارد المياه في مسافات متقاربة نوعاً ما، على مسافة يومين أو ثلاثة على أبعد تقدير.

— : إذاً، لماذا هذا الموضع بعيد عنه الماء؟

: هذا المكان يقع يساراً عن الموقع الذي سبق أن عبرته، حيث أن الطريق الأيمن أقل كثافة رمل، وأسهل وأكثر موارد للمياه.

— : إيه، نرجو الله أن يسهل لنا كل أمر عسير.

: سأرقب رأس هذا الجبل، لأستمع ما إذا كان حولنا أحد قبل أن نهجم.

— : أنت وشأنك.

وصعد عبدالله القمة يتنصّت ويرهف السمع، إذ ربما سمع من حولهم صوت بشر، أو نباح كلاب قطين لعرب حولهم أو حنين إبل، أو ثغاء شاء، ولكنه لم يسمع أي رفس وسط هذا السكون المطبق على الكون في جرف تلك الليلة الخريفية المعتدلة الجو، وكل ما رآه في هذا المشوار هو تلك الأنجم المتألقة على أديم السماء الصافية الزرقاء الداكنة التي تعطي التوهج لتلك الكواكب والنجوم بريقاً سحرياً رائعاً يخيل للرائي إليها أنه يكاد أن يلامسها بكفه، حيث أن لمعانها يجذب نظر الرائي إليها فيراها وكأنها قرية منه مع واقع بعدها السحيق عنه، هذه النجوم طالما أنسته في وحدته، ودغدغت خياله، وأذكت في مشاعره توهج الحيوية ونبض الحياة في عروقه عند ذلك استند على رأس تلك الصخرة وطفح بصره وخياله في مدى سحيق، وهو يحدث نفسه، الله أكبر مدير هذا الكون ومدير شئونه بدقة متناهية، وضبط محكم، لا تخفى عليه خافية بكل ما يجري فيه، يسير تديره وفق ميزان العدل والحكمة، ونحن البشر أحد مخلوقات الله، نعجز عن ضبط أنفسنا، فالواحد منا إذا أتاحت له فرصة أن يتولى شأنًا من شئون قومه بدأ يضغط على هذا، ويظلم ذاك، يذل قوم ويرفع رؤوس آخرين، لا يأمنه أقرب الناس إليه، وربما وجد المرء في بعض الأحيان من الناس الأبعدين عنه نسبياً خيراً من الأقربين إليه، ويكاد أن ينطبق على هذا الصنف المثل القائل: رب أخ لك لم تلده أملك كما سبقت الإشارة

إليه ومثل هذا الأخ رفيقي حسين صحيح إنه أحد أفراد قبيلتي، ولكنه ليس بالقريب مني وهو يحاول فدائي بنفسه وبماله، بينما أقرب الناس إليّ يحاول القضاء على حياتي، جزاك الله خيراً يا ابن ملاقي لقد كنت والله الصديق الصادق، تجهد نفسك وتعرضها للأخطار، وتتجشم الطرق الوعرة تحت جنح الظلام، تدوس المخاطر، تفتحكم المغامرات من أجلي!! ترى ما الذي يعود عليك من النفع مني؟ حيث لا أزال خال الوفاض لا أستطيع مجازاتك على ما تقدمه لي من أعمال جليلة، ولكن إذا قدرني الله ونلت ما أصبوا إليه فسوف أجزيك بما تستحق، لقاء ما أسديته لي من معروف، لله درك يا حسين!! تذهب وتغدو على قدميك لأي مسافة أرسلك إليها، أو تذهب إليها طوعاً وأنت تتوقع أن ترى أو تسمع فيها مايفيدني من تصرفات أو أخبار، وها أنت الآن تذهب راجلاً إلى أحد رفاقك لتحضر منه جملك، وتعهده بتجهيزه بكل ما يلزم الرحلة النفودية الشاقة من وسائل الحفاظ على الحياة من ماء وطعام، هكذا يكون الصديق وإلا فلا، فإما أن يكون الصديق مثل صاحبي أو فلتنقطع الصداقة، وأعني الصداقة الوقتية أو الصداقة المبنية على منفعة معينة التي إذا انقطعت انبتر حبل الصداقة على إثرها.

أترى رفيقي يحصل على بعيره؟ أتراه يحصل على تجهيزات السفر من قرب الماء الكبيرة وغيرها؟ إنني واثق من أن الرجل سيجدها أو يتدبرها، إنه رجل يسد الحلة ولا خوف عليه، هاه!! لقد أبطأت على المرأة، فقد يخيل إليها أنني لم أتأخر إلا لأمر مهم، وقد ينفد صبرها وتصوت لي، لا، ليست خفيفه مثل بعض النساء، إن لديها من الرزانة ما يجعلها تنتظر عودتي دون أن تنبس بكلمة واحدة، ولكن على أي حال فقد مكثت ما فيه الكفاية وطمأننت بعدم وجود أي حس حولنا، وفي الصباح بإمكانني أن أصعد أعلى قمة في الجبل لأقرب ما حولنا وذلك للإطمئنان فقط وإلا فلن يصلنا من رصدهم أحد في مكاننا هذا مهما كانوا بسم الله وعليه توكلنا، آه، هذه منيرة قد جلست هي الأخرى على ظهر هذه الصخرة تترقب مجيئي لا أكاد أرى سمارة زولها وسط هذا الظلام الدامي.

- : مالك تأخرت يا عبد الله؟
- : لا لشيء، لكنني أردت التأكد حيث سمعت بعض الأصوات ويبدو أنها أصوات طيور عند الميت.
- : لقد قلقت حين تباطأتك.
- : لا تخافي، وكوني مطمئنة، ألا تريدان أن تنامي؟
- : أنام!! لقد طار النوم من جفوني.
- : ألسنت متعبة بعد مسير هذه المسافة الطويلة؟
- : لا أشعر في التعب في سبيل راحتك، نفسي فداك!!
- : لا عدمننا وجودك.
- : ألا تحب أن تنام؟
- : أوه، الليل طويل، ولم أتعود على النوم في هذا الوقت المبكر.
- : بالفعل، إن الوقت مبكر!!
- : يكفيني من النوم سويعات قليلة، أستيقظ بعدها نشطاً قوياً.
- : لم تخبرني أين تريد تتجه الآن؟
- : أين أريد!! آه... سأبتعد الآن عن خصومي في مكان أمين لفترة من الوقت حتى يتضح الموقف.
- : أي موقف تعني؟
- : لقد علمت بأن خصومي سوف يستعينون بقوة خارجية لمطاردتي، وهذه القوة لا تستطيع الوصول إلي في المكان الذي سألجأ إليه.
- : لا تستطيع!! إذا كنا سنصل إليه على أقدامنا، فما الذي يمنع قوة كما تذكر من الوصول إلى نفس المكان.
- : أنسيت أن معنا دليل سيوصلنا مع أقرب المسالك إرهم بطبيعة الحال يجهلون طرق النفوذ، وربما وقعوا في متاه من متاهاته أو مهلكة من مهالكه.
- : في ظني أنهم لن يعدموا دليلاً يوصلهم إلى غايتهم تحت تأثير الإغراء المادي.
- : ماذا تعنين؟

— : أقصد أن الأحمر والأبيض سيفري من يوصلهم إلى نفس المكان.
: ولكننا لن نمكث فيه طويلاً إذا شعرنا بأي خطر هناك، ورفاقنا كثير في ذلك المكان والله الحمد ولن نعدم مساعدتهم.

— : ليس في ذلك شك.

: إنني واثق من أنهم سيقفون بجانبنا ولن يخذلونا.

— : هل جاءك منهم خبر؟

: وإن لم يأتني خبر قاطع، لكن حدسي وهاجس نفسي أنهم سيقفون إلى جانبنا إذا وصلنا إليهم مهما كلفهم الأمر.

— : ألا يخشون نقمة خصومنا عليهم؟

: لا أعتقد ذلك، فلديهم من المنعة في هذا النفود ما يشد ظهورهم ويجعلهم أقوياء.

— : ماذا تعني؟

: أقصد أن النفود بكثبانته ومجاهلته ومظامئته يشبه الحصن الحصين يحمي من يلتجئ إليه، ومن لا يعرف طريقه ومسالكه فلن يفلح في الوصول إلى أعماقه، ولن يجد من يختبئ في خبويه وبين حباله وعروقه وكثبانته.

— : هذا شيء مطمئن.

: لولا هذا لما اتجهنا إليه، فهو أفضل من الجبل في كثير من الأوقات لولا قلة الماء.

— : هاه!! أفضل من الجبل!!

: نعم، فالجبل كهوف محدودة، وتلاع معروفة، وصخور صعبة المرتقى، ولهذا فإذا توجهت قوة من عشرات الرجال أمكن تفتيش الجبل وفليته فلياً وتمشيطة حتى يتم العثور على من فيه، لكن النفود بحر فسيح لو انتشرت فيه أكبر قوة فإنها ستجد صعوبة في تمشيطة والإحاطة به.

— : هاه!! أعتقد ذلك؟

: ومن ذا الذي سيشرف كل كتيب، وينقب في كل خبٍ ويبحث في غابات

أشجار الأرض التي تغطي تلك الكثبان، أو يجتاز الأرتال المنقادة مما يشبه
الجبال الرملية؟

— : بشرك الله بالخير لقد اطمأنت نفسي.

: تقولين هذا لأنك لم تعرفي النفود ولم تعبرينه من قبل!!

— : صحيح، والله لم تطأه قدمي قبل ذلك.

: أتدري أن الإنسان والحيوان في النفود يحتاج إلى كمية من الماء أكثر من

احتياجه في أي مكان آخر؟

— : لماذا؟

: النفود في مثل هذا الوقت رمال لينه رخوة تغوص فيها أقدام الإنسان وغيره، أثناء

عبوره فيبذل طاقة أكبر من طاقته في المسار العادي، ولذلك فإن الجهد الذي

يبدله في مسيرة يعادل ضعف ما يبذله في مكان آخر، أما في وقت الأمطار

فإن أرضه تتصلب وتشتد ويكون المسير فيه لا يختلف كثيراً عن المسير في

الأرض المستوية إلا أنه يمتاز بليته ونعومته.

— : متى سنصل إليه!! لقد برت هذه الأرض الحثة بحصائها الخشنة قدمي.

: سلمت قدمك، لقد رأيتهما أمس حينما كاد الدم أن يتحلب من قدميك،

فألمني ذلك المنظر وحز في نفسي.

— : لا عليك يا أباطلال!! فكل صعب يهون في سبيلك، والله لكأني أسير على

الابرسم والحرير.

: ما هذا الذي تتفوهين به يا ابنة الأجواد؟ إنني أشعر بالانتعاش والنشاط كلما

سمعت منك مثل هذه الألفاظ!!

— : كما أشعر بالطمأنينة حينما أسمع نبرات صوتك إلى جانبي.

: ألا تريد أن تنامي؟

— : وكيف لي ذلك وأنت تحدثني بهذه الأحاديث الشيقة التي انقطعت عنها منذ

مدة طويلة.

: هذه ليست أحاديث شيقة، بل يشوبها الحذر ويكتنفها الترقب، ويلفها

التوجس، أما الأحاديث الشيقة فعلاً فليس هذا وقتها.

— : لكن أذنأي تسمع كل حديث ينطق به لسانك وهو يتدفق على نفسي بطعم
الشهد ولذة الأحلام الجميلة مهما كان موضوعه.

: حتى في هذا الظرف الحرج؟!

— : كما قلت لك، فإن رنين صوتك بمسامعي يهزني طرباً، وأجد راحة نفسية
وهدهوء روحي لا يماثله شيء في الوجود.

: لو لم يأتي من مرافقتك لي في هذا المشوار إلا حديث هذه الليلة لكفاني
حافزاً ومشجعاً يدفعني إلى المضي في طريقي إلى آخر المشوار.

— : وفقك الله فيما تصبوا إليه.

: آمين!! والآن لننم، فقد حان وقت النوم وأنت متعبة.

— : تصبح على خير.

* * *

وعندما أسدل الليل رداءه في مساء اليوم التالي سمع عبدالله وقع خطى
البعير، ولم يمضِ طويل وقت حتى وصل رفيقه وأناخ بعيره ثم عقله، فأسرع
إليه عبدالله قائلاً:

— : حياك الله يا ابن ملاقي.

: وأبقاك.

— : آه!! بشرنا، عسى أن تكون وجدت كل شيء.

: كل شيء على ما تريد، لولا أن الزمالة صغيرة.

— : تعني البعير الصغير؟!

: نعم، فهو صغير لا يركب، فلم «يُغَسَف» حتى الآن للركوب.

— : الأمر بسيط، إذا نقل لنا ماءنا وزادنا فذلك خير كثير.

: لا شك، ولكنني كنت أطمح أن تركب عليه رفيقتنا إضافة إلى ما عليه من الماء
والطعام.

— : آه!! صحيح، كان بودنا ذلك ولكن...

: بإمكانني العودة هذه الليلة لإحضار بعير آخر من أحد رفاقنا أكثر تحملاً من هذا.

— لا، لا، هذا يكفي لحمل متاعنا وشرابنا، أما الركوب فلسنا بحاجة إليه.
: وزوجتك؟!

— هي الأخرى ربما لن تحتاج إلى ذلك، والشيء المهم أننا لا نريد كثرة الأزوال والآثار.

: كما تريد يا أخا نورة.

— عسى أن تكون قد أحضرت لنا من القرب الجيدة؟ يقول ذلك وهو يلمس القرب بيده.

: لقد أحضرت خمس قرب، وهي أنظف وأجود ما عند أهل الحي، ثلاث منها نظيفة واثنان جيدتان، ولو أن إحداهما تنضح ماءها لكنها خير ما وجدت، فقد جمع لنا رفيقنا فلان كل ما عند أهل الحي من القرب واخترت هذه الخمس منها.

— جمع كل ما في الحي من القرب؟! يقول ذلك بلهجة استفسار حذرة.

: نعم، ولكنه لم يبح لأحد عن غرضه من تلك القرب وذهبت معه بعد مغرب هذه الليلة إلى القليب الفلاني وملأناها بالماء بعد أن شددنا على هذا القعود، ووضعنا عليه ما يسر الله من الزاد، فحملنا عليه القرب، وأقبلت هنا بينما عاد إلى أهله دون أن يعلم بنا أحد.

— حسناً فعل أخو فلانة.

: ما رأيكم في المسير الآن؟

— عليك أن ترتاح قليلاً من مسافة الطريق وتتناول شيئاً من الطعام ثم نرتحل.
: لست متعباً، وليس لي رغبة في الأكل، فإذا رأيتم أن نسير مادماً في منتصف الليل الأول لنقطع مسافة طيبة يمكننا أن ندخل النفود قبل أن ينباج نور الصباح.

— رأي مبارك، عسى ألا يرغب جملك عند الحمل؟

: هو كذلك، ولكنني قد ربطت فمه لمنعه من الرغاء.

— حسناً فعلت.

: كما تعرف البعير غير المتعود على الركوب أو الحمل بكثير من الرغاء عند

الاقتراب منه أو الحمل عليه، ولذلك فقد ربطته حتى نصل إلى النفود، فنطلقه حتى لو رغبى فلن يسمع رغاؤه.

— إذا حمل عليه بقية أمتعتنا.

: كل شيء.

— عليك أن تسبقنا ونحن في أثرك.

وسار حسين مع جملة يتلوه عبدالله وزوجته يمخرون دياجير الظلام الدامس في تلك الليلة المحاق، يشقون تلك النجاد والوهاد شقاً رقيقاً، يطفحون فوق الروابي، ويغوصون جوف الوهاد، لا يرون من الأرض شيئاً سوى مواطىء أقدامهم برؤية غير واضحة بحيث لا يميزون بين جرف الوادي من مسيله إلا بحاسة اللمس، ولا يميزون بين شجر الرمث وشجيرات العوسج إلا حين تلسع أقدامهم الأخيرة بأشواكها العاسلة، تفتت جنادل الصخر تحت مواقع أقدامهم، لا يرون أي معالم للجادة التي وطأتها الرجل قبلهم في هذا الليل الدامس، تتقاعس قمم الجبال الشامخة في نظرهم فيرونها كالروابي المتواضعة، أو الآكام اللاصقة بالأرض مع علو شماريخها الشاهقة، في هذه الليلة الخرمس بجوها الساكن تماماً لا يسمع فيه سوى وقع الخطى المتوثبة ونحيط الجمل الصغير تحت القرب المليئة بالماء مع بقية متاع الراجلة الذين يطوون البيداء خلفهم، استمرت هذه الرحلة جوف غياهب أحشاء الليل، وقبيل انبلاج الصباح بقليل وطأت أقدامهم حواشي بساط النفود الناعم بعد أن اجتازوا الأرض الحثة، وعندها شعروا بنوع من الراحة النفسية، وما إن امتدت خيوط الفجر عبر الأفق حتى توقفوا وأدوا صلاة الفجر ثم استأنفوا رحلتهم ولم تفرش الشمس رداء نورها الذهبي على صفحات النفود الذهبية حتى دخلوا في أحد خلول النفود المليء بشجر الأوطى الكثيف، بعد مسيرة ليلة كاملة، عند ذلك القوا عصا الترحال، وحطوا عن البعير حملة، وعقله صاحبه بين أشجار الأوطى وأحضر له من العلف ما يشبعه، ثم بادر بإشعال النار وعمل القهوة التي تناولوا معها طعام الإفطار من التمر، ثم شذب حسين جزءاً من أغصان شجرة الأوطى الكبيرة وأصلح المكان المريح لمنيرة لترتاح فيه، بينما انتقل عبدالله ورفيقه بعد

ذلك إلى شجرة أخرى ليأخذا راحتتهما، حتى إذا كان بعد الظهر وتناولوا طعام الغداء من خبزة شواها حسين بالجمر وثردها بالسمن استأنفوا رحلتهم مع تلك الطرق التي يعرفها حسين تمام المعرفة، يرفعهم دعص ويخفضهم خب، يشبون على الأجزاء الصلبة، وتغوص أقدامهم وأخفاف جملهم في بعض المنحدرات والوهاد الرملية، مما جعل الواحد منهم يبذل مجهوداً مضاعفاً لإخراج قدميه من تلك الرمال الناعمة وهكذا ديدنهم آخر ذلك النهار إلى منتصف الليلة القادمة حين شعر عبدالله أن زوجته تعاني من الإجهاد ما يجعلها تخط رجلها أحياناً وتحاول الوقوف ولو ملياً لتأخذ قسطاً من الراحة، ولا تريد أن تبين ذلك لزوجها أو لرفيقه مخافة تكدير صفوه وإعاقة في مسيره، تنفوه أحياناً ببعض الكلمات التي تدلل بها على أنها لم تكن متعبة، لكن ذلك كان منها من باب التشجيع حيث تتصنع مثل هذا الوضع، وما إن رأى منها زوجها ماهي فيه من حالة إرهاق نادى رفيقه وأخبره أن يختار لهم مكاناً لبيتوا فيه، حيث حطوا الرحال في خب تكتنفه غايات من الأرطى فعقل حسين البعير ووضع له من العلف ما يكفيه فظلوا بمكانهم وناموا ليلتهم تلك، ثم بدت تباشير الصباح فأدوا صلاة الفجر، وتناولوا القهوة مع التمر ثم استأنفوا رحلتهم حتى الظهر حيث استراحوا لتناول الغداء.

وهكذا استمر مسيرهم على هذا المنوال ثلاثة أيام لم يذره ذائر ولم يفرعهم مفزع، حتى إذا جاء اليوم الرابع شعرت منيرة بمقدمات آلام المخاض، فلم ترد البوح لزوجها بما تشعر به، بل سكنت وكتمت ما في نفسها وأخفت ما تشعر به طيلة ذلك اليوم رغم موجات الألم التي تعصف بها وتلوى بوجهها رغم تلثمها بخمارها لتخفي معالم هذه الآلام التي تعصف بمحياها، لكنها لم تستطع إخفاء ذلك عندما اشتد عليها الألم في اليوم الثاني حيث أخبرت زوجها أنها متعبة تريد المشي قليلاً قليلاً، فصار عبدالله يمشي مع الجمل وتأخر رفيقه حسين يماشيها حتى إذا وصلت إلى حقف من الرمل لم تستطع اجتيازه فسقطت عليه حيث كانت في آخر لحظة من الوضع،

وعندما رأى حسين منها ذلك رمى عليها عباءته وأسرع إلى رفيقه ليخبره أن زوجته في حالة وضع فأسرع الإثنان نحوها بعد أن كانت قد وضعت وليدها ولفته بجزء من خمارها ثم بطرف عباءة حسين وناولته حسين لينقله إلى والده بينما بقيت في مكانها ترتب نفسها ثم قامت لتواصل سيرها غير أن زوجها أسرع إليها آمراً إياها أن ترتاح في مكانها، ثم أمر رفيقه بإعادة الجمل وإناخته للإقامة ذلك اليوم بليلته في نفس المكان حتى ترتاح المرأة مما هي فيه، وبعد أن استقروا في مكانهم سارع حسين لتحضير وجبة سريعة للمرأة وعندما فرغ منها عاد إلى رفيقه وعلى يديه القادم الجديد فقال له:

— : بارك الله لك في هذا الولد.

: آمين، آه !!

— : مالك تتأوه؟

: ليته لم يأت في هذا الظرف.

— : هاه!! لماذا؟

: هذا ظرف خرج وقت غير مناسب.

— : استعذ بالله من الشيطان الرجيم، فربما يكون له شأن.

: شأن!! وأي شأن يرجى له، لقد أتعبنا وأتعب أمه وجاء في وقت خرج.

— : لا تقل هذا يا أخا نورة، ولكن ماذا ستسميه؟

: وهل له اسم غير «متعب» سأسميه متعباً.

— : أنت حر في ذلك، لكن هذا الاسم قد لا يكون مناسباً.

: أجل، إنه أنسب الأسماء له، آه، ليته تأخر حتى نصل إلى البلد وتكون المرأة

عند النساء اللاتي يعتنين بها.

— : لا ضير في ذلك. فلم يبق علينا غير نصف يوم وبإمكانني أن أذهب الآن على

قدمي وأحضر من هناك إحدى العجائز مع زمالة تحمل عليها المرأة وطفلها

حتى نوصلها إلى من يعتني بها.

: أنت صاحب معروف علينا، وهذا من تكلمة معروفك إذا فعلت.

— : سأنتقل من الآن وأحضر المطلوب.

: كن حذراً.

— : لا توصي حريصاً، ثم إنكم أصبحتم الآن في مأمن إن شاء الله ولن يذورك
ذائر.

* * *

: وفقك الله يقول ذلك بعد أن غادر رفيقه المكان وعاد هو إلى زوجته فسألها
عن حالها وعسى ألا تكون متعبة؟

— : فردت عليه والابتسامة تعلو محياها: أبداً لم أشعر بأي تعب، وقد أصبحت
الآن أخف من ذي قبل.

: لله درك!! ما أصبرك وأقواك من امرأة!!؟

— : ولم العجب!؟

: الآن قد وضعت طفلك لتوك وتقولين أنك لا تشعرين بأي شيء بل أصبحت
أخف من ذي قبل!!

— : إنني أقول الحقيقة.

: قد يكون ذلك من باب التشجيع والتجمل، ولكن من متى وأنت تحسین بآلام
المخاض.

— : آه، منذ يوم أمس، وحاولت التصبر فلعل الأمر يتأخر حتى نصل إلى البلد
ولكن إرادة الله عاجلتني فحصل ما حصل.

: إيه!! الحمد لله على سلامتک.

— : وسلامة هذا الوليد الجديد.

: لقد كدت أن أرمي به ليتدحرج من فوق هذا الكتيب.

— : لا شك أن ذلك من باب المزاح!!

: أجل!! لم يصير قليلاً، لم يأت إلا في هذا الوقت الحرج!؟

— : هذه إرادة الله أن يخرج في هذا الظرف.

: ولهذا سأسميه متعباً.

- : متعب !!؟
- : نعم، لأنه جاء في وقت التعب وأتعبك.
- : إيه، سمّه ما تشاء، فلا عبرة بالاسم المهم المسمى.
- : آه !! الحمد لله على حسن تدييره.
- : ماذا بك؟ لا تحمل همًا، إنني أستطيع السير حتى الوصول إلى البلد، فضلاً عن أن رفيقنا ذهب لإحضار من يعتني بي من النساء.
- : جمل الله حاله، وكثر خير، هذا الرفيق الرفي، فعسى الله أن يقدرني على رد الجميل إليه.
- : ترى من يحضر معه؟
- : لا تخافي عليه، هذا الرجل يعرف كل شيء.
- : ليتني أوصيته على بعض الأشياء.
- : سيحضر لك من يجهز لك من تريدين من العجائز المجربات ليقمن بمثل هذه المهمة.
- : إيه، وفقه الله.
- : كأنتي أرى الآلام تعصف بوجهك فهل تشعرين بشيء؟
- : لم يكن ألمًا بالمعنى المفهوم، غير أنني أشعر ببعض المغص الخفيف، وهذا مالا يدعو للقلق فكن مطمئناً، إنني بخير.
- : أنت وجه الخير.
- : إنني آسفة لقد أتعبتك، ولو علمت أنني سأنغص عليك وقتك لصبرت على ما أنا فيه وأبقيتك طليقاً.
- : لا تقولي هذا، إن وجودك معي يجعلني أشعر بالطمأنينة عليك، مع الراحة النفسية التي يبعثها وجودك معي.
- : حقق الله آمالك، وسلم لنا رأسك.
- لم تمض سحابة ذلك اليوم حتى عاد حسين ومعه راحلة عليها كامل تجهيزها، وعليها عجوز من نساء الحي عليمه بشئون الولادة حيث تولت أمر منيرة، وما إن وصلت تلك السيدة حتى قالت للزوج: إترك أمر زوجتك إلينا،

ووكّل بها الله فسوف نعتني بها وبوليدها ولا يشغل بالك أمرها، فشكرها على ذلك وأركبوا النفساء على البعير واتجه الجميع من ساعتهم ولم يمض من الليل ما يقارب نصفه إلا وقد حطّوا رحالهم في جُبة، فاستقبله أميرها وآواه وأحسن إليه بما هو أهله، ولم تطلع شمس اليوم التالي إلا وقد انتشر خبر وصوله في طول البلد وعرضها، ولم تطل إقامة عبدالله في جبة حيث نعى إلى سمعه بعد أيام قلائل أن هناك من يتعقبه من خصومه، فغادرها مع رفيقه حسين وثالث معهما متجهين شمالاً، ولم يمض طويل وقت حتى جاءت مفرزة من القوة الأجنبية التي أرسلها خصومه للحاق به والقبض عليه، لكنه أفلت منهم قبل أن يدركوه، أما هو فقد يمم بلاد الرافدين بعد أن مرّ بمن عرض عليه المساعدة والحماية لكنه لم يقبل ذلك، وإنما مضى لهدفه الذي رسمه في ذهنه، وفي بلاد الرافدين شعر بالأمان فأقام هناك فترة، بينما انتقلت زوجته إلى الجوف، وما كاد عبدالله يستقر هناك حتى أرسل رفيقه مرة ثانية يستطلع له الأخبار ويمر على زوجته وابنه ليعرف أخبارهما، وبعد فترة من الزمن عاد إليه حسين وفي جمعبته جملة أخبار سارة بالنسبة إليه منها انتقال زوجته وابنه إلى أحد أقاربها ومنها عودة الحملة المرسلة لمطاردته وهلاكها بالإضافة إلى سير الأمور في صالحه، هذا فضلاً عن الأخبار السيئة التي نغصت عليه حياته، وفي تلك الأمسية جلس يصارع هواجسه طوال الليل، وبالقرب منه رفيقه الذي استسلم لنوم عميق بينا هو يتململ في فراشه إذا اضطجع، ويجلس متحفزاً يتقلص جسمه على ضآلته فيبدوا أصغر من حجمه الطبيعي بكثير، ثم يقف ويتمدد فيكاد أن يلامس سقف المنزل، يذرع الدار روحة وجيئة، يجلس القرفصاء تارة ويشرف على ذروة جدار متهدم أخرى، يتنقل في البيت من زاوية إلى زاوية، مشدود الأعصاب، إذا أحس بالإعياء الوقتي عاد إلى الفراش، ولا يكاد يتمدد فيه ويسترخي جسمه حتى يشتد مرة أخرى، وتتقلص عضلاته وينكمش تمدده فيشب جالساً فوق فراشه، يرافق هذه الحركات نبرات صوت حادة حيناً وخافتة أحياناً أخرى وتأخذ الهمهمات مكانها بين هذه النبرات، وهذا ما جعل رفيقه حسين يستيقظ من نومه على هذه الأصوات ليرى شبحاً مقعياً على شرفة

الجدار المتهم لم يميزه تحت جناح الظلام فنهض من فراشه فزعاً وهو يظن أنه قادم غريب، فأسرع إلى فراش رفيقه ولمسه فلم يجده فأخذه الدهول، وقبل أن يظهر صوتاً طمأنه عبدالله بألا يفعل، فابتدرو هذا بقوله:

— : مابك يا أخا نورة لم تنم؟

: آه!! أمر بسيط أرقّت له جفوني. يقول ذلك هادفاً إلى تهدئة رفيقه.

— : أمر بسيط أسهرك إلى هذا الوقت من الليل حيث الفجر على وشك الأذان!!؟

: نعم، كن مطمئناً يا رفيقي، فليس هناك ما يقلق.

— : فداك روحي، هل من سبيل إلى مساعدتك؟

: لم تذخر يا ابن ملاقي، ولكن ليس هناك مايزعج.

— : عسى أن يكون خيراً؟

: إيه!! إنها انعكاسات نفسية.

— : قد تكون رأيت في هذا البلد ما لفت نظرك وشد انتباهك فقد بهر عقلي ما رأيت فيها.

: وماذا رأيت!!؟ لم تأت غير أمس ومررت بمدخل المدينة فكيف لو رأيت ما رأيت؟

— : إذا سأقوم بعمل القهوة لتخبرني ببعض ما شاهدت أثناء ذلك قبل أن تجب صلاة الفجر.

وبعد أن شرع حسين بعمل القهوة قال لرفيقه: أخبرني عن بعض مشاهداتك في بغداد.

: لا بأس يا ابن ملاقي، ولكن قبل ذلك استمع إلى ما قلته قبل قليل.

— : هات لا فضّ فوك: يقول ذلك حسين وهو يصغي لرفيقه بكل جوارحه.

: آه!! هكذا جرّ عبدالله هذه التنهيدة ثم قال:

٨ — يَا هَيْه يَا لَيْلِي لِي مَن النَّاسِ وَذَاذَ مَا تَرَحَّمُونَ الْحَالِ يَا عِزُّوَتِي لَيْه

٩ — مَا تَرَحَّمُونَ أَلَيْلِي غَدَا ذَمُّهُ أَبَدَاذَ ذَا لَهْ زَمَانٍ وَحَرَّقَ الدَّمْعَ حُدَيْه

١٠ — ذَا لَيْلِي زَمَانٍ مَا تَهَنَّيْتُ بِرَقَاذَ وَقَصَّرَ الْحُثَا قَامَتْ تَهْدُمُ مَبَانِيَه

١١- مِنْ يَوْمِ شَفِيتَ الشُّوقَ مَرْبُورِ الْأَلْهَادِ
 ١٢- وَأَقِفْ يَجْرُ الثُّوبَ لِلضَّلَعِ شَرَّادِ
 ١٣- الشُّوكَ مَالَهُ عَنْ مَوَاطِنَهُ رَدَّادِ
 ١٤- بِمَشْمَرِخَاتِ هَيْفٍ بِالرَّخْفِ صَعَّادِ
 ١٥- أَخَذَ لِمَانٍ مَعَ لِمَانٍ لَهُ أَرْوَادِ
 ١٦- وَجِئَتْ سِقَاةُ مَنْ أَوَّلَ التَّوَسِّمِ رَعَّادِ
 ١٧- حَيْثُ إِهْلَاهَا لِلْمَنْهَزِمِ دَارُ مَبْعَادِ
 ١٨- وَمَصْنُوحُ بْنُ قَرْحَانَ عَرِيبُ الْأَجْدَادِ
 ١٩- نَكَسَ بِهِمْ مَخْسِنٌ زُعَامِرَ وَزَّيَّادِ
 ٢٠- وَفَزْنَا عَلَى شَيْبِ الْغَوَارِبِ غَنَّةَ غَادِ
 ٢١- وَجِئْنَا قَلِيبَ صَارٍ فِي وَسْطِ الْأَنْفَادِ
 ٢٢- لَنَا ابْنُ رَخِيسٍ نَازِلُ هَاكَ الْأَجْرَادِ
 ٢٣- يَا ابْنَ رَخِيسَ الْحَضِرِ يَتَمَوَّنُ بِلَادِ
 ٢٤- تَبَعِي لِقَارِبٍ مِنْ هَلِ الْجُوفِ حَلَّادِ
 ٢٥- وَأَهْلُ سَكَاكَ نَعِمَ بَدَّالَهُ الرَّادِ
 ٢٦- أَوْيَ وَاللَّهِ يَا الضُّوْجِي مَنْ أَجْوَادِ
 ٢٧- كُنْ جَيْثُ بِلْدَوَانٍ بِالْأَذْوَادِ وَرَادِ
 ٢٨- وَاجْلُوْ شَرَشُوْخَ الْمَعَاتِيْرِ لَأَنْقَادِ
 ٢٩- لَنَا الشُّطُّ لِي فِي يَمَّةِ الشُّطِّ مَنَقَادِ
 ٣٠- يَا مَنَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَخَالِيقِ وَغَبَادِ
 ٣١- هَذَا فُلَاجٌ وَهَذَا كَرَادِ
 ٣٢- وَهَذَا يَهْلُ الْغَزْلِ مِنْ فَوْقِ الْأَوْنَادِ
 ٣٣- كُنْ جَيْثُ لِي سَوِّقٍ وَرَا جَسِيرٍ بِعْدَادِ
 ٣٤- قَبَّةٌ ذَهَبٌ يَأْقُوْثُ جِي الزُّمْرَادِ
 ٣٥- لَا هُوَ نَشْفُ لِي وَلَا لِي بِمُرَادِ
 ٣٦- مِنْ يَوْمِ جَانِ الْعِلْمِ تَخْرِيزُ الْأَوْنَادِ
 ٣٧- وَجِئْنَا بِدِيْرَةٍ مِنْ يَعْدُوْنَ الْأَجْدَادِ
 ٣٨- هَبْ الْهَوَى مَا يَذِرِي الرِّيحَ وَالْأَنْقَادِ
 ٣٩- اللَّهُ يَسُوْذُ وَجْهَكُمْ يَا هَلُ الرَّادِ

وَمَجْلَى عَنْ دَارِ جَدِّهِ وَأَهَالِيهِ
 وَمُشَلِّحٌ يَاطَا عَلَى أَقْدَامِ رَجُلَيْهِ
 أَلَا وَلَا سِنْتَ قَوِيٍّ يُوقِيهِ
 وَكَمْ مَا عَمِرَ مِنْ خَوْفِ الْأَرْوَامِ رَاقِيهِ
 وَلَا لَقِيَ مِنْ عِزْوَتِهِ مَنْ يَلْقِيهِ
 مَا طَالَعَتْ حُشَمَ أُمِّ سِلْمَانَ نَسْقِيهِ
 وَمِنْ لَأَذْبَةٍ كُنَّ الْحَرَمَ لَا يَدِيهِ
 كُلُّ الْعَسَاكِرِ لَكَسَةٍ تَلْقِي آتِيهِ
 وَالْكَلُّ مِنْهُمْ مَا شَافَ حَيْثُ وَأَهَالِيهِ
 وَكَمْ عَمِلَ يَتَكَيُّ مِنَ الْقَيْظِ حَادِيهِ
 بِالْخَمْسِ مَعَ نِصْفِ الثَّمَانِيْنَ بَدَلِيهِ
 قَالَ أَقْبِلُوا وَأَنْتُمْ هَلِ الدَّارُ يَا هَيْتِ
 وَالْحَضِيرِي بِالْهَدْيِ يَكْرَهُ يَدْوِيهِ
 وَنَدَعِي عَسَى الْوَابِلِ يَسْقَى بِفَالِيهِ
 وَنَعْمَ التَّكْيِيفُ لَنَا لَقَى السَّيْرَ طَاوِيهِ
 وَنَعْمَ الرِّفْقُ لَنَا نَصَا أَلَمَدَحِ أَهَالِيهِ
 وَكُلُّ نَزْنٍ لِلْعَشَائِرِ نَوَادِيهِ
 لَنَا ذَوَّةُ الرَّاعِي وَحَلَوُ التَّدَاوِيهِ
 كُنَّ الشُّفْلَحُ فَوْقَ مَوَاجِثِ جَارِيهِ
 وَالْكَلُّ مِنْهُمْ وَالْأَقْدَارُ مَشْقِيهِ
 وَهَذَا مُرِيخٌ وَمَسَاهِرَاتُ ذَوَالِيهِ
 وَهَذَاكَ تَيْرِمٌ لَهُ وَهَذَا يَسْدُوِيهِ
 كُنَّ الدَّبَا الْكَثْفَانُ يَزْهِي بِلَوْحِيهِ
 يَزُوْغُ قَلْبُ الْمِصْطَاحِي وَإِنْ مَشَى فِيهِ
 وَلَا هُوَ هَوَايَ وَطَارِي الثَّقَسِ يَطْرِيهِ
 قِيلَ الْعَسَاكِرُ غَرَبُوا تَلْقَى النِّيَّةِ
 هَذَا وَلَدُ عَمَّةٍ وَهَذَا بَنَاتِيهِ
 وَبَابِنُ يَدُوْزُ قَضِي حَالَهُ وَأَهَالِيهِ
 سَوْدُ السُّمَّا كُلُّ الْخَالِقِ لِرَاعِيهِ

٤٠- مِنْ بَابِ خَدَامٍ لِيَا بَابَ عَوَاذٍ

٤١- يَاللّٰى نَسِيتُوا عَمَلَ الْأَجْرِ وَفَهَازِ

٤٢- وَزَيْدٌ وَمِنْجٍ

٤٣- حَتَّى جَرَادٍ بِجَمَاعَتِنَا سَادِ

٤٤- عَيْسَى يَقُولُ الْحَرْبُ لِلْمَالِ نَفَادِ

٤٥- يَاللّٰى تَقُولُ الشَّرُّ مَابَهُ لَنَا أَرْوَادِ

٤٦- لَا صَارَ مَا يَزُورِي خَدُودَهُ بِالْأَضْدَادِ

٤٧- لَا صَارَ مَرٌّ بِصِنْدِيدِ الْأَرْوَادِ

٤٨- لَا صَارَ مَا هُمْ بِصِنْدِيدِ الْأَرْوَادِ

٤٩- لَا صَارَ مَا مَرٌّ يَزْعُرُثُ بِالْأَكْبَادِ

: سلم لسانك يا أخا نورة.

— : ولسانك.

: تفضل، خذ القهوة.

وَمِنْ يَنْتَحِي بِالصَّيْعَمَةِ فَطَالِيَةِ

وَمِنْ عَقِبَ هَذَا دَاخِلِينَ قَهَاوِيَةِ

هَذَا يَسْرِقُنْ لَهُ وَهَذَا مُجَلِّيَةِ

وَالْمَالِ لِمَنْ هَبَّةُ نِسَانِيَسِ دَارِيَةِ

إِنْشِدْ نَسَوِي السَّيْفِ هُوَ لَهُ حَايَةِ

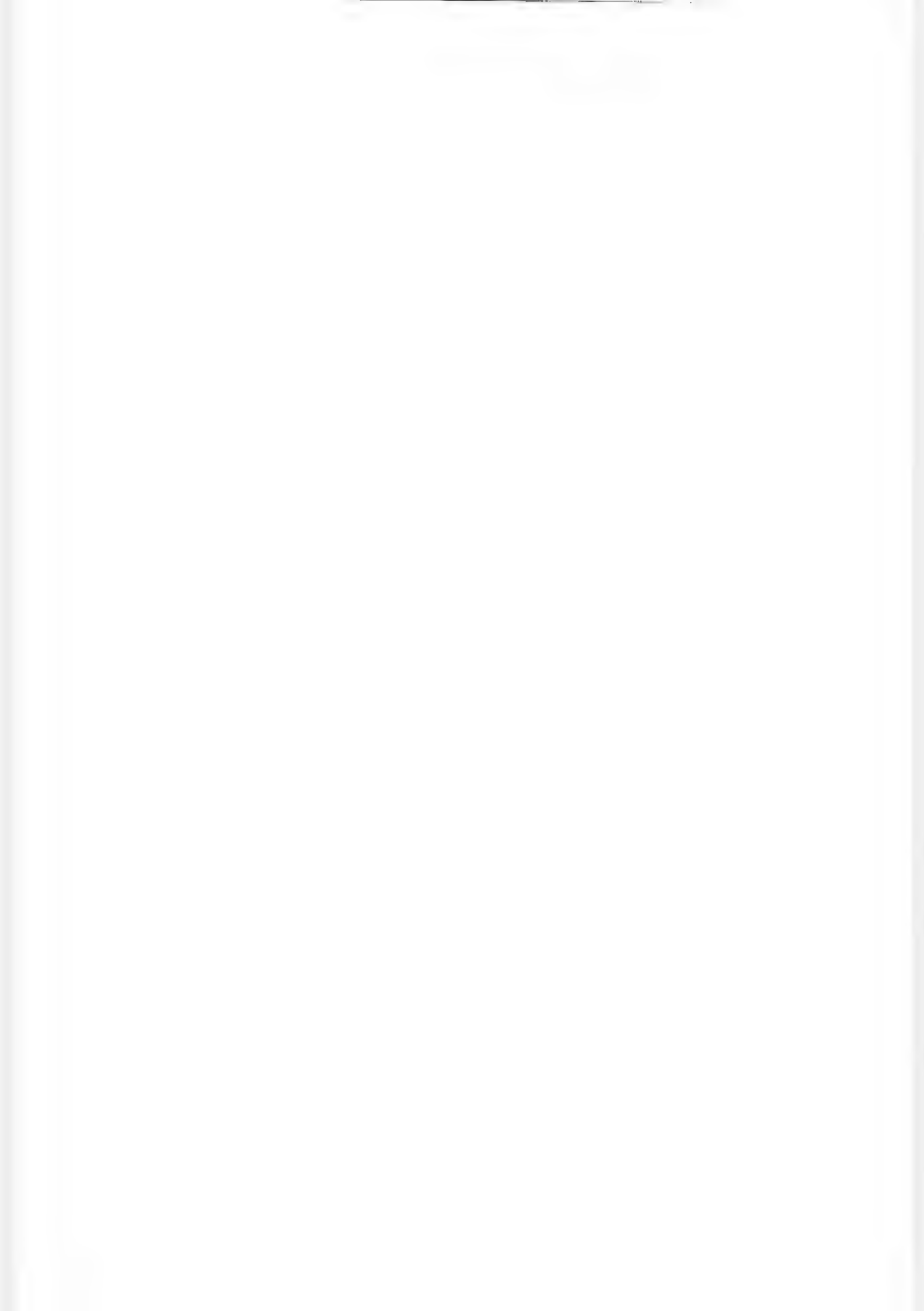
يَذِيَةِ يَمَّ الْقَرْفَجِيَةِ ثُرُونِيَةِ

أَلَلِي يُوَصِّي يَذْهَلُ أَلَلِي يُوَصِّيَةِ

فَالْعَنُكَ يَاسِيْفِ طَوِي أَلْهَمِ رَاعِيَةِ

فَالْعَنُ شِيَابِ مَايَهِيَةِ رَاعِيَةِ

قصة رقم (٢٣)



ثلة الجهاد

استلقى سعدون في فراشه لينام كالعادة بعد عودته من مجلس السمار من رفاقه ولذائه الذين يسمر معهم كل ليلة، لكن النوم قد فارق جفنيه، حيث لا يزال يعاوده خبر مغادرة عدد من رفاقه الحي للانضمام إلى زمرة المجاهدين، فبقى يتململ بفراشه حتى انهرس الليل، حيث غط في نوم عميق لم ينتبه بإيقاظ أخيه له إلا بعد معادوة الإيقاظ مرة بعد أخرى، عند ذلك نهض من فراشه متثاقلاً، فتوضأ وأدى صلاة الفجر ثم أسرع يعمل لأخيه القهوة، فلاحظ أخوه أنه على غير عادته نشيطاً متوقداً مرحاً، فأحب مداعبته بقوله:

- : مالك تنود ياسعدون، وكأنك لم تشبع من النوم؟
: هاه!! لا شيء، لا شيء بأخي.
— : لم تكن هذا الصباح كما عهدتك!!
: الحقيقة أنني لم أنم البارحة بما فيه الكفاية.
— : أكتسم ساهرين حتى قرب أذان الفجر؟
: أبدأ، فلقد تفرقنا كالعادة، ولكنني عجزت أن أنام، وبقيت أتململ في فراشي حتى انبلج نور الفجر.
— : ما الذي أسهرك؟
: كثيرة هي الأشياء التي إذا طرقت جفن الإنسان أطارت عنه النوم.
— : عسى أن يكون خيراً!! يقول هذا الكلام بلهجة حادة.
: خير إن شاء الله. يقول ذلك وهو مطرق طرفه.
— : أخبرني بما يشغل بالك؟

: آه!! ما يشغل بالي رفاقي الذين سافروا يوم أمس ولست معهم.

— رفاقك!!؟

: نعم، ألا تعلم أن محمد وفالح وزين قد غادروا الحي يوم أمس في طريقهم إلى
ساحة الجهاد؟

— بلى، علمت ذلك، وما دخلك في مثل هذا الأمر؟

: كانت أمنيّتي أن أكون رابعهم.

— أمنيّتك!!؟ يقول ذلك وهو يتسم.

: نعم، وأرجو السماح لي بالذهاب معهم.

— لم لم تخبرني بالأمس؟

: لم يفت من الأمر شيء.

— بل لقد فات، فقد ذهب أصحابك بالأمس وقطعوا مسافة يصعب عليك
اللاحاق بهم.

: لا مسافة تفصل بيني وبينهم، فقد ذهبوا مشياً على أقدامهم ولست أقلهم
نشاطاً وأثقلهم حركة حتى لا أستطيع اللحاق بهم.

— هاه!! ولكن!!؟ يقول ذلك بتردد ثم يستأنف، لكن من يساعدني غيرك!!؟

: لا تقل هذا، ففيما بقي عندك خير، وأرجو أن تسمح لي بالذهاب واللحاق
برفاقي الذين غادروا هذا الحي والأحياء الأخرى.

— ولكنها... ولكنها مسافة طويلة يقول ذلك وهو واجم وفنجان القهوة بيده لم
يشربه بعد.

: طويلة!! يقول ذلك وهو يتحفز انتظاراً لكلمة السماح.

— نعم، مسافة عشرين يوماً وليلة للمطية.

: لا يهمني قطع هذه المسافة مشياً على الأقدام، حتى لو بلغت بالأشهر وليس
الأيام.

— هاه!! هل تقول ذلك بجذ، ولك الرغبة الصادقة؟

: بكل تأكيد.

— مادامت عندك الرغبة ولديك العزم والتصميم فعلى بركة الله.

: يقفز سعدون من شدة الفرح وكاد أن يندفق ما في دلة القهوة من يده ويكب على رأس أخيه الأكبر يقبله وهو يقول:

سلمك الله يا أخي، وأعانني على الوفاء بحقك.

— أراك وقد عاد إليك نشاطك، واحتدمت فيك حيويتك؟! :

: كيف لا، وقد تحقق ما أريد على يدك؟! :

— لو أخبرتني بالأمس لسمحت لك بالذهاب مع رفاقك رغم ما قد يحصل لنا أثناء غيابك من متاعب.

: سلم رأسك يا أخي، هذا الرأس الذي يشبه الطود الأشم لا تؤثر فيه عاتيات العواصف فما بالك بما تسميه بالمتاعب، وليس له شبه إلا رأس أبي رحمه الله.

— ومتى تريد اللحاق برفاقك؟ :

: هذا الصباح، ومن هذا المكان.

— من هذا المكان؟! أراك مستعجلاً!! :

: نعم سأمر على والدتي، وأسلم عليها واستأذنها بالسفر.

— قد تشبث والدتك، وتعارض في سفرك كما هي عادة بعض النساء.

: ليست أُمي من هذا النوع، إنها ممن يشجع على ارتياد الآفاق لطلب الرفعة والمجد.

— ذاك شأنك معها.

: أمرها عندي، أستأذنك، يقول هذا وهو يغادر المكان متوجهاً إلى والدته في أحد أجزاء بيت الشعر قبيل طلوع الشمس، ولم يلبث أن خرج من عندها حاملاً قربة الماء على كتفه، مع شيء من المتاع حيث خرجت معه تودعه، فأكب على رأسها يقبله. وقبل رأس أخيه وودعهما ثم امتطى قدميه مغادراً المكان، وشيئاً فشيئاً حتى توارى عن الأنظار في سمت الأفق.

وهكذا استمر سعدون ينهب الأرض نهباً، يشق الفياقي ويطوى القفار، جرى طول نهاره ثم سرى الليل بأكمله حتى إذا دعت شمس اليوم الثاني وإذا

هو يدرك رفاقه، وقد تأهبوا للمسير، وعندما علموا بحاله ومسيره ذاك، أجلوا انطلاقتهم ذلك الضحى حتى يأخذ رفيقهم قسطاً من الراحة، وبعد الظهر قطعوا مرحلة من الطريق حتى أمسأهم الليل حيث أُمرحوا ليلتهم تلك، واستمروا في مسيرهم يتبعون موارد الماء، يسرون مع بعض القوافل التجارية، ولا يلبثون أن يسبقونها ويتركونها خلفهم، وقد يمرون بظعن فريق من العرب في نجعتهم من مكانهم إلى مكان جديد، وهكذا دأبهم، يجوبون البيد ينتعلون الروابي والحزون، يمحرون التلاع والريعان، يخترقون الجبال والهضاب، يمتطون النفود، يعبون أقوازه قوزاً قوزاً، لا تتعبهم خبويه، ولا تعوقهم ذراه وزعانفه، بل يتخذون من المسير فوق هذه الرمال الذهبية نوعاً من السباق الذي يتسم بالدعابة والمرح بين هؤلاء الشبان ولم يشعروا إلا باجتيازهم الحدود الموضوعة المصطنعة لفصل بلدهم عن البلد العربي المجاور عندما وصلوا إلى المركز الذي أعطاهم تلك البطاقة التي تثبت هوية كل واحد منهم، بعد ذلك واصلوا مسيرهم إلى هدفهم وغايتهم وبعد خمسة وعشرين يوماً بلياليها سيراً على الأقدام وصلوا إلى نقطة الهدف المقصود، فدخلوا المدينة على غير دراية بها، ولا خبرة بمعالمها، ولذلك فقد انتابهم شعور بعدم الاطمئنان إلى الدخول في المدينة ليلاً، ففضلوا المبيت خارج المباني حتى الصباح، في مكان تتجمع فيه القوافل التجارية، وقوافل «عُقَيْل» الذين يتاجرون بالإبل والخيول في هذا التجمع الحاشد، التقوا بأعداد من الشباب من مختلف أصقاع الجزيرة العربية الذين قدموا لأغراض شتى من تجارية وطلب للعمل والاسترزاق ورغبة في الانضمام إلى ثلة الجهاد فمنهم من قدم مع قوافل التجارة القادمة من الحجاز وآخرون مع قوافل عقيل من شرق الجزيرة ووسطها من الرياض فالقصيم وحائل والجوف ثم عَمَّان، ومنهم من قدم في زرافات من الشباب على قدميه من كل بقعة من الجزيرة العربية فأخذ هؤلاء الرفاق جانباً مع من انضم إليهم وتحلقوا حول نار اشعلوها لتجهيز طعامهم، وأخذت الدعابة مجراها بينهم وحل المزاح مكان الجدل للترويح عن النفس، فبدأ الواحد منهم يتهم الآخر بالتقصير في المسير أثناء الطريق فهذا زين^(٥١) يتهم عُبَيْد^(٥٢) أنه كان في مؤخرة رفاقه في

اليوم الفلاني، فيرد عليه عُيُود أنه كان رقيقة رفاقه في ذلك اليوم يسير أمامهم بمسافة طويلة، وهذا علي^(٥٦) يتهم صالح^(٥٧) بأنه لا يستطيع حمل قريبته إن كانت ملائنة، فيرد عليه أنه هو الذي ينزل بالبحر على عمق أربعين طويلاً ليماً قرب رفاقه الواحدة بعد الأخرى، وهذا علي^(٥٨) يتهم عمر^(٥٩) بأنه لا يستطيع المشي كثيراً لنحول جسمه، فيرد عليه عمر أنه قد مشى من الغزاة إلى حائل ومنها إلى المدينة المنورة ثم منها إلى عنيزة بالقصيم ومنها إلى عمان بالأردن على قدميه وقد قطع مسافة حوالي ٢٥٠٠ كيلاً، مضت تلك الليلة عامرة بمثل هذه المداعبات حتى جهز طعام العشاء. ولما انتهوا منه ناموا، فغط أكثرهم في نوم عميق، غير أن سعدون لم يطرق النوم جفنيه، فاستلقى على ظهره وسرح في تفكير عميق وكأنه يحدث آخر يصغي له من رفاقه: ها نحن وصلنا إلى نقطة الإنطلاق الحقيقية بعد أن قطعنا هذه المسافات الشاسعة، وقطعنا هذه المهالك والمظامي، من نقطة الإنطلاق هذه التي ستنبعث منها الطاقة الكامنة التي ادخرناها لمثل هذا الغرض، سنذهب غداً إلى المكان الذي يتقبل المتطوعين للانضمام إلى ثلة الجهاد، فعسى أن نجد من يستقبلنا بنفس الروح التي جئنا بها؟ إن كان هذا المسئول يقدر بُعد الخطوة التي قطعناها، وجئنا إلى هنا وهدفنا الرئيسي مساعدة بني جلدتنا في الدفاع عن وطنهم ووطننا في نفس الوقت، وكبح جماح البغي والطغيان القادم لاحتلال هذه التربة الغالية على نفوسنا، بل ربما امتدت يد هذا الغاشم اللئيم إلى واحد من أعز مقدساتنا الإسلامية وتدنيس ترابه الطاهر، حين اجتمعت هذه الشراذم النجسة من مختلف أصقاع الأرض، وجاء بهم من هو أخبث منهم ينقلهم بين يديه بكل عناية ولطف ويحاول بكل جهده وطاقته وقوته أن يهيء لهم المكان المناسب على جزء من أرضنا الغالية دونما اكتراث بنا، وقد لا يقدر هذا المسئول بالمكتب ما جئنا من أجله، ويحسب أننا جئنا للاستزاق، وربما حسب أننا أوشكنا على الهلاك من الجوع، أو ما علم أننا استطعنا أباً عن جد أن نعيش من إنتاج أرضنا وألبان مواشينا لعدة قرون ولو كان قصدنا الاستزاق لتوجهنا إلى أماكن أخرى، أيسر لمصادر الرزق وأكثر أمناً مما جئنا إليه، هذا

إذا رغبتا الاغتراب عن ديارنا وأوطاننا والابتعاد عن أهلنا، وقد لا يخطر بباله هذا الأمر لأول وهلة، لكنه إذا رأى أجسام بعضنا النحيلة قد يتبادر إلى ذهنه مثل هذا الافتراض، أو ما علم أن أصحاب هذه الأجسام الضئيلة العارية من اللحم عند البعض منا لم يبرها الجوع والظمأ بقدر ما كانت هذه بنيتها الأساسية هذه الأجسام التي لا توازي ضخامة أجسام بعض سكان هذه المنطقة نسبياً لكنها مكنة للقوة والنشاط وتحتوي على عقول متقدمة ذكاءً وأجنّة متدفقة محبةً وحناناً وهي في نفس الوقت شعلة متأججة من الشجاعة والإقدام والفداء، يربط بينها إطار وثيق من الوفاء والتكاتف والتآزر هذه الخصال الجيدة الفذة تستوعبها هذه القامات المربعة أو المائلة للقصر، والسحنة الباهتة، يكمن في هذه السواعد السمراء القوة والفتك بالأعداء، كما يتركز بها اللطف والحنان بذوي القربى، فعسى أن يكون هذا الانطباع ينعكس في مخيلة ذلك المسئول الذي سنتقدم إليه غداً لتسجيل أسمائنا وإرسالنا إلى مركز التدريب، عسى ألا يطلب أن تكون أجسامنا من حيث الطول والعرض ولون البشرة هي المقياس المثالي عنده، أو ما علم أن «سَنَدَ الرُّبْع» كان من أقصر الرجال قامه لكنه من أطولهم بدءاً في الأفعال على صهوات الخيل، ذلك يعود إلى أصغرى الإنسان، جنابه ولسانه، وعسى إذا رأى مثل صاحبنا عمر الذي قطع على قدميه مسافة ألفين وخمسمائة ٢٥٠٠ كيل يعتقد أنه لا يستطيع قطع عدة أكيال على قدميه، أو ذلك الشاب الذي قطع المسافة من عسير في أقاصي الجنوب الغربي للجزيرة العربية، ورفيقه الذي قدم من بيشه في أقصى جنوب نجد ومسافة قد لا تقل عما قطعه عمر إن لم تزد عليه. هذه الأقدام القوية التي تعودت على ذلك مجاهل الصحراء وفري هامة الحماد، وتذليل الحزوم والحزون والآكام، وحفر سفوح الجبال، لن يضيرها اجتياز أرض سهلة أو أحراش ملتفة أو بساتين متشابكة، هؤلاء الرجال الذين اجتازوا مجاهل الصحراء ومهالك النفود، تلك المجاهل المليئة بالسباع والوحوش، وما قد يوجد بها من قطاع الطرق، مخروا هذه المسافات في دياجير الظلام، لن يرتاعوا من العس في ظلام الليل بل يعتبرونها شيئاً طبيعياً عندهم، ولن يتوقف

أحد منهم مخافة اجتياز مجهل من المجاهل أو اقتحام حصن من الحصون فمتى يأتي الصباح ونذهب إلى ذلك الكتب؟ آه... ما أطول ساعات الليل وما أثقلها!! فليت عمود الفجر يتبلج في هذه اللحظة.

* * *

وفي الصباح توجه الشباب إلى المعسكر، وتردد المستول في قبول سعدون، وذلك لصغر سنه وضآلة جسمه، وبعد مداوات وأخذ ورد تم قبوله، كما تمت إجراءات انضمام الكثير منهم إلى رفاقهم حيث أحيلوا إلى قسم التدريب الذي يتولى تدريبهم على استخدام الأسلحة، وأوليات فنون القتال حيث يجري استيعاب هذه التدريبات أولاً بأول وبسرعة فائقة مما جعل مركز التدريب يرشح من تتوفر فيه مقومات القيادة كالذكاء وسرعة التصرف بالطريقة السليمة التي تكفل له ولما بحوزته ومن هم تحت إمرته وغير ذلك من ضروريات القيادة، تمنح لمن يحمل هذه المزايا رتبة عسكرية ملائمة، وخلال فترة معينة حصل سعدون مع عدد من رفاقه على رتبة ملازم.

باشر سعدون عمله الفعلي بهذه العملية التي دشّن بها أول عمل له، وكان من أولى النقاط أهمية والتي ترى القيادة أن يفتح فيها ثغرة هي بلدة «الرزاعة» وكان لسعدون رأي في النقاش الذي دار في هذه النقطة حينما بدأ القائد يستعرض الخطة حيث قال:

— يتضح أن هذه البلدة التي تركز بها العدو وحصنها أشد تحصين حيث يعتبرها قاعدة الغور فأولها عناية خاصة وأحاطها بأسلاك شائكة وركز بها دفاعات قوية لا يمكن اجتيازها بسهولة.

: مهما كانت دفاعات العدو وتحصيناته فسوف نخترقها ونجتازها بإذن الله.

— حسناً قلت ياسعدون، ولكن نريد مناقشة الخطة التي بموجبها يتم لنا هذا الاجتياز بأقل الخسائر.

: في رأيي أنه يجب التقدم نحو الموقع حتى نقرب منه تحت جناح الظلام، فإذا هجع الناس باغتنا العدو بهجوم كاسح حتى نخترق في تحصيناته ثغرة

ندخل منها ونعمل حركة التفاف من خلف خطوط دفاعاته.

— : في هذه الحالة يجب أن نضمن خط العودة لهذه القوة التي تعتبر رأس حربة.

: سيرتبك العدو عندما يشعر بحركة الالتفاف هذه.

— : لا شك، ولكن نخشى أن يطبق علينا.

: لا تخف يا محمد^(٥٦) فهؤلاء قد غرس الله في قلوبهم الرعب منذ الأزل، وأي

حركة تأتيهم من خلفهم سنخلخل تماسكهم.

— : ولكن لا ننسى أن هناك من يساعدهم ويعاضدهم.

: مهما كان الأمر، دعنا نقوم بهذا الإقتحام، أنني مستعد أن أقوم بالنفاذ من

نقطة معينة وزميلي حسن^(٥٧) يقوم بالنفاذ من نقطة أخرى حتى نخترق

تحصيناتهم، وسوف نتحمل نتائج ذلك، وسيكون بهذا الإقدام زعزعة

لتواجدهم.

— : آه !! ماهو الوقت الذي تفضلونه؟

: أفضل الأوقات تحت ستار الليل عندما يكون الناس قد هجعوا، وليكن في

الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل^(٥٨).

— : إذاً على بركة الله.

وفي الوقت المحدد تم الإقتحام من نقطتين مختلفتين كما وضع في

الخطّة، وتم اجتياز الدفاعات بقطع الأسلاك الشائكة وتدمير التحصينات،

فأربك العدو عندما رأى الجنود قد دخلوا إلى داخل معسكراته فأسرع إلى تفجير

خزانات المياه تجري في الشوارع بغزارة ليغرق المهاجمين، غير أنه لم يفلح

في ذلك، بل استمر في حالة من الهلع، في معركة تحت جنح الظلام والأمطار

الغزيرة والبرد القارس استمرت لمدة ست ساعات من الثانية حتى الثامنة

صباحاً، عندها شعر المجاهدون بأنه يجب عليهم الانسحاب بعد أن كبّدوا

العدو عشرات القتلى والجرحى، وزلزلوا تماسكه، وعندما تكامل انسحابهم،

اجتمعوا في مقر القيادة لاستعراض الأرباح والخسائر فقال محمد:

— : ماذا كانت النتيجة يا سعدون؟

: النتيجة جيدة، لقد تم اختراق دفاعات العدو ونشر الذعر بين قواته، وقتل

وجرح العشرات منهم رغم رداءة الجو والظروف غير المواتية.

— : كيف؟

: أعنى هذه الأمطار الغزيرة التي انهمرت، وهذا البرد القارس الذي يجمد الأطراف وظلمة الليل الحالكة استطعنا أن نحقق الهدف من هذا الهجوم.

— : حسناً!! وماذا استفدنا من هذه المعركة من الناحية القتالية.

: عرفنا بعض الوسائل التي استخدمها العدو لحماية نفسه كإطلاق خزانات المياه بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة التي تنزل من السماء لتجري في الشوارع سيلاً جارفاً وهو يحاول بهذه الحركة إيقاف زحفنا، أو يعوقنا عن بلوغ هدفنا، ولكنه فشل في ذلك، فقد استطعنا اجتياز هذه الصعاب وحققنا هدفنا.

— : وماذا بعد؟

: استطعنا إرباك العدو بحيث بدأ جنوده يصوبون نيران بنادقهم ورشاشاتهم على غير هدى، وربما إلى صدور رفاقهم.

— : حسناً!! هل فقد من مقاتلينا أحد؟

: نعم، لقد استشهد عدداً منهم^(٧٤ - ٧٥) كما قد جرح آخرون^(٧٥ - ٨٦).

— : إذأ، لنسعف الجرحى، وننقل جثث الشهداء لنصلي عليها ونواربها في مشاها الأخير.

: أبشر. يقول ذلك وهو يؤدي التحية وينصرف لتنفيذ الأمر.

— : بعد أن تفرغوا من هذه المهمة عليكم بالتأهب لمهمة أخرى.

: كن مطمئناً. يقول ذلك وهو على بعد أمتار من أمره.

تولى سعدون وجنوده حماية قرية «نورس» العربية والدفاع عنها ضد هجمات العدو المتمركزة غير بعيد عنهم في «حارود» حيث وصل إليه أحد عيونه وأندس في صفوف العدو ثم جاءه مخابراً.

— : سيقوم العدو بمهاجمتنا غداً.

: كم عدد قواته؟

— : يتجاوز العدد ثلاثمائة جندي مسلحين بأسلحة ثقيلة وأسلحة ذاتية متنوعة تعززها الدبابات.

: حسناً، مهما كثرت جنودهم وتنوعت أسلحتهم، من أسلحة ذاتية ومدفعية ثقيلة، فنحن واثقون أن الله معنا، وسوف يؤيدنا بنصر من عنده.

— : لكن جنودنا لا يتجاوزون أربعة وثلاثين مسلحاً ببنادق خفيفة.

: أعلم ذلك، ولكن الله سيكون معنا إن شاء الله.

وتم توزيع المقاتلين في المراكز المنتقاة لهم في خنادقهم وفي الموعد المحدد^(٨٧) تقدم العدو لتنفيذ خطته ودفع بجنوده حيث أمهلهم المقاتلون حتى صاروا في متناول نيرانهم، عندها صبوا عليهم النار المتقدمة، ولم يستطيعوا التقدم شبراً واحداً نحو القرية، ثم ارتدوا على أعقابهم خائبين يجرّون ذيل الفشيلة مخلفين قتلاهم وجرحاهم، وقد استمرت هذه المعركة أربع ساعات متواصلة، وفي صباح يوم الجمعة عاود العدو كرتة الثانية وذلك لإخلاء جثث قتلاه وإسعاف جرحاه، وما إن اقتربوا من دفاعات المجاهدين حتى امتدت إليهم ألسنة النار الحامية مرة أخرى، استمرت ست ساعات متوالية، تقهقر العدو، على أثرها، وفر جنوده هاربين تاركين وراءهم الجثث والأسلحة فتابعتهم قوة المجاهدين بهجوم معاكس عند ذلك تدخلت القوة التي تحمي^(٨٨) جيش العدو عند ذلك عاد المجاهدون إلى التمرّكز في مواقعهم، وتوسط قائد القوات الحامية لقوة الأعداء بوقف إطلاق النار، ريثما يتم إخلاء جثث القتلى ونقل الجرحى، عندها توقف إطلاق النار، واستجمع سعدون أفرادهم، ثم طلبه المسئول، وسأله:

— : كيف كانت النتيجة يا سعدون؟

: كانت جيدة.

— : هل استشهد من رفاقنا أحد؟

: أبداً والحمد لله، عدا جريح واحد^(٨٩) بجروح طفيفة.

— : وأسلحتنا؟

: لم نفقد منها شيئاً، بل على العكس فقد غنمنا أسلحة إضافية منها مدفعين

كبيرين، ورشاشاً كبيراً وعدداً من البنادق و«المسدسات» وعدداً من القنابل والذخيرة.

— : حسناً، حسناً، هذا شيء طيب.

: ترى كم كانت خسائر الأعداء؟

— : لقد أخبرني الوسيط الأجنبي أن عدد القتلى منهم قد بلغ الخمسين قتيلاً.

: والجرحى؟

: عدد الجرحى حسب قول الوسيط يقاربون المئة جريح، جراح معظمهم خطيرة.

— : إيه!! هذا جزاء المعتدين.

: لننفق أنفسنا حتى لا يغدر بنا الأعداء لأن شيمتهم الغدر.

— : كونوا حذرين، وعليكم بالحيلة من غدرهم.

: أمرك مطاع.

من مؤثرات الحرب ومعوقاتها التأثير على امدادات العدو وخطوط تموينه، لذلك تقرر أن ينسف الجسر الواقع بقرب «العفولة» وقد حضرت زمرة المغاوير بقيادة محمد^(٩٠) بعد أن أمن لها المجاهدون الحماية اللازمة عند الانسحاب، ثم باشرُوا بزرعة الألغام تحت الجسر، ومدوا أسلاك التفجير لها، وظلت عين المراقبة دقيقة حتى مرت حافلتان كبيرتان من حاملات الجنود، وفي اللحظة الحاسمة^(٩١) تم التفجير فارتفعت الحافلتان في الهواء وتطايرت قطعاً، وتناثرت جثث القتلى والجرحى من العدو، وعلى الدوى الهائل أسرع قوات العدو إلى الموقع بسيارات مصفحة، وبأعداد كثيفة، بينما كان سعدون وجنوده يتولون حماية انسحاب زمرة المغاوير، فتكاثرت عليهم تلك القوات عندها لم يجدوا بداً من الانسحاب بسرعة والتمركز في أماكنهم حيث استمروا بإمطار العدو بوابل من أسلحتهم حتى تدخل الوسيط^(٩٢) للسماح لرجال العدو بسحب قتلاهم وجرحاهم، عند ذلك سأل قائد المجاهدين:

— : كيف كانت النتيجة؟

: مرضية.

- بالتفصيل؟
- : لقد تم نسف الجسر وتحطيم الحافلتين تماماً، وقتل ثمانين فرداً من أفراد العدو، وجرح مايزيد على المئة والعشرين.
- ورفاقنا؟
- : لم يصب أي واحد منهم بأذى والله الحمد.
- حسناً، وماذا بعد؟
- : لم نتمكن من جمع الأسلحة الخفيفة التي كانت مع الأفراد لإنشغالنا عنها بما هو أهم، ولحضور العدو إلى مكان الحادث في نفس الوقت.
- حسناً، ليست الأسلحة بأهمية ما حدث، ولكن ما يشغل بالي الآن هو شيء واحد.
- : ما هو؟
- قوة العدو المتمركزة في مستعمرة «عين حارود».
- : ماذا تريد أن تفعل؟
- سأبحث أمر احتلالها مع محمد^(٩٣) في أقرب فرصة.
- : وهل سيوافق على ذلك؟
- لن يتوانى في الموافقة.
- : ولكن هناك قوة كبيرة معززة بمختلف أنواع الأسلحة.
- سنحطمها إن شاء الله.
- : ما الذي أزعجك منها؟
- لقد جاء منها المدد عند مهاجمتنا «لنورس» ولذلك يجب علينا كسر شوكتهم في هذا الموقع.

وتم وضع الخطة اللازمة وفي ساعة الصفر^(٩٤) بدأت زمرة المغاوير بتفجير الألغام، وفتح ثغرة من الأسلاك الشائكة تعززها مدافع «الهاون» وتم الزحف من جهة «نورس» و«زرعين» وعند الفجر تم احتلال ثلة المجاهدين للمستعمرة

بعد قطع خطوط المواصلات، ونسف المواقع التي تعتبر نقطة تمركز للعدو، فانسحب العدو إلى الخطوط الخليفة وقد تم احتلال خزان الماء الذي يغذي المستعمرة، وتم السيطرة عليها، بعدها حضر قائد القوات^(٩٥) التي تحمي العدو للتوسط، وطلب من قائد قوة المجاهدين الانسحاب^(٩٦) غير أنه رفض رفضاً قاطعاً فهدده الوسيط باستخدام القوة ضد المجاهدين، عند ذلك أذعن هذا بالانسحاب إلى مواقعهم بحذر شديد مخافة غدر العدو، وبعد أن عاد المجاهدون إلى مواقعهم فاجتمع بالمسئول وقال له:

— ما هي النتيجة؟

: على مايرام.

— هل استشهد من رفاقنا أحد؟

: لا.

— هل جرح أحد؟

: جريح واحد^(٩٧) بجروح طفيفة.

— ومن الأعداء؟

: يزيدون عن مئة قتيل، وعدد غير قليل من الجرحى.

— لقد خشيت أن يغدروا بنا أثناء عملية الانسحاب.

: وكذلك توقعت، ولكن يبدو أن الهلع قد سيطر على نفوسهم فلم يستطيعوا

حتى الاقتراب منا، بل هربوا على وجوههم في الخطوط الخلفية، وربما تسلل

أكثرهم إلى ما وراءها طلباً للنجاة.

— بالفعل، بالفعل ولذلك طلبوا من القوة التي تحميهم الحضور لطلب

الانسحاب منا.

: كيف توافقه على ذلك؟

— لقد هدد باستخدام القوة ضدنا وكما تعلم مقدار أفرادنا بالنسبة لقوته الضاربة

التي يستطيع بها دك المستعمرة تماماً على من فيها، وهذا يعتبر انتحاراً لا

مبرر له.

- : أما لو لم يكن معهم هذا اللعين لسحقناهم.
- : هذا شيء مؤكد، لو لم يتعهد بحمايتهم لما تجرأوا أن يتقدموا شبراً واحداً، أو حتى لم يكونوا لأنفسهم أي قوة، وعن الغنائم؟
- : لقد غنمنا العديد من الأسلحة الخفيفة لأننا لم نتمكن من الإستيلاء على الأسلحة الثقيلة نظراً لضيق الوقت.
- : سوف نتمكن من ذلك مستقبلاً إن شاء الله.
- : مالي أراك قد سرحت في التفكير؟
- : إنني أفكر في خطة ثانية، سيكون هدفها نسف جسر «حارود» الذي يعتبر الشريان الرئيسي للمستعمرة، ويتدميره سيكون أبلغ الأثر على العدو مادياً ومعنوياً في هذا الموقع.
- : هذا شيء طيب، ونحن على أتم الإستعداد.
- : سأبحث هذا الأمر مع القيادة.
- : بانتظار أوامرك.
- : تفضل.

* * *

وفي الوقت المحدد^(٦٨) تقدمت حضيرة الهندسة بقيادة صالح^(٦٩) وزرعت الألغام تحت الجسر، وتمركزوا غير بعيد عنه بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحمايتهم، وحال مرور حافلة عسكرية من فوق الجسر تم نسفه، فدمرت الحافلة تدميراً كاملاً وقتل جميع من كان فيها، وعلى دوى الانفجار جاءت نجدات العدو حيث اشتبك معها أفراد المجاهدين ثم تحولت هذه الاشتباكات إلى معركة حامية استمرت أربع ساعات، ترتب على هذا قتل ثمانية ضباط منهم واحد برتبة عقيد جاءوا إلى الموقع، فتصدى لهم أحد عناصر المجاهدين، وأمطرهم بوابل رشاشه فقتلهم جميعاً، ومن بين هؤلاء الضباط واحد من دولة أجنبية شرقية^(٧٠)، ثم ضاعف العدو من النجدات دون طائل، مما جعله في النهاية يتراجع عن نفس الموقع، ويطلب

من الوسيط كعادته أن يترك له المجال لنقل قتلاه وجرحاه، وسمح له بذلك، وبعد إخلاء المكان من قبل العدو انسحب المجاهدون وعادوا إلى مواقعهم عند ذلك استدعى سعدون بالمسئول وبادره بقوله:

— ما هي النتيجة يا صالح؟

: لقد تم تدمير الجسر تدميراً كاملاً بحيث يحتاج إلى فترة من الزمن لإعادة إصلاحه.

— ونخسائر العدو؟

: لقد خسر العدو جميع ركاب الحافلة من الجنود وعددهم ثمانين فرداً، بالإضافة إلى ستة ضباط أحدهم برتبة عقيد جاءوا في سيارة «الجيب» بعد احتدام المعركة وتم القضاء عليهم.

— حسناً، وعن رفاقنا؟

: الحمد لله رفاقنا بخير، ماعدا اثنين^{(١١١) (١١٢)} جرحا بجروح طفيفة.

— هل هناك ما تضيفه؟

: أبداً غير أننا لم نظفر بأسلحة تذكر سوى أسلحة فردية خفيفة.

— لا يهم السلاح في الوقت الحاضر بقدر ما يهمنا نفس هذا الجسر لإعاقة إمدادات العدو أو قطعها، والحمد لله لقد تم ذلك، آه، ومن أخبركم أن هذا الضابط من الدولة الفلانية.

: أخبرنا أحد رفاقه الذي كان به رمق من حياة، كما يدلنا عليه الإشارة التي يحملها وعليها شعار البلد الذي ينتمي إليه.

— إيه! لا فرق بين هذا وذاك، فالكل أعداء لديننا وأمتنا. يقاتلون صفاً واحداً لقمهرنا.

: هل من أوامر أخرى؟

: أبداً، تفضل.

* * *

لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تجمعت علينا شذاذ الآفاق من كل جذب

وصوب، من الشرق ومن الغرب، ليقهرونا ويغتصبوا أرضنا ويحتلوا ديارنا، هذا يعينهم بالسلاح والرجال، وهذا يمدّهم بالخبرة والتدريب، وربما بالرجال!! ماذا فعلنا لهم من أجل أن يتكالبوا علينا ليخرجونا من ديارنا؟ ألم يجدوا أرضاً غير هذه الأرض؟ وما دام وقع اختيارهم على هذه البقعة فلماذا يقتلون أهلها؟ لا يستنكفون عن قتل الشيخ أو العجوز ولا يترددون في قتل المرأة والرجل المسالمين، ويتسابقون لقتل الشاب والشابة دون أية رحمة أو شفقة، ويريدون أن نسكت ونستسلم لهم ليقضوا على هذا العنصر العربي المسلم بكامله حتى تقفر لهم الأرض وتفرغ البيوت وتخلو البساتين فيستلموها بكاملها، وهذا إن شاء الله لن يكون مادام بنا عرق ينبض بالحياة، وسوف نفلقهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم وسيعقب هذه الخطوة خطوات أخرى هذا ما كان يتردد في ذهن سعدون ثم توقف يسرح طرفه في وجوه رفاقه، وكأنه يلقي عليهم النظرة الأخيرة فقاطعه مساعدته:

— مابك ياسعدون؟

: لا شيء، لا شيء سوى ما جاءنا من أخبار عن تحشدات العدو الذي يعتبر «زرعين» مركز إزعاج له، فحشد الحشود الكبيرة لتطويقها والقضاء عليها.

— ياأبي الله ذلك، هل يشغل بالك هذه التحشدات؟

: لست خائفاً منهم، وإنما أفكر بالطريقة التي نستطيع بها صد هذا الهجوم.

— أريتكم كم عدد هذه القوات؟

: بلغني أنها تتكون من ألف وخمسمائة جندي من المشاة تؤازرهم خمس وثلاثون مدرعة مع المدفعية الثقيلة.

— تعرف العدو من عادته القيام بمثل هذا الحشد الهائل بالنسبة لقوتنا البالغة ثمانين فرداً بأسلحتهم الخفيفة ولكنه في الغالب يمتنى بهزيمة رغم تحشداته وقوته الكبيرة.

: صحيح، ونحن واثقون من أنفسنا، أننا سنهزمه بعون الله وقوته، ولكن لنضع الترتيب اللازم لهذا الموقف، ونسحب إلى الخطوط الخلفية لنتمركز بها مادام بإمكاننا ذلك.

— : إذا كنت ترى هذا فلا بأس.

: نعم حتى لا نفقد أحداً من أفرادنا.

— : سأجمعهم في الوقت المناسب وأعطيتهم التعليمات الضرورية.

: أنت وشأنك.

وبعد فترة من الوقت عاد المساعد إلى سعدون ليخبره بأنه أتم كل شيء، ونقل إليه ما سمعه من أفراد بلسان واحد حيث ردّدوا قولهم «سندافع بكل قوة وثبات حتى ننتقل إلى جوار ربنا جميعاً في جنات النعيم شهداء خير لنا من أن نستسلم لعدونا الذي جمع قواته من رذال البشر».

كانت هذه بمثابة الشربة الباردة على كبد الصديان، بالنسبة لسعدون، فأخذ المجاهدون مراكزهم وفي ساعة متأخرة من مساء ذلك^(١٠٣) اليوم بدأ العدو الزحف على «زرعين» من الجهتين الشرقية والشمالية، فانهالت نيران العدو الكثيفة على الخطوط الأمامية التي لم يبق بها من المجاهدين سوى رموز خفيفة ليوهمو العدو بتواجدهم هناك ثم انسحبوا بعد ذلك تحت نيران العدو.

وتم تطويق المكان من العدو بأعداده الكثيفة وأسلحته ومعداته الثقيلة، غير أنهم لاقوا الدفاع المستميت من كل جهات القرية وكان شعارهم «النصر أو الشهادة» واستمر تقدم العدو من الجهة الشرقية والشمالية في بداية الأمر حتى بعد منتصف الليل، حيث تقدم من الجهة الجنوبية غير أنه لاقى مقاومة عنيفة، وبكل صعوبة دخلوا القرية بعد معركة دامت أربع ساعات، لكنهم وجدوا أنفسهم في مصيدة نيران أسلحة المجاهدين الخفيفة تطارد أفرادهم في الشوارع والطرق والممرات والملاذات والتعرجات استمرت هذه المطاردة من عناصر المجاهدين لأفراد العدو حتى الصباح حين وصل الأمر إلى استخدام السلاح الأبيض وأعقاب البنادق وعند ذلك شعر العدو بخيبة الأمل وتمزقت جموعهم وانشطروا إلى شطرين، ففضلوا الانسحاب بعد أن كثر اللفظ والسباب والتشائم بينهم، وكاد بعضهم أن يفتن على بعض إثر هذه الهزيمة. وبعد انتهاء المعركة حضر المسئول لينقل إلى سعدون أخبار المعركة.

— : هاه!! ما أخبارك؟

: كل شيء على مايرام، فقد فشلت خطة العدو لتدميرنا فشلاً ذريعاً، بل لقد تدمرت قواته، حيث أعطب منها سبع مصفحات وسقط من جنوده ٢٥٠ قتيلاً في شوارع القرية ولدبنا الآن أسير^(١٠٤) حي نحقق معه.

— : أخبرني عن رفاقنا؟

: لقد استشهد من رفاقنا أربعة^(١٠٥ - ١٠٨) وجرح إثنان^(١٠٩ - ١١٠).

— : وماذا غنم رفاقنا؟

: كانت الغنيمة عدد كبير من الأسلحة الخفيفة كالبنادق والقنابل والعتاد بالإضافة إلى مدفع كبير.

— : الحمد لله، سوف نستعمل هذا السلاح بنحور أعدائنا المعتدين على أرضنا، وماذا عن المدد؟

: لقد جاءتنا النجدة لتفك الحصار عنا، لكن الأمطار الغزيرة والسيول الجارفة حالت دون وصول النجدة إلا في وقت متأخر في صباح هذا اليوم بعد أن انتهت المعركة.

— : إيه!! الحمد لله إلى خطوة أخرى.

وقف سعدون متأثراً متأففاً من الأمر الذي أحضره مراسل القيادة وهم على مشارف «المالكية» بطلب الانسحاب من مواقعهم التي يحتلونها إلى الخطوط الخلفية في التلال الحصينة فبادره رفيقه:

— : ما بالك واجماً هكذا؟

: هذا الأمر الذي وصل إلينا يطلب منا الانسحاب من مواقع لا يمكن أن نموضها.

— : وماذا تريد أن تعمل؟

: سأجمع قادة الفصائل وتداول الرأي معاً.

— : وماذا عساهم أن يفعلوا؟ الأوامر وقد صدرت إليهم بالانسحاب.

: قد نتوصل إلى رأي صائب، فنحن في بداية الليل ولدينا الفرصة التي قد
يسعفنا الحظ ونهزم أعداءنا فيها تحت جناح الظلام.

— ها هم قادة الفصائل قد حضروا.

: ما رأيكم بهذا الأمر الذي جاءنا في هذا الموقف؟

— وماذا ترى أنت؟

: أرى عدم الانسحاب والاستمرار بمباغطة العدو تحت جناح الظلام.

— لا تنسى أنهم يحتلون القرية ويتخذونها كمناريس لهم ولديهم قوات أكبر من
قواتنا.

: أعلم ذلك، ولكن نرجو من الله أن يعين عليهم ويكفهمهم.

— ماذا ترون أنتم؟ يقوله أحد قادة الفصائل.

: نؤيد رأي سعدون.

— إذا نكتب للقيادة ونستمر في مواقعنا. هكذا قال سعدون.

: حسناً، حسناً. هكذا ردد قادة الفصائل.

— عليكم بالتناوب بمهاجمة العدو من مختلف الاتجاهات، وكل فصيل يهجم

لوحده لمدة نصف ساعة ثم ينسحب ليهجم الفصيل الثاني من الجهة

المقابلة وهكذا. حتى نوهم العدو بكثرة قواتنا ونجبره على الانسحاب من

المالكية.

وهكذا استمر هذا الترتيب طول الليل، حتى إذا بزغت أشعة الفجر أشعل

جنود العدو النار بمستودعاتهم وانسحبوا تحت ستار غبشة الليل، وعندما علم

سعدون بهذا أراد أن يتأكد مخافة خداع العدو، فأرسل من يتأكد عن

الموقف، فوجد القرية خالية تماماً من جنود العدو، فتقدم بقوته واحتل القرية

وعندها سأل مساعده.

— هل تأكدتم من خلو المواقع من جنود الأعداء؟

: نعم، لم يبق فيها أحد.

— كيف وضع رفاقنا؟

: كلهم سالمين والله الحمد عدا مصاب واحد^(١١).
 : الحمد لله، وماذا عن الغنائم؟
 : لقد وجدنا خلف العدو مدافع متنوعة، ورشاشات وأسلحة وعتاد وجهاز
 سلكي، وسيارة كبيرة محملة بالمؤن.
 — حسناً، وماذا عن قتلاهم؟
 : لقد وجدنا مئتين وخمسين قتيلاً في بيت واحد.
 — في مكان واحد!!؟
 : نعم، قد يكونون جمعوهم من أماكن مختلفة تمهيداً للاستعانة بأعوانهم
 للسماح بنقلهم في وقت لاحق.
 — ربما، إلا إذا كانوا قد تمركزوا في هذا البيت.
 : احتمال ضعيف أن تتراكم الجثث بهذه الكثافة إلا أن تكون مجمعة.
 — حسناً، إذاً لنخير القيادة بذلك.
 وبعد إخبار القيادة جاء المستولان^(١٢ - ١٣) وشكراً سعدون ورفاقه على هذا
 الثبات في مواقعهم في الوقت المناسب وهذه الخطوة الجيدة التي اتخذوها.

وقف سعدون بين أفرادهِ يتفحص وجوههم تارة ثم يسبح بظرفه تارة أخرى مما
 جعل مساعده يسأله:
 — ما بك اليوم تركز على وجوه رفاقك، وكأنك تريد أن تختار منهم أحداً لمهمة
 من المهمات؟
 : هاه!! نعم هناك مهمة لا تزال تحوك بنفسي.
 — وما عساها أن تكون؟
 : آه!! السيطرة النامة على «الشجرة» هذه القرية التي اتخذ العدو مستعمرة
 بجوارها، وهي كما تعلم تسيطر على طريق الناصرة الرئيسي.
 — لقد حاول العدو عدة مرات السيطرة من جانبه عليها ولكنه حتى الآن لم يظفر
 بما أراد.

: المهم يجب أن نتزع زمام المبادرة منهم.

— : إذا لنعد العدة في الليلة القادمة.

: نحن على أتم الاستعداد.

لكن العدو قد عاجلهم قبل هذا الموعد، وفي وضع النهار، فما كادت ثلة من المجاهدين تصل إلى أحد النقاط الحساسة حتى فاجأها أفراد العدو^(١٤) حيث تحرشوا بهم وأحاطوا بسيارتهم فقاوموا مقاومة بأسلة وأفلتوا من قبضة العدو بأقل الخسائر، في نفس اللحظة التي علم رفاقهم بالأمر وانتشروا على التلال، وتصدوا لمحاولة العدو ثم أجهضوا الخطة التي أعدها لمباغتتهم، واستمرت المعركة لمدة أربع ساعات وتقابل الفريقان وجهاً لوجه بالقنابل اليدوية، مما اضطر العدو إلى الانسحاب من خطوطه الأمامية إلى الخطوط الخلفية في الجزء الذي يسيطر عليه تحت صلو النار من المجاهدين الذين طوقهم، ولم يلبثوا غير فترة قصيرة حتى طلبوا السلام من لجنة الهدنة التي تدخلت في الوقت الذي كان العدو فيه بموقف حرج ومنعت المجاهدين من تضيق الخناق على العدو وهزيمته، غير أن العدو قد اتخذ من هذا الإجراء مجالاً لاستعادة أنفاسه، ثم خرق شروط الهدنة، وبدأ بإطلاق النار مرة ثانية مما سبب إزعاجاً للمجاهدين، وبعد انتهاء المعركة إلتزم إلى سعدون مساعدته حيث بادره بقوله:

— : هاه!! أخبرني عن رفاقنا؟

: بصفة إجمالية، بخير.

— : عسى ألا يكون فيه شهداء كثير؟

: لقد بلغ الشهداء من رفاقنا ثلاثة عشر شهيداً.

— : ثلاثة عشر!! وأسفاه، والجرحى؟

: الجرحى خمسة عشر جريحاً^(١٢٨ - ١٤٢).

— : هذه خسائر كبيرة نسبياً فما هو السبب؟

: يبدو أن السبب مباغته العدو لنا في وضع النهار، وبأعداد كبيرة، ونيران كثيفة، ولكنهم...

— ماذا تريد أن تقول؟

: أقول إن عدد قتلاهم قد تجاوز المئة قتيل، ومثل هذا العدد من الجرحى، مما اضطرهم تحت هذا الموقت أن يطلبوا وقف إطلاق النار من لجنة الهدنة.

— وكم غنمنا من حصاد المعركة؟

: كانت الغنائم مدرعتين وأربعة عشر بندقية وخمس رشاشات وعدداً من العتاد والقنابل اليدوية مع عدد من المعدات.

— والله لن تذهب دماء رفاقنا هدرأً عند هؤلاء الأوغاد الجبناء.

: سنعد لهم العدة.

— وستكون خطة محكمة لاحتلال هذا الموقع الهام ولن يكون للعدو موطئ قدم فيه.

: لنختار القتال تحت جناح الظلام.

— هذا مايدور في ذهني الآن، فالعدو لا يجرؤ على القتال إلا في وضح النهار، أما القتال الليلي فإنه يجبن عن خوض معاركه.

: آه!! ليتني أظفر به، والله لأمزقته إرباً إرباً.

هكذا تفوه سعدون بهذه الجملة عندما كان واقفاً أمام رفاقه، فبادره مساعده بقوله: من تعني؟ فأجابه أعني هذا «المختار» الخائن المتعاون مع العدو، والذي ربما يطولنا أذاه، وأخل في ميزان الوضع الذي نحن فيه، حيث أننا الآن نسيطر على قرية القسطل سيطرة تامة وأخشى أن يغتنم الفرصة ويرى علينا ثغرة من الثغرات فيخبر العدو بها، فمنذ فترة والعدو يحاول احتلال مواقعنا بدون جدوى، إيه!! لعل الله يوفقنا إلى أسهل الطرق.

كان العدو في هذه الفترة يعد العدة لإخراج المجاهدين من القرية فعمل على جرهم في معركة خارجها، وذلك بالاشتباك مع مواقعهم خارجها بقوة شديدة الضغط، مما حدا بالفصائل المسيطرة على القرية لنجدة رفاقهم الواقعين تحت وطأة برائن العدو في هذه الأثناء كان العدو قد أعد العدة

لدخول القرية من الخلف بعد أن أخلاها من كان فيها من المجاهدين وعندما عاد المجاهدون إلى القرية وجدوا مواقعهم قد احتلت من قبل عدوهم فاستماتوا في استعادتها، وتوالى النجذات وتم حصار القرية لمدة أربعة أيام بلياليها؛ تم اقتحامها في نهاية الأمر بعد تضحيات جسيمة وخسارة في الأرواح، وفقدان المجاهد القائد الشجاع^(١٤٤) الذي سقط أثناء اقتحامه لتحصينات العدو، مع عشرة من رفاقه بين قتيل وجريح مما حدا بقيادة المجاهدين أن تنقذ الموقف بنجدة سريعة^(١٤٥) ومعها مدرعتين غنمها المجاهدون من العدو، وتمكنت هذه النجدة من احتلال القرية وتطهيرها من العدو بالقضاء المبرم عليه استدعى القائد بمساعدته حيث سأله :

— : أخبرني عن الأمر؟

: لقد انطلت علينا خدعة العدو هذه المرة.

— : كيف نسمح له بأن يفعل بنا ما فعل؟

: لقد استجرنا خارج مواقعنا الحصينة لنجدة رفاقنا ويبدو أنه أخبر بإخلائنا مواقعنا حين أسرع في احتلالها.

— : مادام هذا «المختار» وأمثاله بيننا وما ينقلونه للعدو من معلومات عنا فلن يستقيم لنا ظهر، وهو ما يجب القضاء عليه قبل عدونا، لأن هذا عدو داخلي، وهو أخطر علينا في كثير من الأحيان من العدو الرئيسي، وذلك للتعاون الوثيق بينهما.

: أعتقد أن ما حدث بسببه؟

— : بلا شك، بلا شك!! ومن فقد من رفاقنا؟

: لقد استشهد منهم خمسين شهيداً وحوالي مئة جريح بين مدنيين وعسكريين وفقدنا قائداً مقداماً هو الشهيد عبدالقادر.

— : رحمك الله، رحمك الله أيها القائد الشجاع، والمجاهد الفذ.

: لولا فرعة الله بوصول النجدة إلينا^(١٤٥) لصارت الخسائر أفدح والمصائب أعظم.

— : إيه، الحمد لله على ما قدر ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه

راجعون) لنا لقاء آخر معهم وسوف نجازيهم عن فعلتهم هذه بما هو أشد منها وفقاً.

* * *

وتقدمت قوة المجاهدين من «ترشيحا» إلى «بليدي» تنفيذاً لأوامر القيادة العليا، وذلك لتعزيز الحصار المفروض على المنارة، والذي حاول العدو عدة مرات فكه دون فائدة، وما إن أخذت هذه القوة مواقعها على المرتفعات المشرفة على بحيرة «الحولة» وفي ساعات الصباح الأولى^(١٤٦) رأى رجال سعدون عدداً من أفراد العدو يحاولون الإقتراب من الخطوط الأمامية، فاشتبكوا معهم وجهاً لوجه بالقنابل اليدوية، فأسرعوا للانسحاب تاركين وراءهم الأسلحة والعتاد والذخائر وقد عثر على ما خلفوه من هذه المتروكات في الصباح، غير أنه بقي نقطة كان المجاهدون حريصين على احتلالها تلك الأكمة التي اتخذها العدو مركزاً لمدفعيته ونقطة يضرب منها قرية «ميس» وفي الساعة المقررة^(١٤٧) تقدمت قوة المجاهدين واحتلت هذه المرتفعات بعد أن صبت على العدو النار الحامية، وانسحب العدو تاركاً وراءه أعداداً من القتلى والجرحى، وأعداداً كبيرة من الأسلحة والذخائر.

ولم يهن عليه الأمر، فجهز أربعة عشر مدرعة وسيارتي «جيب» إحداهما مصفحة وسيارتي نقل «لوري» محملة بالذخائر في محاولة لفتح الطريق وفك الحصار عن القرية المحاصرة لكن أحد الأفراد^(١٤٨) كان لهذه النجدة بالمرصاد حيث زرع ألغاماً تحت الجسر، وعند مرور المدرعات والعربات فوقه تم نسف الجسر، فدمرت معظم المدرعات، ولم يسلم منها سوى أربعة غنمها هذا الفرد الذي تبني العملية بالإضافة إلى إحدى سيارات الجيب، أما من كان بداخل هذه المدرعات فقد أبيدوا كلهم عدا واحداً تم أسره وقد استمرت هذه المعركة أربعة أيام لم يفصلها سوى تدخل مراقبي الهدنة.

وما إن توقف إطلاق النار حتى استدعى سعدون مساعدته لاستطلاع النتائج فبادره بقوله:

- : ما أخبار رفاقنا؟
: بخير، عدا سبعة استشهدوا (١٤٩ - ١٥٥) وثلاثة جرحوا (١٥٦ - ١٥٨).
— : وماذا عن العدو؟
: لقد كانت خسائرهم فادحة في الأرواح والعتاد.
— : كم قتل منهم؟
: أكثر من مئة قتيل، وعدد من الجرحى ولدينا أسير واحد.
— : وعن العتاد؟
: لقد دمرنا لهم عشر مدرعات وسيارة «جيب» وسيارتي نقل بما فيها من الذخيرة والعتاد، حيث تفجرت واحترقت أما السلاح فقد غنمنا أعداداً كبيرة من البنادق والذخيرة.
— : حسناً، سنتابعهم وسنبقى شوكة في حلوقهم حتى يرحلوا عن هذه الأرض التي يحاولون اغتصابها وطرد أهلها منها بمساعدة أنصارهم ومساعدتهم.
: نحن معك، والله معنا إن شاء الله.

قصة رقم (٢٤)

السيدة المثالية

«لا إله إلا الله الحي القيوم، أصبحنا وأصبح الملك لله الواحد القهار كاشف الليل عن النهار» هذا أول ما أفتحت به أم عبدالله كلامها بعد أن نهضت من فراشها على صوت صباح الديك الذي كان يعتبر بمثابة الساعة ذات المنبه حينذاك، فأشعلت ذبالة «الكيروسين» بعود الثقاب ثم اقتبست من الذبالة لهبة في سعفة النخل الجافة وشبت النار في الكانون لتسخن عليه الماء، فتوضأت وصلت عدداً من الركعات قبل أذان «النِّبَاه» الفجر الأول ثم أيقظت ابنها ليذهب أحدهما مع الفلاحي الذين يحضرون العشب من البر على ظهور دوابهم، والثاني لسني الإبل وإخراج الماء من البئر لسقي الزرع والنخيل ثم أيقظت ابنتها لأداء الصلاة ولمساعدتها على عمل المنزل، وبعد أداء صلاة الفجر شرعت أم عبدالله بتجهيز وجبة الفطور لأهل بيتها من الأرغفة التي تعملها في البيت، وأحياناً تجعل هذه الوجبة من العصيدة المحلاة بالدبس، ولم تزرغ الشمس حتى انتهت من عملها المنزلي بعد أن ملأت الأواني بالماء الذي أحضرته على رأسها من الساقى بإناء نحاسي، ثم عطفت على أرضية المنزل فنظفته بعد ذلك أخذت زنبلاً مليئاً بالحب وفوقه إناء مليء بالتمر وبعض الخبز مما صنعه ذلك الصباح فبادرتها ابنتها:

— : أين تريدان يا أماه؟

: لن أغيب طويلاً يا بُنَيَّة.

— : أسمحين أن أسألك؟

: تفضلني.

— أراك في كثير من الأحيان بالليل أو النهار تأخذين هذا الزئيل المليء بالطعام ولا ندري أين تذهبين به؟

: وهل فطنت لذلك؟ مع أنني أحاول ألا يعلم بي أحد!!

— لقد اعتراني الخجل عن سؤالك عدة مرات.

: كما تعلمين يابنية أن بقرتنا ومن ينزل بقربها مجموعة من الأسر الفقيرة الذين

هم بأمس الحاجة إلى من يمد إليهم يد العون والمساعدة.

— ولكن ما تأخذينه قد لا يكفي لحاجة تلك الأسر!؟

: بودي لو أنني أملك مثل جبل رَمَّان ذهباً وفضة أو طعاماً حتى أستطيع أن أسد

فاقة كل محتاج، لكن يابنية «الجود من الموجود» كما يقول المثل.

— ولكن ما في هذا الزئيل قليل في نظري.

: يَا بُنَيَّة!! ما في هذا الإناء من التمر والأرغفة يفرح به الأطفال الصغار، أما

الحب فيكفي تلك الأسرة ليومين أو ثلاثة.

— لو جمعت ما توزعينه في كثير من الأوقات لفقير واحد وربما تسببت في

انتشاله من بؤرة الفقر.

: أُبْنَيَّة!! لا يتشغل الإنسان من الفقر إلا الله، ثم العطاء الجزل، ثم إن الفقراء

كثيرون، وكون هذه المبرة تأتيهم واحداً بعد الآخر في أوقات متفاوتة تكون أعم

نفعاً وأعظم أجراً عند الله.

— لا شك، فأنت أعلم مني بذلك.

: والله لو تعلمين بفرحة الأطفال بهذه التميرات التي أحضرها لتلك الأسرة الفقيرة

لتغير رأيك.

— ولكن، هل يكفي أهل هذا البيت ما تحضره لهم إلى أن يأتي دورهم وتأتي

إليهم مرة ثانية؟

: لا تنسى يابنية، أن الاجواد كثر والله الحمد، وأن فاعلي الخير يتسابقون إلى

بيوت هؤلاء الفقراء بما تجود به أريحياتهم.

— جزاك الله خيراً يا أماه.

: لم أبلغ في هذا المجال معشار ما بلغته أُمِّي رحمها الله.

- : إذا هذه السجية قد ورثتها؟
- : وسأورثها أبنائي من بعدي لمن يهده الله إليها.
- : هل يقتصر ما توزعينه على فقراء قريتنا؟
- : وعلى الأعراب الذين ألفت بهم ظروف الحياة القاسية بجوارنا.
- : لكن أكثرهم لا يعملون كما يعمل الناس ليكسبوا لقمة العيش.
- : إنهم يعملون بقدر استطاعتهم، فمنهم رعاة الإبل والغنم والبهيم، وهذه المهن التي يعرفونها ويعيشون من ريعها، وقد لا يحتاج أكثرهم للمساعدة.
- : إذا، من هم الذين يحتاجون للمساعدة؟
- : هناك عجوز كبيرة، وشيخ هرم ليس لهما من يعولهما، كما يوجد الأيتام القُصَّر عند أمهم التي تكسب من عرق جبينها لتؤمن لهم لقمة العيش الكريمة، مثل هذه الفئات هم الذين يحتاجون إلى المساعدة العاجلة.
- : ضاعف الله لك الأجر والثواب يا أماه. تقول ذلك وهي تودع أمها. حملت أم عبدالله الزبيل على رأسها متوجهة إلى هدفها وفي ذهنها سؤال ابتها عن هذه الأسر المستحقة للمساعدة وهي تردد في ذهنها: أما علمت هذه الشابة الغيرة أن هناك من العجائز والشيخوخ الذين حرّمهم الله من الذرية بالعقم أو موت ذريتهم، ويقوا في بيوتهم بعد أن تقدمت بهم السن وعجزوا عن العمل، لا دخل لهم إلا ما تجود به أريحيات أهل الفضل والإحسان فتمتد إليهم وتمدهم بمساعدتهم على أود الحياة إلى جانب هؤلاء يوجد المُقْعَدَةُ والمُقْعَدُ الذي لا يستطيع ممارسة أي عمل، هذه الفئة بأمر الحاجة للمساعدة، وبالأخص إذا كان هذا المقعد قد تزوج ورزق بذرية، في هذه الحالة تكون مساعدتهم ملحة، كما أن هناك أم الأيتام الذين اختطف المنون روح والدهم، وترك خلفه حفنة من الأطفال الصغار كأنهم زغب الحمام في رعاية أمهم التي تحاول جامدة اكتساب لقمة العيش الشريف لهم بما تساهم به من عمل يدوي إن كانت تنقن إحدى المهارات الفنية كالخياطة أو النسيج وغير ذلك من المهن، أو ما تقوم به من مجهود عضلي في أعمال الفلاحة كالحصاد وتنقية الحب وغيره.

إيه!! كثيرة هي الفئات التي تحتاج إلى المساعدة، وها أنذا وصلت وما إن طرقت الباب وفتحت لها صاحبة المنزل حتى علت كلمات الاستبشار من الأيتام الصغار، وعلت البهجة أسارير وجوههم لما عودتهم عليه هذه السيدة بين الحين والآخر لإحضار مايسد رمقهم ويقتل جوعهم، وحينما وضعت أم عبدالله الزنبيل عن رأسها حتى التم الصبية حولها فبادرت والدتهم بمناولتهم من الوجبة الجاهزة فأكلوا وانصرفوا من عند أمهم التي تنهدت قائلة:

— : لقد أخرجني هذا الطفل الذي يسألني كل صباح ومساء عن أبيه.

: يسألك ؟!!

— : نعم منذ أن فارق والدهم هذه الحياة إلى رحمة ربه قبل أكثر من عام، وأنا

أواجه الأسئلة منهم وبالدات هذا الطفل، متى يعود أبونا من سفره؟

: وبماذا تردين عليه؟

— : أعدهم وأمنهم إلى أن مللت من كثرة هذه الوجود والآن أكاد أن أصارحهم في الأمر.

: لا تصارحهم الآن، إنهم صغار لا يدركون ما يعنيه الموت، وقد يسألونك

أسئلة محرجة عن معنى الموت، ولكن عديهم بوعود من نوع آخر.

— : بماذا أعدهم؟!

: كأن تقولي لهم إن أباكم مع الجيش المجهز لمقاتلة الأعداء والدفاع عن

الأوطان، وبإمكانك أن تسليهم بالحكايات عن الأعمال التي يقوم بها والدهم

مع رفاقه في الدفاع عن وطنهم، وحماية أرضهم ودحر أعدائهم، ذلك لتغربي

في نفوس أولادك بذور الشجاعة والإقدام، والغيرة على الوطن والتفاني في

الحفاظ عليه وإنكار الذات، وغير ذلك من الخصال الحميدة التي

باستطاعتك أن تغرسها وتنميها في نفوسهم وتجعلهم يعيشون في أمل

مستمر.

— : قد يكون ما أشرت إليه يفيد الذكور من أبنائي ولكن البنات قد لا يهتمن مثل

هذا الأمر.

: على العكس يا أم راشد، فالفتاة لا تقل إحساساً واشتياقاً عن الذكر لمعرفة أخبار البطولات، فكل فتاة تفخر بمواقف والدها أو أخيها البطولية، وهي حريصة على الاعتزاء بمن له مواقف مشرفة وصولات وجولات على الأعداء.

— وماذا تدرك الفتاة من معنى المعارك؟

: إنها تفتخر بمواقف رجالها الأبطال، وربما شاركت الفتاة في يوم من الأيام إلى جانب الرجل في ميدان المعركة.

— المرأة تشارك الرجل في المعارك؟!

: لا غرابة في ذلك، فقد شاركت الفتاة العربية المسلمة إلى جانب الرجال بالمجال الذي تستطيعه، كأن تقوم بتضميد الجرحى، ومداواة الكلى، وقد تشارك في القتال بالسلاح جنباً إلى جنب مع الرجل عند الحاجة.

— كأنني لم أستوعب هذا الكلام!!

: عليك بتربية أبنائك وغرس الثقة بأنفسهم منذ الصغر، وعودهم على معرفة الاعتبار البناء فلعل الله أن يضاعف لك بهم الأجر والثواب، وأن يجعل لك الربح منهم.

— أرجو ذلك، ولكن الظروف الصعبة التي نعيشها تجعلني أحياناً أذهل نفسي، فضلاً عن أن أربي أبنائي التربية التي أشرت إليها.

: إذا جمعت بين الخصلتين تربية أبنائك والصبر على ما أنت فيه من ظروف الحياة فذلك أعظم لأجرك.

— أرجو من الله ذلك، إنني كل يوم آتي بحزمة من الحطب فوق رأسي وأرمي بها في بيت أحد الأجواد، وأنا أعلم أنهم ليسوا بحاجة إليها، وذلك لكي أحصل منهم على شيء من الطعام لهؤلاء الأطفال.

: كل يوم حزمة حطب!!

— نعم، وإن كان لدي من الطعام ما يكفي أبنائي ذلك اليوم فإنني أحضر الحطب إلى بيتي ليتدفأ عليه أطفالي.

: عوضك الله عما تبذله في سبلهم، وجعلك تعيشين في كنفهم.

— آمين، لكن الطريق طويل!! تقول ذلك وهي ساهمة شاردة التفكير.

: ما أقرب ذلك، حين تفتح عينيك في يوم من الأيام فتجدين عندك أربعة من الرجال الأشداء الذين يتزاحمون في طريق المعالي، وكل يقول: إن الحق لي أن تعيش والدتي بكنفي فلا تدرين من ترضين منهم، ويصبح لديك ثلاث من الفتيات الجميلات مثل أمهن، فيتزاحم الخطّاب على بابكم، ويتزوجن من عليه القوم، وكل واحدة منهن تريد منك أن تجلسي وتعيشي معها في بيت الزوجية ولو بعض الوقت، فلا تكادين تتركي هذه حتى تتخطفك الأخرى بلهفة وشوق.

— أوه!! لقد فتحت باب الأمل أمامي على مصراعيه.
: إنه الأمل المرتقب، والهدف المرتجى، ومن منا لا يعيش على الأمل يا أم راشد؟
: لا شك في ذلك لولا طول المشوار...!! تقول ذلك وهي مطرقة، وكأنها تتصور شيئاً أمامها.

: مالك مطرقة هكذا يابنية!؟
— كما تعرفين يا أم عبدالله إنني لا أعرف من كسب الرزق إلا إحضار الحطب أو العمل اليدوي في الفلاحة مع الناس، وفي يوم من الأيام رميت بحزمة حطب عند باب أحد الأثرياء ورأيت من تعابير وجهه أنه لا يرغب أن آتبه بمثل هذا الحطب مرة ثانية، فسللت حبلتي ومضيت دون أن انتظر لما يمدّه إليّ من طعام ولم أعد إليه مرة أخرى.

: هناك اختلاف بين الناس فلا غرابة في ذلك.
— لقد تعلمت من التجربة الفعلية، ولذلك صرت أعرف الأجواد الذين يقدرّون الوضع الذي أعيش فيه.

: أعانك الله، وثقي يا أم راشد أن كل حبة عرق تسقط منك في سبيل تربية هؤلاء الصغار لن تضيع هباءً وستجدينها في ميزان الحسنات عند الله وقد زادت مئات الأضعاف، بالإضافة إلى مردودها عليك في هذه الحياة من قبل أبنائك.

— جزاك الله خيراً، لقد فتحت لي أبواباً واسعة، وغرست الثقة في نفسي، لقد

أصبحت أشعر وكأنني لست أرملة وأم تعيل سبعة أيتام. إنني أتخيل المردود
الجزل الذي سأجنيه من تربيته أبنائي والصبر على ما ألاقه في سبيلهم.
: استودعك الله، وإلى لقاء قريب.

— : حفظك الله.

عادت أم عبدالله إلى منزلها وهي تردد في نفسها: ما أغلظ أكباد بعض
الناس، وما أقسى قلوبهم؟! رجل ثري يرى أرملة تحضر له على رأسها حزمة
من حطب الرمث، ثم ينظر إليها شراً بوجهه العابس وجبينه المقطب، وكأنه
يقول لها: إياك أن تعودى لمثل هذا الأمر، لأنه يعلم أنها لم تأت به هذا الحطب
إلا لطلب نواله، فبدلاً من أن تمد له يدها طالبة إياه مساعدتها على إعالة
أبنائها، أنه بشيء يستفيد منه وما يعطيها جزاءً له لا يساوي شيئاً مما بذلته
من جهد وما نزفته من عرق في سبيل إحضار هذه الحزمة الكبيرة من الحطب
على رأسها من مسافة بعيدة «حوالي ٥ أكيال» تحفر عن شجيرات الرمث
لتخرج جذوعها، وتُحْتَمَّ ما على أغصانها من الهدب ثم تحزمها بحبلها
وتحملها على رأسها بمساعدة رفيقاتها، وتسير بها هذه المسافة ثم ترمي بها
عند باب هذا الثري لتتوقع منه قليل من طعام قد لا يكفي لوجبة واحدة لها
ولأطفالها وإذا بها تجد عوضاً عن ذلك تلك النظرات القاسية والتقطيع
المحكمة، أترى لو أنها أحضرتها له بالمجان، أما تنقلب تلك التقطيع إلى
ابتسامة عريضة؟ وتلك النظرات الشريرة إلى رنوّ حاني؟! إيه، ها هي تركت له
الحطب بالمجان، وسلّت حبلها من الحزمة، وعادت إلى أبنائها بخاوية
اليدين، يا الله، ما أكبر وما أعظم فرحة أولئك الصبية الصغار بأفواههم الجياع
بعودة أمهم التي تأتي إليهم ظهر كل يوم وقد أحضرت لهم قوت يومهم، وما
أشدّ انكسار أبصارهم عندما يرونها خالية الوفاض، ليس بيديها شيء سوى
الحبل الذي تحزم فيه الحطب؟! يا الله ما أقوى صبرها وهي تواجه أطفالها
وليس معها شيء، لتحطم نظراتهم على قدميها، ولعلها تكون قد ادخرت لهم
شيئاً مما حصلت عليه بالأمس لتسد به رمقهم هذا اليوم. إيه!! قاتل الله
الشح، ومحق البخل، كم حرص مثل هذا البخيل واستمات على ماله فلم ينل

منه الفقير شيئاً، ولم يحصل المحتاج من الشيوخ والعجائز والأيتام والأرامل منه
 على قطمير، حتى لو اتبعوا أساليب معينة ترفع عنهم ذل السؤال، ولكن
 الصخرة الصماء لا تندى مهما احتجرت وراءها من زلال الماء، لكن
 الحمد لله، فالدنيا لا تزال بخير، حيث يوجد مجموعة أخرى من الأجواد
 الكرماء الذين أنعم الله عليهم وهداهم، يقدرّون ظروف مثل هذه الأرملة التي
 تقوم بإعالة سبعة أطفال بعرق جبينها وعمل سواعدها، فهم يعرفون أنها ما
 جاءت بهذه الحزمة من الحطب في هذا الوقت الذي تقل فيه الأعمال التي
 تستطيع ممارستها إلا وتريد أن تحمي نفسها وتصون وجهها من ذل السؤال،
 وتكف يدها عن حقارة المسألة، فلذلك ما إن ترمي بحزمته حتى يلاطفها
 صاحب الشأن بكلمات وجمل تغسل عن جبينها أضرار التعب مثل «عافاك
 الله، ما أجزل هذا الحطب» وغير ذلك من الكلمات والجميل التي تدخل
 البهجة للنفس طالباً منها الانتظار قليلاً لحين يحضر لها ما تجود به أريحته من
 نوال، لتذهب به إلى صغارها، وفي اليوم الثاني تقصد كريماً آخر وثالثاً وهكذا
 دأبها طيلة أيام فصل الشتاء إلى حين تبدأ الأعمال الأخرى من موسم الفلاة
 ثم موسم الحصاد، ودرس الزرع وذريه وتنقيته، حيث تعمل عند الفلاحات
 لتأمين لقمة العيش لأبنائهن، أعانها الله، ومثلها وأمثالها من الأمهات
 المكافحات الصابرات، يخرجن أولادهن من الرجال الجادين، ومثل هؤلاء
 النسوة لا خوف عليهن، ولكن الخوف على أولئك الشيوخ والعجائز الأرامل
 اللواتي لا يستطعن القيام بأي عمل من الأعمال أو أولئك المُقْعَدُونَ الذين لا
 يستطيعون الوقوف أو حتى الجلوس، ولكن عين الله لا تغفل، حيث جعل الله
 رزقهم يأتيهم بواسطة هؤلاء الأجواد الذين يرجون ما عند الله من أجر حين
 يتعهدون مثل هذه الفئات من المجتمع ويمدونهم بلقمة العيش، إيه!! مالي
 سرحت بعيداً وخضت في أحوال الناس؟ إن من لا يشعر بأحوال مواطنيه اعتبره
 فاقداً للإحساس يعيش أنانياً لنفسه فقط، ولو لم يفتن من هؤلاء الأجواد وبنات
 الأجواد من النساء الفاضلات لماتت تلك العجوز التي تقيم بدارها وحيدة إثر
 مرض ألمّ بها فجأة، ولكن استمرار دخول هذه الفئة الطيبة من النساء عليها

بين الحين والآخر جعل إحداهن تعثر عليها حال إصابتها بالمرض، فسارعت بإسعافها بالأدوية المتاحة لها حتى أفاقت ثم نقلتها هذه السيدة إلى منزلها وبدأت بعلاجها حتى تماثلت للشفاء ثم أعادتها إلى بيتها، إيه إن الله لا يضيع دوداً بصفلة.

* * *

وما إن وصلت أم عبدالله إلى منزلها وتفقدت شعون بيتها التي وجدت أن ابنتها قد أكملته حتى أخذت مكانها لتكمل ما لديها من أعمال الخياطة والتفصيل التي برعت بها وعلمتها لابنتها، حتى أصبحت ابنتها أكثر جودة وأتقن عملاً منها حينما تختار النقوش والتطريز الذي يلائم الشابات، ويسلب لبّ السيدات، فكانت مقصد الشابات والسيدات من جميع أنحاء القرية بل وتعداها إلى القرى المجاورة لها، وما إن شرعت السيدة بعملها حتى طرقت الباب عليها سيدة من زبائننا ومعها ثياب لبناتها وبادرتها بالقول:

—: أرجوك يا أم عبدالله أن تخطي هذه الثياب لبناتي ولتكن نقشة الأكمام والصدر من عمل ابنتك «سلمى».

: وأنا، ألم يعجبك عملي؟! :

—: بلى، ولكن بناتي قد أكدت عليّ أن يكون تطريز جيوب وأكمام ثيابهن من عمل ابنتك إيه، هذه رغبة الشابات يردن ما سمعن به.

: لا عليك، أبشري فأنا وابنتي واحد.

—: ليكن التطريز بالقصب والابريسم مثلما عملت لهن في العام الماضي.

: وسيكون أحسن من العام الماضي إن شاء الله، ولكن..

—: ماذا تريدان أن تقولني؟ أتريدان أجراً أكثر؟

: ليس هذا ما أقصد، بل أريد سؤالك، ألم يخطر ببالك أن تتعلمي الخياطة

والتطريز بنفسك؟

—: أنا؟! :

: نعم أنت، في هذه الأيام لديك فراغ طويل حيث تقوم بنائك بكافة أعمال المنزل.

— : صحيح، ولكن ليست لدي القدرة على ذلك.
: على العكس، لديك الذكاء والدقة في العمل وحب التجديد ومتى صممت على العمل فلن يعوقك شيء.
— : كل ما أستطيعه من الخياطة هي رَفِي شقوق ثيابي ورتق فتوقها وخياطة الجديد منها خياطة غير جيدة.
: هكذا تشعرين، ولو أردت وصممت على ارتياد هذا العمل لوجدت نفسك قادرة عليه.
— : كيف؟

: جربي مرة وأخرى وثالثة وسوف تتعلمين في كل مرة أشياء جديدة، وتتقنين فنيات جديدة في الخياطة التي تعتمد على الذوق والدقة والإتقان، وكل هذه الخصال متوفرة عندك.
— : إنني امرأة كبيرة، ولن أحتاج إلى ارتياد هذا الأمر.
: ومن قال لك هذا؟! أنت شابة لا تزالين في ريعان الشباب، ولو لم تستفيدي أنت من هذا الأمر كما تتصورين فإنه من الواجب عليك تعليم بناتك هذه المهنة الضرورية.

— : بناتي؟!
: نعم، ألا تعلمين أنهن سيصبحن عما قريب ربات بيوت، ومسئولات عن تربية أبنائهن وبناتهن؟!
— : هاه!! بلى، بلى.
: أتريدين من بناتك أن يصبحن اتكاليات لا تتقن الواحدة منهن خياطة ملابسها؟

— : الخياطة شيء، والنقش والتطريز والتفصيل شيء آخر!!
: لا فرق بين هذا وذاك، فالمرأة التي تتقن خياطة الثوب العادي تستطيع بقليل من التؤدة والأناة والذوق في اختيار الألوان والنقوش المناسبة لكل ثوب.
— : أتريديني أن أطرز جيب الثوب «المُعَوَّج» وأكمامه وبنائقه أو أطرز جيب وأكمام ثوب «المِقطَع» أو المِهْيَكَل وأتقنه كما تفعلين أنت أو كما تفعل إبنتك؟

: ليس ذلك بعسير على امرأة مثلك لديها من الذكاء والفطنة والذوق ما قد يفوق ما تتمتع به أنا وابنتي.

— لا أظن، لا أظن!! تقول ذلك وهي توميء بيدها إيماءة أفقية تدل على الرفض.

: جربي وسترين صحة قلبي، وإن خفى عليك من الأمور الفنية شيء فتعالني إلي لأعلمك أياها وأرشدك إلى ما يصعب عليك.

— سأفكر في هذا الأمر. وأرجو أن تجيدي خياطة ثياب بناتي.

كانت هذه آخر جملة تلفظت بها أم صالح وهي تودع رفيقتها، وأصدقاء ما دار من كلام لا يزال يطن في أذنها أحقاً ما تقول هذه السيدة؟ أن الإنسان ما دام يستمع بقواه العقلية، وقدراته الذاتية، فلن يستحيل عليه القيام بأي عمل؟ أصبح أنني أنمتع بالذوق الذي يؤهلني لأن أقوم وأبدع بالتطريز مما يجلب انتباه السيدات والفتيات، ويفضّلن ما اختاره لهن من أعمال؟ لقد كانت عندي الرغبة في ذلك عندما كنت عند أهلي في عنفوان الشباب قبل أن أتزوج، ولكنني لم أجد من يشجعني على ارتياد هذا العمل، ولما تزوجت شغلت بأمور المنزل والأسرة وانطفأت عندي تلك الجذوة المتقدة، إلى أن نبشتها هذه السيدة وبعثت عندي الأمل في أن أعاود إحياء ذلك الطموح من جديد، ترى ما الذي تهدف إليه هذه السيدة؟ أتريد تشجيع من قد ينافسها على هذه المهنة؟ لم أعهد هذه السجبة من شيم أهل المهن، أن يشجعوا الآخرين أن يتعلموا مهنتهم!! وهي بلا شك على العكس من أخلاقهم فأغلبهم يختلقون سبل التعمية لغيرهم حتى لا يتعرفوا على أسرار مهنتهم فينافسوهم فيها، أما هذه فإنها تدعوني وربما دعت غيري إلى ارتياد هذا المجال الذي لا يستغني عنه أحد ما دامت المرأة على قيد الحياة، فمن طبيعة المرأة حب التجميل والظهور بالمظهر الجذاب بما تريديه من ملابس وما تقتنيه وتستعمله من أدوات التجميل والعطور مما يجذب الانتباه إليها، ومهنة كالخياطة والتطريز من الضرورة بمكان أن تتعلمها الفتاة، فتستغني بها عن الأخريات ثم تعلمها لبناتها من بعدها، فينتقل الغنى بالمهنة من الأم لبناتها وحفيداتها جيلاً بعد جيل، والله إن أم عبدالله لمحقة في كلامها، فدعني أجرب نفسي، ولن

يُضِيرُنِي ذَلِكَ، سَأَحَاوِلُ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ وَبَلَا شَكٍّ أَنَّنِي سَأَتَعْلَمُ شَيْئاً، سَيِّمًا وَأَنَّهَا اسْتَعَدَّتْ أَنْ تَسَاعِدَنِي وَتُرْشِدَنِي فِيمَا يَصْعَبُ عَلَيَّ مِنْ أُمُورِ التَّطَرُّيزِ، سَأَجْرِبُ وَلَنْ تَكُونَ الْخُسَارَاةُ سِوَى قِطْعَةٍ مِنْ قِمَاشٍ وَعَدَدٍ مِنْ لِفَافَةِ الْخِيُوطِ الْمَلُونَةِ مِنَ الْإِبْرِيسَمِ وَغَيْرِهِ وَحَتَّى أَعْرِفَ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَسَأَبْدَأُ مِنَ الْغَدِ، وَسَيَكُونُ خِيَاطَةُ مَلَابِسِ بَنَاتِي فِي الْعَامِ الْقَادِمِ مِنْ صَنْعِ يَدِي.

بَيْنَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ فِي مَنْزِلِهَا إِذْ طَرَقَتْ عَلَيْهَا الْبَابُ إِحْدَى رَفِيقَاتِهَا الَّتِي نَقَلَتْ إِلَيْهَا أَخْبَاراً سَيِّئَةً حَدَّثَتْ لَيْلَةَ الْبَارِحَةِ فِي أُسْرَةٍ بِأَحَدِ جَوَانِبِ الْبَلَدِ، ذَلِكَ أَنَّهُ جَرَى بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ خِلَافٌ أَدَّى إِلَى خُرُوجِ الزَّوْجَةِ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلَى بَيْتِ أَهْلِهَا وَمَا كَادَتْ هَذِهِ الزَّائِرَةُ تَخُوضُ فِي سِيرَةِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ حَتَّى اسْتَوْفَقَتْهَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ قَائِلَةً:

— : بدلاً من أن نتعرض لهم ونحن جلوس ونغتابهم، لماذا لا نفعل الأفضل؟
: الأفضل!! ماذا تعنين؟

— : نسعى بين أطراف النزاع في هذه الأسرة ونحاول إصلاح شأنهم.
: كيف؟! تقول ذلك باستغراب.

— : أليس باستطاعتنا أن نقنع الزوجة لترجع إلى بيت زوجها؟
: لا أدري.

— : بل بإمكاننا ذلك.

: كيف؟ تقول ذلك بانبهار.

— : نقوم بزيارة للزوجة ونسمع وجهة نظرها ونحاول امتصاص ما في نفسها من غضب على زوجها ثم نتوجه إلى الزوج ونعرف وجهة نظره، ونحاول تلطيف جوه، ومن ثم تعود المياه إلى مجاريها.

: إنني أفقد المقدرة على ذلك، إنني أستحي من الرجل، فلم يسبق أن كلمته رغم أننا في قرية واحدة وسبق أن جاورنا.

— : وأنا بدوري لم يسبق أن تحدثت معه، وكما تعلمين أننا عجائز «قد رفع عنا القلم».

: هاه!! قد لا أذهب معك.

— بل تذهبين معي للمؤانسة.

وقصدت السيدتان منزل والدة المرأة التي بقيت عندها، وعندما دخلتا عليها وسلم بعضهن على بعض وأخذت كل واحدة مكانها أخذ الحديث مناحي شتى فقالت أم عبدالله:

— كأنني أرى رقية عندك يا أم رباح؟!

: كما تعرفين بعض الرجال إذا غضب خرج عن طوره واستعمل العنف مع زوجته، فقد غضب عليها زوجها البارحة وصفعها صفقة على خدها مما جعلها تغضب عليه وتخرج من بيتها تاركة أولادها عنده.

— تركت أولادها الصغار؟!

: نعم تركتهم عنده لينشغل بهم وليعرف قدر زوجته.

— لا تقولي هذا يا أم رباح، فالأطفال ليس لهم سوى أمهم التي لن تصبر عنهم يوماً واحداً.

: بل تصبر عنهم، دعيه يتورط في شقائهم.

— هذا كلام غير منطقي، فلو غابت عنهم يوماً واحداً لضاق صدرها، وربما تجدونها الآن يرف قلبها إلى أصغرهم أليس كذلك يا رقية؟ تقول ذلك وهي تبتسم.

: لم ترد رقية سوى بنظرات فاترة ثم اغرورقت عيناها بالدموع لكن أمها نهرتها وتولت الكلام عنها قائلة:

بل ستبقى ابنتي عندي حتى تتبخر الأفكار من رأسه.

— كأنني به اليوم وقد انتهى كل ما في نفسه عليها.

: مهما يكن، فلن تعود عليه قبل مرور سنة كاملة حتى يخرج ما في رأسه مع أظفار قدميه.

— سنة!! ولكنه قد لا يصبر، فالرجل إذا رأى من زوجته الصلف والتمنع قد يتزوج امرأة أخرى. تقوم بأوده وتعتني بأولاده.

: يتزوج!!؟

— وما الذي يمنعه مادامت تقولين هذا الكلام، فهو رجل مقتدر ومن رجال طيبين الكل يرحب به لو جاء يخطب منه ابنته.

: هاه!! ولكن لماذا إذاً يصفع رقية هذا الكف!!؟

— كما تعلمين أن الرجل مزهو بنفسه ويمكن أن تكون قد أغضبته وهكذا بعض الرجال إذا غضب، ثم لا تنسي أنه زوجها أولاً وأخيراً.

: لا وفقه الله من زوج، ليس من الأزواج الذين يعاملون زوجاتهم بالحسنى.

— يهيء لك ذلك، أما الواقع فإن هناك الكثير من الزوجات يتحملن من أزواجهن الكثير من الأخطاء ليدوم استمرار العلاقة الزوجية.

: لا أظن أن هناك أسوأ من زوج ابنتي.

— على العكس، هناك الكثير ممن هم أسوأ منه، كما أن هناك الكثير من الزوجات التي تقوم الواحدة منهن بمعاودة زوجها ومناكدته ومناقشته طيلة تواجده عندها بالبيت وحتى في فراشه.

: أوه، لقد أكرت من العيوب يا أم عبدالله.

— هذا الواقع، وكثير من الناس من لا يظهر ما يجري له ويصبر على ما هو فيه، وأنت ماذا تقولين يارقية؟

: أنظري هذه بصمات كفه على وجهها، إثر تلك الصفعة القوية التي أودعها خدّها.

— ستزول هذه البصمات بقبلات اللقاء الحارة التي ستحدث بينهما بعد أن ينتهي ما في النفوس من عواقب.

: تنتهي!!؟

— نعم، وكأنني أرى رقية وقد وافقت على العودة إلى زوجها، بشرط أن يأتي إليها بهدية رمزية تمسح بها ما علق بنفسها من أضرار هذه الحادثة العابرة لتكون مشرفة على أبنائها.

: هي صاحبة الشأن فإذا وافقت فذلك شأنها.

— سيأتى إليك يابنتي هذا اليوم إن شاء الله، استودعكما الله.

وخرجت أم عبدالله ورفيقتها حيث توجهتا إلى الزوج في مزرعته فسلمتا عليه

- ورد عليهما السلام وأردف قائلاً.
- أهلاً وسهلاً، أم عبدالله وأم فريح، ما أبرك هذه الساعة تفضلاً، ولو لم يكن بالبيت أحد هذا اليوم.
- : أين صاحبة المنزل؟ تقول هذا وكأنها لا تعرف عن الأمر شيء.
- أوه!! لقد ذهبت البارحة إلى أهلها «طَيَّانَةٌ» غاضبة .
- : مغضبة!! ما الذي أغضبها؟
- إيه!! كما تعلمين يا أم عبدالله طبائع النساء ممن تستشير زوجها وتضيق عليه الخناق حتى...
- : حتى ماذا؟
- أوه، قد يصفعها صفعه بكفه.
- : يصفعها!! تعلم يا أبا سالم أن للمرأة شخصيتها وكيانها وقيمتها وكرامتها ويجب ألا يهدر حقها أمام نزوة غضب.
- ليتها تقدر ما تقولين من كلام، ولكنها أغضبتني حتى خرجت عن طوري، وصفعتها كفاً على وجهها مما جعلها تخرج وتترك أولادها.
- : إنها لا تستاهل، هذه أم عيالك، وامرأة من معدن طيب، كل نسائها نساء طيبات ولا تستحق منك هذا.
- لقد «تَحَسَّفْتُ» وأسفت في الحال ولكن بعد فوات الأوان.
- : والآن، ألا ترغب في عودتها؟
- بلا شك، إذا هداها الله، فلقد تورطت اليوم في تدبير شؤون هؤلاء الصغار مما اضطرني إلى إحضار أم آل فلان لتدبير شؤونهم.
- : إذاً، عليك أن تذهب إليها هذا اليوم وليكن معك لها شيء يرضيها، ويطيّب نفسها وسوف تعود معك إن شاء الله.
- وما يدريك عن هذا الأمر؟
- : أدري، وإن لم يكن عندك ما يرضيها فخرج عليّ لأعطيك قطعة من المصاغ تقدمها لها وتشترى لي بدلاً عنها.
- كثر الله خيرك، أنت وصاحبتك.

في عصر ذلك اليوم الثاني تنفست تلك الرياح الشمالية الشرقية وهي أبرد ما يهب على تلك المنطقة فعصفت بالناس والمواشي واضطرتهم إلى الإسراع إلى البيوت والمخابيء، والذرى لاتقاء لسعات بردها الذي قد فاجأ الناس على حين غرة، فأسرعت قطعان الأغنام إلى بيوت القرية مع الأصيل الباكر على غير عادتها راكضة بقوتها تاركة راعيها خلفها، أما البهائم، فقد جاء في وقت مبكر حال هبوب العاصفة مما اضطر راعيته إلى العودة خلفه، تلك الصبية اليتيمة العارية إلا من شرائح من الأسمال المهلهلة التي لا تكاد تستر عورتها بحيث إذا أضفت هذه الشرائح على جزء من جسمها أوجعته لسعات البرد ظهر الجزء الآخر، وليس على رأسها ما يقيها البرد سوى خصلات شعر مفتولة ليس لها عهد بالغسل، تمسك بعصاها الصغير الذي تهش به على بهيمها في كفها القريب من التجمد، وقد فاجأها البرد في هذه الحالة فأقبلت تجر قدميها الحافيتين، نصطك أسنانها من شدة البرد، وترتجف أعضاؤها وفرائصها من لسعته، مرت هذه الصبية بنساء وعجائز قد إتقين البرد بكن جدار يتشرقن، ويلتقطن بقية أشعة الشمس في انتظار مجيء أغنامهن، وكان بعضهن يقمن ببعض الأعمال كالحياطة وعمل السقيف من الخوص، وما إن مرت تلك الصبية من أمامهن حتى نظرن إليها بنظرات مختلفة، فمن نظرة إزدراء وشماتة بأهلها الذين تركوها بهذه الحالة إلى نظرة عطف وحنان عليها ومن صاحبات هذه النظرة أم عبدالله التي بادرت من فورها وقفزت من مكانها وأمسكت بيد هذه الصبية متجهة بها إلى منزلها، وعلى عجل أوقدت النار، ودثرت الصبية بدثار سميك، وأجلستها بقرب النار، وأحضرت لها شيئاً من التمر واللبن، ومن وقتها فصلت لها ثوبين على مقاسها، واستعانت بابنتها لحياطة هذين الثوبين وما هي غير ساعة حتى جهزا ثم أحضرت أداة التنضيف المتاحة آنذاك وهي الماء الساخن و«الشَّئَان» وهو ورق وأغصان نبات برى يزيد بمثابة الصابون، وأدخلتها بمكان دافئ ونظفتها، ثم حلقت شعر رأسها، وألبستها الملابس الجديدة، ولفت على رأسها خماراً، وأحضرت لها حذاءً مناسباً، وأبقتها عندها حتى موعد وجبة العشاء فقدمت لها من الطعام ما أشبعها وقتل في جوفها

لساعات الجوع وأدفاها.

في هذا الوقت قد أضيى الليل ستاره على الكون بتلك الليلة الشاتية التي توقفت الرجل عن الطريق في وقت مبكر عند ذلك تنبّهت جدّة الصبية وافتقدت ابنتها فهرعت تسأل عنها في بيوت أهل البهم في شارع القرية الوحيد من بيت إلى بيت حتى علمت أنها عند أم عبدالله فأسرعت إليها وطرقت عليها الباب قائلة.

— هل ابنتي عندكم يا أم عبدالله؟

: وهل لك ابنة حقاً؟! تقول ذلك من باب التعجب.

— عفواً، إنها ابنة ابنتي، أنا جدتها تقول ذلك بتلعثم ثم تردف قائلة «والجد والد» كما يقول المثل.

: إنك لا تستحقين هذا المفهوم مع الأسف.

— لماذا؟

: تقولين هذا، وهي على تلك الحالة السيئة من الإهمال!!

— إهمال؟! تقول ذلك بانبهار.

: نعم، لقد تركت هذه اليتيمة في حالة يرثى لها من لا يعرفها والناس كما تعلمين بفصل الشتاء القارس؟!

— هذا البرد قد جاءنا فجأة.

: بل يجب أن ننقيه بالملابس الواقية، وخاصة مثل هذه الصبية التي تذهب للبر فتكون عرضة للمطر والبرد.

— إيه!! ومن أين للناس الملابس الواقية؟

: اشتروا لها ملابس واقية من أجرتها في رعي البهم، أما تأخذون على رأس كل بهمة مقداراً معيناً في الفصل من السنة؟

— بلى، ويجمع لدينا من ذلك حصيلة لا بأس بها.

: إذاً من هذه الحصيلة اشتروا لها ما يديها ويشبعها.

— سوف أتعهد لها بنفسي من هذه الساعة، أين هي الآن؟

- : ها هي نائمة بقرب كانون النار، وقد غطت في نوم عميق بعد تعب هذا اليوم وورده فتركها في مكانها.
- وليكن في علمك أنني قد حلقت شعر رأسها.
- حلقتة!! لماذا؟
- : للمحافظة على نظافتها وسلامتها، فلقد وجدته في حالة مزرية من الرائحة الكريهة ومستودعاً لحشرات..
- ولكن... متى ينبت شعرها؟
- : سينبت من جديد، وسيكون أقوى مما هو عليه الآن على شرط أن تتعهد به بالنظافة.
- دعيني أوقفها وأخذها معي.
- : أرجو أن تتركها إلى الصباح، وسأرسلها إليك.
- إذا أستأذنك.
- : تصبحين على خير.

تقول ذلك أم عبدالله وهي تغلق باب منزلها وفي مخيلتها تلك الجملة التي أطلقتها رفيقتها «الجدُّ والد» صحيح هذا القول لمن يعرف معناه ويدرك مغزاه ويلتزم به لا أن يردده دون أن يعمل به، صحيح لمن يعطف على أحفاده ويحرص عليهم، ويودهم ويتفانى في سبيل راحتهم، ويبدل الغالي والرخيص من أجل سعادتهم، أما مثل هذه السيدة التي ليس لها من الأحفاد في الوقت الحاضر سوى هذه الطفلة اليتيمة اللطيمة، ولا توليها أي مقدار من العناية، فلا يحق لها أن تدعي أنها والدتها، أتركها ترعى حوالى مئة رأس من البهم حافية القدمين في زمهرير الشتاء، وقساوة صقيع الأرض، لا تنتعل سوى شوك السعدان، وحسك النفل، وشوك الضُريرة، حاسرة الرأس إلا من تلك الخصل المفتولة من الشعر، وليس لها بالغسل والمشط والتنظيف أي عهد، ولا يستر جسمها غير تلك الأسمال المهلهلة التي أصبحت شرائح على جسمها!! ثم تأتي جدتها وتقول: إنها بمثابة والدتها!! الله أكبر، لو كانت والدتها حية هل ترضى بأن تكون ابنتها بهذا الوضع؟ أو لو كان والدها حياً أيرضى بذلك؟

ولو كانت هذه الجدة مشغولة عنها لتلمسنا لها بعض العذر، ولكنها لا يشغلها عن هذه الصبية شاغل ولو ساعة من نهار أو ليل تعتني بها.

* * *

وهجع الناس في تلك الليلة في وقت مبكر خلاف المعتاد بسبب البرد، وخلت الشوارع والطرقات من المارة، غير أن هناك طارق يطرق الباب بشدة حين أسرع إليه «سعود» وهو الابن الأصغر لأم عبدالله ليفتح الباب فاندفع إليه الطارق بقوة ودخل بمجرد فتح الباب وهو يقول بصوت جهوري مضطرب:

— أين أم عبدالله؟ أين هي، أين هي؟

: عرفه الشاب فقال: ماذا تريد بها؟

— أريدها، أريدها، يقول ذلك بصوت تصطلك فيه أسنانه مما يجعله غير مفهوماً.

: تفضل، وسأدعوها لك.

— إن لم تسرع إليّ وتدفيني هذه الليلة فساموت.

: وسمعت السيدة لفظ الكلام فأقبلت وهي تقول: أهلاً وسهلاً بك «ياخلف»

من أين أتيت؟

— جئت من «الشَّلَاش»^(١) من عمتي شَاهَة.

: ما بك ترتجف هكذا، ألم تتعش؟

— بلى، ولكنني بردان، يكاد أن يقمص قلبي من شدة البرد.

: لا عليك، ادخل بقرب النار، هاه!! أين عباءتك؟

— لقد ضاعت في الصيف الماضي عندما كنت نائماً في الساحة الفلانية.

: أبشر بالعوض عنها.

— لا حرمك الله من الأجر.

: تفضل يا بني، لبس هذا الثوب وهذه الجبة، سأحضر لك العباءة التي تريدها.

— أهذه الثياب لي؟

(١) الشَّلَاش هم فهد وضياف الله وصالح الشَّلَاش التميمي في أسفل المستجدة وشاهة أمهم رحمهم الله.

: إلبسها فوق ثيابك، وهذه العباءة إرتدها لتدفئك.

— : كيف عرفت أنني بحاجة إلى هذه الثياب في هذه الليلة بالذات؟

: آه، لقد ادخرتها لك ولأمثالك يا بني، تفضل هذا العشاء الذي اغترفته لك.

— : يا لله!! ثوب وجبة وعباءة وعشاء!! جزاك الله بالجنة يا أم عبد الله.

: إذا تعشيت فتلك الغرفة بها فراش إن أردت أن تنام به.

— : كثر الله خيرك، إنني أنام بقهوة «الراشد»^(١).

ويخرج خلف، ويغلق سعاد الباب من بعده، ويتبادر إلى ذهن سعاد أن يسأل أمه.

— : من أين لك هذه العباءة يا أماه؟

: هذه عباءة أخيك التي عافها في العام الماضي.

— : ولكنها جديدة وأحسن من عباءتي.

: أعلم ذلك يا بني، ولذلك بررت بها هذا المسكين ليتدفأ بها في هذه الليلة الشتوية.

— : هذا إن لم يضيعها، فهو كما تعلمين سقيم العقل.

: مثل هذا يا بني، من تحل عليه الصدقة، ويجب عليه الإحسان وإن كان كما

ذكرت، أما تعلم يا بني أن على كل كيد رطبة أجر كما ورد في الحديث

الشريف، فما بالك بالإنسان كامل الخلقة وإن كان في عقله لوثة، إلا أن

ذلك لا يمنع من الصدقة عليه.

— : إنني أحياناً أسمعهم يتكلم كلاماً رزينا ممتازاً.

: حتى من هم في وضع مشابه لوضع يا بني تمر بهم ساعات يضيقون فيها،

ويثوبون إلى وضعهم الطبيعي، ولا تنتقد أحداً منهم بأي تصرف.

— : إيه، الحمد لله.

: نعم يا بني، الحمد لله الذي منّ علينا بنعمة العقل.

— : أترينه يجد المكان الذي قصده مفتوحاً؟

(١) الراشد: هو فهد الراشد التميمي في وسط أسفل المستجدة رحمه الله.

: بلا شك، فهؤلاء الأجواد وأمثالهم تبقى غرف مقاهيهم مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل، ولا سيما في ليلة شاتية كهذه، ينتظرون ضيفاً بضوى إليهم من مكان بعيد يلسعه البرد، ويلويه الطوى، ليقوم هؤلاء الأجواد بتقديم الطعام والشراب والدفع والفراش الذي ينام عليه لا يرجون من ذلك إلا الأجر والثواب من عند الله.

— كيف يستطيعون الاستعداد لهذه الضيافات؟

: يابني، عابر السبيل، وطارق الليل الذي يأوى إلى هؤلاء الأجواد المنتشرون في أنحاء البلد ولا تخلوا قرية أو حي من عدد منهم سيجد القادم عندهم العناية والترحيب، يقدمون له ما يلزمه من طعام وشراب ودفع بوجه بشوش وصدر رحب ونفس طيبة.

— بالفعل لقد لاحظت ذلك عند «أبي دُحَيْم^(١)» بالأمس.

: كثير هم الأجواد، وأقرب مثل جارنا «حمود^(٢)».

— إيه، أكثر الله من عدد الأجواد، ولكني أراك يا أماء تحرصين على العناية بمثل هؤلاء المساكين.

: ألا تعلم يابني، أن مساعدة الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل وعابري السبيل مما أوصى الله به في كتابه العزيز؟

— هاه!! لم أعلم بذلك.

: سوف تقرأ القرآن إذا كبرت وتصل إلى الآية الكريمة التي توصي بهذا الأمر، أما خلف ومن هو مثل حاله، فإنه يتوجب على الإنسان أن يعتني به، ويخصه برعايته دون سواه، لأنه مسكين لا يستطيع العناية في نفسه.

— أماء!! لقد اشتقت لقراءة القرآن الكريم، فكيف لي أن أتعلمه؟

: إذا جاء هذا المعلم الجديد الذي قيل أنه سرف يأتي إلى البلد بعد أيام سأدخلك تدرس عنده.

— أتعنين خطيب المسجد؟

(١) أبو دحيم: هو سالم بن حسين التميمي في وسط أسفل المستجدة رحمه الله.

(٢) حمود: هو حمود بن ناصر اللحيidan في وسط أسفل المستجدة رحمه الله.

: نعم، هو خطيب المسجد وإمامه ومعلم الصبية.

* * *

في تجمع لسيدات أحد أحياء القرية وأكثرهن من العجائز في ظل أثلة تتوسط الحي لم تستغ أم عبدالله ما دار في المجلس من حديث ذكرن فيه أن إحدى الشابات لا تحافظ على أداء الصلاة وأسكتتهن عن الخوض بمثل هذا الحديث على اعتبار أنه غيبة لصاحبة العلاقة وهو ما نهانا ديننا الإسلامي عنه وقالت لهن:

— بدلاً من أن تغتبنها، من ممكن تهدي لها النصيح، وتبين لها الطريق الصواب، فلعن الله أن يهديها. فرددن بصوت واحد.
: أنت لمثل هذه المهمة يا أم عبدالله.

وبالفعل فقد بادرت إليها قاصدة منزلها بعد طلوع شمس اليوم الثاني، وحال وصولها إلى المنزل، استأذنت المضيضة إلى مكان الوضوء، فتوضأت وصلت ركعتي الإشراف عند ذلك بادرتها المضيضة قائلة:

— هل فاتتك صلاة الصبح؟

: لا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لم أذكر يا بنيتي في حياتي أنه فاتني وقت من أوقات الصلاة.

— يا الله !! لم تذكر في حياتك كلها!!

: نعم يا بنية، وذلك من فضل الله، إنني أصلي بالإضافة إلى الصلوات المفروضة ركعتي الإشراف في مثل هذا الوقت، وركعتي الضحى قبيل أذان الظهر، وصلاة التهجد بالليل، والشفع الوتر قبل صلاة الفجر.

— أعانك الله على كثرة هذه الصلوات.

: ألا تعلمين يا بنية، أن الصلاة عمود الدين، وأول الأعمال التي يسأل عنها المسلم والمسلمة عندما تلاقي ربها؟

— أول ما يسأل عنها!!

: نعم، هكذا بالكتاب والسنة المطهرة.

- : ويسأل عن كل الصلوات التي ذكرت؟
- : الصلوات الخمس المفروضة أولاً أما ما زاد عليها فهي من السنن يؤجر فاعلها ولا يؤزر تاركها.
- : هاه!! تقول ذلك بتضائق.
- : ما بك يأم حماد ؟
- : إنني في الحقيقة مقصرة في الصلوات المفروضة.
- : هذا لا يجوز لمثلك شابة في مقتبل العمر، وترجى من الله أن يمنحك الصحة والعافية في بدنك، وأن يرزقك بالأبناء البررة، وأولهم هذا الصغير الذي بين يديك.
- : صحيح، ولكن...
- : لكن ماذا؟
- : الكسل والنوم أحياناً يغلب على الإنسان.
- : هكذا الشيطان يشبط عزم الإنسان عن أداء الصلاة في وقتها، وكما تعلمين هي خمس مرات في اليوم والليلة في أوقات متباعدة نسبياً.
- : بلا شك، تقول ذلك وهي مطرفة سارحة بتفكيرها.
- : ألا تعلمين أن الصلاة نور في الوجه، ودوام في الصحة وسعة في الرزق، وطول بالعمر؟
- : هاه!! كل هذه الأمور بسبب الصلاة؟
- : دعيني أوضح لك بعض ما كان غامض عليك، ألم تقومي عند كل صلاة وتوضئي، فتغسلي عن وجهك الأذران والعواقق، وتريلي عنه آثار النوم أو التعب والكسل، وتتوجهي بوجهك الطاهر النظيف إلى خالقك عز وجل قائلة: الله أكبر بنفس مطمئنة وقلب خاشع، فعند ذلك يشع نور في قلبك، وينعكس صدهاء على محياك، فيبدو وجهك متألقاً منيراً.
- : أحقاً ما تقولين!؟
- : كل الحق، فجربي، وسترين وجهك المبتسم المشرق في المرأة بعد كل صلاة.

- : سأفعل إن شاء الله ولكن كيف تكون الصلاة سعة في الرزق؟
- : أما تقولين بعد كل سجدة رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وأعف عني وارزقني؟
- : بلى، بلى أقولها.
- : ألا تعلمين أنك واقفة أمام جواد كريم تطلبه شيئاً من فضله. خمس مرات في اليوم والليلة يتخللها أربعة وثلاثون سجدة ترددين فيها هذا الطلب وحرى برب العزة والجلال الإستجابة لدعاء عبده المسلم في كل ما يطلبه منه.
- : لقد زادني كلامك شوقاً.
- : وكذا فإنك تطلبين من ربك أن يمنحك العفو والعافية وأن يدفع عنك البلاء، وليس بعزيز على ربك أن يجافي عنك المصائب ويدفع عنك الأخطار.
- : لم أحسب كل هذه الأمور تحدث نتيجة أداء الصلاة.
- : الصلاة هي الركن الأساسي الثاني من أركان الإسلام.
- : يعني إذا حافظت على الصلوات الخمس في وقتها يحصل لي ما ذكرته؟
- : إن شاء الله، إن هذه الأعمال مما فرضه الله على عباده المسلمين والمسلمات، فإذا أداها الإنسان فقد أدى ما عليه، وهو تحت رحمة ربه عز وجل.
- : من هذا اليوم بإذن الله، سأحافظ على أداء هذه الصلوات في وقتها، وأشهد الله على ذلك.
- : وفقك الله وهداك لما يحبه ويرضاه.
- : لقد أوضحت لي ما كان غامضاً عليّ.
- : أنت والله الحمد تعيشين وسط مجتمع إسلامي.
- : لا شك، ولكن بعض الأمور قد تخفى على الإنسان.
- : وفقك الله، وإن احتجت إلى المزيد من الإيضاح في بعض ما يخفى عليك، فسوف أزورك مرة أخرى.
- : إنني بحاجة إلى زيارات منك لأستنير برأيك في إيضاح ما يغمض علي من أمور.

: وأنا مستعدة لذلك في أي وقت، استأذنتك لأعود إلى منزلي. كانت هذه الجملة آخر ما دار على لسان أم عبدالله عند مغادرتها المكان عائدة إلى بيتها وهي تحدث نفسها، سبحان الله!! كم بين أفعال الخير وأفعال الشر؟! ليس بينها سوى هذا الخيط الرفيع، إما أن يتجه الإنسان إلى أعمال الخير، أو أن يتجه إلى نقيضها، ولكن ذلك يحتاج إلى شيء من التوجيه وكلما كان التوجيه غير مباشر كانت جدواه أفضل، ترى لو أنني أثبت هذه الشابة وقلت لها، لماذا لم تفعلي كذا وكذا؟ لربما كان ردّها سلبياً إن لم يكن عنيفاً متشديداً أما وقد جئتها من حيث انفتح قلبها واتجهت نفسها للسؤال عن حيثية ما أفعل، حين دخلت معها في حوار توجيهي، قد تكون له ثمرة جيدة، إن صدقت على ما تعهدت به، ولا شك أنها لن تحيد عما تلفظت به قيد أنملة، إنها من نساء طبيبات وجوهر ثمين، الله أكبر لو تعلم ما هي عليه والدتها وجدتها من التدين والتقوى!! لو تعلم ما كن عليه من أفعال الخير، لما توقفت يوماً واحداً عن السير على منهاجهن، إيه!! سبحان الله، هل يعقل أن تلك السيدات المتديّنات الفاضلات تكون ابتهن لا تحافظ على الصلاة المفروضة؟ نعم أحياناً قد يكون هناك ردة فعل عنيفة بين إنسان متدين، تنعكس على أبنائه عندما يريد من هؤلاء الأبناء أن يكونوا بدرجة نموذجية من التدين في الوقت الذي يعيشون فيه مرحلة الفتوة والمراهقة، إذ ربما أثرت فيهم مرحلة الفتوة إلى نهج مغاير لما يريده والديهم، أو أحدهم، مما قد يضطر البعض منهم إلى استخدام العنف مع أبنائهم، وهذا ما قد يزيد الشقة والبعد بين الطرفين، وقد يؤدي إلى التنافر والفرقة، ولكن هذه الفتاة لم تع والدتها، فقد توفيت أمها رحمها الله وهي في الثالثة من عمرها، وجدتها بعد ذلك بقليل، إذاً فهذا الجانب لم يؤثر عليها، وحتى والدها لم يكن مهملاً أو متهاوناً بأداء الصلاة لكن الأب ليس بمكان التصاق الأم بابنتها، وربما كانت توجيهاته لها من نوع الزجر، أو التأنيب مما قد سبب لها انعكاساً سيئاً، وانصرافاً عن هذا الجانب أو تراخياً وتكاسلاً عنه، حتى تزوجت هذا الرجل الذي يغاب عنها بالأسبوعين والثلاثة في أعمال تجارته، إيه!! لعل الله أن يهديها، ويكون بسبب زيارتي لها

عودة إلى طريق الصواب.

❖ ❖ ❖

كان للخبر الجديد الذي انتشر بالقرية أثره الكبير في النفوس وهو قدوم أحد المعلمين الجيدين إلى القرية ليكون إماماً للمسجد ومعلماً للصبيان، وذلك بعد أن انتقل إلى جوار ربه المعلم الأول، ولذلك سارعت أم عبدالله إلى مكان التجمع النساء المعهود للتأكد مما سمعت، حيث لازالت لديها الرغبة الأكيدة في إدخال ابنها الصغير، وابن ابنتها اليتيم ليتعلما القرآن الكريم والقراءة والكتابة، ولما تأكدت من ذلك، سارعت إلى منزل المعلم الجديد «الخطيب» الذي نزل القرية لتوه، حاملة معها بعض الطعام وحين طرقت الباب أجابتها زوجته التي استقبلتها:

— : تفضلي، أهلاً وسهلاً.

: لقد قدمت إليكم للسلام، ولأرى ما إذا كنتم بحاجة إلى أي مساعدة.

— : شكراً لك أيتها السيدة الفاضلة.

: لا شكر على قضاء واجب، فكما تعلمين يابنتي أن القادم لتوه يكون بحاجة

إلى بعض الأواني أو المواعين أو حتى الطعام وإنني جئت إليكم لأرى ما إذا

كنتم بحاجة إلى أي شيء فإنني مستعدة لقضائه.

— : أشكرك ياخالة، وأخبرك أننا والله الحمد لسنا بحاجة إلى أي شيء.

: قد يكون بكلامك نوع من المجاملة، لأنني لا أرى بعض الأواني الضرورية

للماء، وقد يكون مثلها للطبخ، وكذلك الفرش بالإضافة إلى ما قد ينقصكم

من الطعام.

— : نحن بخير، وسوف نؤمن ما نحتاج إليه من الأواني في المستقبل أما الطعام

فسيرزقنا الله من عنده.

: بلا شك، ولكن أفرغي ما في هذا الزنبيل من الحب والتمر وسأزودكم بكمية

إضافية من الدقيق، وسأرسل لك ما تحتاجين من الأواني والمواعين هدية مني

إليكم.

- : هاه!! ولكن زوجي قد لا يوافق على ذلك.
- : أخبريه بأنها على سبيل الإعارة، ومثل هذه الأمور بيننا نحن النساء لا يتدخل فيها الرجال.
- : ولكنني خائفة منه.
- : لا تخافي يا بنية، إنني أدرك قيمة الماعون عند حاجته وخاصة لمن هو قادم لتوه في مثل وضعكم، وهذه الأواني زائدة عندنا، ولا حاجة لنا بها فاستعملوها خير من بقائها مركونة بالمنزل.
- : كثر الله خيرك.
- : سأرسل لك الآن كل ما تحتاجين إليه، أستودعك الله وبخروج هذه السيدة من المنزل دخل المعلم «الخطيب» بعد أدائه لصلاة الظهر إماماً للمسجد فقال لزوجته:
- : من هذه التي خرجت من عندك؟
- : سيدة فاضلة اسمها «نُور» وكنيتها أم عبد الله.
- : آه، لقد سمعت عنها أنها سيدة فاضلة فعلاً وما حاجتها؟
- : حاجتها!! لقد جاءت تتفقد أحوالنا وترى الأشياء التي نحتاج إليها من أواني منزلية وطعام وشراب.
- : ماذا تقولين؟
- : لقد أحضرت باديء ذي بدء ما في هذا الإناء من الحب وما في هذا الإناء من التمر، ووعدت بأن ترسل كمية إضافية.
- : إن شاء الله، إن الدنيا بخير، وما يديرها أننا لانملك من متاع الحياة الدنيا سوى وجبة واحدة.
- : هذا التمر الذي ستتغدى منه مع أبنائنا.
- : أين هم أبنائنا الآن؟
- : لقد ذهبوا مع أبناء الجيران للبستان المجاور.
- : إذاً أعدى لهم ما يكفيهم، وأعطينا ما يسد رمقنا.
- : أراك مستعجلاً!!

— : لأنني جائع، لم أذق شيئاً منذ الصباح سوى القهوة.

: تفضل، تفضل، ولقد خجلت من هذه السيدة عندما وعدتني بأن ترسل لي

جميع ما أحتاج إليه من الأواني المنزلية والفرش بالإضافة إلى مزيد من الطعام.

— : هذا أول الخير، وأوله فطرة كما يقال، ولكن على أي أساس تحضر لك تلك الأواني والفرش؟

: لا تخف.. لا تخف إنها على سبيل العارية المردودة حينما يغفينا الله ونشتري بدلاً عنها.

— : أشوى، لقد حسبت أنها..

: حسبتها هدية!! وربما تكون هدية، فهذه السيدة التي بادرتنا بهذه الأشياء

ذات مروءة ومعروف ولا يستكثر منها فعل خير كهذا.

— : وإن يكن، فالأفضل أن نحافظ على عزتنا وكرامتنا حتى مع الحاجة.

: إسكت، إسكت، ها هي قدمت مرة أخرى، ومعها مجموعة من النساء

يحملن الأواني، فعليك أن تدخل بغرفة الجلوس حتى يدخلن البيت.

— : توكلت على الله.

وبعد أن أنزلت أم عبدالله ما على رأسها من الأواني هي ومن معها سلمت

على المعلم من وراء الستار وغادرت المنزل لتحضر دفعة أخرى، وكانت آخر

جملة قالها المعلم قد طرقت سمعها، فعادت إلى منزلها مع فيقاتها وهذه

الجملة ترن في ذهنها، لله در هذا المعلم الذي يرى الأفضلية في المحافظة

على العزة والكرامة، حتى مع الحاجة، الله أكبر!! يبدو أنه من فئة «الذين لا

يسألون الناس إلحافاً، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» وإلا فالمعلم أو

«الخطيب أو المطوع» كما يسميه البعض يعيش من دخله البسيط المتواضع

الذي يجود به آباء الطلاب وأولياء أمورهم، يدرس الصبي عنده من حلول أشهر

الشتاء مقابل صاع من حنطة أو صاع من شعير، ويدرسه طيلة أشهر الصيف

مقابل صاع أو صاعين من تمر، وربما استعاض عن هذه الأصناف من الأطعمة

بريال واحد عن السنة بطولها وكم سيجتمع عنده من الطلاب؟ عشرين أو

أربعين؟! وقد يصلون الخمسين؟ ما هذه الحصيلة التي يمكن أن يعيش منها

هو وأسرته، لولا ما يساعده به بعض الأجواد من هبات إضافية، أو قد يكون يمارس مهنة إضافية يرتزق منها كمصدر مساعد، ومع ذلك فهو يوصي زوجته بأنه يتوجب عليها أن تلتزم بعزة النفس، والمحافظة على كرامتها مهما بلغت بهم الحاجة، إبه!! هذه الجملة التي سمعتها، وربما عنفها ووبخها على قبولها ما أهديت إليها؟ فعلا إنها خائفة منه، ولكن إذا لزم الأمر، وعلمت بمضايقته لها فربما حاولت إقناعه، ولكن عسى الله أن يصلح شأنهم، دعني أمر على النجار ليعمل لإبنيّ لوحين من الخشب حتى يتعلما بهما الكتابة عندما تبدأ الدراسة في الأسبوع القادم ولكن الأولى أن أكمل مهمتي في تأمين الأواني والطعام لهذا المعلم وعائلته، وسأمر على النجار بعد العصر.

قصة رقم (٢٥)

«أَبُو حُوطَتَيْنِ»

أدبحت الشمس في أقصى الأفق ترفل بثوبها الذهبي المتوهج يتعلق أشعتها وشاح فضي داكن مما أثارته الرياح من صفحة أديم الأرض التي لم يلامسها المطر طيلة تلك السنة المجدبة والركب يحثون مطيهم للإسراع في السير حتى يصلوا إلى بغيتهم قبل حلول الظلام، ولكن أني لهم ذلك، فركائبهم لا تستجيب لحثهم إياها، وإنما تسير بهم الهوينى، لفراغ عظامها من المخ مما أصابها من هزال الدهر، فلذلك تراها لا تعباً بزجرهم إياها بالعصي والخيزران، فهي تسير بهم حسب طاقتها لا تزيد على ذلك، وربما لو حاولوا إجبارها ببذل مزيد من الجري لأسرعت بهم مسافة قصيرة ثم بركت بركة واحدة لا تبرح مكانها، بينا الركب قد لوى أمعاءهم الجوع، وتقلص ما معهم من الماء إلا ما ييل شفاههم عند الحاجة الملحة، ولذلك فهم بأمس الحاجة إلى من يضرون إليه ليأتهم تلك ليجدوا عنده ما يطرد عنهم السغب، ويرفع عنهم وعثاء التعب ويؤمن العلف لركابهم، بعد أن مرت بهذه الأرض الشهباء المجدبة التي لا يوجد بها من المرعى سوى شجيرات الرمث اليابس وبيناهم كذلك في طريقهم يحاولون غد السير دون جدوى في أرض لا يعرفونها، ولا يعرفون أن حولهم من القرى من يأوون إليه، إذ هم بآثر دواب مرت لتوها من تلك الجادة التي اعترضت طريقهم، فأخذوا في اتجاه أثر الدواب الذي ربما يوصلهم إلى ما يريدون، ولم يمض طويل وقت عندما أشرفوا على عرف ممتد يحجب ما وراءه وإذا المسافرون على الدواب غير بعيد عنهم، فلحقوا بهم قبيل توديع الشمس للأفق بوقت قليل، فسلموا عليهم وتقدم رئيس الركب إلى المقدم من المسافرين وسأله:

— إلى أين تريدون أيها الرفاق؟

- : إلى هذا البلد أماننا.
- : وهل حولنا بلدان؟
- : نعم، وغير بعيد عنا.
- : ما اسم هذه البلد؟
- : أما تعرفها؟ إنها المُسْتَجِدَّةُ.
- : آه، لقد سمعت بها ولم أحسبها حولنا.
- : يبدو أنكم من غير سكان هذه الناحية.
- : بالفعل، نحن قادمون من جنوب نجد إلى شمالها العربي.
- : ما دمتكم كذلك فأنتم معذورون.
- : وكم تبعد عنا البلد؟
- : إننا على مقربة منها، لم يحل بيننا وبينها سوى هذا الحزم المنقاد، نحن الآن في مراعي سوارحها.
- : حسناً، وإلى أين أنتم ذاهبون؟
- : كما أخبرتك إلى البلد.
- : أقصد، أين ستحلون ضيوفاً؟
- : عند «أبي حوطتين».
- : «أبو حوطتين»؟!
- : نعم، محمد بن ربيعان أما سمعت به.
- : لقد أخبرتك أنني جئت من مكان بعيد.
- : لك العذر في ذلك. أما لو كنت من سكان المنطقة لسمعت به فقد غطت شهرته المنطقة كلها.
- : أكثر الله من الأجواد.
- : وأنتم أين ستضوون الليلة؟
- : لا ندري، على أحد الأجواد ممن يقوم بأودنا هذه الليلة.
- : لا شك أن الأجواد ممن يقرى الضيف منتشرون على طول البلد وعرضها، ولكنهم قد لا يكونون بدرجة هذا الكريم من الشهرة والسخاء.

- : أترانا نكون ضيوفاً عليه؟
 : إذا أردتم ذلك وأطعتم مشورتني.
 — : إنني أعتقد أننا لو حللنا ضيوفاً على أي واحد لقام بضيافتنا.
 : لا شك في ذلك، وكلهم أجواد وأبناء أجواد، ولن يدخر أحدهم وسعاً في تقديم القرى لضيوفه والعلف لركائبهم غير أن الشهرة أحياناً لها قيمتها.
 — : حسناً، ولكننا كما ترى أكثر من خمسة عشر رجلاً، وأنتم مجموعة أيضاً، وبحلولنا وإياكم على رجل واحد قد يثقل عليه العبء.
 : نثقل عليه!! حقاً، إنك لا تعرف الرجل، فلو رأيت ما يحل عليه يومياً من الضيوف لما قلت هذا الكلام.
 — : يعني أنه، يتحملنا وإياكم؟!
 : ضمن عشرات من الضيوف الذين يحلون عنده يومياً.
 — : ما دام هذا شأنه، فسوف نحل عليه، ولكن ألا ترى أننا قد لا نصل إليه إلا متأخرين؟
 : أبدأً، سنصل إليهم في الوقت المناسب بين صلاتي المغرب والعشاء، وهو وقت الإحتفاء بالضيوف.
 — : هل حللت عليه ضيفاً قبل هذه المرة؟
 : مرات عديدة، كلما مررنا بهذا المكان.
 — : مادام بهذه الدرجة فالنكن رفاقاً لكم.
 : حياكم الله.

وحل الفريقان ضيوفاً على من قصدوه، قبيل أذان العشاء الأخير حيث وجدوا الدبالات التي تعمل بالودك نضيء بوابة المدخل لتلك البنية المعدة لاستقبال الضيوف واحتواء ركابهم، ومنها يدخلون مع بوابة ثانية إلى غرفة استقبال الضيوف «القهوة» حيث وجدوا لركائبهم ودوابهم العلف الكافي قد وضع في المعالف، مع ركاب ودواب من سبقوهم ثم أدخلوا أمتعتهم في الغرفة المخصصة لذلك، ودلفوا إلى غرفة الاستقبال ليجدوا أمامهم مجموعات أخرى من الضيفان الذين سبقوهم في الوصول، فأخذوا أماكنهم وأديرت عليهم

القهوة مع صواني التمر وسط كلمات الترحيب والعواطف الفياضة، ولم يمض طويل وقت حتى طلب منهم الانتقال إلى بهو داخلي واسع حيث توضع هناك صواني الطعام وعليها من لحم الخراف ما يتوجها، فطعم القوم على كثرتهم ثم عادوا إلى أماكنهم في غرفة الجلوس، بعد أن أدوا صلاة العشاء جماعة في المسجد المجاور للمنزل، واستمر سمر من أحب السمر، وأوى إلى فراشه من أتبعه مسير يومه، ومن ضمن من اضطجع في فراشه رئيس الركب الجنوبي الذي لم ينم وإنما غرق في تفكير عميق تصور فيه الحالة التي كان عليها مع رفاقه قبل ساعات معدودة حينما كانوا يشقون متن البیداء مع أصيل ذلك اليوم لا يدرون أين يتجهون، ينقصهم الماء والغذاء ويعز على ركبهم العلف لولا أن من الله عليه بمصادفة ذلك الركب الذين هدوهم لضيافة هذا الجواد الكريم، إيه، الحمد لله الذي هدانا لهذا، كيف تكون حالنا لو أمرحنا هذه الليلة بدون ماء ولا طعام ولا مرعى لركابنا؟ في تلك الأرض التي نجهل طرقها ومواردها ومصادرها. لأصبحنا في حالة سيئة ولكن الله لطيف بعباده، ومن لطفه أن هدى مثل هؤلاء الأجواد، وأعانهم على استقبال هؤلاء الضيوف وإيوائهم وتأمين المأكل والمشرب والمبيت لهم، والعلف لركبهم ودوابهم، إيه إن الله لا يقطع من جانب إلا ويصل من جانب آخر، نزل هذا الدهر بالناس، فجاءوا وهزلت مواشيهم، وصعبت أسفارهم، وهياً الله هؤلاء الأجواد المنتشرون في هذه القرى حيث ينزفون من العرق ليخرجوا الماء من جوف الأرض ويزرعون عليه الحبوب ويزرعون النخيل ليقدموا غلتها وثمرها طعاماً لهؤلاء الضيوف مثلنا وأمثالنا، نعم إنهم يلحون من لحم أكتافهم وأذرعتهم وأعضادهم بالجهد والتعب ويقدمون ذلك وجبة سائغة لضيوفهم وقاصديهم مع تأمين المأوى الدافئ في أيام الشتاء، والعلف المتوفر لركبهم ودوابهم، ولو اقتصر هذا التقديم على سنوات الشدة والعوز لكان له ما يبرره، لكن ذلك مستمر في أوقات الشدة والرخاء، مع أنه في أوقات الشدة أبلغ أثراً وأكثر نفعاً، يا الله، ما أعظم أجر ذلك عند الله، تقديم هذه النعمة يومياً على طول أيام الدهر لمن يعرف ولمن لا يعرف، المهم أن من وصل إلى هذا المكان، وأناخ ركابه ضيفاً عند هذا الباب فقد

هيء له ما يريد، بل لم يكتف بذلك وإنما من مر حول هذا المكان فلا بد أن ينيخ ركابه أو يضع عن دوابه ويتفضل على ما يبذله هذا الكريم عدا ما أشاهده ممن يفد عليه من مختلف القبائل ومختلف الاتجاهات يا الله!! كم من الضيوف عنده هذه الليلة؟ فلو حسيناها بالشهر أو السنة أو السنوات فكم من الأفواه تطعم عنده؟ وكم من الأنفس ينقذها من غائلة الجوع لتستمر في مسيرة الحياة؟ يا الله!! ما أعظم ثوابه عند الله، وباليتمني أحتل مكانة كمكانته، أترأه لوحده في هذا البلد؟ لا أعتقد ذلك فالبلد يوجد بها أمثاله كما ذكر رفيقنا الذي دلنا عليه، فكل بلد فيها حقها من الرجال الأجواد، وإن كان قد رشحه رفيقنا ليكون أفضلهم لكن هذا لا يعني أنه المتفرد بهذا الجانب، فكل إنسان دون حقه، وكل معد لما يسره الله له، وعلى كل حال، فمضيفنا قد وفقه الله فنال الشهرة والسمعة الطيبة في الدنيا حيث ضربت سمعته أنحاء منطقته، وربما تعدتها إلى غيرها، وسيجد أمامه عند ربه الأجر والثواب جزاء لما قدمه من عمل إنساني، إيه!! الحمد لله كيف نسأل غداً عن القرى الواقعة في طريقنا إلى هدفنا لنمر عليها فنتزود بالماء والطعام ونؤمن لركابنا العلف حتى نصل إلى بغيثنا؟

كانت هذه الجملة الأخيرة قبل أن يداهم ذهنه النوم.

* * *

غص مضيق الربيع بهذه المجموعة الكبيرة من الدواب التي امتطأها أصحابها طالبيين شراء ما يحتاجونه من الطعام من ذلك البلد الواقع إلى الجنوب عن بلدتهم، وكان من بين الركب رجل ذرب اللسان، حاد الصوت تكاد صفحات الجبال أن ترد صدى صوته عندما سأل أحد رفاقه قائلاً:

— من ذا الذي يتحمل ضيافتكم هذه الليلة؟

: لا تخف، فهناك من يتحملنا.

— لا بد أن نقسم أنفسنا إلى أربع أو خمس مجموعات

- : أبداً ، سنحل بكاملنا ضيوفاً عند رجل واحد.
- : وكيف يتحملنا؟ وهل لديه المكان الكافي لاستيعاب دوابنا؟
- : لديه كل شيء.
- : كأنك واثق مما تقول؟
- : كل الثقة.
- : لا تنسى الوقت الذي نحن فيه فالناس ينقصهم الطعام في هذه السنة الشديدة، ألا ترانا قد أتينا إلى هنا ليحصل كل منا على بضعة أصواع من الحب بالذهب والفضة التي تملأ جيوبنا.
- : أعلم ذلك، ورغم ما ذكرت فإن الرجل سيحمل ضيافتنا عنده ليوم أو يومين وربما ثلاثة، مع تأمين العلف لدوابنا.
- : لكنني أشك في ذلك، أما ترى عددنا؟
- : بلى، ولكن أما تعرف الرجل؟
- : أسمع به ولا أعرفه شخصياً، ولم يسبق أن حللت ضيفاً عليه.
- : إنه أشهر من نار على علم، وقد إرتكى لمنطقة جنوب الجبل في كل ضيوفه.
- : هذا ما نسمعه عنه، ولكن جماعة كرفاقنا اعتبرهم كثير.
- : هذه وجهة نظرك، ولو رأيت ما يرد عليه من الضيوف وما يصدر عنه لما استكثرت رفاقك.
- : لا أكاد أصدق، ولكن دعونا نقسم إلى عدة مجمرعات لتحل كل مجموعة على أحد الأجواد المنتشرين في أنحاء البلد وذلك للتخفيف على الآخرين في هذه السنة الغبراء التي لا يكاد الواحد يحصل فيها على قوت عياله.
- : إذا رأيت ذلك فلن أمانع لأن البلد يوجد بها عدداً من الأجواد الذين يحجون ويذرون، يكرمون الضيف ويقضون حاجة المحتاج، ولكن على أي حال سأذهب مع مجموعة من رفاقي إلى هذا الجواد الكريم.
- : لماذا أنت مصر على الذهاب إليه؟
- : لأنني سأجد في أحد مضيّفيه مجموعات من الركبان قد جاءوا من مختلف الأصقاع، فاستمع منهم الأخبار عن تلك الأنحاء البعيدة، وربما وجدت من

الطرائف والمَلَح والقصائد التي يتبادلها ويتناقلها الركبان ما يسليني.

— : إذا لك هدف أبعد من الضيافة؟

: بلا شك، فالأسفار لها عدة فوائد أما سمعت قول الشاعر:

تَفَرَّجُ هَمًّا وَانْتِسَابُ مَعِيشَةٍ زَعْلَمَ وَأَذَابُ وَصْحَةِ فَاجِدٍ

— : لقد صرت تحدثنا بلغة الشعر يارفيقي !! هاه، كأي سمعتك تقول أحد

مَضِيفِيهِ، هل صدق سمعي أم خانتني الذاكرة؟

: بل صحيح، إن له مضيفان، يضيف في كليهما.

— : مضيفان في هذا الظرف الصعب!!؟

: إيه!! تمرُّ سنوات الرغد وظروف الشدة على متون هؤلاء الأجواد، لا ينحنون

لثقلها ولا تضيرهم شدتها، بل يتحملون أعباءها وتبعاتها بنفس راضية وجبين

ضاحك، ويد لا تتوقف أو تتواني عن البذل والعطاء لكل من وقف ببابها من

عابري السبيل وطالبي الحاجة.

— : حقاً إن هؤلاء الأجواد كما ذكرت، ولا شك أن الله قد بارك لهم في رزقهم

لينال منه غيرهم.

: لو لم يهد الله هؤلاء الأجواد من أهل البادية والحاضرة ويجعل ما في أيديهم من

رزق ينال منه المسافر وعابر السبيل والفقير والمحتاج لهلك أناس كثير من

الجوع وخاصة في سنوات الدهر، مثل هذه السنة، وسنوات حلت علينا أكل

الناس خلالها ما لا يجوز أكله من شدة الجوع، ومع ذلك فترى هؤلاء الأجواد

مستمرين على طريقتهم بإكرام ضيوفهم وقاصديهم مما يتيسر لهم من طعام

وشراب.

— : الكف الندية تبقى ندية مهما أحاط بها من الجفاف.

: هذا شيء مؤكد، أما سمعت قول الشاعر:

«عَظُمَ النَّدَا يَنْدَى وَلَوْ كَانَ بَالِي يَنْدَا وَلَوْ هُوَ بِالْمَرَاخِ فَحِيلٌ»

— : صحيح، ولكنك شوقتي للذهاب معك إلى مضيف ذلك الكريم ما دمننا

سنجد هناك أعداداً من الضيوف قد نجد معهم أخباراً طريفة وحكايات
مسلية.

: إذا ذهبنا أنا وأنت لنفس المكان فلا أعتقد أنه سيحدث عنا أحد من هؤلاء القوم.

— ما دمت تقول إنه يتحمل فلا بأس من ذهابنا جميعاً إليه.

: أراك غيرت رأيك!!!؟

— كنت أهدف إلى التخفيف عن الرجل، وما دام باستطاعته تحمل ذلك فإنه
نذهب ونرجو الله أن يمنحه القوة والفضل.

: إنه الحيد الذي لا يتضعضع ولا ينحني امام مجموعة مثل رفاقنا.

— على أي شيء يعتمد الرجل؟

: على الله ثم على فلاحته ونخيله الذي يعمل فيه مع مأجوريه وعماله، ويقدم غلة
زرعه وثمره نخله بتلك الصحون لضيوفه وقاصديه.

— عرض الله عليه جزاء ما قدم.

* * *

التقى الركبان ظهراً على أحد المناهل، وعرف أحد رئيسيهما الآخر لأنهما
من قبيلة واحدة فدعاه ورفاقه لتناول القهوة وقضاء وقت القيلولة تحت أشجار
الطلح المتقاربة في مسيل ذلك الوادي غير بعيد عن الماء، ولبي المدعو
الدعوة وأناخوا مطيهم، وتجمعوا تحت ظل دوحة كبيرة حيث تجهز القهوة
والطعام، وتبادل الرجال الحديث في شتى المواضيع حتى وصلوا إلى طريق
مسيرهم، ومن مروا عليه في طريقهم ومن كان مضيفهم البارحة فقال غازي:
— لقد كنا البارحة عند «أبي حوطتين».

: هاه!! ماذا تقول؟

— أقول ما سمعت.

: نحن كنا في ضيافته ولم نركم!!

— في أي المضيفين كنتم؟

: هاه!! لا أدري، أعتقد أننا في الشرقي.

— : ونحن في المضيف الغربي، ولذلك لم ير أحدنا صاحبه وكل منا قد طعم وأمرح ليلته وذهب في حال سبيله دون أن يعلم بالآخر.

: من كان معكم؟

— : أوه، معنا أناس كثيرون من مختلف القبائل والقرى.

: ونحن كذلك أناس من مختلف اللهجات.

— : «حَيِّ وَاللَّهِ هَكَالْحِجَاخِ» يقرى هذه المجموعات الكبيرة من الضيوف ولا يدري أحدهما بالآخر.

: ولذلك لقب بهذا اللقب «أبو حوطتين» أي صاحب البَيْتَيْنِ المحاطتين

بالجدر ينزل فيها الركبان ويضعون بها أمتعهم مدة بفائهم في ضيافته.

— : آه، لقد فهمت، بالفعل لقد أنخنا بتلك البنية فوجدنا بجانبها أكواماً من

العلف لركابنا، وبهواً وضعنا فيه أمتعتنا إلا ما رغبتنا بقاءه بجانب ركابنا، ثم

دخلنا إلى غرفة الاستقبال في القهوة.

: وكذلك فعلنا.

— : هنيئاً له على هذا الفضل الذي يبذله للآخرين، لقد أدى حق ماله، وبرّ نفسه،

ونفع مواطنيه ومن يأوون إلى مكانه.

: هذا ما يُعْبِطُ الإنسان عليه، بما يقدم من فيض عطائه للآخرين، انطلاقاً من

إنسانيته ومروءته، وما يمليه عليه دينه الإسلامي الحنيف.

: لقد كسب هذا الصيت العريض الذي أصبح يضاهي به غيره من قمم الكرم

في هذه المنطقة التي تتوجها سجية كرم حاتم الطائي.

— : أين وجهتكم؟

: نحن قاصدون المدينة المنورة للاستبضاع.

— : وماذا تحضرون من هناك؟

: ما خف حملته وغلي ثمنه من الملابس والحلي والعطور فنحن كما ترى

خمسة عشر رجلاً على ركابنا.

— : أما تخافون من مخاطر الطريق، سيما وأن عليكم هيئة حسنة؟

: نسير تحت حماية الله ثم أسلحتنا، مع أننا نتخذ من كل قبيلة نمر عليها أحد

أفرادها ليحمينا من أفراد قبيلته مقابل مبلغ معلوم من المال حتى تصل إلى بغيتنا ونعود منها.

— : وهل تغطي أرباح ما تحضرونه من بضاعة هذه التكاليف التي تدفعونها؟
: هذا شيء لابد منه لكي نحمي أنفسنا ونضمن سلامة أموالنا، وما زاد على ذلك من مكاسب ففيه البركة.

— : لماذا تتجهون إلى المدينة بالذات؟

: لم يكن الاتجاه إلى المدينة لوحدها، بل نتجه إلى مكة المكرمة والشام والبصرة والكويت والنجف وعمان، وفي كل سفرة من السفرات نأتي ببضاعة قد تختلف عما أحضرناه من البلد الآخر حسب توفر هذه البضاعة في البلد ومناسبة سعره.

— : وفي كل سفرة تدفعون هذه المبالغ لأفراد تلك القبائل؟

: نعم، ولولا هذا لهلكنا، أو ذهب أموالنا نهباً لقطاع الطرق، أو اللصوص في هذه الطرق الطويلة.

— : ولكني أراكم مسلحين، أفلا يحميكم سلاحكم؟

: بلى، يحمينا، ولكن من باب الاحتياط ندفع تلك المبالغ الزهيدة لأولئك الأفراد لحماية من أفراد قبائلهم وعشائرتهم الذين قد يعترضون طريقنا.

— : إيه، أعانكم الله.

قضى الركبان تلك القيلولة، وطعما وشربا القهوة ثم ودع كل فريق رفاقه متجهاً إلى حال سبيله، وكان «حماد» في مقدمة رفاقه، وجملة رفيقة «غازي» لازال صاعداً يطن في أذنه «حي والله هكا الحجاج» نعم حي والله ذلك الجبين الضاحك الذي يقرى الضيوف بهذه الكثافة بجهتين من قصره وكل جهة ينيخ الركبان عندها ويجدون طعامهم وشرابهم ومأواهم وعلف دوابهم، يأكلون ويشربون وينامون ثم يغادرون في اليوم الثاني أو الثالث، أو بعد أن يقضوا ما أرادوا من وقت دون أن يعلم بهم رفاق لهم في المضيف الآخر.

هكذا يجري بهذه السنوات الغبراء التي يعز على الإنسان فيها أن يجد

لقمة العيش، بالإضافة إلى سنوات الخصب والرخاء التي يبقى فيضهم فيها متدفقاً لا يفيض مدده، ولا غرو في ذلك، فهذه البقعة عامرة والله الحمد بمثل هؤلاء الأجواد، هذه «هيفاء»^(١٥٩) هي الأخرى لها مضيفان أحدهما في شرقي قصرها والآخر في غربيه، وتضيف باحدهما دون أن يعلم ما في الآخر وإلى جانبها «زيد»^(١٦٠) و «لقاح»^(١٦١) وإلى أسفل منهم «ناصر»^(١٦٢) وإلى أعلى منهم «حليان»^(١٦٣) هؤلاء الأجواد وغيرهم كثير يحيطون بهذا الجبل الأشم جبل رَمَّان إلى جانب الأجواد الآخرين الذين يكتنفون جبلي أجا وسلمى الشامخين من جميع الاتجاهات، وكل قد شرع بابه على مصراعيه لضيوفه وقاصديه مرحباً بهم، يتהלل وجهه بالبشر، يحاول أن يقدم لهم أغلى ما يملك، يعتنون بضيوفهم عناية فائقة لا يماثلهم فيها عناية أصحاب خانات وفنادق دمشق وبغداد والبصرة، مع أن أولئك يقدمون تلك الخدمات مقابل مبالغ نقدية من المال، أما هؤلاء فإنهم يقدمون ما يقدمونه مجاناً بكل طيبة نفس ورحابة صدر ولا هدف لهم سوى المحافظة على سجية الكرم العربي، ورجاء لما عند الله من الأجر والثواب، لا يخامر عقولهم شك في أن ما يقدمه الإنسان من البذل والعطاء لهؤلاء المسافرين، ومساعدة المحتاجين أنهم سيجدونه أمامهم في سجل الحسنات عند ربهم يوم لقائه، بالإضافة إلى الجاه العريض، والصيت الذائع والسمعة الطيبة التي يحتلونها في مجتمعهم، وهذا ما سوف يخلد ذكرهم في صدور الناس حتى بعد رحيلهم عن هذه الحياة، وقد يورثون هذه السجية لأبنائهم الذين سيخلفونهم في هذه الأماكن، سواء ما كان منهم في هذه القرى الثابتة، أو تلك البيوت الشَّعرية المتنقلة والمتناثرة على أديم هذه البقعة، وما دام هناك جبين يندى كرمًا، فلا خوف على مسافر أو عابر سبيل من سغب أو ظمأ، إيه لقد وهبهم الله هذه السجية على غيرهم، وهياً لهم من الموارد التي يكدحون فيها ليوفروا لقمة العيش لهؤلاء الضيوف، أعانهم الله على المحافظة على هذه السجية، هاه!! ما لي أرى رفاقي وكأنهم قد مالوا عن الطريق، أم أن مطيتي هي التي حادت بي، إذاً، سأعود إليهم.

لم يزل «خلف» بقامته القصيرة وجسمه الممتلئ، وجوشنه البارز يتنقل من مقهى إلى مقهى من أسفل البلد حتى أعلاها يحتسي فنجاناً من القهوة ويأخذ ثمرة أو إثنين من كل صحن يقدم إليه مع القهوة، ويلتقط ما دار من أخبار أو ما استجد من قصائد، يمسك البلد من أسفلها مع صلاة الصبح حتى ينتهي في أعلاها قرب أذان الظهر.

وعندما يصل إلى مضيفي «محمد» يضع عصا ترحاله اليومي، بحيث يبقى بين هذين المضيفين بقية يومه وصدر الليل، ثم يبدأ من صباح الغد يث ما التقطه من أخبار الركبان والمستجدات في يوم أمس، وهكذا يبدأ في دورة جديدة مع ذلك اليوم الجديد، وليس هو لوحده من ينتهج هذا السبيل، بل هناك غيره ولكنه أبرزهم وأحذقهم، هذه الفئة التي تنتشر الأخبار على ألسنتهم، وينقلون الحكايات والروايات والقصص عن الركبان، ويحفظون أغلب ما يقال في تلك المجالس والمقاهي من القصائد، يتصدرون المجالس والمنتديات بجانب عليّة القوم، يستأنس بوجودهم الجميع، ويجد الزائر بوجودهم ما يسليه وينقله إلى الأجواء المرحّة أحياناً وإلى الأجواء الأدبية أحياناً أخرى، حتى قال مرة أحد الحضور: مجلس لا يوجد فيه «خلف» كطعام بدون ملح ولهذا كان «أبو حوطتين» يحرص أشد الحرص على أن يبقى عنده يتنقل بين مضيفيه، يسلي ضيوفه، ويغسل عنهم وعشاء السفر، ويذهب عنهم همومهم، لكن طبيعة عمله تجعله يتنقل من مكان إلى آخر، لتجميع مادة جديدة يضيفها إلى ما عنده، وإن خصص أغلب وقته لهذا الجواد الكريم الذي يتمنى هو الآخر لو أن لديه من الذكاء والمقدرة على الإحاطة بكل هذه المعلومات ما لدى خلف، ولذلك فقد استدعاه ذات مساء بعد أن هجع الضيوف ليسمرا معاً ودارت الأحاديث في مختلف الإنجاهات فقال محمد:

- : كيف استطعت أن تجمع كل هذه القصص والحكايات والقصائد؟
: لقد جمعتها بالمشاهدة وكثرة التردد على هذه الأماكن التي يتجمع فيها الرجال.
— : وكيف حفظتها؟

- : توجهت إليها وألقيت لها بالي فحفظتها.
- : ولكنني قد أكون سمعت أكثر مما سمعت أنت!!
- : صحيح، ولكن انتباهك واهتمامك لغيرها.
- : ماذا تعني؟
- : إن اهتمامك بشئون الأضياف والسهرة على راحتهم وتقديم كل مستطاع لهم مما أشغلك عما سوى ذلك.
- : آه، فعلاً، إنني مشغول الذهن في مثل هذه الأمور.
- : ولذلك فأنت لا تحفظ كثيراً من هذه الأمثال والقصص أما أنا فقد تفرغت لهذا الجانب، وأغرمت به فحفظت الكثير منه.
- : ليتني أحفظ مثلك.
- : أتريد زيادة على ما عندك؟
- : ليس عندي شيء يذكر.
- : أعني اشتهارك بالكرم، وهذا يغنيك عما سواه.
- : لا أغنى عن مثل هذه الذخيرة التي تحفظها بصدرك من كلام الرجال وأمثالهم وقصصهم وتجاربهم في الحياة، التي لا يماثلها شيء ولا يقدر لها ثمن.
- : أما يكفيك هذا الجاه العريض والصيت الذائع في المنطقة؟
- : ولكن ما لديك في كثير من الأحيان أفضل عندي مما بلغته.
- : هكذا الرجل الطموح يريد كل شيء.
- : ماذا تعني؟ يقول ذلك بتغايي.
- : أعني أنك قد بلغت شأواً بعيداً في الكرم والمروءة وهذا ما هياه الله لك، وما يسر لك سبيله وتريد أن تضيف إلى ذلك ما يملكه صعلوك مثلي قد تفرغ لجمع هذه الأخبار والقصص والقصائد والأمثال من أفواه الرواة والركبان الذين يحلون في مضيفيك ومضائف الأجواد الآخرين من أهل بلدك أو البلدان المجاورة الأخرى.
- : صحيح، ولكن لارتفاع قيمة هذه الأشياء عندي وسمو هدفها وددت إضافتها إلى ما عندي.

: إن ما تقوم به الآن تفوق في كثير من الأحيان ما عندي، فأطعام الأفواه يفضله
الكثير على امتناع العقول بهذه القصص.
— : وإن يكن فليتني أعرفها.
: لتبق أنت «أبو حوطتين» كما اشتهرت واستمرأنا «أبو قصتين» أو كلمتين أو
قصيدتين. يقول ذلك بروح مرحة وكلمات ممطوطة.

* * *

أعد الأمير جيشاً قوامه حوالي بضع مئات من المقاتلين لتأديب بعض
العناصر التي شقت عصا الطاعة عليه من قبيلة في أحد أطراف إمارته، وكان
الطريق المقرر لهذه المهمة يمر بقرب البلدة التي يسكن فيها محمد وهي
بطبيعة الحال مهمة سرية لمباغطة أولئك القوم، ولكن محمداً، ما إن نمي إلى
سمعه احتمال مرور الأمير وصحبه بقربهم حتى أسرع إليه من يومه ذاك،
وطلب منه أن يكون مبيتهم تلك الليلة عنده، وقد مانع الأمير في تلبية الطلب
لكثرة الرجال الذين معه إن هم حلوا ضيوفاً على رجل واحد غير أن محمداً
أصرَّ على هذه الدعوة، ورجى الأمير أن يستجيب له قائلاً:
— : أيها الأمير، أرجوك ألا ترد لي طلباً هذه المرة.
: لم يكن رداً كما فهمته. يقول ذلك الأمير بنعمة هادئة.
— : قد تكون أويت لي، ورأفت بحالي في هذا الأمر؟
: ربما كان من هذا القبيل، يقول ذلك وهو يتسم.
— : أرجوك ألا تفعل، لأن مروركم بقرب حقنا من الأرض يحتم علينا استقبالكم ومن
معكم بكل ما يتاح لنا من وسائل الحفاوة والتكريم.
: لكن الركب كثير لا تستطيع استقبالهم؟ يقول ذلك بلهجة حازمة.
— : مهما كثروا فلن يضيق بهم مكاننا. يقول ذلك بلهجة الواثق.
: وماذا عندكم من الأماكن لتستوعب ما معنا من الرجال؟
— : لدينا ما يسعهم ولو كان إلى جانبهم مثلهم. يقول ذلك بنعمة حزم.
: إذا كان ولاء، فليكن ذلك عند عودتنا. يقول ذلك محاولاً التملص من هذا
الموقف.

- : قد تغيرون الطريق عند عودتكم، وليس هناك أفضل من هذه الفرصة.
- : هاه!! ووجم الأمير قليلاً ثم استأنف: يمكن أن يمر عليكم جزء منا، سأعرج عليكم مع عدد محدود من رجالي نشرب عندكم القهوة ونعود إلى ربنا.
- : بقدمكم البركة، ولنا الفخر باستقبالكم أنتم وكامل من معكم من جيشكم.
- : ولكنكم لن تتحملوا ذلك. يقول ذلك لمحاولة التخلص.
- : بل نتحمله، فعلى الرحب والسعة تحلون ومن معكم ضيوفاً علينا، وستكون أجفاننا السفلى لكم فراشاً والأجفان العليا لكم غطاءً.
- : لا حول ولا قوة إلا بالله!! هل أنت مصر على ذلك؟!
- : كل الإصرار «ياطويل العمر»!! فالعشاء عندنا هذه الليلة.
- : ولكن الوقت ضيق!! نحن الآن في وقت الظهر، ولم يبق غير ساعات قليلة على موعد العشاء. يقول ذلك عله أن يجد مبرراً يثنى به محمد عما عزم عليه.
- : بل هناك متسع من الوقت، لدينا نصف نهار بكامله.
- : مادمت مصراً هكذا فتوكل على الله، ولكن..
- : أرجو ألا يستثنى الأمير شيئاً.
- : ليكون الأمر مقصور عليكم.
- : هذا ماتملكون زمامه ولا أملكه. أستودعكم الله.

وانطلق محمد على صهوة جواده يسابق الريح، وحال وصوله أمر بسبع جزر فنحرت، ومئة رأس من الغنم فذبحت وخلال ساعات قليلة كان قد عمل الترتيبات اللازمة لإستضافة هذا الجمع الغفير من الناس، وفي بستانه بين صفوف النخيل أمر بالفرش فصفت على الأرض شقائق نسيج السفيف فمدت ووضع عليها سلسلة متشابكة منقادة من أكوام التمر على طول هذه الفرش فصارت كأنها سلسلة الجبال، عشرات الصفوف من هذه الفرش بين صفوف النخيل، وغير بعيد عنها صفوف أخرى من الفرش وعليها أرتالاً من الصواني المليئة بالطعام المتوجة بالخراف المطبوخة، وكعاً من لحوم الإبل، أما القسم الخاص بالأمير وكبار رجاله فقد وضع فيه عدداً من الصواني الكبيرة التي وضعت فيها الجزر بكاملها مبركة وسط الصينية بعد أن طبخت، وأحيطت

بعدد من الخراف المطبوخة بكاملها، إلى جانب ما على الطعام من الأباذير والأفاوية وغيرها، وقبل أذان المغرب وصلت تلك الجموع وأناخو مطيهم حيث أنزلت عنها أشدتها وأدخلت في بنية بعد أن أعد لها من العلف ما يكفيها، وما إن أدى الناس صلاة المغرب حتى تقدم المضيف ضيوفه وعلى رأسهم الأمير إلى موائد التمر أولاً ثم إلى موائد الطعام.

فرحب المضيف بضيوفه الترحيب اللائق، وشرع الناس في العشاء على ضوء الديالات المضاءة بالسودك والشحم فانبهر الأمير مما رأى والتفت إلى أحد رجاله الخاصين وقال له:

— لا أكاد أصدق ما تراه عيناى؟!

: ماذا تعني، أطلال الله في عمرك.

— هذه الكميات الهائلة من التمر، وتلك الكميات الضخمة من الطعام الذي تفضل هذا الجواد بتقديمه إلى رجالنا مع أنني أُخْبِرْتُ أنه كان نائماً قبيل أذان العصر في أحد أطراف البستان، فليت لي جفناً مثل جفنه.

: كثر الله خير، ولا قطع بذر الأجواد.

— أترأه قد أعد العدة لمثل هذا الأمر؟! وإلا كيف يستطيع أن ينام من عنده مثل هذا الأمر، إنني أرى بعض الناس إذا كان عنده دعوة صغيرة توترت أعصابه وجف ريقه وبدأ يولول هنا وهناك، وهذا قد أخبرني من أخبرني أنه وجده نائماً في أحد جوانب البستان عند أذان العصر.

: الناس يختلفون في تحمل المسئوليات وضبط الأعصاب، أما عن معرفته بمجيئنا فلا أعتقد ذلك، لأن خططنا سرية وطارئة كما تعلمون منذ يومين فقط، وحتى رجالنا لا يعرفون أين نريد، ولا إلى أي وجهة نقصد حتى سرنا يوم أمس.

— أعتقد أن مثل هذه الوليمة تحتاج إلى علم مسبق!!

: لا شك صدق حدسك!! يقول ذلك من باب المسايرة له.

— قد يكون الرجل قد علم بخط سيرنا إلى جانب بلده في وقت كافٍ.

: كن متأكداً «ياطول العمر» أنه حتى صباح هذا اليوم لم يعرف أحد من أي

مسير سنتجه، وحتى عندما قَلْنَا ظهر هذا اليوم الذي جاءنا فيه لم يعلم أحد عن خط سيرنا.

—: أجل كيف استطاع في هذه الساعات المحدودة أن يرتب كل ما ترى، وفوق ذلك يستطيع أن ينام لفترة من هذا الوقت الضيق!!؟
: مثل هذا الرجل لا يربكه أمر كهذا، فقد تعود عليه وألف ممارسته هذا «أبو حوطتين»!!

—: أعلم أن باستطاعته استضافة عشرين إلى خمسين إلى مئة رجل في آن واحد لكن يضيف بضع مئات من الرجال ويجهز لهم ما ترى في خلال ساعات قصيرة هو ما دعاني للعجب!!

: إن من يستطيع استيعاب مئة رجل يستطيع استيعاب الخمسمائة والألف، فمتى تعود الإنسان على شيء سهل عليه أمره، سيما وأن عنده من النساء الطبيات اللواتي يجهزن هذه الكميات الهائلة من الطعام ويقمن بطبخه وتجهيزه في أي وقت بالليل أو النهار على مدار اليوم والليلة.

—: صحيح إن النساء الطبيات هن سناد الرجل والدعامة التي تسند ظهره وترفع رأسه وتساعد على رفع صيته لكنني أتعجب من هذه الكميات كيف تم إعدادها ومن أين مصدرها؟

: كما ترى لديه عدد من الحيور والبساتين والأراضي الزراعية التي يفلحها ويقدم من ريعها وثمرها ما يقدم لضيوفه على مدار السنة.

—: بلا شك، على مدار السنة!! يقول ذلك وهو يهز رأسه ثم يستأنف: أعانه الله على ما في وجهه، ويبيض الله وجهه فقد يبيض وجوهنا أمام الغادي والرائح من الأقارب والأجانب.

: يبيض وجوههم!!؟ يقول ذلك رغبة في الاستيضاح.

—: نعم، أما تدري أنه ينقل عنا عبثاً ثقبلاً في تحمله لهؤلاء الركبان، وفي نفس الوقت فإن بلده ضمن أمارتنا ويعتبر واجهة جيدة لنا بما يقدمه للآخرين.

: أما هذه الناحية «فطويل العمر» محق فيها.

—: أما تعلم أن ما يقدم صاحب بلدة المستجدة أو الحفينة والوسيطاء والروضة

والسليمي وسميراء والسبعان وطابة وفيد والقصير والأجفر وجبة وقنا وأم القلبان
وبقعاء والشقيب ومرفق وجفيفاء وقفار وعقدة وقصر العشروات وضر غد والغزالة
والجوف وتيماء وغيرهم من أهل القرى بالإضافة إلى ما يقدمه الكرماء من
سكان البادية يعتبر مكماً لما نقدمه في حائل نحو إكرام الضيف الذي
اشتهرت به هذه البقعة؟

: لا شك في ذلك.

— : إن ما يقدمه هؤلاء الأجواد من المروءة والمعروف في إكرام الضيف نعتبره تاجاً
رفيعاً على رؤوسنا ونفتخر به.

: هذا شيء لا يحتمل قولان.

— : لقد بيض وجوهنا هو وأمثاله عند أعدائنا قبل أصدقائنا.

: أكثر الله من أمثاله.

هذا ما جرى من الأمير وأحد رجاله حتى طعموا وغادروا المكان ليحل من
بعدهم دفعات متعاقبة من الناس سكان هذه البلدة وما حولها من بادية، وقد
جلس أحدهم على طرف جوانب إحدى الموائد وقد أخذته الدهشة والإنهار
حين وقعت عيناه على ما يرى فدار في نفسه عدد من الأسئلة، أين نحن
الآن؟ أحقاً أننا نعيش في بلدنا التي يعوز فيها الكثير من الأسر لقمة يومه؟ أم
انتقلنا إلى مكان آخر من الدنيا؟ أو نكون قد انتقلنا إلى عالم آخر تتوفر فيه
الأطعمة بهذه الكمية؟ أحقاً أن هؤلاء هم رفاقي وجماعتي؟ «فقلت وأنكرت
الوجوه هم هم» حقاً هم جماعتي ورعي الذين من بينهم أناس أعرفهم يبيتون
على الطوى، يغتبقون الماء، ويصطحبون القهوة وما تيسر معها في مقاهي
الأجواد، أما أسرهم فلا تسأل عنها؟! نعم هؤلاء رفاقي وقد تهيأ لهم هذه الليلة
مالم يشاهده بعضهم منذ أكثر من سنة لم يشاهد مثل هذه الصفوف من
الصواني إلا في يوم العيد حين يقدم الناس وجبة يوم العيد في الشوارع في
صفوف شبيهة بهذه الصفوف وإن كانت أصغر منها حجماً وتنقصها أحياناً
كمية اللحم الموجودة فوق هذه الصواني ولم يشاهدوا كذلك أكوام هذا التمر
المنضود على هذه السفر إلا في أيام الجداد عندما تكون فرش التمر

تجمع عليها كميات كبيرة منه لتتميره من عذوقه وتنقيته من الشوائب كأطراف العذوق والقموع والحشف تمهيداً لبيعه أو تخزينه، يا الله!! إن هذه الكميات تعيد إلى ذهني تلك الأيام في موسم الجداد، ترى لماذا قدم الرجل كل هذه الكميات؟ أكل هذا من أجل الأمير ورجاله؟ ليتضلّعوا من هذا التمر والزاد، ها هم أكلوا وشربوا ولم ينقصوا هذه الكميات بشيء، أم أن بعض الأجواد قد أخذوا الحياء وأراد أن يقدم شيئاً يليق بمقام الأمير ورجاله. ويبيض وجهه عند هذه الجموع المحتشدة من كل حدب وصوب؟ يا الله!! كم تمنى الكثير منا أن يشبع ولو مرة واحدة من التمر في هذه السنة الغبراء؟ ها هو جارنا الفقير المسكين يحاول أن يلتهم الطعام التهاماً من شدة ما به من الجوع وربما يود لو أتاحت له الفرصة وسمح له بأخذ كمية من التمر في خاصرة عباءته، يا الله!! كم من الأطفال والنساء القابعين في بيوتهم والذين يود لو يتمطق الواحد منهم بمص فلق نمرة من هذه الأكداس المنثورة على السفيف نثراً، وكم من الأفواه الجائعة من العجائز والشيوخ الذين لا يستطيعون الوصول إلى هذا المكان لعجزهم وإقعادهم وكم من الرجال من منعتهم عزة النفس عن المجيء إلى هذا المكان فباتوا الطوى أو ما يقاربه حين تناولوا ما تيسر لهم من الطعام وناموا على عزة نفوسهم، آه، ليت لي حق التصرف، والله لأنطلق إلى أمثال هؤلاء وأصلهم بما يكفيهم من هذه النعمة في بيوتهم ليطعم الطفل اليتيم والأرملة الحائرة. والعجوز والشيخ المقعد، ومن منعتهم شيمته وأنفته من أن يأتي إلى هذا المكان لمجرد دعوة عامة، ترى كم تكفي هذه الكمية منهم؟ أوه!! إن ما على ثلاثة أو أربعة صفوف من التمر سيشبع معظم هذه الأسر الفقيرة التي أشرت إليها أياماً وأيام، فضلاً عن هذه الكميات الكبيرة من الطعام واللحم، ترى لو أنني فعلت خيراً وتسببت لأولئك الأجواد، وذلك بتنبية هذا الجواد الكريم أو الاستئذان منه لإيصال كمية من الطعام والتمر لأسر أعرف أنهم بأمر الحاجة إليه في هذه الليلة؟ لا أعتقد أنه يمانع في ذلك. فقد وصلت هباته لمثل هذه الأسر في ظرف غير هذا، ولكنه قد يكون مشغولاً مع الأمير ولن تتاح لي فرصة الوصول إليه ها!! سأحاول ما أمكنني ذلك،

فهذه الكميات الكبيرة من الطعام يجب أن يستفيد منها الفقراء في هذا البلد وما جاوره من الأعراب الذين أقعدهم الجذب بأكناف هذا البلد، لن أجلس في هذا المكان المنزوي، سأكون قرب الممر لعلني أرى محمداً فأعرض عليه الأمر الذي ارتسم أمامي إن لم يكن تنباه من قبل.

الوقت ضحى عندما كان محمد جالساً مع بعض رفاقه في ظل أثلة بعد أن سرحت الإبل من عندهم، إذ قدم إليهم رجل من خارج البلد ينقل إليهم ما رأى، وهي مجموعة من قوافل الإبل قد اندلقت مقدمتها مع الريح الذي يفضي على البلد من ناحيتها الشمالية الغربية مقبلة على البلد، ويعتقد أن هذه القوافل، إما قوافل تموين لأناس آخرين أرادت أن تمر بالبلد للارتواء، أو غزو يريدون مكان ما، وهدفهم من المرور ليشربوا ويوردوا مطيهم، ويحلوا ضيوفاً على الشيخ محمد، وعندها قال القادم: « يامهنا جاءك ما تمنى » موجهاً كلامه لمحمد الذي رد عليه بقوله:

— يا أبا سلامة، لقد أصبت من نفسي موقعاً طيباً بكلامك هذا.

: عجباً!!

— ولم العجب؟ والله لقد وددت لو استمر المدد من ريع البكر من الضيوف الليل مع النهار.

: الله !! الليل مع النهار؟

— نعم، وإن أسعد لحظات عمري عندما يتيخ الضيوف ركابهم عند بابي، فإنني أجد لذة في ذلك لاتماثلها لذة، وفرحة لاتوازيها فرحة.

: متع الله بحياتك يا أبا سالم.

— هذا الأمر يا أبا سلامة قد امتزج في دمي وسار في عروقي وأصبحت أشعر بالكآبة في اليوم الذي يقل فيه ضيوفني أولاً يحل عليّ ضيوف فيه.

: حقاً، حقاً، إننا نلاحظ عليك ملامح السرور والبهجة في اليوم الذي يكثر فيه ضيوفك، بينما نجد البعض إذا دخل عليه ضيفاً عيس جبينه وارتد وجهه

- وتغيرت نفسيته ونشرت تصرفاته وجف ريقه.
- : كل إنسان وما وهبه الله يا أبا سلامة!! ولكن قد يكون ما ذكرت من تفاعلات تحدث لرجل تعسره الأمور ويصعب عليه تحصيل وجبة ضيفه.
- : أبدأ، لم يكن هذا هو السبب، وإنما طبيعته هكذا.
- : مادام هذا ما وهبه الله، فإنه لا يملك في تغييره صرفاً ولا عدلاً، المهم دعنا من هذا وأخبرني أين القوافل التي رأيت؟
- : عهدي بأولها قد انداحت مع قم الربيع.
- : عد مع طريقك وتأكد ما إذا كانت ستمر علينا أو ستجنبنا.
- : إن جاءت أهلاً وسهلاً وإنجنبونا فلترافقهم السلامة.
- : لا، لا يا أبا سلامة.
- : وماذا تريد بهم؟
- : سأرسل إليهم من يعترضهم ويدعوهم للاستراحة عندنا لتناول القهوة ووجبة من طعام الغداء أو العشاء.
- : أتريدني أن أعود مع طريقتي لهذا الغرض؟
- : أنت أخف مني، وأصغر سناً من كل هؤلاء الموجودين بالمجلس.
- : أبشر، أبشر يا أبا سالم، كفى الله المؤمنين القتال.
- : ماذا تعني؟
- : هذا غنام قد جاء مع ذات الطريق ولا شك أنه رأى ما رأيت وسيخبرك الخبر اليقين.
- : لكن غناماً قد تجنبنا.
- : سأدعوه للحضور إلى هنا، ها هو قد حضر.
- : ماذا رأيت خلفك يا غنام؟
- : رأيت قوافل منقادة من ريع البكر، وتكاد تصل مقدمتها إلى البساتين، ولا أدري ما مداها من الخلف.
- : أين اتجاهها؟
- : إنها قادمة إليكم يا أبا سالم كما يبدو.

— أهلاً وسهلاً. يقول ذلك وهو يعقد أكمام أردانه الطويلة وينسفها من خلف رقبته على كاهله وينطلق ووجهه يتهلل بشراً لمقابلة طلائع هؤلاء الضيوف القادمين.

جری هذا الحديث وأحد الشيوخ الجالسين ساهماً لا يتكلم وإنما ينظر للإنفعالات التي ترتسم على محباً محمد بين الحين والآخر، تنبسط أسارير وجهه تارة وتنقبض أخرى، يتهلل جبينه حيناً ويعبس آخر، وعندما غادر محمد المكان تنهد الشيخ وزفر زفرة عميقة أردفها بكلمات يجذبها من أعماق أعماقه حيث قال: كأنني بصوت ناعي هذا الجواد الكريم يقول^(١)

خَفِيتُ ذُلُولِي مِنْ كَثِيرِ الْقَرِينِي عَدَا قُؤُودُكَ مَا لَفِي مِنْ يَلْفِيَةٍ
قَبْلَ قُؤُودِكَ مَاثَ أَبُو خُوطْنَيْنِ الضَّيْفَ لَوْ يَجْفُلُ بَغِيرَهُ يَعْشِيَةَ

آه!! ترى من يحل محله؟ من يقوم مقام هذا الأبلج؟ من يسد فرجته إن نوارى عن هذا المكان؟ ثم رد على تساؤله بنفسه بصوت متهدج، لم أقصد أن المكان سيخلو تماماً، لا، فالمكان مليء بالأجواد من بني عمه وغيرهم ممن يكرمون الضيف، ويقضون حاجة العاني ويؤون المحتاج، ولكني أراه يستبشر بقدوم الضيف وكأنه قدم عليه أحد والديه أو أولاده الذين طالت غيبتهم عنه ويتلقاهم بصدرة وقلبه وحواسه وجميع جوارحه.

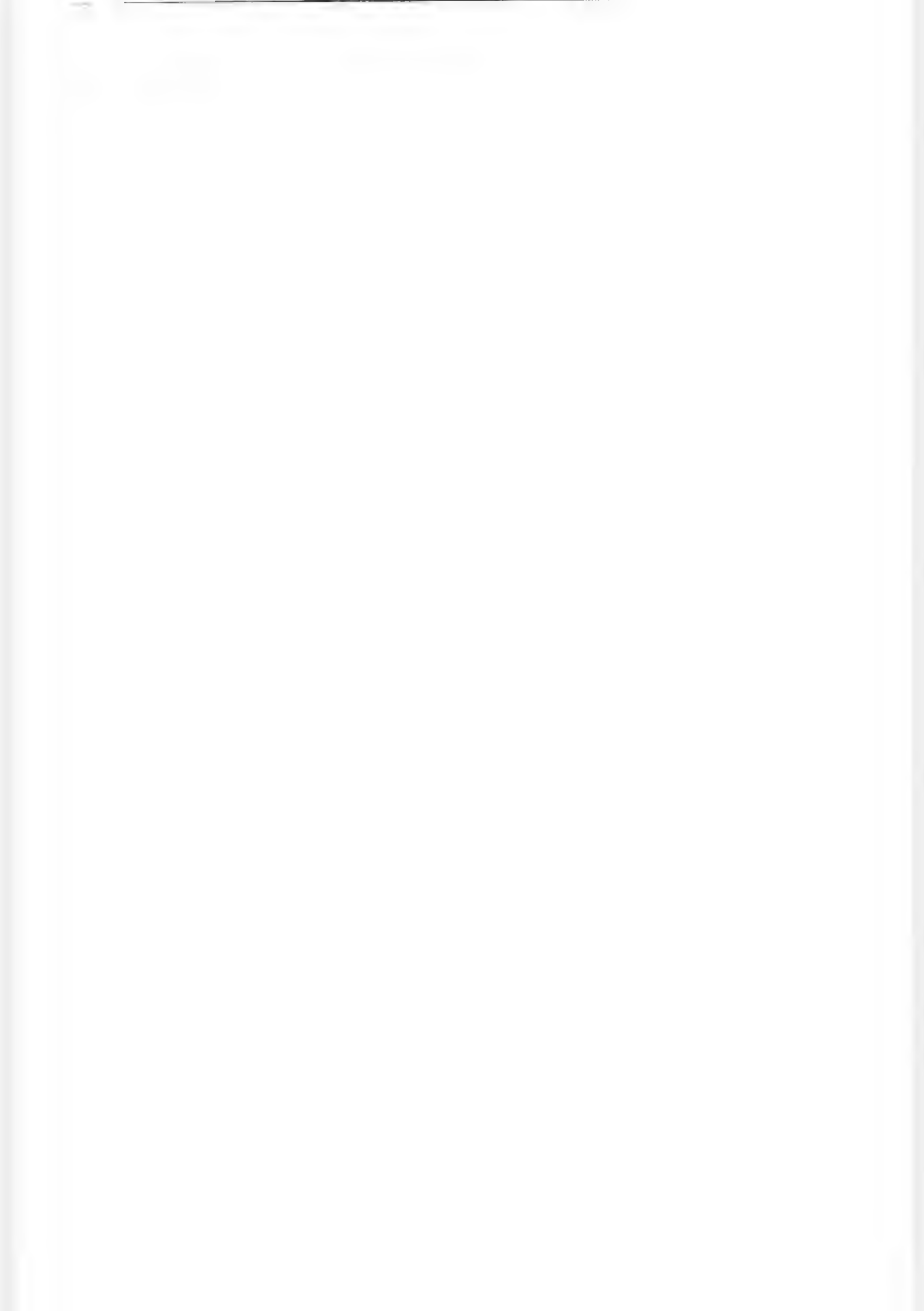
ثم قفزت من عينيه دمعتان مسحهما بإبهام يده وسبابتها محاولاً مواراتهما عن أعين الحاضرين، وأخذ عصاه للإستعانة بها على القيام فنهض متثاقلاً يعرج قدميه الحافيتين على ذلك الرمل الناعم الذي جلس عليه الحضور تحت ظل الأثلة، وبعد أن غادر الشيخ المكان اختلفت آراء الحاضرين فيما عناه الشيخ، فمن مؤيد له إلى حد القطع ومن معارض له إلى درجة التنافر، ومن رماه بالهوى الذي في نفسه لمحمد لأنه عاش في كنفه فترة طويلة، سيما بعد أن فجع بمقتل أبنائه الثلاثة في إحدى الغزوات، فكان محمد خير عون له على

(١) الشعر للكليخ.

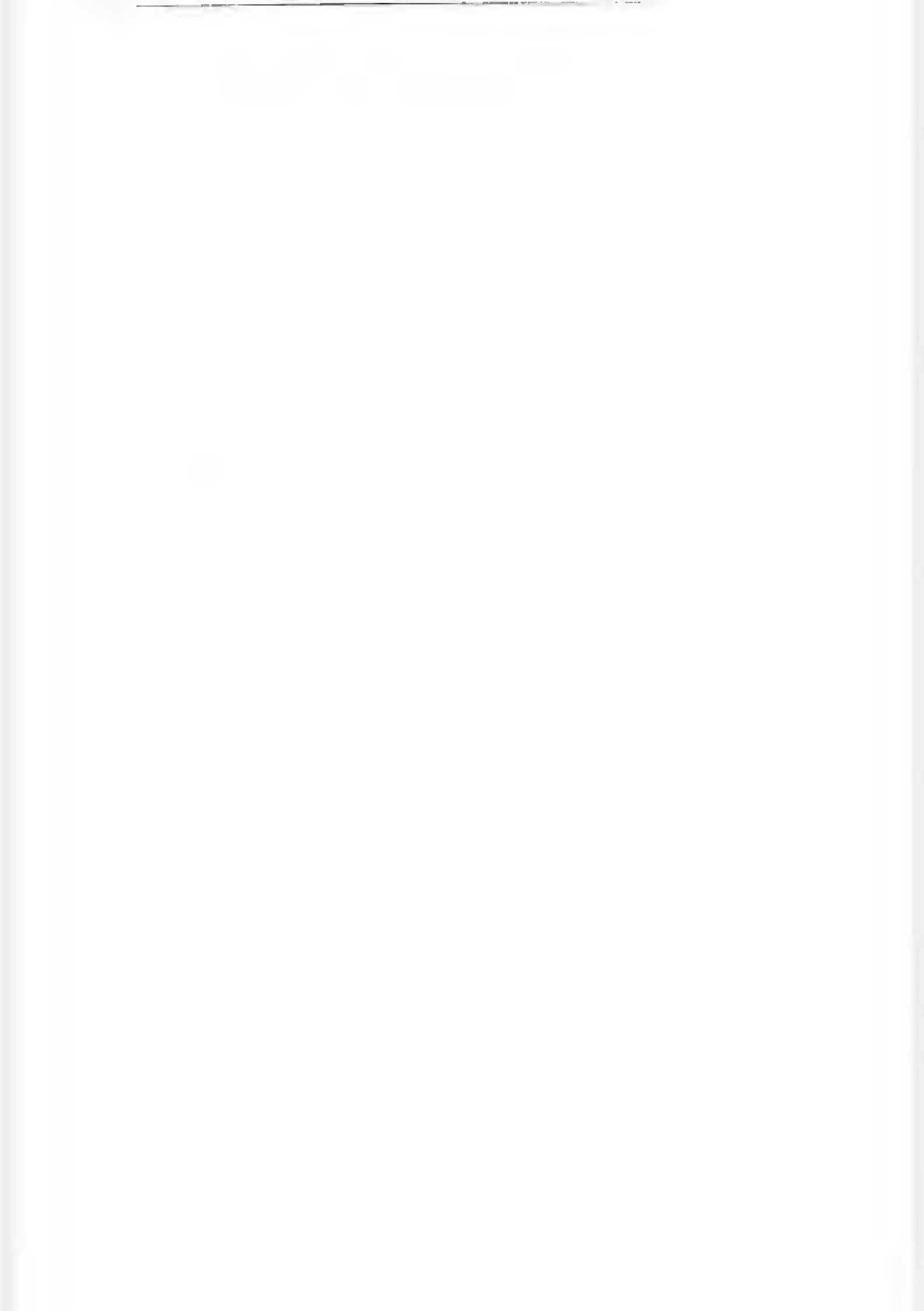
أود الحياة في شيخوخته، وصار له بمثابة أحد أبناءه البار منهم وضفّه وقام بشعونه هو وزوجته العجوز، ولذلك فهو لا يرى بعين الرضى غيره، وإلا فإن حدسه قد لا يكون بمحله، فالأجواد أكثر، وإن اشتهر محمد بهذه المزية، لكن هناك غيره، وفيهم البركة وإن لم يبلغوا ما بلغه، وربما ظهر من بينهم من يبرّه. كان صاحب هذا الرأي يدلي بهذه الكلمات وهو يغادر المكان هو الآخر.

وقد صدق صاحب هذا الحدس إلى حدّ ما، فقد ظهر من أحفاده وأقاربه وأبنائهم وأحفادهم من حافظوا على هذه السجية، وإن لم يبلغوا شأوه، إلا أنهم بزوه في مواطن أخرى، لم يتصور ذلك الشيخ الذي أعجب بتهلل وجه محمد عندما علم أن الريع قد غص بالقوافل الذين يحتمل أن يكونوا ضيوفاً عليه، أو ما علم أن من أقاربه وأحفادهم من جلسوا عند القاضي لهذا السبب.

جلسوا عن القاضي للتنافس على إكرام الضيوف القادمين من هذا الريع، الكل منهم يقول إن الريع يفضى باتجاه باب منزلي والضيوف القادمون منه يجب أن يكونوا عندي لا عند أحد غيري، وتشتد المنافسة ويحكم القاضي لأحدهما بالضيوف القادمين من ريع البكر وما شماله ولثاني بالقادمين من ريع قارح وما جنوبه، ويرضى الطرفان بهذا الحكم وتظل المنافسة على أوجها جيلاً بعد جيل، وتبقى هذه الدوحة كغيرها من دوح الكرم يتظلل بظلها من لجأ إليها، وكلما هرم غصن أو يبس خرجت في مكانه أغصان أخرى تحل محله.



قصة رقم (٢٦)



الحب العفيف

بينما الليل يضيفي ستاره على الكون، إذ ركاب تلك القافلة يخبون الخطى للمبيت بقرب ذلك المورد ليلتهم ليرتووا ويسقوا ركا بهم، وعندما اقتربوا من المنهل وجدوا حوله قافلة أخرى قد حطوا رحالهم وشبوا نارهم لتجهيز وجبة العشاء عند ذلك تنحى القادمون عمن سبقوهم قليلاً وأناخوا ركا بهم ثم وردوا الماء من ساعتهم، وبينما هم كذلك إذا جاءهم رسول ممن سبقوهم يدعوهم للحضور لشرب القهوة معهم وقد تمنعوا في بداية الأمر إلى أن عاد إليهم الرسول للمرة الثانية والثالثة فما كان أمام رئيس الركب «الدعيمي» إلا أن يلبي الدعوة التي وجهها إليه «الحبيبي» رئيس القافلة الأخرى فوصل إليه مع مجموعة من رفاقه، وأضربت النار فشقت ستار الظلام وامتلات تلك البقعة من الضوء إتضح كل ما حولها فبانت ملامح الوجوه واتضح تقاسيمها فسلم الرجال على بعضهم البعض دون سابق معرفة. وقدم كل واحد رفاقه لصاحبه بالإسم الأول، وأخذ كل واحد مجلسه ثم أديرت القهوة، وتبدلت الأحاديث الأولية وعرف كل واحد على مقر صاحبه بحيث اتضح للحبيبي أن الدعيمي أحد وجهاء الكويت وتجارها كما اتضح لصاحبه أن الحبيبي أحد وجهاء وتجار المدينة المنورة، واستمر السمر تلك الليلة بأحاديث ذات شجون ضريت كل منحى، حتى حان وقت النوم فتنفرق القوم وأخذ كل واحد مضجعه عدا هذين الرجلين فقد استمر الحديث بينهما يضرب كل اتجاه وشعرا أن هناك تقارب وتآلف وانسجام بينهما، وأن صداقة قد ولدت بمحض الصدفة تلك الليلة، وهكذا استمرا في جلستهما حتى انهرس الليل وركعت النجوم نحو المغرب، فاستأذن الدعيمي من رفيقه ليأخذ كلا منهما قسطاً من النوم إلى لقاء مع أذان الفجر.

(٥) ورد في فهرس مخطوطات بجامعة ليدن بهولندا «أن ماجد ولد راع الخرج».

وبعد أن حان موعد صلاة الفجر أيقظ كل منهما رفاقه وصلوا الفجر جماعة ثم انتقلوا إلى رفاق الدعيمي حيث تصنع القهوة هناك، ومع إدارة القهوة على الجلوس دارت معها الأحاديث فقال الدعيمي موجهاً كلامه لرفيقه:

— ما رأيكم لو نقيم هذا اليوم قرب هذا الماء؟
: نقيم ؟!!

— نعم، لتستريح ركابنا اليوم وترعى غير بعيد عنا، فالأرض يبدو أنها قد أصابها مطر الصيف وأعلق شجرها، ونحن في نفس الوقت نستأنس لبعضنا، ويرى بعضنا بعضاً في وضوح النهار.

: كل ما ذكرته طيب ولكن...

— أرجو ألا تستثنى يا أبا ماجد، فما عرضته عليك ليس صعباً.

: لم أرد ما أشرت إليه، وإنما كنت أود القول إن قربنا من الماء وإقامتنا حوله قد تلفت إلينا أعين الناس وخاصة الطامعين منهم، سيما وأن معنا من التجارة والبضائع ما يسيل له اللعاب.

— في هذا معك حق، ولكن المكان أمين كما يبدو.

: وإن يكن، فقد تخرج من تحت الحصاة عقرب أو حية.

— إذا نزح قليلاً عن المكان ونلوذ في أحد مثاني الأودية لنقيم تحت ظلال الطلح غداً والليلة القابلة .

: هاه!! قد يتأخر مسيرنا، فيتأخر وصولنا مما يقلق من ينتظروننا.

— آه، هو يوم لن يقدم أو يؤخر يا أبا ماجد.

: هاه!! يقول ذلك وهو يمسح وجهه ويمرر كفه على آخر لحيته.

— أطعني ووافق، أرجوك.

: لا بأس.

— إذا فأنتم مدعوون عندنا، وأنتم بمثابة ضيوف علينا.

: يا أبا محمد، في السفر ليس هناك ضيف أو مضيف.

— هذا رجاء خاص مني إليك، نحن بخير كما ترى، هذه الأحمال من كل

نعمة، ومعنا من الزاد ما يكفي لعشرات غيرنا لعدة أيام. وليس بيننا وبين أهلنا

سوى مسافة بسيطة.

: إذا كان الأمر ولا بد فلنتقاسم هذه المهمة، في النهار بضيافتكم وبالليل أنتم بضيافتنا.

— لا إشكال في ذلك، لكل حدث حديث.

: حسناً لم نكمل حديثنا البارحة يا أبا محمد.

— أتينا من الشام.

: من الشام؟! لماذا أتيتم من هذا الطريق؟

— آه!! لقد علمنا أن القبيلة الفلانية قد رفعت الإتاوة التي تأخذها ممن يعبرون أراضيها، وقد أطلقوا العنان لقطاع الطرق فيها أن يتصرفوا كما يشاؤون ولهذا اضطررنا إلى التوجه جنوباً حتى نتجنب أراضيهم ثم اتجهنا شرقاً حتى نصل إلى بغيتنا.

: غريب أمر هؤلاء الناس، كم من المشاكل أوجدوها في طرق التجارة وعرقلة سير القوافل.

— صدقني يا أبا ماجد، أن نصف أرباحنا إن لم يزد على ذلك تذهب إتاوات لهذه القبائل!!

: لا شك في ذلك فقد مرّ علينا مواقف مماثلة، وما هي نوع بضائعكم؟

— أصناف كثيرة، من الملابس والأواني المنزلية النحاسية والزجاجية وأشياء متعددة أخرى.

: أما تأتيكم مثل هذه الأصناف عن طريق الخليج العربي؟

— بلى، تأتينا أصناف من الهند والسند وفارس والشرق ولكن بضاعة الشام لها وضع خاص ولها راغبوها ومريدوها.

: بلا شك، فلها نكهة خاصة.

— لم تخبرني عن مسيركم؟

: لقد أتينا من العراق، من بغداد ومررنا بكريلاء.

— وماذا وجدتم هناك؟

: فرش من المنسوجات الصوفية والقطائف وبعض المنسوجات الحريرية،

بالإضافة إلى حبوب التوابل التي توجد هناك، وبعض العطور التي تأتي بغداد من أصفهان وشيراز وتلك الجهات.

— أما تأتيكم بضائع الشرق عن طريق البحر الأحمر؟

: بلى، ولكننا تعهدنا بنقل وحماية قافلة من الحجاج إلى بغداد، ولما وصلنا إلى هناك لم نرد العودة بدون شيء، ومثل هذه المنسوجات لها سوق رائج عندنا في موسم الحج.

— هل يشتريها الحجاج؟

: نعم، وقد يشتريها حجاج العراق أنفسهم أو غيرهم وهم يظنونها من منسوجات المدينة المنورة فيتركونها بها.

— عجباً، يتركونها بها؟!؟

: نعم، يأتي إلينا الحجاج فيشترون سلعاً من مختلف الأصناف وهم يعتقدون أنها من المدينة، وفيها بركة الأماكن المقدسة، وهي على الأقل قد وصلت إلى الأماكن المقدسة، وقد تكون هذه البضائع قد صنعت في بلادهم أو في بلاد أخرى، المهم أنه اشتراها من المدينة ولذلك يدفعون بها أغلى الأثمان.

— إيه!! قد يشيهم الله على قدر نيّاتهم، وكيف حركة الأسواق عندهم؟

: تنشط في موسم الحج، وتسير سيراً وثيداً بقية العام عدا بعض الانتعاش الذي يحصل لها في موسم الزيارة الرجبية، ولكنها على كل حال تسير بدرجة مرضية.

— أنتم أحسن منا حالاً، حيث لا يوجد لدينا من المواسم سوى موسم صيد اللؤلؤ حين تصل فيه المنافسة قمته ويأتينا المشترون من أنحاء الجزيرة العربية والأقطار المجاورة الأخرى.

: وهل تتاجر باللؤلؤ يا أبا محمد؟

— أدخل في تجارته في موسمه بجزء من مالي قد لا يتجاوز الربع، وبقية تجارتي في الملابس القطنية والحريرية والكتانية والأطعمة بأنواعها.

: تجارة رابحة بلا شك، لأن معظمها لا يدخله العطب.

— تفضلوا تنتقل إلى المكان الذي سنقيم فيه بقية يومنا بالابتعاد قليلاً عن الماء.

وتحركت القافلتان من مكانهما مع طلوع الشمس إلى مكان غير بعيد، وركب أبو محمد كور مطيته ولم تزل تظن في ذهنه تلك الجملة التي ذكرها صاحبه، من أن الحجاج يشترى هذه البضائع للتبرك بها على أساس أنها مصنوعة بالمدينة المنورة، حتى ولو كانت هذه البضائع قد صنعت في بلدهم، وتخيل هذه الطيبة والبساطة التي تقترب في بعض الأحيان من حدّ السذاجة، لكن التأثير الديني القوي يجعل هؤلاء الحجاج يتصورون أن هذه الأشياء مصدرها من الأماكن المقدسة، ولما لهذه الأماكن من علو المكانة في صدور الآخرين، وقدسية تلك الأماكن الطاهرة التي يشعر بها الإنسان كلما كانت بعيدة عنه، ووصوله إليها عسيراً، أما إذا كانت قرية منه وتيسر وصوله إليها فإن درجة ارتباطه بها وانجذابه إليها يصاب ببعض الفتور وقد يصبح كل شيء عنده عادياً، والارتباط الروحي بالأماكن المقدسة لا يقتصر على ديانة واحدة، فليس المسلمون وحدهم هم الذين يلتصقون بهذه الأماكن، نجد ذلك جلياً في الديانات الأخرى، والتبرك بما يوجد في هذه الأماكن من مصنوعات ومقتنيات قاعدة عامة يتمسك بها الكثير من معتنقي الديانات على مختلف مذاهبها، وأكثر من ذلك الإقتراب من هذه الأماكن والسكن حولها، لعل ذلك أن يكون شافعاً لأمثال هؤلاء في التخفيف من ذنوبهم وقد يتمنى البعض منهم أن يودع الحياة الدنيا في هذه الأماكن ويدفن فيها، لعل ذلك أن يكون له صلة بين المكان الذي عاش فيه في أخريات حياته الدنيا وأوائل حياته الأخرى، هذه الاعتقادات التي قد لا تقدم ولا تؤخر في حياة الفرد أو مفره في آخرته، فلن يصل إلى ما يتمناه إلا برحمة ربه ورضوانه وجزاء ما قدم من عمل يتساوى في ذلك من فارق الحياة وهو في أبعد مكان عن هذه الأماكن أو أن يكون بقربها أو داخلها، وربما كان ذنب من عاش في هذه الأماكن أعظم وزراً ممن عاش بعيداً عنها، هذه الأماكن التي تشد إليها الرحال من أقصى أطراف المعمورة وترسل لها الصدقات وتخصص لسكانها الهبات والأموال التي يرجي ثوابها من الله عز وجل وربما عاش سكان هذه الأماكن وما حولها على هبات وصدقات السلاطين والملوك والأثرياء، إذا كان هذا الاعتقاد سائداً على هذا

المستوى، فما بالنا نلوم هؤلاء الحجاج الأبرياء عندما يعتقدون أن هذه الهدايا والبضائع من إنتاج هذه الأماكن المقدسة وهي على خلاف ذلك، والمفروض أن ينبه هؤلاء لمثل هذا الجانب، ولكن ربما لو نبهوا إلى ذلك فربما لن يصدقوا، وفي مثل هذا التنبيه ما قد يضر هؤلاء التجار أمثال رفيقي الذي أحضر في طريقه هذه الحملة لبيعها على الحجاج في العام القادم وآخر مثله يأتي ببضائع قد صنعت بقطر إسلامي آخر، وربما باعها على حجاج من هذا القطر أو ما يجاوره، مثل هؤلاء التجار لو نبّه على الحجاج وعرفوا مصدر البضاعة لربما جلب الخسارة لمجاوري هذه الأماكن المقدسة، ثم إن هناك عامل مساعد لعدم فهم مثل هؤلاء الحجاج وهو عامل اللغة التي تختلف من مكان إلى آخر في العالم الإسلامي وغيره بالنسبة للأديان الأخرى، ولكن الله كفيل بهؤلاء ليجازيهم على قدر نياتهم.

وأقام الركبان ذلك اليوم وليلته جرى خلال هذه المدة عدة جلسات وضربت الأحاديث كل مضرب وازدادت نواحي المعرفة بين الدعيمي والحبيبي وبدأت وشائج الصداقة يشتد نسيجها بين الرجلين وتعهد كل واحد منهما بالاستعداد التام لخدمة رفيقه بنفسه وبماله وعرض لصاحبه أصناف التجارة التي تتوفر لديه وقد تنفق في سوق رفيقه، وبعد هذه الجلسات الطويلة خلال يوم وليلتين وعند افتراق القافلتين قال الدعيمي:

— يا أبا ماجد، إني مودعك وراجياً منك أن تزورني بالكويت في الوقت الذي تراه مناسباً.

: سأزورك إن شاء الله، وإنني أدعوك أن تزورنا في موسم الحج القادم، ولتكن زيارتك لنا بالمدينة لغرضين، الأول هو الحج، والثاني أن تعرج علينا في طريقك للحج ونستأنس بوجودك في ضيافتنا، إيه!! تضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل.

— لا بأس، لكن وقت الحج بعيد نوعاً ما، وبإمكانك أن تزورنا قبل هذا الوقت.

: لكن عندي رحلتان خلال هذه المدة الزمنية الباقية على الحج إحداهما لليمن وحضرموت والشحر بطريق البحر والثانية إلى مصر عن طريق البر.

— ماذا تحضرون من حضرموت والشحر واليمن؟

: آه، نحضر منها الكثير من الأشياء السالكة عندنا في السرق كالقهوة البرية، وأنواع اللبان والمصطكي والبخور وكثير من الأعشاب والعقاقير التي نبيعها كأدوية، ومختلف الأبازير والأقارية المستخدمة للطعام.

— ومن مصر؟

: المسنوجات القطنية الممتازة والحريية والكتانية العالية الجودة، بالإضافة إلى بعض المصنوعات الجلدية والمنحوتات الخشبية والمصنوعات النحاسية.

— وهل تستغرق الرحلتان كل هذا الوقت؟

: كما تعرف كم تستغرق الرحلة الواحدة من شهرين إلى ثلاثة وبينهما شهرين أو ثلاثة للراحة عند الأهل فهذه المدة المتبقية على الاستعداد لموسم الحج القادم، ولهذا فإن دعوتي اليك في مكانها.

— ومتى تكون زيارتكم لنا؟

: ستكون بعد ذلك، إن لدي النية لزيارة سوق البصرة، وربما تعديت ذلك شرقاً إلى شيراز وأصفهان.

— وأين تريد هناك؟

: لدينا عدد من الأصدقاء من التجار وقد دعوني وشجعوني لزيارة تلك النواحي، ووعدوني بالمساعدة وذلك بالبحث عن البضائع الجديدة على سوقنا من هناك.

— لكن أصفهان بعيدة عليك يا أبا ماجد!!

: لا بعيد على طالب الأرباح.

— صحيح، ولكننا نتردد أحياناً في الذهاب إلى هناك.

: وانتم قريبون منه!!

— كما تعرف مخاطر الطريق، ومخاوف السفر تجعل الواحد يقنع من الغنيمة بالإياب في بعض الأحيان.

: أما تذهبون إلى هناك؟

— بلى، ولكن في كثير من الأحيان نترك هذه المهمة للتجار الفرس لتحمل مخاطرها، وإن أخذوا علينا بعض الأرباح فإنهم يعرفون بعضهم البعض ويخلصون أنفسهم، أما إذا ذهبنا إليهم فإن مشاكل الطريق تصعب علينا.

: أجل، فإنك لا تنصحنا بالذهاب إلى هناك؟

— لا، إنني أقول: جرب على الأقل لتأخذ فكرة عن سوقهم وربما صادفت بضاعة جيدة تستفيد منها.

: سأبشر هذه المهمة بعد موسم الحج القادم إن شاء الله، وسوف أعرج عليكم في هذه السفرة ذهاباً أو إياباً.

— لنكن زيارتك في حالة الذهاب وربما صاحبك في هذه الرحلة أو وجدت من يصاحبك من رفاقنا ليؤانسك، وربما استفدت ممن سبقك إلى تلك الأسواق، وسلك تلك الطرق.

: سأزورك في ذلك الحين إن شاء الله، وأنت ألا تريد أن تحج هذا العام؟
— قد أفكر بالحج، لأنني سبق أن حججت وبقينا في الطريق خمسة وثلاثين يوماً في الذهاب ومثلها في الإياب وكانت في وقت الحر، وقد أتعبتنا مسيرة الحج تلك.

: سيكون أعظم للأجر إن شاء الله، أما وقت الحج الآن فهو مناسب جداً حيث الجو الربيعي المعتدل.

— بالفعل، وهذا مما يشجع على أداء هذه الفريضة.

: إذا نحن في انتظاركم مع طلائع الحجيج في الموسم القادم.

— إن شاء الله.

: الآن إذا كنتم بحاجة إلى شيء أو طراً عليكم أي خدمة فما عليكم إلا أن تخبرونا بما تريدون، وسيصلكم ما رغبتم فيه.

— كثر الله خيركم، ونحن بدورنا نرجو أن تعتبرونا بنفس الموقف.

: أشكركم جزيل الشكر واستودعكم الله.

وتعانق الرجلان طويلاً، وكأن هذه المعرفة أو الصداقة التي نزلت عليهما

خلال هذا اللقاء القصير نسبياً كأن عمرها عشرات السنين وودع كل منهما صاحبه بالنشيج والدموع حين ضرب كل واحد إلى وجهته، فقال الحبيبي في نفسه؛ إيه!! رب صدفة خير من ميعاد!! لم أكن أعرف هذا الرجل من قبل ولم يعرفني اللهم إلا إذا سمع عني بالذكر، وجاءت تلك الساعة التي وردنا فيها على الماء لتكون نقطة الالتقاء التي انبثق منها شعاع المحبة ونور الصداقة، وإذا بصاحبي كأنه لم ير إنسان غيري، ووقعت محبته في قلبي موقعاً لم يسبق أن شعرت به إزاء أي إنسان سوى والدي وإبني، اللهم اجعل آخر هذه المحبة خيراً من أولها، رجل من أقصى شرق الجزيرة العربية تجده في ساعات قصيرة يسيل قلبه إلى رجل من غربها!! صحيح إن بيننا رابطة الدم والدين، ولكن لماذا هذا الرجل بالذات؟ وإن عندنا في نفس البلد أناس كثير تربطني بهم وشائج قرىبي عديدة كالرحم والجوار، وعلاقات تجارية ومصالح مشتركة ولكن لم أجد لهم في قلبي ما وجدته لهذا الرجل من الألفة والمحبة رغم هذا البقاء القصير، وقد تمنيت لو امتد لقاءنا أياماً طويلة وشهوراً متعاقبة، ولكن حال دون ذلك ارتباط كل منا بمواعيد ومصالح مشتركة، ولكن كيف لو بقينا مدة أطول؟ ربما لن نستطيع أحدنا أن يسلو عن صاحبه يوماً واحداً!! هاه!! ومن يدري!! فقد يكون بقاؤنا مما يؤثر في عرى هذه الصداقة!! قد يزيدا ذلك فتوراً أو برودة!! أبداً أبداً، لن تكون وفق هذا الهاجس لتزداد متانة وقوة، فإذا كانت هذه الفترة القصيرة قد وصلت هذا المستوى فما بالك بالفترة الأطول منها؟ بلا شك أنه ستشد الروابط، وتصبح القلوب بطابع المحبة سبحانه الله، الأرواح أجناد مجندة، يأتلف منها ما أتلف، ويختلف ما يختلف وتبقى المحبة هي الرباط المتين بين هذه القلوب المؤتلفة التي قد تكون الطبائع هي لُحمة الشوائج وسداهها، قد يرتاح الإنسان للآخر من أول نظرة إليه دون أن يعرفه، فتنبسط له أسارير وجهه وينفتح له قلبه قبل أن يكلمه، نعم قبل أن يسمع منه نبذة واحدة، إنما هي النظرة الأولى التي يطرحها عليه، ولو من بعيد فتعكس منها خيوط الإرتياح وبذور المحبة، وقد يكره هذا الإنسان من أول نظرة ينظر به إليه حتى لو لم يكن يعرفه أو يكلمه، وإنما مجرد أن تصطدم عيناه به فتعكس

معها سلبيات تترسب في أعماق ذهنه، ويبقى هذا الإنسان غير محجب إليه، فإذا تصرف هذا الإنسان أو تكلم إزداد عنه بعداً أو زاد إليه التصاقاً، وأحياناً أخرى تأتي هذه الانطباعات عكسية، فقد ينظر الإنسان إلى شخص آخر فيرتاح إليه بادیء الأمر، حتى إذا تكلم أو تصرف انعكس هذا الارتياح وزاد عنه بعداً ونفوراً وقد يحصل خلاف ذلك، فقد تطفح إلى مخيلته قشور الاشمئزاز وثقل الطينة في هذا المائل أمامه، حتى إذا تصرف معه أو كلمه وتعامل معه تحطمت هذه القشور وانقلبت إلى طبقة من نسيج المحبة والألفة، إيه!! سبحان مغیر التصارييف ومقلب الأمزجة!! ترى ماذا رأى مني؟ قد يكون رأى ما رأيت منه، سماحة المحيا، وبساطة النظرات، والابتسامة التي لا تفارق ثغره، طيب النفس وسهولة المنطق، لطافة الحديث رقة النبرات في لصوته، هذه الأمور التي رأيتها في صاحبي وقد لا أملك معظمها، فربما رأى أشياء ارتاحت لها نفسه فتقاربت قلوبنا والقلوب أجناد.

* * *

وتبدلت الزيارات بين الإثنين فحج الدعيمي سنة بعد أخرى وزار رفيقه، يستقر عنده كل مرة بكل ما تعنى الحفاوة والتكريم، كما شد الحبيبي الرحال لزيارة صديقه الدعيمي ثم عرج عليه في طريق رحلاته التجارية ليملك عنده بعض الوقت بكل حفاوة وتكريم أيضاً وصار كل واحد يكن لصاحبه الإخاء المحض والود الصافي، يترجم الواحد لأخيه هذه العواطف عند ما يزوره في بيته أو عندما تأتيه منه رسالة، بل عندما يأتي مجرد ذكره على لسانه أو لسان محدثه، وذات مساء كان الشاب ماجد الحبيبي إلى جانب والده يتحدثان عن الصداقة والأصدقاء، حين اعتدل الوالد في جلسته وقال:

— أي بني!! الصداقة التي لا تكون مثل صداقة رفيقي الدعيمي لا أعتبرها صداقة أبداً.

: قد يكون هذا رأيك الخاص يا أبي؟

— بالطبع هذا رأيي، ولكنه رأي مبني على حقيقة، أرأيت صديقاً مثله؟

- : الواقع أن الأصدقاء الذين رافقتهم من الشباب، لم أجريهم حتى الآن، وربما لو جربتهم على حقيقتهم لوجدت فيهم من هو مثل صاحبك.
- لا أستبعد ذلك يا بني، لا أستبعد!! ولكن...
- : أراك وجمت يا أبي!! ماذا تريد أن تقول؟
- آه!! الأصدقاء على كثرتهم يا بني، قد يكونون أصدقاء منفعة، أو أصدقاء رخاء، حتى إذا جد الجد ووضعت الواحد منهم على المحك تبين لك خلاف ما كنت تتوقع منه.
- : وهل جربت رفيقك على المحك؟
- نعم، لقد جربته وبلوته وأثقلت عليه أكثر من مرة لأسير غوره، وأعرف كنهه، فوجدت منه الجبل الراسي احتمالاً، والمزن المسبل انهلالاً.
- : ولكنك كنت تحتفي به عندما يزورنا هنا لدرجة قد تتعدى المنطق وتجتاز المألوف.
- لم أقدم له معشار ما يقوم به نحوي إذا زرته أو أتاه مني رسولاً، بل إنني أمس ذلك في العبارات التي تحويها رسائله المرسله إليّ.
- : هذه عواطف متبادلة بينكما، وكل واحد يحب أن يكون السباق إلى الأفضل والأرقى منها.
- ليس هذا فحسب، وإنما وجدت فيه المعدن النفيس والجوهر الصافي، والإخلاص والتفاني بكل ما تعنيه هذه الكلمات.
- : أترأه وجد فيك ما وجدت فيه؟
- لا أدري يا بني، ولكن أين نحن وأين هو؟
- : ماذا تعني؟
- إنه أفضل مني بعشرات المرات.
- : في اعتقادي أن هذا تواضع منك يا أبي، وإلا فأنت والله الحمد لا تقل عنه شأنًا.
- هذا الحكم يا بني لا نستطيع إطلاقه على أنفسنا بل نترك أمره للآخرين.
- : ولكن ما دما واثقين من أنفسنا فهذا ما نعتقده.

— : آه!! يا بني لا تعدم صديقاً مثله.

: كيف تعرفت عليه؟

— : آه، تعرفت عليه يا بني وأنت لا تزال في سن الرضاع بطريق الصدفة في ليلة مباركة، وها أنت الآن تجتاز أعتاب العشرين من عمرك المديد إن شاء الله ومنذ ذلك الوقت. أي منذ عقدين من الزمن وأنا أعرفه، أعرفه بكل ما تعنيه هذه الكلمة فهو صديق حميم.

: لم أسمع من قبل من يتحدث عن صديقه بهذه اللهجة!!

— : لا يزال الوقت مبكراً بالنسبة لك، إنك لم تجرب الحياة، ولم تحتك بالناس وتعرف غشهم وسنينهم، وصديقهم من عدوهم، وجوهرهم من زائفهم. صحيح، أنا معك في هذه الناحية.

— : أبني ماجد!! ليكن صديقك أو أصدقاؤك من هذا النمط وإلا فلا.

: هذا يخضع للتجربة والبرهان.

— : لا شك، لا شك. يقول ذلك وهو مطرق بعد أن وضع إبهام يده بين حاجبيه رافعاً بها رأسه، ثم استأنف.. أبني ماجد!! حاول أن تحافظ على صداقتك معه، ومع من تجد أمثاله في حياتي وبعد مماتي.

: هاه!! يقول ذلك بفزع، وكأن هذه الفقرة الأخيرة نقلته إلى حديث جديد.

— : أبني ماجد!! إذا استرد الله وديعته مني وانتقلت إلى الدار الآخرة فأول ما أوصيك به أن تشد الرحال إلى رفيقي وصديقي الدعيمي لتعزيه وتجدد الصداقة معه.

: بعيد عنك الشر يا أبني!! وفاك الله كل مكروه يقول ذلك بفزع.

— : وأنا أردد ما تقول، ولكن لكل أجل كتاب، فمن أولويات ما أوصيك به، تجديد العلاقة بهذا الرجل، لا أريد أن يكون حبل وينقطع، أريده حبلأ متصلاً متيناً، يقعد صغاك عند الحاجة، يشد ظهرك عند العوز، يسندك عندما تميل، وتقف معه نفس الموقف أو تزيد عليه.

: بعد عمر طويل يا أبني، فداك روحي.

— : تسلم يا بني لي عضداً وسنداً؛ هاه أنظر من الباب قام ماجد وهذا الموضوع

الذي أثاره والده يشغل باله وتبادرت إلى ذهنه الأسئلة، هل أحس والدي بشيء يجعله يقول ما سمعت منه؟ هل شعر بدنو أجله ورحيله من هذه الحياة؟ حتى جعل من أوليات ما يوصيني به زيارة رفيقه الذي طالما تردد علينا وعرفته عن كثب، وكان أبي يكرمه غاية الإكرام، هل تراه يكن لوالدي من الود بمقدار ما يجد عنده؟ صحيح، لقد فهمت من والدي أن عمر هذه العلاقة يقارب عمري، ومنذ ذلك الوقت وكل يوم يمر عليها يزيد بها قوة ومتانة، حيث استحكمت عراها، هذه الأواصر التي لا يريد لها أبي أن تتصرم، بل يريد لها أن تزداد مع الأيام، يخلفها الآباء للأبناء، هاه!! ولكن حسب علمي أن رفيق والدي ليس له من الأبناء الذكور أحد، ولم يبق له مما رزقه الله إلا بنتاً واحدة، ولهذا فقد تختل موازين المفاهيم، فقد لا تتنقل الصداقة من الآباء للأبناء كما كنت أتوقع، اللهم إن كان ذلك في مجرى آخر، وهل يصدق حدس والدي في هذا الجانب من أن رفيقه سيحافظ على مستوى صداقته مع الابن الذي لا يعرفه ولم يجربه؟ أم أن هذه الصداقة ستهتز وتظهر فيها الشروخ التي ربما أتت إلى تصدعها؟ ذلك ما لم نتبين معالمه الآن، وإنما ستأتي الأيام بمضمونه غير أنني لا أتوقع الخطأ لتخمين أبي، لمعرفته التامة لرفيقه الذي لم يوص على غيره، فأعمامي وأقاربي وأخوالي لم يعطهم والدي الأولوية التي أعطاه لصديقه ولو لم يكن واثقاً مما يقول لما أعطاه كل هذه الأهمية، أتراني في ذلك الوقت أذهب إليه بنفسه رأساً؟ أم أرسل له رسالة لأرى مردها ثم أذهب إليه؟ هاه!! قد أذهب إليه، لأن الذهاب أفضل لتنفيذ وصية والدي حريفاً، إيه!! مالي ذهبت بي الأفكار إلى تلك النقطة البعيدة وكأن الأمر واقع؟! الحمد لله لا يزال والدي يتمتع بكامل صحته، وعنفوان حيويته، فما لي ذهبت إلى ذلك الوضع؟ الأمر لا يعدو كونه وصية بحديث عابر جرى تحت جناح الليل في هذه الأمسية عندما تطارحنا الحديث عن الأصدقاء ومقدار وفائهم، وكون أحدهم صديق بحق، والآخر صديق منفعة، أو صديق رخاء، حتى إذا حان وقت الحاجة تملص من بين أصابعك كما تزل كرة الزئبق من فوق راحة اليد لا تستطيع الإمساك بها للحظة واحدة، ولم تتمكن من رؤيته، مثل هذا

الصديق الذي يحذر والذي من ملازمته أو حتى النظر إليه ولو بطرف العين، أما الصديق الصدوق فذلك ما يريدني والذي أن أقطع إليه تلك المسافات الشاسعة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية لأوثق الصداقة معه!! لم يركز والذي عليه إلا وهو واثق أنه سيبقى بما عهده فيه، صحيح هذا إذا نظرنا إلى الموضوع من الزاوية الطيبة وحسن النية من جانب والذي، ولكن يا مقلب القلوب والأبصار فقد لا يتم على هذا الحال إذا فقد رفيقه الأساسي، وجاء من بعده ابنه الذي ربما حمله محمل الطيب أن يكون مثل أبيه، وقد تنطبق نظرة الشباب مع نظرة الشيوخ في بعض المواقف وتختلف معها في مواقف أخرى، مما لا يغني معه أن يكون فلان الشاب هو ابن رفيقي أو صديقي، وسوف يسير على نفس النهج الذي سار عليه، إذ ربما تكون نظرة الإنسان لمن يحب تطغى في جوانبها الإيجابية على جوانبها السلبية، ويرى سيئاته حسنات في الوقت الذي ينظر بها صاحب النظرة العقلية كل شيء على مقدار حسنه أو قبحه دون مواربة أو تعمية فإذا قدمت إليه لا يرى في حضوري سوى شاب في مقتبل العمر قد يطغى عليه نزقه وعنفوانه في مواقف لا توافق ما يرغبه من كان في سن والده؟! إيه، لقد ذهبت بعيداً في هذا الأمر وكأنه ماثل للبيان الآن، مع أنه بعيد الاحتمال إن شاء الله.

* * *

ودارت الأيام دورتها في عدد من السنين حين مرض أبو ماجد ذلك العرض الذي لم يقم منه حيث لاقى وجه ربه في نهايته ولم يكن أمام ماجد سوى أن ينفذ ما أوصاه به والده فأخذ عدداً من رفاق والده في السفر ليصاحبه إلى هدفه وبعد أن طوى هذه المسافات الشاسعة من غرب الجزيرة الجنوبي إلى شمالها الشرقي حين حلّ ضيفاً على رفيق والده بالكويت، الذي ما إن علم بقدمه حتى هب من مكانه لإستقباله ومن معه مجئداً كل من يستطيع الاستعانة بهم للحفاوة بهذا القادم والسهر على راحته، وسارع على سؤال عن والده، ولم يرد ماجد أن يخبره بحقيقة الأمر من ساعتها، بل طمأنه أن والده

بصحة جيدة، وجاء حاملاً معه سلامه، فقام المضيف بكل ما يستطيع من صنوف الحفاوة والتكريم، وكان ماجد على درجة من الوسامة الملفتة للأنظار، فقد لفتت طلعته وجميل محياه الكثير ممن قابلوه أو شاهدوه، بالإضافة إلى لين جانبه ولطافة حديثه، وكان محط أنظار الجميع لا يمل أحد من النظر إلى محياه، ومضت تلك الليلة الحافلة بالحفاوة والتكريم التي تمثلت بتلك الوليمة الكبيرة التي دعى إليها المضيف أعيان البلد على شرف الضيف، وبعد أن طعموا استمرت جلسة السمر تلك إلى حوالي منتصف الليل، استمتع الجميع بتلك الليلة الحالمة إلى أن تفرقوا في وقت متأخر من الليل، وكان قد أعد لماجد مكان خاص على سطح المنزل، وغطى السرير الذي ينام عليه بظلة من القماش الأبيض الرقيق الشفاف «ناموسية» لتقيه شر لسعات البعوض أو تطفل الذباب في الصباح، حيث لا يوجد من وسائل التكييف ما يعوض عن ذلك، وتمشياً مع حال الحياة السائدة يومذاك اضطلع ماجد تلك الليلة المقمرة في فراشه الأبيض الناصع ونام فيه حتى الصباح وبعد قهوة الصباح أراد أن يفتح رفيق والده بالحقيقة فقال له:

- : لقد قدمت إليكم يا أبا محمد بإيعاز من الوالد.
: أهلاً وسهلاً بكم وبمن قدمتم من أجله.
— : الأمر في غير ما توقعت، فوالدي رحمه الله، قد انتقل إلى جوار ربه عز وجل، «ويطلبكم الحل».
: هاه!! ماذا تقول؟! مات والدك؟؟ يقول ذلك ووجهه يعج بمختلف التفاعلات، ويداه تكاد أن تتجمد على ما فيها، وقد جحضت عيناه وفغر فاه.
— : لقد انتقل إلى جوار ربه قبل عشرين يوماً، وأوصاني بمبادرة القدوم إليك لتعزيتك فيه، وتوثيق عرى الصداقة بيني وبينك باعتباري بمكان والدي.
: رحمك الله يا أبا ماجد، وأسكنك فسيح جناته، كانت هذه الكلمات تخرج متقطعة بين حشرجات الصدر وغصص البكاء وموجات النشيج وهو يحاول الوقوف لعناق ماجد الذي وقف يقبله، ونعانق الرجلان طويلاً وتأثر كل منهما

من نشيخ صاحبه، ثم سرت جمل الثبات المتمثلة في الآية الكريمة ﴿والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وما شابهها حتى دخلت الطمأنينة إلى النفوس بعد فترة، عاد كل إلى مكانه يمسح آخر ما على خديه من الدموع، تلا ذلك الدعاء والتضرع إلى الله العلي القدير بأسبغ المغفرة والرضوان على روح الفقيد، ثم استأنف ماجد.

— كانت أولى وصية أوصاني بها أن أنقل إليكم التعازي وأجدد معكم العهد نيابة عنه.

: رحمك الله يا أبا ماجد، والأمر يابني لا يحتاج إلى تجديد، فما بيني وبين والدك أقوى من أن تفصم عراه، وأمتن من أن يناله الوهن والضعف، ما بيني وبين والدك لا يمكن أن يغيره شيء.

— لا شك في هذا، ولكن من شدة حرص الوالد أن تبقى هذه العلاقة بيننا، كان هذا ما يحوك في صدره.

: أنت بمكان والدك، أنت بمكان والدك يقول ذلك وهو يربت على كتف ماجد.

— هذا شيء مؤكد، ولكن كما تعرف الصداقة بين اثنين قد عرف كل واحد منهما صاحبه لفترة طويلة قد يحدث عليها شيء من التجديد سيما مع شاب حدث.

: لا يابني، لا تقل هذا، العود من تلك الشجرة.

— لكنني لست كأبي!!

: إنك بمكانة أبيك، مادمت على قيد الحياة، وأي شيء يخطر ببالك أو تحتاج إليه فكل ما أملك تحت تصرفك.

— سلمت يا أبا محمد، وأمد الله في عمرك.

: سوف نستمر علاقتنا مع بعضنا، وسوف تزداد صداقتنا رسوخاً إن شاء الله، وإن أردتم توسيع تجارتكم فيما مكاننا أن نمثلكم هنا.

— سلمك الله «يا عم» يقول ذلك بحكم عامل السن، وليس لدينا النية في التوسع إلى هذا الحد، بل نكتفي بما لدينا في بلدنا.

: سأذهب بك بعد أن تستريح عندنا أياماً في رحلة بحرية وسنمر في طريقنا على الموانئ المظلة على رأس الخليج العربي في بلاد فارس والعراق، وتستمعون برؤية البحر وترون الحياة في البحر، فهي نزهة تجارية.

— هذا شيء جميل.

: متى رأيت نفسك مرتاحاً يا بني قمنا بهذه الرحلة، وربما صادفنا في طريقنا نوعاً من ضروب التجارة تصلح عندكم.

— وهذا شيء طيب أيضاً. يقول ذلك من باب مجارات الشيخ.

: عليك أن تخبرني متى وجدت نفسك وقد أخذت قسطاً من الراحة.

* * *

ومضى اليوم الثاني من الضيافة بنفس حرارة اللقاء ولياقة المكانة، وقد حاول المضيف إضفاء جو من المرح ليغمر الضيف به وينسيه ما هو فيه من الحزن بفقد والده، ولذلك استمرت الجلسات والمسامرات حتى انتصف الليل، ثم تفرق الجميع، وقصد ماجد الفراش الذي أعد له فوق السطح ليتعرض لنسيم البحر العليل وبعد أن استقر في فراشه، وبدأ النوم يدغدغ جفنيه أحس بخيال أقبل إليه ظنه أحد الخدم وقد أحضر له شيئاً من الماء أو غيره، لكن ما إن اتضح له الرؤية على ضوء القمر حتى تبين أنها فتاة فارعة الطول ممشوقة القوام يحاكي محياها قمر الخامسة عشر المظل عليه من الشرق ويقترب من منتصف السماء، عند ذلك تظاهر بالنوم، وبدأ يرمقها بعينه عندما اقتربت منه ووقفت غير بعيد عنه إنه يشاهد دائرة وجهها، لكنه لا يرى تفاصيله، ولا يتبين الخلجات التي ترتسم عليه، لا يرى العيون وما ينعكس فيها من اللواعج والأحاسيس، لا يميز الثغر وما يتجسد عليه من التعابير والقسمات، وبقي صامتاً منمدداً على فراشه وكأنه يغط في نوم عميق، فخيّل إليها أنها لم تأت من قبل وجهه لعدم اتضاح الرؤية عندها بسبب ذلك الغطاء الأبيض الشفاف، فدارت حوله إلى الجهة المقابلة ووقفت في الجهة الثانية تبخلق بعينها عليها أن تستطلع الأمر وتستجلي الحقيقة، لكن ساورها الشك مرة أخرى فدارت مرة

ثانية إلى مكانها السابق، وهكذا كلما وقفت في مكان ظنت أنها على خطأ فانتقلت إلى غيره، تدور حوله عدة مرات وهو مشدود في فراشه لا يتحرك، يتحكم في أعصابه المشدودة أمام هذه الزائرة له في فراشه، وقد دار في ذهنه عدد من الرؤى وانهاالت عليه الأسئلة من نفسه، ترى من هذه الفتاة التي جاءت في هذه الليلة؟ أهى إحدى الخادومات اللاتي يعج بهن بيت مضيفه ذو المكانة المرموقة والعجاه العريض؟ جاءت إليه لترى ما إذا كان الجو حاراً لتحرك الهواء من حوله بمروحة الخوص؟ تقف بجانبه وتحرك الهواء بهذه المروحة حتى يبرد الجو ويغالبه النوم، أم تراها أرسلت من قبل سيدها لتستمع ما قد أبوح به من صدى تلك المواضيع التي طرفناها في جلستنا في ذلك اليوم؟ ولكن هذا القوام الرشيق والوجه البضاء والملابس الفاخرة ما كان لها أن تريدها خادمة، أتراها سيدة البيت؟ ولكنها بعمر الزهور، ليست سيدة بيت في قرب سن أبي محمد، أ تكون فتاة عروس تزوجها أبو محمد لتوه وهي في ريعان الشباب كما هي عادة التجار في مثل هذه السن يحب الواحد منهم أن يمتع نفسه؟ قد يكون.. ولكني لا أعلم عن هذا الموضوع، أتراها ابنته الوحيدة «سارة»؟ وفي هذه الحالة، فماذا تريد مني في الهزيع الأخير من الليل؟ إنني رجل غريب عليها أو لا يمكن أن تتجراً فتاة في مفاتحة رجل غريب قد حل ضيفاً على أبيها، قد تكون مخطئة في تخمينها ومجازفة في حدسها!! أتراني أكلمها لأعرف ما غايتها؟ لا، لا يمكن... احتراماً لنفسي وإكراماً لأبيها الذي أعده بمثابة والدي، وما دام أنها اعتقدت أنني نائم فسأظل على نفس الوضع، فإن أيقظتني تصرفت معها تصرفاً آخر، وإن ذهبت من نفسها فذلك ما كنت أريد، وبقيت تدور، وتدور علها ترى منه حركة تدل على يقظته لتطرح عليه التحية، لكنها لم تر شيئاً يدل على ما في نفسها فداخلها الوسواس، وتبادرت إلى ذهنها هذه التساؤلات، هل ستوقظه من مرقده؟ وإذا أيقظته فما هي ردة الفعل التي تتوقعها منه؟ هل سيرحب بها ويرد عليها التحية ويسمح لها بالجلوس بقربه؟ أم سينهرها بحكم وجوده ضيفاً على أبيها؟ وفي هذه الحالة قد يفتضح أمرها بين خدمها، سيما في هذا الوقت من الليل الذي هجع فيه

الناس، وخيم سكون عميق على البيوت بحيث يمكن أن تسمع رنة الإبرة لو سقطت على الأرض، وكيف لها أن تتغلب على هذا الصراع المحتدم في قلبها من العواطف المتأججة، والمحذورات الصارخة؟ هل ستقدم أم ستحجم؟ أخيراً قررت أن تبقى تترقب حركة يتحركها إثر لسعة بعوضة تسللت إليه من تحت الغطاء أو تخللت مع فتحات نسيجه، فجثمت على جسمه وغرست فيه خرطومها، لربما أيقظته من نومه، أو قد يتصبب العرق بتأثير الرطوبة والحر على أحد مراق جسمه فيحاول تخفيف هذا الإزعاج بالإنقلاب على الجزء الآخر من جسمه فيستيقظ وعندما يفتح عينيه يراها أمامه، ويأتي الكلام منه إليها، لكن هذه التوقعات ذهبت أدراج نسيمات البحر الباردة التي حملت البعوض بعيداً عنه ودغدغت مراق جسمه برقتها ولطافتها فلم يعد بالإمكان أن يتحرك ولا يستيقظ، وهكذا دارت حتى ملت وعادت من حيث أتت.

وتنفس ماجد الصعداء، بعد أن غادرت المكان، ولم يلبث طويلاً حتى داهم النوم جفنيه، فغط في سبات عميق لم ييقظه منه سوى أشعة الشمس اللاذعة المظلة عليه من الشرق، فاستيقظ فزعاً من تأخره عن أداء صلاة الفجر، حيث أسرع ليتوضأ ويؤديها، وكأن ما مر به البارحة خيال مارق، أو حلم ليل عابر، ومضى ذلك اليوم حسب البرنامج المرسوم له بزيارة الأسواق، والتعرف على معالم المدينة ونواحيها وزيارة بعض الوجهاء الذين دعوا المضيف وضيفه لتناول القهوة وفي المساء التالي عندما أوى إلى فراشه بنفس المكان، لم يمض طویل وقت حتى دنفت للمكان نفس الفتاة التي دارت حوله ليلة البارحة، فالتزم الهدوء والصمت كما فعل في الليلة السابقة، وهي في هذه الليلة أكثر أناقة وأجد لباساً، يفوح من أردانها بنة عطر خفيفة، ربما كانت من مثاني ملابسها عندما كانت معلقة في خزانها فوقفت إزاءه، حيث وجدته ملقى على سريره لا حراك فيه وتساءلت؛ هل نام بهذه السرعة؟ لقد أتيت مبكرة هذه الليلة لأتمسكن من وجوده مستيقظاً، لكنه لا حركة فيه، أترأه غط في هذه السرعة؟ لا أظن أن شاباً في مثل سنه وحيويته ينام بهذه السرعة مهما

متعباً، أتراه لم يأبه بي؟ ولم يلتفت لفتاة في عمر الورد تريد منه ردَّ التحية، تريد منه كلمة ينطق بها، لا تريد أكثر من كلمات مؤانسة، أسمع لحديثه ويسمع مني، البارحة لم تكن ملابسي كما ينبغي، فغفل عني أو تغافل، أما الليلة فقد لبست أجمل ما لدي من الملابس التي لم تر النور إلا في المناسبات العزيزة على نفسي، ومع هذا فلم أر ما يحرك شعوره نحوي، أتراه خجلاً مثل بعض الشباب الذين لا يستطيعون محادثة الجنس اللطيف من شدة الخجل؟ أم تراه استحي من امرأة غريبة تأتي إليه لتحديثه في مرقده؟ أم أخذته الشيمة والمروءة فتلاشى التحدث معي إحتراماً لكرم الضيافة الذي يغمره به والدي، وإجلالاً لقدر أبي؟ ولذلك لاذ بالصمت البارحة والليلة، فلم ينس بينت شفة!! وتعدى ذلك إلى التوقف عن الحركة تماماً، فلا يحرك أي جزء من جسمه، قد يتحمل لساعات البعوض ويتركه يمتص من جسمه ما يريد من الدم دون أن يتحرك، أم تراني، لم أعجبه؟ قد يكون هذا الاحتمال وارداً، فقد يكون من الرجال الذين لا يحبون الفراش الذي يتساقط على ضوء المصباح، بل يريدون المرأة المتمنعة التي تشمخ بأنفها وتبتعد عن الرجل فتجذبه إلى نفسها أشد الجذب، ولكن لا أظن ذلك، فأكثر الرجال ينجذبون للمرأة من بعيد، تجذبهم بزولها، بنظرة أطرافها، بلمحة وجهها، برائحة ثيابها، بمشيتها، بإيماعنها، بأي حركة من حركاتها، ولكن قد يكون من نفس القلة الرزينة التي لا يحركها أي من هذه الإغراءات، وقد يحسبني من تلك الخادومات اللواتي يمتلئ بهن قصرنا من مختلف الأشكال والألوان هاه!! قد يكون هذا الاحتمال وارد خاصة في ملابس الليلة الماضية، أما هذه الليلة فلا يوجد سيدة في مجتمعنا تملك مثل هذه الملابس فضلاً عن الخادومات، بالتأكيد أن هناك مانع قوي يمنعه من محادثتي، ولكن دعني انتظر حوله، فلعله أن ينفذ صبره ويسألني، أو يرمي إليَّ بأي كلمة، وبقيت على حالها تنتقل من مكان إلى آخر حول سرير، بينما هو قد شد أنفاسه، ولزم الصمت وهو يختلس النظرات إليها على ضوء القمر الخافت هذه الليلة، لكن رغم الضوء القمري الباهت إلا أنه رأى منها ما شد انتباهه وزاد من غليان مرَّجل عروقه، سيما تلك البنية الطيبة

التي تصافح أنفه كلما مرت من أمامه من جهة هبوب النسيم، ويرى في هذه الفراشة البيضاء التي تدور حوله، وقد تلقى نفسه فتحترق فوق ألسنة شعلته، وباحتراقها ما قد تنطفئ ذؤابة ضوئه، فهل يكلمها ليرى سر مجيئها إليه؟ إذ ربما جاءت إليه لغرض ثاني، قد تكون من تلك اللواتي يحبين من جاء من الأماكن المقدسة ويردن التبرك بالحديث إليهم، وقد تريد أن توصيني لأمر ديني، بحكم قربي من مسجد رسول الله ﷺ، فقد تكون من تلك الفئة التي إذا ارتكبت خطيئة وتريد الكفارة عنها توجب عليها أن تتصدق بكفارتها على فقراء الأماكن المقدسة، قد يكون هذا الاحتمال وارداً، لكن لو أرادت مثل هذا لأوصت لي أحداً، أو لوقفت لي بالممر المؤدي إلى فراشي، وسألني وهي متلفعة بردائها، أما أن تأتيني بفراشي بعد أن يهجع الناس فذلك ما أشك فيه، ويأخذ مني مأخذ الريبة إذا ما دام الأمر كذلك، فلا بد لي أن أصبر هذه الليلة، فإن تكرر منها هذا الموقف في ليلة قادمة تركت هذه المدينة وغادرت إلى بلدي قبل أن أقع في مشكلة أرباً بنفسي أن أكون أحد أطرافها، فدعها تدور حتى تمل وتذهب هذه الليلة كما ذهبت البارحة.

وبالفعل دارت حتى ملت وعادت من حيث قدمت، ومع انبلاج الصباح شعر ماجد بالراحة، وأمضى يومه ذاك مع مضيفه وفق ما رسم له وفي مساء اليوم الثالث حاول أن يطيل في مجلس السمر حتى انهرس الليل، ثم قام متثاقلاً إلى فراشه ولم يكد يأوي إليه حتى عادت إليه تلك الزائرة الجميلة وهي في هذه الليلة قد تأنقت أكثر من ذي قبل، وربما أراقت على ثيابها شيئاً من العطر لتلفت به نظر من تدور حوله، وقفت هذه الليلة غير بعيدة عنه، وهي جازمة بأنه لم ينم بعد، ولم تطل الوقوف أو الدوران حوله كما كانت تفعل في الليلتين الماضيتين وإنما اكتفت بمرتين أو ثلاث ثم رفعت طرفاً من الغطاء «الناموسية» ثم رمت بنفسها جالسة على منضدة موازية لفراشه وهي تقول:

— : السلام عليكم.

: وعليكم السلام.

- : حياك الله من ضيف كريم.
: وأبقاك.
- : حاولت هذه الليلة أن آتي إليك مبكرة قبل أن تنام.
: حياك الله.
- : أتعرف من أنا؟
: لا.
- : أنا سارة.
: سارة!!
- : نعم، إبنة رفيقك.
: أهلاً وسهلاً!!
- : وبك مثلها آلاف الآلاف، ولكن ذلك لا يكفي.
: هاه !! لا يكفي؟
- : نعم، إن هناك ما هو أعمق من هذه الجملة وأبعد غوراً في النفوس، وأشقى لما
في حنايا الصدور.
: لم أفهم ما تعنين؟
- : لست غيباً، ولكنك تتغابي؟
: أبدأ ، أبدأ، يقول ذلك بصوت مرتجف، لا خوفاً منها ولكن رهبة من الموقف،
وما قد يحدث عنه فيما لو سلك طريقاً نشازاً.
- : ما لصوتك قد تغير؟ لقد جئت لأحدثك حديث الموانسة حتى يغلبك النوم.
تقول ذلك لتطمئنه حتى يهدأ من الموقف الذي يتصور نفسه فيه وتذكر هي
أبعاده.
- : لا.. لا لم يحدث شيء. يقول ذلك بعد أن تنحنح وحاول تصنع صوت
طبيعي.
- : كن مطمئناً ياما جد، لقد جئت لك لتستأنس بحديثي بما قد يغسل من نفسك
أوضار الحزن، إن لم يكن في ذلك إزعاج لك، أو تنغيص عليك. تقول ذلك
لتشده إليها.

: على العكس فإنه لا يزعجني وجودك ولكن ..
— أدري... أدري ماذا ستقول، وأدرك ما أنت فيه من الحيرة ولكنني جئت لك لهدف نبيل.

: هدف نبيل !! يقول ذلك بنعمة حادة.
— نعم، لا يزعجك هذا الأمر، فلقد أعجبت بك خُلُقاً وخُلُقاً.
: أعجبت بي !!؟

— نعم، وأنت.. !! أما أعجبتك !!؟
: أجاب يتلعثم، لم أر وجهك إلا على ضوء القمر الخافت فلم تتضح لي معالمة.

— أما أعجبتك ما رأيت؟
: بلى.. بلى. يقول ذلك من باب المجاملة.
— ربما رأيته فيما بعد في غير هذه الليلة.
: هاه !! يقول ذلك بنعمة بلهاء.
— لن أطيل عليك هذه الليلة.. أستاذتك، سأتركك تنام ولنا لقاء آخر.

نقول ذلك وهي تسحب نفسها من تحت الغطاء تاركة رائحة عطرها يعبق بالمكان، منصرفة إلى شرفتها وغرفتها الخاصة في القصر، تاركة لماجد صدى هذا الحديث الذي يرن جرسه في مسامعه، محاولاً تقريب معناه إلى نفسه من شتى الزوايا ومن مختلف الأبعاد، ولكنه لم يصل إلى نقطة يركز عليها، حيث يجد المفاهيم التي تضمنها حديثها تسير مع مفاهيمه بخطتين متوازيتين لا يمكن أن يلتقيان في هذا الوقت بالذات.

ودارت في مخيلته هذه الأفكار، لأن أعجبت بي وأعجبت بها، فلا يمكن أن أخطبها من والدها في هذا الظرف بالذات، لقد جئت لرفيق والدي ورفيقي من بعده معزياً، فكيف يتسنى لي أن أطرق مثل هذا الباب، ولئن مكثت ليلة ثانية أو ليالٍ فربما جرني الحديث إلى أشياء غير مرغوبة، وقد يفتضح أمري،

وتصبح صداقة رفيقي في خبر كان، وهذا ما أحرص على اجتنابه، إنني أربأ
بنفسي عن مثل هذه الأمور الخطيرة، وبالذات إذا حدث مني في بيت صديقي
ووسط محارمه، فقد يكون للمجدران آذان تسمع ما يجري من حديث، وقد
يكون لها عيون أيضاً تبصر كل حركة من الحركات والسكنات، وبالكاد
أمضيت هذه الليالي الثلاث التي اتضح في آخرها ما تهدف إليه هذه الفتاة
من مجيئها إليّ، هاه!! قد يكون في تغيير مكان نومي إلى مكان آخر حل
للموضوع، قد يكون في الصالون الرئيس الذي ينام به أناس غيري قطعاً لدابر
هذا الأمر، لكن مضيبي قد اختار لي هذا المكان العالي حرصاً منه على
راحتي لأنام على نسيمات البحر اللطيفة أما في الصالون على ما أتوقع من
حماية فقد لا أستطيع النوم فيه من شدة الحر ونزف العرق الذي قد لا
أتحمّله، إننا أثناء جلوسنا فيه لا تكاد أيدينا تتوقف عن تحريك مروحة الخوص
حول وجوهنا وصدورنا، التماساً لنسيمات الهواء الباردة التي تحدث عند
تحريك المروحة، فكيف بالمرء إذا نام وليس عنده أحد يحرك المروحة من
حوله؟ لا شك أنه سينصب عرقاً مما سيظير عنه لذة النوم، بالإضافة إلى ما
سيبعثه هذا التصرف مني إن أنا طلبت ذلك من تساؤل المضيف عن
السبب!! قد يقول: لماذا عاف المكان الذي اخترته له والذي اعتبره مناسباً
لمكانته، واختار النوم بين هؤلاء الخدم وصخبهم وحركاتهم؟ إذاً، فالأفضل أن
أستأذن رفيقي بالسفر اعتباراً من الغد حتى وإن ألغيت بعض ارتباطاتي، هاه!!
هذا قرار قد يشير بعض التساؤلات عن سبب هذا السفر المفاجيء، وبهذه
السرعة، مهما كانت النتائج فهي أفضل من بقائي، حتى لا يشعر رفيقي بشيء
مما جرى، أو ما قد يجري، سأعتذر إليه بأن لدي أعمال تستدعي عودتي
بسرعة، نظراً لما أحدثته وفاة أبي من التزامات ينبغي أن أشرف عليها، وأمور
يجب أن أصفىها حتى لا يحدث اهتزاز لتجارتنا.

وهكذا ما إن أصبح الصباح حتى استأذن ماجد من مضيفه وصديقه،
ورغم تشدد المضيف وتشبثه به للبقاء مزيداً من الوقت وذلك لاستكمال بقية

الترتيبات التي أعدها له، لكنه استطاع إقناعه أن هذا سيكون في زيارة قادمة نظراً للظرف الذي يمر به الآن، فأعد العدة للسفر من يومه ذاك، وهكذا غادر ماجد مع رفاقه متجهين إلى بلدهم، تاركاً سارة بعد أن انقطع بيدها خيط الأمل الذي كانت تمسك بطرفه، حيث أضييت بالاكثاب وخيم عليها ضباب الحزن فملأ عليها القصر على سعة جنباته فتكاثف ظله وزادت ظلمته حين علمت بمغادرة الراكب فلم تستطع أن ترى ما أمام ناظرها، وما إن غادر ماجد البلد حتى انقشعت عن بصره تلك الغشاوة التي كانت تبرقع عينيه، وأحس بالراحة تغمر فؤاده، ولكنه ما إن ابتعد عن المكان حتى أحس بلواعج الشوق تعصف بقلبه كلما تصور ذلك اللقاء الخاطف الذي جرى بينه وبين سارة، ولا تلبث هذه اللواعج أن تغوص في أعماق أعماقه عندما يتخيل تلك الليالي التي بدأت فيها سارة تطوف حوله في فراشه، تقف عند رأسه تارة، وعند قدميه تارة أخرى، تقف أمامه حيناً ومن خلفه حيناً آخر، وبدأ يسرح في تفكير عميق وشروء ذهني، لاحظ عليه رفاقه في السفر، فهو على غير ما كان عليه في قدومهم من أهلهم، وعندما يسألونه عما به يعود إلى ذاكرته وكأنه قد أيقظ من نوم على حين غفلة منه، وظل هذا دأبه حتى وصل إلى أهله، وأصبحت سارة هاجسه الذي يشغل تفكيره، بحيث لا يفارق خيالها ناظره لحظة واحدة وجاشت الخواطر بين جوانحه، ولم يرد أن يبوح بسر له أحد حتى رفيقه والد الفتاة لم يرد أن يفاتحه في الموضوع حتى يعرف ما لدى الطرف الثاني الذي أوقعه في شراكه، أيكون حبها ومودتها له نابعة من صدق وعاطفة حقيقية أم يكون من ذلك الحب الذي تطرقه بعض العابثات بأفئدة الآخرين حتى إذا تورط في حبها انسلت منه كما تنسل الشعرة من العجين، أو بقيت تلعب بعواطفه تضرب بها هذا الجال تارة، والجال الآخر تارة أخرى، وأخيراً قرر أن يجس نبضها قبل أن يكلم والدها في الأمر، وذلك ليعرف حقيقتها، وكان هذا المقياس هي أبيات من الشعر ترمز إلى هذه العواطف، فاستدعي مندوبه «طوق» الذي يعتمد عليه في مثل هذه المهمات، وأرسل معه هذه الأبيات بعد أن أوعز إليه أن يتنكر إذا أتى بيت رفيقه، وأن يدور حول القصر وتحت

المقصورة التي تقيم فيها صاحبة الشأن وأن يبين طرف الورقة التي كتبت فيها الآيات حتى يأتيه من يأخذها من خادوماتها، وينتظر ردها على ما كتب، وهكذا نفذ المرسل ما كُلف به وأوصل هذه الآيات:

- ١٦٤- يَاطُوقُ يَا قَازِي عَلَى كُوزِ ضَامِرٍ تَبُوجُ الْفَيَافِي نَاحِلَاتِ خُذَائِمَةٍ
 ١٦٥- لَا سِرَّتَهَا يَاطُوقُ عَشْرَ كِوَامِلٍ وَطَالَغَتْ قَصْرَ الدَّعِيمِي عَلَائِمَةٍ
 ١٦٦- سَلَّمَ عَلَى قَصْرِ الدَّعِيمِي وَمِنْ بَهْ أَجَاوَيْدَ مَا دَاسُوا بَنَّا قَطْ لَا يَمَّةُ
 ١٦٧- سَلَّمَ عَدَدُ مَا هَلْ وَنَبْلٍ مِنَ الْحَيَا وَمَا لَا يَبِغُ الْقَفْصِي بَيْلٍ وَلَا يَمَّةُ
 ١٦٨- تَرْجِيهِمْ يَاطُوقُ كَالْتَقَرِّ بِالصَّفَا وَتَقَرَّ الصَّفَا مَا عَاذَ تَمْحَى رِسَائِمَةٍ
 ١٦٩- تَقَرَّ الصَّفَا لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ مَا نَجَلَى وَلَوْ جَا الْحَيَا مَا ضَيَّعَ أَلَمَا عَلَائِمَةٍ

وسار «طوق» بهذه الرسالة الشعرية إلى ديار الحبيبة التي جافى النوم جفنيها، وانصرفت نفسها عن الأكل والشرب منذ أن غادر ماجد المكان، فبقيت طعاماً للهواجس والأوهام حتى نشأت حالها، وبان النحول على جسمها، وأصيب أبوها بالقلق إزاءها فأحضر الأطباء لعلاجها، وبينما هي تتقرب وتقول في نفسها إن ماجداً ربما يزورها أو يرسل لها رسولاً أو رسالة، ولعل في هذا ما يطفئ غليلها ويروي ظمأها إذ من المستبعد من شاب مترف كما جدد، قد تربى في رغد من العيش ونعيم الحياة لا يشغف قلبه حب فتاة جميلة مثلها ولو حتى من باب العبث، ولو كان من الشباب العاشقين غير العابثين بنتائج الأمور لاستغل هذه الفرصة السانحة منها، لكنه من الرجال الذين يقدرّون مواقع أقدامهم، ونتائج أعمالهم، ولذلك فلا بد أن يرف قلبه إليها، وظلت تتقرب بنفسها، ثم أوصت إحدى خادوماتها ألا تغفل عن الإطلال من شرفة القصر لترى ما إذا كان هناك قادم أو مسافر وأناخ مطينه عند بيت أبيها ودخل في مضافته فتسرع هذه الخادمة إلى تحسس وتشمم أخبار هذا الوافد وتأتي سيدتها بأخباره؛ وذات ضحى أطلت من الشرفة كعادتها، فرأت رجلاً يسير في ظلال القصر روحه وجيئة ويده ورقة قد بان طرفها، فأسرعت إلى سيدتها تخبرها الخبر، حيث أمرت هذه على الفور أن تذهب إليه وتحضر الورقة التي معه، وتأمّره أن يعود إلى نفس المكان في ضحى اليوم الثاني ففعلت، وعند

عودتها أخبرت سيدتها أن هذا الرسول من ماجد ومعه هذا الخطاب ويريد له الرد، وفضت الخطاب وقرأت ما فيه من الآيات قراءة متأنية، اطلعت من خلالها على ما يمكنه لها من المودة والحب، وخاصة البيتين الأخيرين، فأخذت الدواة والقلم وخطت في ظهر الورقة الرد عليها، هذا الرد الذي يتمثل في الآيات الآتية:

- ١٧٠- يَاطُوقُ لَاجِئِ الْحَبِيبِ مَاجِدُ وَهُوَ بِالْمَعَادِي بَاقِيَاتٍ وَسَائِمَةٌ
 ١٧١- مِنْ هَابٍ وَزْدٍ أَلَمَّا صَدَرَ مِنْهُ مَا زَنَوَى لَوْ كَانَ بَالَمَا شَارِعَاتٍ كِطَائِمَةٌ
 ١٧٢- وَمِنْ كَثَرِ التَّصَدِيدِ عَمَّنْ يُودُّهُ عَلَى غَيْرِ بَعْضٍ مِخْطَرٍ مَا يَلَايِمُهُ
 ١٧٣- وَمِنْ بَاثٍ يَرْجِي بِالْقَسَى مَا ثِ بِالْقَسَى وَتَلْهِيهَ غَارَاتِ الصَّبَا عَنْ وَلَايِمَةٍ
 ١٧٤- عَشِيقَتِكَ وَأَنَا أَلِي كُلِّ شَيْخٍ يَقُولُ لِي لَا وَاهِنِي بِالْعِمْرِ مِنْ هُوَ يَلَايِمُهُ
 ١٧٥- مَلَاعِبِي وَلَدَ الْحَبِيبِ جَنَّةٌ وَلَا جَنَّةَ الدُّنْيَا لَحِيٌّ بَدَائِمَةٍ
 ١٧٦- رِنَحْكَ عَلَى جَنِينٍ وَطَرِيَاكَ فِي فَمِي وَرُؤْيَاكَ تَوْقِطِي وَلَوْ كُنْتُ نَائِمَةً
 ١٧٧- كَمْ لَيْلَةٍ بَنَّا وَوَشْ بَاثٍ بَيْنَنَا جِدَا الْخَيْفَ مَحْيِي بِالْأَيْدِي نِظَائِمَةٍ
 ١٧٨- أَقُومُ وَأَنَا أَطْهَرُ مِنْ خَمَامَاتِ مَكَّةَ وَالْأُ فَرَطُ ثُلُوى بِالْأَيْدِي خَزَائِمَةٍ

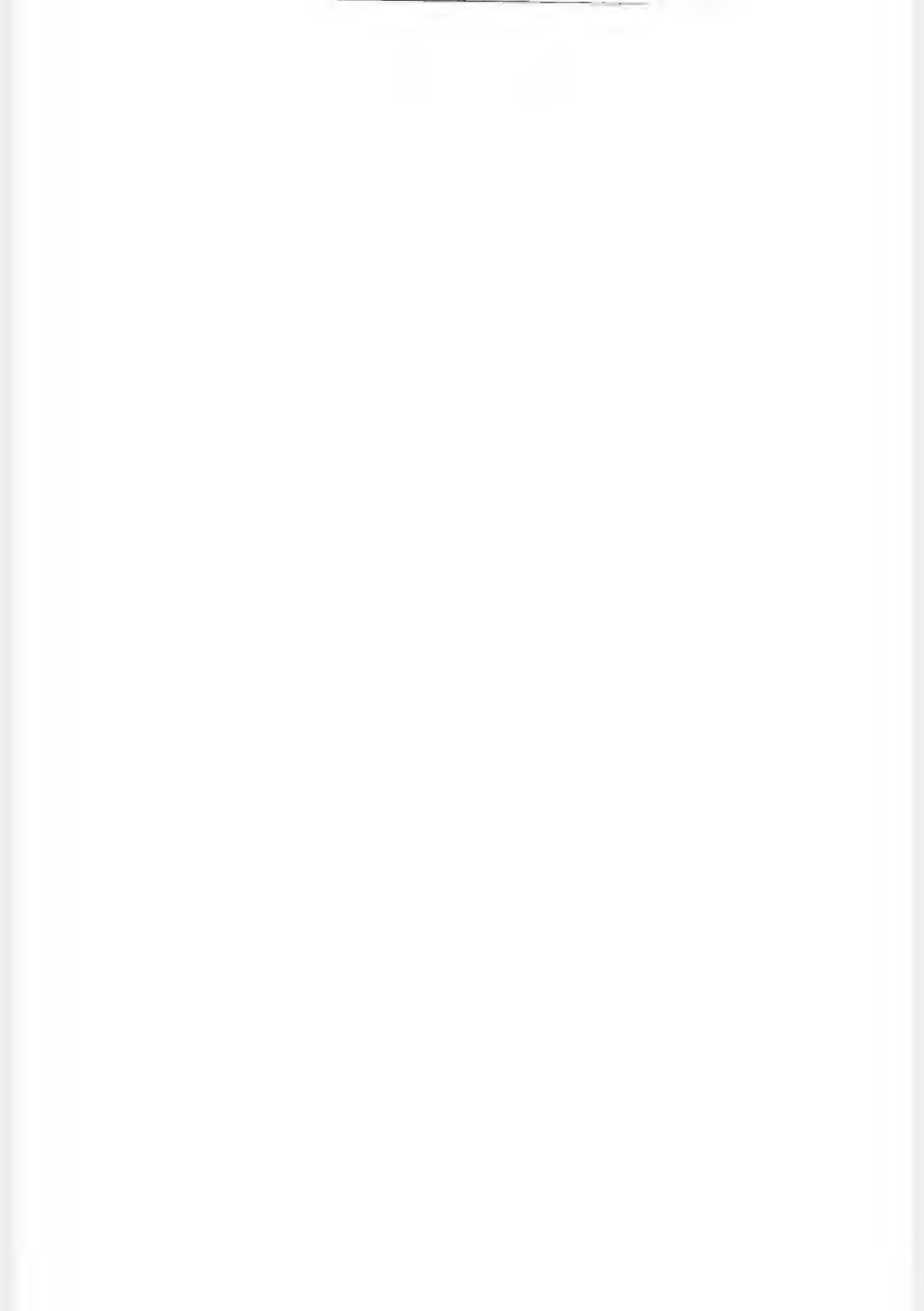
وفي الموعد المحدد سلمت الورقة لخادمتها لتسلمها بدورها إلى المندوب، وخرجت الخادمة تترقب مجيئه والورقة في يدها في هذا الوقت عاد الدعيمي إلى بيته من السوق لبعض شأنه فوجد الخادمة واقفة في ظلال القصر، فحاولت إخفاء الورقة عنه، لكنه لمحها من بعيد، وعند وصوله طلب منها الورقة، أسقط في يد الخادمة لكنها لم تستطع رفض ما طلبه سيدها، فناولته الورقة وقرأها واستوضحها عن الأمر فأعطته كامل التفاصيل، فطلب منها أن تخرجه عندما يأتي الرجل، ودخل إلى منزله ولم يطل وقت الانتظار حتى جاء الرسول، فطلبت إليه أن يدخل، فاستقبله صاحب المنزل وعرف منه تفاصيل ما جاء من أجله، فأوعز إليه أن يذهب إلى السوق ليجد هناك كاتباً يكتب له رسالة على لسان ماجد، يطلب فيها يد ابنته سارة وأن يأتي يوم الغد في وضح النهار وينبخ مطيته عند باب القصر لتكون إعلان الخطبة بهذا الوضوح، بينما أكد الدعيمي على خادمتة ألا يخرج منها أي كلمة تدل على هذا التصرف أو

ما جرى، وإلا فقدت حياتها.

خرج الرسول مسرعاً واتجه إلى مطيته التي أناخها في أحد أطراف البلد، ونفذ ما أمر به الدعي، وفي الغد شاع الخبر أن ماجداً قد أرسل رسولاً لخطبة ابنة الدعي، فما كان منه إلا أن أجاب ماجد بالقبول، وأنه لم يدخر ابنته ويمنع في زواجها ممن خطبها من وجهاء بلده وعِلية القوم فيها إلا لتكون من نصيب ابن صديقه.

وعاد الرسول بهذه النتيجة التي غمرت ماجد بالسعادة فأقبل مع مجموعة من رجاله بجهاز العروس، وفي ليلة مشهودة تم الزفاف، واجتمع هذا القلبان، وذابا في إطار واحد من المحبة والثام، وطفحا بالفرحة وحلقا يرفرفان في عالم المحبة الزوجية.

قصة رقم (٢٧)



الرفيق أولاً

ما كاد الصيف ينقضي ويدخل الخريف، حتى عَنَّتْ فكرة الغزو في ذهن «غُرَيْبٍ» وهو عقيد قومه، ولم يكد هذا النهم الطارىء يحرك في صدره حتى أدار تفكيره بمن حوله فوجدهم من أفراد عشيرته وقبيلته فتلا في غزوهم لأسباب قد تكون مروءته وحميته هي التي صدته عن ذلك لعدم تفريطه بأي من أفراد قبيلته من أجل بعير وما شابهه، وربما لحالة الهزال التي تحيط بأنعام أهل المنطقة التي يقيم فيها مع أفراد قبيلته فمدَّ نظره بعيداً حيث تعدى نطاق قبيلته إلى قبيلة مجاورة لديهم وفرة من المال، وإبلهم قد رعت أعشاب وحشائش الربيع وتراكم الشحم في سنمها، ورغم ما دونها من الرجال الشجعان الذين يحمونها إلا أنه صمم على أن يغزو هذه القبيلة.

فبدأ بجمع المعلومات عن هذا الهدف من أفواه الركبان، ولم يكتف بذلك، بل أرسل من رجاله من يسير له هذه القبيلة ليعطيه المعلومات الأكيدة عنها، ولم يطل الوقت حتى تجمعت لدى غريب ما أراد من معلومات، فالتفت إلى رفاقه من نقوة الرجال الذين يختارهم بنفسه لمصاحبتة في مثل هذه الغزوات، وكان ينتقيهم بعد التجربة الفعلية ثم يدرّبهم على فنون القتال التي يراها مناسبة لكل موقعة، بدأ في إعداد رفاقه هؤلاء، وكان من بين هؤلاء الرجال شاب شجاع في عنفوان الشباب وهو وحيد أمه، غير أن هذا الشاب لم يكن من أبناء عشيرته أو أي فرع من فروع قبيلته بل من قبيلة مجاورة، وقد صار من ضمن هذه «الْمَنْقِيَّة» أو الفئة المتفاعة التي اختارها غريب، وهو بحكم الجوار يعد من أفراد هذا القطيع منذ أن أنضم وأمه في حي غريب قبل سنوات، وبرّز على أقرانه من فتيان هذا الحي في محاولات الفتوة والفروسية والشجاعة وتألّق بينهم، فلذلك صار ضمن المختارين لتنفيذ هذه المهمة

التي يرى غريب أنها تحتاج إلى مجموعة من الرجال الذين يمتازون بسرعة الحركة، وقوة الشكيمة، وصرامة الإقدام، لأنهم سيغيرون على قوم في موطنهم، ويأخذون إبلهم، وربما داهموا أحياءهم، ولهذا فلا بد أن يحسب لكل موقف حسابه.

وبعد أن تجمعت المعلومات الكافية عن الهدف المقصود لم يخبر عقيد هذه المجموعة أحداً عن الوجهة التي يريدونها وحتى رفاقه مخافة أن يتسرب الخبر إلى الحي، فتسمعه آذان الشجر ومسامع الحجر وتنقله أفواه الركبان إلى الجهة المعنية، ففضل كتمان السر حتى يخرجوا ويبعدوا عن الناس ويتحدوا في مكان بعيد ثم يكشف لرفاقه خطته ويبين لهم هدفه.

أخذ الركب اتجاهها لا يمت بصلة إلى الوجهة التي يريدونها حقيقة متبعين موارد المياه يسرون مع حلول الظلام يسرون الليل بطوله تحت ستاره الكثيف حتى يصلوا إلى المكان الذي يريدون مع انبلاج نور الصباح، ينيخون مطيهم في مكان يقيهم حرارة الشمس وعيون المارة، ليستريحوا طول يومهم، حتى إذا دنت الشمس من مغربها تجهزوا للرحيل لاستئناف المسير، ولما ابتعدوا عن الأحياء وأصبحوا في دَوِّيَّة من الصحراء سلك بهم الطريق المقصود حتى شارفوا على مراع القوم، كشف لرفاقه عن هدفه، وبين لهم غايته، وأطلعهم على خطته الهجومية التي سيتبعها في الاستيلاء على إبل القوم، وكان يشرح لرفاقه هذه الخطة عند جلوسهم للراحة، حتى استوعبوها تماماً.

وفي الليلة التي كمنوا فيها قرب مراع نعم القوم، وفي جلسة لشرب القهوة قال أحد الرفاق موجهاً كلامه للعقيد :

— أترانا يا غُرَيْب سننال بغيتنا منهم؟

: بلا شك، إن شاء الله.

— أترى تخمينك صائباً؟

: لماذا تحاول التشكيك بخطواتنا يا راجي؟

- : لم يكن ما رميت إليه ولكن...
- : ماذا تريد أن تقول؟
- : لا شيء، لكن مهاجمة قوم في مواقعهم، وأخذ إبلهم من بين أيديهم ما يجعلني أنظر لهذا الموقف بإمعان.
- : هذا ما يميز ما سنقوم به من عمل على غيره.
- : لم أستوعب ما رميت إليه؟! :
- : أظنك تتغابي عن الأمر، وإلا فإنك تدرك ما أعني، فأنت تعرف ما نتميز به من مفاجآت ومباغطات خاطفة والوصول إلى هدفنا وانتزاع غنيمتنا بأقصى سرعة.
- : لا شك، ولكن بغير هذه الصورة.
- : أي صورة تعني؟
- : كوننا ننقض على هدفنا وهو لا يبعد عن المدافعين عنه بمسافة كافية تمنحنا فرصة حيازة غنيمتنا والذهاب بها بعيداً قبل أن يلحقنا الطلب شيء اعتدنا عليه، لكن أن نهجم على إبل قوم قرب مضارب بيوتهم وفي متناول فرسانهم بحيث تدركنا خيلهم قبل أن تأخذ مداها في الجري وبشوط واحد فهذا شيء به كثير من المغامرة.
- : مغامرة!!؟ يقول ذلك وهو يتحفز في جلسته.
- : نعم وخطر علينا.
- : ألا تعرف أنني أعشق المغامرات وأهيم في تجشم المخاطر فهي جزء من كياني وتختلط في لحمي ودمي. يقول ذلك باندفاع.
- : هذا شيء مسلم به، لكن مغامرة من مغامرة؟! :
- : ماذا تعني؟
- : بعض المغامرات موت محقق، وبعضها فيه احتمال الهزيمة أو النصر.
- : هذه الأخيرة لا تسمى مغامرة، فالمغامرة في نظري ما يحتمل فيها الموت المحقق أو النصر المؤزر.
- : يعني مثلما سنقدم عليه!! يقول ذلك بصوت مجرور.

- : بالضبط. يقول ذلك بنعمة من وجد ضالته.
- : ألا ترى أن تربيث قليلاً حتى تعزب إبلهم وتبعد عن بيوتهم، بحيث نأخذها إذا ابتعدت عن البيوت؟
- : ومتى سنتظر حتى تعزب إبلهم؟
- : كلها يوم أو يومان، وتصدر الإبل بعد أن ترتوي لتسرح إلى مرعاها ونفتفي أثرها فنأخذها من هناك.
- : حتى لو صدرت عن البيوت فإنها لن تبتعد عنهم كثيراً لأن مواردهم ليست بعيدة عن مراعيهم.
- : على الأقل تبعد عن مضاربهم بعض الشيء بحيث نتمكن من حماية ظهورنا منهم.
- : سنحمي ظهورنا ونحورنا منهم إن شاء الله حتى لو كنا في وسط جموعهم.
- : لا تقل هذا يا غريب فهم رجال شجعان دون حقوقهم.
- : ونحن دون غنيمتنا يا راجي. يقول ذلك بلهجة المندفع.
- : لا ينبغي الاستهانة بالرجال.
- : ومن قال لك هذا؟
- : ولكن ما نحن بصدده قد يدل على ذلك.
- : أبدأ، سنختطف غنيمتنا ونناري عن الأنظار.
- : يعني أنك مصر على هذا الأمر؟
- : بكل تأكيد. يقول ذلك بلهجة الواثق من نفسه.
- : أعانك الله يقول هذه الجملة بصوت مجرور.
- : مالي أسمع بصوتك نغمة التراخي؟
- : إنني معكم قلباً وقالباً، وما هذا الكلام الهامس بيني وبينك إلا محاولة طرح وجهة نظري، فلعلك أن تغير من خطتك وتتخذ بدلاً عنها، خطة يكون فيها المكسب أكثر من الخسارة.
- : ومتى رأيتني أحسب للخسائر حسابها؟ يقول ذلك بنبرة حادة.

— : هاه!! ما دام أنك مصر على هذا الأمر فتوكل على الله.
: وجم غُرْبٍ قليلاً ثم استأنف: ولكن ما هو الرأي البديل الذي تراه صائباً؟
— : استجمع راجي ذهنه من شروده ثم رد عليه: لو أردت أن تتبع رأيي لصار لك
خط آخر.

: ماذا تعني؟ يقول ذلك بنبرة متحفزة.
— : يبدو أنك غير مهياً لتقبل رأيي الآن مادمت في هذه الدرجة من غليان الدم
في عروقك.

: وهل تتوقع مني غير هذا الوضع؟
— : إذاً مادمت في هذه الحالة النفسية فلا داعي لطرح أي رأي جديد.
: إحتفظ برأيك لغير هذه المرة، سيكون له مكان في خطة قادمة. يقول ذلك
وهو يربت على كتفيه كنوع من الاسترضاء وامتصاص ما قد يترسب في
صدره من أشياء مكبوتة.

وهكذا انسحب راجي من الموقف وفي صدره ما فيه بما لا يستطيع التعبير
عنه سوى بالتمتمة غير المفهومة واتجه إلى مطيته المعقولة غير بعيد عنه،
فانحنى عليها يمرر يده على ظهرها الذي نزع الشداد عنه قبل قليل ليرى ما
إذا كان العرق قد جف عن متنيها ودفنها وغاربها ومردفها، هذه اللمسات
الحانية التي تحس بها الناقة وتجد لها أثراً يخفف عنها عناء المسير وجهد
المسافة، فبدأت تعبر عن ذلك تهمهم بحنين خفيف دلالة على سعادتها
بهذه اللمسات اللطيفة من صاحبها، عند ذلك دارت في مخيلته هذه
الأفكار: سبحان الله، حتى هذه البهائم تشعر بالسعادة إذا أحست من
الإنسان بالجانب اللين واللمسة الرحيمة، ولكن الإنسان نفسه قد يركب رأسه
إذا رأى من أخيه الإنسان هذا الجانب اللين، مما قد يشعر معه أنه موطن
ضعف، وتضييع فرصة سانحة كما يفعل عقيدنا الذي يريد أن يزج في رفاقه
المحدود عددهم في بحر متلاطم الأمواج من الرجال الذين لا يقلون عنا إقداماً
وجراً. وبالقرب من بيوتهم للاستيلاء على إبلهم وربما أخذ ممتلكاتهم،
بلاشك أنها مغامرة مهلكة مهما كانت فوائدها، لاشك أنه سيسقط منا عدد

من الرجال في مقابل الحصول على مجموعة من الإبل، لا أحد ينكر شجاعة عقيدنا وصرامته وإقدامه ولا أحد يشك في تصميم رفاقنا وتفانيهم في الوصول إلى غايتهم والحصول على غنيمتهم، ولكن أيضاً لا يخفى على أحد قوة الخصوم واستماتتهم في الدفاع عن أنفسهم، وممتلكاتهم، سيما أمام أناس قد غزوهם وهاجموهم في عقر دارهم وحاولوا انتزاع أغلى ما يملكون وهي الإبل، لهذا السبب فإنهم سيستميتون للدفاع عنها، فضلاً عن بيوتهم وكيانهم، وعقيدنا هداة الله، إذا أصر على شيء من الصعب ثنيه عن رأيه، وإلا ما الفرق بين أخذ هذه الإبل من قرب البيوت وأخذها عندما تكون سارحة في رأس مفلاها؟ في ذلك المكان قد لا يوجد معها سوى رعيانها البعيدين عن أهلهم، وفي حالة نجاة أحد منهم وعودته إلى أهله يستصرخ القوم، ومجيء الأفرع نكون قد قطعنا مرحلة من الطريق، أو بلغنا حد الأمان، أو على الأقل قد ربنا خطة معينة للدفاع عن الغنيمة، والفرق بين هذه الخطة وتلك هو انتظار أيام قلائل لتحين الفرصة ونكون بعيدين عن الأنظار، أما ما يرمي إليه عقيدنا فهو الإقدام ولا شيء غيره، بصرف النظر عما يترتب على هذه الخطوة من مخاطر، إبه، هداة الله، إنه ينقض على خصومه كالسهم لا يشيه دون هدفه شيء، وطالما نجح في كثير من تلك الانقضاضات وعاد سالماً غانماً، ولكن حسب هجسى أنها تختلف عن هذه المرة، صحيح أنني لم أشترك معه إلا مرتين لكنها كانت بأوضاع مختلفة عما نحن فيه الآن، كنا نأتي الغنيمة على طرف وعن بعد معين عن أهلها، أما أن نأتيها في وسط أصحابها فهذا ما أشك في نجاحه، ويعتبر نجاحنا من الأمور الخارجة عن المألوف، لكن.. «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» وعسى الله أن يكتب ما فيه الخير، هذا هو يناديني... وربما عنت له فكرة جديدة.

وعندما وصل راجي إلى عقيد القوم، وجدهم قد التفتوا حوله يتلقون منه آخر التعليمات بشأن الإغارة في صباح الغد الباكر، وأمرح الرجال ليلتهم تلك غير

بعيدين عن الهدف ومع خيوط الفجر الأولى تحفزوا للانقضاض بعد أن أدوا صلاة الفجر جماعة، ولم تكذ أذواد الإبل تنقاد إلى مفلاها مع آخر غبشة الليل في ذلك الصباح الخريفي حتى أغار عليها غريب ورفاقه وصبحوا القوم، فاقطعوا من الإبل قطعة جزلة، إستاقها بعضهم، وتحفز البعض الآخر للدفاع عن رفاقهم ضد أي طلب يأتي إليهم من أهل الإبل، ولم يمض طويل وقت حتى ارتفع صريخ الرعاة فجاءت الأفراع على ظهور الخيل وأكوار النجائب، واشتبك المدافعون عن رفاقهم بالمدافعين عن إبلهم، وأدرك بعضهم من هرب بالإبل، فدافع عنها من معها، وبعد عراك طويل، وكرّ وفر تمكن أصحاب الإبل من استخلاص بعضها وبقي بعضها الآخر مع من حملوها من رفاق «غُريب» وبعد ساعات من الحولات الحامية بين المهاجمين والمدافعين وقد رأى المهاجمون أن إبلهم قد عاد جزء منها وهم يحسبون أن الذي عاد هو كل ما أخذ حصل منهم فتور في ملاحقة المهاجمين وتبعهم، بينما لحق غريب ومن نجا من رفاقه بربيعهم الذين معهم جزء من الإبل المقتطعة.

وبعد أن أمتوا على أنفسهم ومن معهم من الإبل نظر عقيد القوم إلى رفاقه وتفقدتهم فوجد غالبيتهم سالمين، واستقصى عن أخبار المفقودين فعلم أن بعضهم قد قتل بالتأكيد بشهادة من رأوه من رفاقه غير أنه لم يجد من يدلّه على رفيقهم «عبد الله» الذي ينتمي إلى قبيلة أخرى ورافقهم بحكم الجوار، وحاول الاستقصاء عن آخر المعلومات عنه فلم يعثر له على ما يدل على أنه من القتلى في ميدان المعركة، عند ذلك إسودت الدنيا بعيني غريب وضافت عليه الأرض بما رحبت، فصار يستجوب رفاقه واحداً واحداً عن آخر المعلومات عنه، وعندما لم يعثر على أي معلومات من رفاقه عزم على أن يبحث عنه بنفسه لعله أن يعثر على جثته مع رفاقه في ميدان المعركة، أو قد يجده أسيراً لدى القوم المهاجمين، واستراح رفاقه ليلتهم تلك، بينما إتكأ على كور مطينه، تتصارع الأفكار في ذهنه، وتساءل: أين ذهب رفيقنا؟ هل قتل مع من قتل من رفاقنا ولم يره أحد من الأحياء، فقد يكون سقط بجذع شجرة واختفى، أو قد يكون رآه أحد الذين قتلوا من بعده؟ هاه!! قد يكون أسيراً لدى

القوم؟ وفي هذه الحالة يعتبر تركه مسببة علينا، أن نترك رفيقنا أسيراً عند قوم آخرين وهذا ما يعتبر عيباً أيضاً، ألا نحتمي من يكون بجوارنا؟ ونذود عمن يلود بحمانا؟ آه!! لن يهجع لي جفن ولن أستريح في مكان ما لم أقف له على أثر، حتى لو كلف ذلك حياتي، ما الذي يستر وجهي من أمه؟ تلك العجوز الكبيرة التي هو وحيدها الباقي لها في هذه الحياة؟! ماذا أقول لها إذا جاءت تسأل عنه؟ هل أقول لها إنني وقفت على جثته مقتولاً في ميدان المعركة مع رفاقه في طلب الغنيمة، وهذا نصيبك من الغنيمة التي ذهب ثمنها حياة إبنك مع آخرين؟ هل أقول لها إنه أسير يرسف في قيود الأسر ينتظر من يفك إسناره ويعيده إليها؟ أم أقول لها إنه ضاع ولم يعثر له على أثر؟ سيكون سؤالها بالطبع: لم يعرف عنك يا غريب أنك تضيع رفاقك فلماذا ضيعت ولدي بالذات؟ لأنه ليس من أفراد قبيلتك ولذلك أهملته ولم توله اهتمامك؟ لِمَ لَمْ تقف على جثته ولم تعد به سالماً أو جريحاً؟ قد يحلو للبعض أن يكذب على مثل هذه العجوز فيقول لها: إن ابنها قتل دون أن يتأكد من ذلك، ولو فرضنا أننا سلطنا هذا المسلك، وقلنا لها هذا الكلام وبعد أيام أو شهور عاد إليها ابنها سالماً، أو علم بأنه أسير على قيد الحياة، ما الذي يستر وجهي منها أمام الله وأمام أفراد قبيلتي والناس جميعاً؟ بالتأكيد سوف تنتزع الثقة مني ومن كلامي، لن يبقى هناك من يثق بأي كلام أقوله، وقد تكون مغيرة علي وعلى قبيلتي، سيما وأنه من قبيلة مجاورة، بيننا وبينهم احتكاك دائم بحكم الجوار، ماذا يكون موقفني لو عبروني بأنني مضيع رفيقه؟ هل لي أن أنكر ذلك؟ بالطبع لا، لا لن يلذ لي طعم أو ينام لي جفن أو يرتاح لي بال حتى أقف على حقيقة هذا الشاب، حتى ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا الأمر، سأعود من مكاني هذا، سأخبر رفاقي بأن يعودوا إلى أهلهم بما معهم وأرجع أنا إلى القوم، نعم سأعود، بلا شك أنها مغامرة خطيرة ولكن لابد منها، ماذا تراهم فاعلون بي لو عثروا عليّ وأمسكوني؟ رجل هاجمهم في عقر دارهم وتسبب في قتل بعض رجالهم وجرح البعض الآخر وأخذ جزء من إبلهم ماذا تراهم يفعلون به لو أمسكوه؟ لا شك أنهم سيقطعونه إرباً إرباً، ولكن حتى لو حصل لي هذا فهو أهون علي من

أن أعود إلى عشيرتي دون أن يكون معي رفيقي المفقود، وربما أنجاني الله من كل سوء لحرصني على رفيقي، هاه!! سأقترب من الحي حتى إذا هجع الناس تسللت بنفسني إلى بيت رئيسهم وحاولت أن آكل من بيته أي شيء أو أشرب أي شراب، وهذا في عرف العرب كفيل بأن يمنعهم من قتلي مادمت عندهم ثم يمنحوني ثلاثة أيام بعد ذلك وهي «المُهَرَّبَاتُ» لو عثروا عليَّ بعد ذلك وهم عازمون على قتلي قتلوني، ومادام هناك هذه الحماية العرفية فسوف أستفيد منها فلعلي أذوق ملح القوم قبل أن يعثر عليَّ أحد فأعرف آخر الأخبار عن رفيقي إن كان حياً أسيراً عندهم فككت إساره حتى لو أبقيت نفسي مكانه، وإن كان ميتاً عرفت ذلك منهم، إذاً سأبلغ رفاقي الآن وأعود من مكاني هذا على مطيتي حتى إذا اقتربت من نزلهم كمنت حتى يحل الظلام وأنفذ خطتي.

ثم نهض من مكانه وأبلغ رفاقه أنه سيعود للبحث عن رفيقه، ورغم محاولات رفاقه أن يعودوا معه، أو يعود معه إثنان أو واحد منهم إلا أنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وطلب منهم الاستمرار في طريقهم إلى أهلهم، وسوف يلحق بهم بعد أن ينهي مهمته ثم غادر مكان رفاقه من ساعته عائداً إلى حيث يريد. إقترب من مضارب القوم، واختبأ في مكان لا يراه أحد أمام بيت رئيس القبيلة الذي أوقد النار وتجمع حولها الرجال حتى إذا جنَّ الليل اقترب أكثر فأكثر وأشرف على ربوة غير بعيدة عن البيوت حتى إنه ليكاد يسمع لغط الرجال ورغاء الإبل وثغاء الخنم، وبقي ينتظر حتى انهرس الليل، بقي يحدث نفسه: أتراني أصل إلى هدفي وأجد رفيقي أو الخبر اليقين عنه؟ أم أن هذه الليلة هي آخر ليلة لي في هذه الحياة الدنيا؟ أتراني كمن نقل حتفه على كتفه؟ أو من يسعى إلى الهيجاء بدون سلاح؟ أيّا كانت النتائج فلن ينال الإنسان إلا ما كتب له في جبينه، إن كانت هذه آخر ليلة من حياتي فقد بلغت ما في نفسي أن أموت دون العار، ويقال أنه فادى بنفسه في سبيل إنقاذ رفيقه، أو الوقوف على أثره، وإن نجاني الله ووصلت إلى غايتي فذلك ما كنت أطلب، ولكن أتراني أنجو

من القوم بعد أن أخذت بعض إبلهم وأفزعت قطينهم وتسببت في قتل رجالهم؟ إن وصلت إلى بيت شيخهم «حديثة الخريشا» قبل أن يعترضني أحد وطعمت في بيته فقد نجوت، ذلك لأنهم عرب ويعرفون تقاليد العرب وأعرافهم. وإن إعترضني أحد وتغلب عليّ قبل أن أصل إليه فربما كانت هذه الليلة هي آخر ليلة في حياتي، لكن أترى يعترضني أحد في هذا الوقت من الليل؟ لا يستبعد ذلك لأنهم لا يزالون في وقت فزع، فالغارة كانت عليهم صباح هذا اليوم، ولا يمكن أن يناموا بهذه السرعة فيتركون بيوتهم بدون حراسة على الأقل لبضعة أيام، هذا احتمال وارد وقد يكون هناك احتمال آخر، وهو أن فرسانهم ورجالهم منهم الجريح والمتعب بعد غارة اليوم وقد لا يعبأون بالحراسة الليلية، سيما وأنهم موقنون أنه لا يمكن مدهمة حيهم من غزو تحت ستار الليل، فالمتعارف عليه أن الغزو لا يكون إلا في الصباح الباكر أو في وضح النهار، أما في الليل فلم يعتد العرب أن يدهمهم غزو في هذا الوقت مهما كانت درجة العداء بين الفريقين إلا ما ندر ولهذا فلن يحسبوا لذلك حسابه ولن يحرسوا مضاربهم في الليل، إنهم يعرفون إنه لن يقترب من البيوت في الليل سوى اللصوص أو من لهم غرض فردى ومثل هؤلاء فالكلاب كفيلة بطردهم أو على الأقل التنبيه إليهم، سأعفل مطيتي بمسبل هذا الرادي المنخفض، إيه!! وماذا أفعل بهذه الكلاب الشرسة حتى أتقي نباحها!! هاه!! سأخذ من التمر الذي بخرج المطية عدداً من الكعج فأرمي لكل كلب في كعجة من التمر يأكلها ويتلهى بها حتى أجتاز الطريق إلى غايتي، عسى أن تلهي هذه الكلاب وتسكت عن النباح، كأن القوم قد هجعوا!! أرى نار الأمير وقد خمدت، ويبدو أن السُّمَّار قد غادروا المكان لم أر أي بصيص نار في الحي، لقد أطبق السكون على الحي تماماً، حتى الكلاب التي كانت تنبح بين الحين والآخر يبدو أنها أحست ببرودة آخر الليل وخلدت إلى الراحة، لا شك، فنحن الآن في الثلث الأخير من الليل، لم يبق غير ساعة على تبشير الفجر، إذاً سأسبل حاملاً معي قطعاً من التمر وقطعاً من بقايا اللحم المشوي

التي بقيت معي من الليلة الماضية، ومعني بندقيتي وخنجري، قاتلك الله من
كلب عقور، لقد بدأ يهر من بعيد سأرمي إليه بقطعة التمر ووذرة من اللحم،
حسناً لقد التهمها وسكت وهاهو خلفي يحرك ذنبه منتظراً قطعة أخرى،
هاه!! لقد جاء الكلب الثاني، سأقذف إليه مثل سابقه، وأقذف للأول الذي
يتبعني الآن، لقد اقتربت من البيوت أكثر، هاه!! ما هذا الكلب الذي أسمع
ركضه على الأرض وكأنه ركض حصان، لقد وصلني.. لكنه هداً عندما رأى
أخويه يجريان خلفي إذاً إليه هذه القطعة الكبيرة من التمر وهذا العظم المنشم،
وهي آخر ما بيدي لعلمي أنجو من آخر ينفض عليّ الآن وليس معي ما أسكته
به، حسناً، لقد بقيت هذه الكلاب الثلاثة تتهاوش خلفي وتقفز متلاعببة طربة
وقد خدرتها قطع التمر وبقايا نشف اللحم المشوي التي لا تزال تتطعم بها،
الآن قد اقتربت من بيت الشيخ «حَدِيثَةُ» وكل شيء فيه هاديء، السكون يلف
القطين بكامله، لا تسمع أي نسمة ولا ترى أي شيء سوى جهام البيوت
والأنعام البارقة والرابضة في مرحها تحت ضوء النجوم الخافت المنعكس على
الأرض، لم يبق أمامي غير خطوات... هذه عِنَّة الحطب قرب موقد النار، هاه!!
هذا حضن من الحطب على النار، وهذا إناء كبير به مريس أقط، وهذه أول
عُرْفَة أشربها منه، سأفضل منه مادامت النار تشتعل في الحطب، الحمد لله
لقد ارتويت، هذه دلة القهوة ساخنة على النار، وهذا أول فنجان أشربه منها،
لقد ارتفع لهب النار في عنان السماء ومزق الظلام حول القطين، هؤلاء الرجال
وعلى رأسهم الأمير «حَدِيثَةُ» قد جاءوا مسرعين فزعين بسلاحهم رأوا فنجان
القهوة في يدي، وطاسة المريس التي قد شربت منها في يدي الأخرى، لم
يعرفوني لأول وهلة، لأنني ألف جزءاً من وجهي باللثام، وقف الأمير وقال في
لهجة حادة :

— : من أنت؟

: ضيف طرق حيكم بالليل وشرب من طعامكم وارتشف من قهوتكم.

— : عرف الأمير نبرات صوت غريب وأراد أن يتأكد: ولكن من هذا الضيف؟

: غُرُيبٌ. يقول ذلك بعد أن كشف اللثام عن وجهه.

- : غريب!! ماذا جاء بك؟؟ يقول ذلك بنبرة حادة.
- : جاء بي القدر، وها أنذا بين أيديكم، وفي متناول أقرب واحد منكم.
- : هل شربت من هذا الإناء؟
- : نعم، وشربت من هذه الدُّلَّة.
- : أنت في وجهي حتى أعرف مقصداك.
- : أيها الأمير، هذا عدونا وأوقعه الله بين أيدينا.
- يقول ذلك أحد رفاق الأمير.
- : قلت لكم إنه بوجهي ولن يمسه أحد بأي مكروه.
- : ولكنه قد فعل بنا ما فعل!!
- : أما تعرف عادات العرب!! إسكت يقول ذلك بنبرة حادة. ثم يستأنف:
- مالذي جاء بك يا غريب في هذا الوقت بالذات؟
- : جئت أبحث عن أحد رفاقي.
- : أحد رفاقك!! تبحث عنه عندنا!! يقول ذلك بلهجة المتغابي.
- : نعم، لم يكن ميتاً فيقبر ولا حياً فيذكر.
- : تفضل هنا، فليس مكانك أن تجلس قرب كانون النار مكان عامل القهوة، وإنما مكانك بجانبني على هذه الأريكة، تفضل، إجلس معزراً مكرماً وحدثني عن رفيقك.
- : آه!! رفيقي شاب جار لنا، ولم يكن من أفراد قبيلتنا ففقدناه ولم نقف له على جثة ولم نسمع عنه خبر، وهو وحيد أمه، وقد رافقنا في هذه الغزوة، ولم أستطع العودة مع بقية رفاقي دون أن يكون معنا أو نقف له على أثر.
- : أحد رفاقك!! أحد رفاقك!! يقول ذلك وكأنه يتذكر، ثم يستأنف قد يكون الشاب الأسمر مربوع القامة له جديلتان على صدره!!
- : نعم هو، بشرني... أين هو؟ يقول ذلك وهو يتحفز ويكاد أن يقفز من مكانه.
- : إنه سليم ومعافى. لقد أطلقنا صراحه عصر هذا اليوم.
- : أطلقتم صراحه!!
- : لقد وقع في أسر أحد فرساننا وبعد انتهاء المعركة عرفنا لهجته ولم نعلم أنه

رفيق لكم في بادئ الأمر، وإنما ظننا أنه قد صادته الشبكة مع إغارة الفرسان
واسمه على ما أظن «عبد الله الأركع» فقلت لرفاقي إن كان من رفاق غريب
فسوف يأتي بنفسه للبحث عنه، ثم استأذن منا فأذنا له.
: أين هو الآن؟

— : قيل لي أنه التحق بقافلة من العقيلات معهم إبل متجهين إلى الشام مروا بنا
عصر هذا اليوم.

: متجهين للشام!!! من أي طريق؟

— : لا ندري، ولكن يبدو أنها مع هذا الاتجاه. يقول ذلك وهو يشير بيده إلى
الطريق العام الذي يتجه للشام.

: استأذنكم في المسير.

— : أين تريد؟

: لألحق بهم وأدرك رفيقي.

— : إسرح هذه الليلة، وعند الصباح تذهب إلى بغيتك.

: لن أستريح أبداً حتى أظفر برفيقي.

— : أمرح هذه الليلة، وكل مطرود ملحق يقول ذلك بصوت مجرور.

: بل يجب أن أصل إلى رفيقي أولاً.

— : لن أسمح لك هذه الليلة لما أخشاه أن يقع لك من سوء وأنت في وجهي،

حتى إذا أصبح الصباح أذنا لك، ولتنقل حذرك بعد الثلاثة أيام.

: لا حول ولا قوة إلا بالله، أما تأذن لي هذه الليلة لعلّي أدركه قبل أن يبعد أو

يدخل الشام؟

— : لن يكون هذا، وستدركه في الطريق أو في الشام.

: آه... المشكلة إذا دخل الشام في أي المدن أجده؟

— : ستجده عاجلاً أم آجلاً. يقول حديثه هذه الجملة وكأنه يريد أن ينهي هذا

الحديث.

: الأمر لله!!

— : ولكن قل لي، ما الذي جعلك تتجراً وتدخل بيتي بعد أن جرى منك ما جرى؟

- : لأنني واثق أن أمامي أمير يقدر مواقف الرجال مهما جرى بينهم من المنازعات وما دار بينهم من المعارك.
- : أطرق الأمير بعد أن أطربته هذه الجملة ثم استأنف: حسناً فعلت، ولكن لو لم تتمكن من دخول بيتنا وتذوق ملحنا فربما لم تسلم من أحد رجالنا.
- : لقد حسبت لكل شيء حسابه، وقدرت لكل موقف قدره.
- : كيف وجدت رجالنا في الميدان؟
- : أشداء على حقهم، ألداء لخصمهم، صعبى المراس، شديدي العزم والباس.
- : كيف تجرأتم إذاً على مهاجمتنا؟
- : طلباً للغنيمة، وأنتم الموالون لنا، ونحن نحب مقارعة الخصوم الأقوياء، خير من اللجوء إلى خصوم ضعفاء.
- : إنك شديد الاعتداد بنفسك يا غريب حتى وأنت في هذا الموقف!!
- : الرجل لا يضعف أمام الرجال في أي ميدان يقف.
- : ولكنك في موقف فيه ما فيه؟!
- : أنا هنا أقف فوق أرض صلبة، وتحت مظلة ضافية، رافع الرأس، شامخ الأنف.
- : بلا شك، بلا شك، يقول ذلك محاولاً إنهاء هذا الحديث ثم يستأنف: أين تريد أن تنام؟
- : «الضيف ماله غير رأي المعازيب»!! . كما قال الشاعر.
- : جهزوا للأمير غريب فراشاً نظيفاً. هكذا أمر حديثه أحد رجاله.
- : هذا ما كنت آمله.
- : نم هانئاً، آمناً مطمئناً ما دمت في حمانا وتصبح على خير.
- : تلقى مثله.

» « «

إفترق الأميران وتبادرت إلى ذهن الأمير المضيف عدة خواطر عندما اضطجع في فراشه، حين تصور جرأة خصمه في مجيئه مقامراً بحياته للبحث عن أحد رفاقه هذا من جهة ومن جهة أخرى لقد حدث منه ما توقع، فقد

أخبر رفاقه قبل ساعات أن غريب سوف يأتي للبحث عن رفيقه الضائع وهذا ما حدث إيه، «حي والله هذا الجبين» من هذا البطل الشجاع الذي غامر بحياته للبحث عن رفيقه، هذا والله الذي يستحق أن يصاحبه الرجال، لا يترك أحداً من رفاقه إلا وقف له على أثر، أو وجد عنه خيراً مؤكداً، فإما أن يكون قد قتل في المعركة مع رفاقه، أو يكون قد سلم وتأكد من مكانه، فهو من عشيرة 'الشَّلْقَان' الذين اشتهروا بنقل رفيقهم الجريح لمسافة طويلة على أكتافهم وهم حفاة على أقدامهم في مهلكة من النفود، وهذا الغصن من تلك الشجرة، ولكن أترأه يعود من مكانه بعد أن علم أن رفيقه سليم وقد غادر هذا الحي قبل ساعات؟! لا أظنه كذلك، فهو عازم على مغادرة هذا الموضع ليصل إلى رفيقه فوق أي أرض وتحت أي سماء، لم يكتف الرجل بأخبار أهله وذويه أنه فقد من بين رفاقه أثناء المعركة ولم يقف له على خبر كما يفعل بعض عقداة الغزو، وإنما كلف نفسه عناء البحث وتجشم المخاطر في سبيله، لا شيء إلا أن يصل إلى حقيقة ثابتة عن رفيقه، وهذه إحدى السجايا التي يتميز بها العربي الصميم والمسلم الحق، إذا تجاوزنا عن الهدف الأساسي لهذه الغارات التي تقتضيها الظروف المعيشية القاسية، فنحن مثلهم نغير على الآخرين ويغيرون علينا كما فعل صاحبنا ورفاقه مع أن مثل هذا العمل لا يقره الإسلام ولكن «مجبر أخاك لا بطل» إيه!! أهم ما في هذا المقام موقف الرجل من رفيقه والبحث عنه حتى يقف له على أثر، ثم هذه الجرأة والإقدام الذي غامر به الرجل!! كيف يقتحم كيان قوم قد أغار عليهم بالأمس ونهب بعض إبلهم، وقتل بعض رجالهم؟ حيث لا يزال دم القتلى ساخناً لم يبرد بعد، ولم يقف النزيف من المكلوم بعد، ولا تزال الصدور تغلي عليه غيظاً وحنفاً؟! إذ يمكن أن يقتل من أدنى رجل في القبيلة، وربما نال هذا القاتل شهرة واسعة بين القبائل لقضائه على هذا العقيد الفذ، كما يشتهر بعض الناس منذ أقدم العصور، فما بالك لوظفر به أحد الرجال الشجعان فضلاً عن أن يدخل إلى بيت الأمير الذي يعتبر الحصن الحصين للقبيلة، والسد المنيع أمام أعدائها ولكن إذا عرفت مثل هذا الرجل فإنه يبطل العجب، ولا يبقى لأي افتراض

مجال من الاحتمال، فهو رجل مقدم له سطوات نافذة، وغارات مشهورة، ولا يستكثر منه مثل هذه المغامرة إيه!! والله لو لم يدخل بيتنا ويدوق ملحنا فلن يرى النور مرة أخرى، ولكن قدر الله وماشاء فعل. ثم داهم النوم جفنيه. أما غريب فقد بقي يتململ في فراشه وكأن ما تحت جنبه من أشواك القتاد العاسل، لا قطيفة من صنع العجم، بدأ يتقلب على جنبه في ساعات كانت الدقائق فيها تعدل الأيام يتربق انسلال خيوط الفجر، لتبدأ بتمزيق ستار الليل من الجهة الشرقية ليخف هذا الحمل الذي يجثم على صدره، فهو ينتظر في هذه الساعات الطويلة، وهو يتمنى لو أذن له شيخ القبيلة لينساب من حيث أتى حتى يصل إلى مطيته فيلوذ بكورها ولا تطلع الشمس إلا وقد قطع مسافة طويلة تمكنه من اللحاق برفيقه قبل أن يصل إلى الشام، ولكن هيهات فقد حيل بينه وبين ما يريد، فلم يأذن له رئيس هذه القبيلة التي ينتشر أفرادها على امتداد هذه الرقعة التي يتطلب قطعها بضعة أيام، ولهذا فقد يكون عرضة للخطر في هذه المسافة فيما لو خرج بدون إذن رئيس هذه القبيلة، ففضل أن يبقى عندهم يتحمل ثقل هذه الساعات التي ترحف على صدره بدقائقها التي تضاهي ثقل جلامد الصخر، ولسان حاله يقول: لماذا لم يسمح لي بالخروج، من توى لأذهب إلى غابتي؟ أترأه خائفاً عليّ بعد أن جعلني في وجهه وهو داخل بيته في مجموعة من الرجال؟ إن كان قصده الخوف، فلا يخف عليّ سأخلص نفسي ممن يتوقع أن يعترضوا طريقي، وسوف أصل إلى بغيتي دون إحراج له، ولكن ربما خشي أن يكون هناك عصابات يكمنون لي ويباغتونني على غفلة. بحيث لا أتمكن من مواجهتهم حين لم أحسب لهم حساباً، أما لو قابلوني وجهاً لوجه فلن يظفروا بأي مغنم، وقد تكون خشيته على نفسه من العار والمسبة، كيف ينال من رجل جعله في وجهه أي مكروه فضلاً عن أن يقتل، فتكون مسبة عليه وعبياً، وكما أنه يخشى العار فهو كذلك ربما أراد أن يكون إعلانه لهذا الموقف في صبيحة الغد أمام ملاء من الناس ليكون للخبر وقع أكبر في نطاق أفراد قبيلته وشهرة أوسع، بعد أن يتناقل الركبان الخبر لمختلف الاتجاهات، كل هذه الاحتمالات واردة، ولكن أين ترى رفيقي الآن؟ أين

ذهبت، «يَارَاغُ الْعَلْيَا»؟ هل سألحق بك قبل أن تدخل الشام وأعود بك إلى أمك؟ أم تراك تضيع داخل إحدى المدن الشامية ويتطلب البحث عنك مدة أطول حتى نصل إليك ونعود بك؟ إيه!! الله أعلم أين نجدك، ولكننا عازمون إن شاء الله ألا نعود إلا بك مهما كلف ذلك من مشاق الطريق، أو عناء البحث والحمد لله على ما قدر، هاه!! هذه تباشير أشعة الصباح قد انداحت من الشرق، وهذا مؤذن النباه يطلق صوته، الله أكبر، لقد أصبحنا.

وبعد صلاة الصبح اجتمع القوم في بيت شيخهم «حديثه» وتناولوا القهوة حيث أخبر غريب مضيفه أن مطيته معقولة من خلف تلك الراية على بعد معين عن البيوت حيث أرسل المضيف من يحضرها، وعند ذلك ودع غريب قائلاً له: أنت في وجهي ثلاثة أيام «المُهَرَّبَاتُ» من أفراد عشيرتي وبعدها عليك بأخذ حذرك، ولأذ غريب بكور مطيته أمام هذا الحشد من الرجال الذين ينحرقون على أخذ ثأرهم منه لولا دخوله تحت حماية وجاهة رئيسهم وانطلقت النجبية بصاحبها، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى أشرف على الخروج من أرض تلك القبيلة التي أغار عليهم بالأمس، وما كاد يخرج من نطاق تلك القبيلة حتى دخل في نطاق قبيلة أخرى قد تكون أشد من سابقتها، حيث أمسكوا له معابر الطريق الوحيد، ولم يوافقوا على مروره إلا بعد أن يدفع لهم إتاوة معينة من المال حيث قال له أحدهم :

— : من تكون أيها الراكب؟

: رجل من العرب.

— : نعلم ذلك، ولكن ألا تعرف أعرافنا؟

: لا، لا أعلم عنها شيئاً.

— : تعلم أن هذه أرضنا، ولا نسمح لأي إنسان يمر مع هذا الطريق إلا بعد دفع

مبلغ كذا من الجنيهاات الذهبية أو الريالات الفضية «الفرانسا».

: ولكنني لا أملك من هذا المبلغ شيئاً.

— : نأخذ بدل النقود هذه المطية.

: مطيتي؟! :

— : نعم، ونرد عليك ما يزيد من ثمنها.

: ولكنها مطيتي ولا يمكن أن أتنازل عنها، أو أقبل بها أي ثمن مهما كان، فهي التي ستقلني وتوصلني إلى غايتي... إنها جزء مني لا يمكن التنازل عنه.

— : مادامت غالية عليك لهذه الدرجة، نأخذ عنها البندقية.

: أوه... بندقيتي؟! :

— : نعم.

: ولكنها سلاحي الذي أدافع به عن نفسي، ولا يمكن التفريط بها لأي ظرف من الظروف.

— : أوه!! مادامت ناقتك غالية عندك، وبندقيتك عزيزة عليك فكيف تتصرف؟
: بالفعل إن أي منهما لا يمكن التفريط به.

— : وماذا معك غيرهما؟

: لا شيء، سوى هذا الخنجر.

— : دعه عنا، وعليك أن تدفع إما المطية أو البندقية.

: لن أتنازل عن أي منهما.

— : أخشى أن تفقد نفسك.

: نفسي!! إذا وصلت الأمور إلى النفس فليس دون الحلق غير اليدين.

— : إذا عد من حيث أتيت.

: لن يثني عن غايتي أحد.

— : وأين تريد.

: أريد الشام.

— : إذا أنت تاجر، ولابد أنك تملك من المال ما طلبناه.

: ليس لدي من المال سوى ما ينقذ حياتي من الهلاك.

— : لا يهمنا هذا، ولن تمر من هنا إلا بعد أن تدفع ما طلبناه.

: قلت لكم أنني لا أملك من المال شيئاً.

— : إذا أنت قطاع طرق.

: لست كذلك أيها الرجال، وإنما مررت من هنا لهدف نبيل. لأبحث عن أحد رفاقي الذين قد عبروا هذا الطريق مع أحد قوافل «عفيل».

— : هكذا يقول لنا حتى اللصوص الذين يمرون بنا، من أنهم يسعون لمساعي نبيلة وأهداف سامية.

: يختلف وضعي عنهم.

— : كل يدعي ما تقول.

اسمحوا لي أن أعبر هذه المرة، وإن عدت من هذا الطريق فسوف أدفع لكم ضعف ما تطلبون.

— : أوه قد مللنا من هذه الوعود، فلن تعبر هذا المضيق مالم تدفع ما طلبنا... وإلا...

: وإلا ماذا؟

— : ستفقد مطيتك أو بندقيتك.

: لن تؤخذ مني أي منهما مادامت بي نبضة من حياة.

— : وقد تفقد حياتك.

: عند ذلك لا يسعني إلا أن أقول «لا حول ولا قوة إلا بالله» يقول ذلك وهو يلكد مطيته لحثها على العبور.

— : قفز أحد الرجال وأمسك برسن مطيته وهو يقول: والله لن تعبر المضيق ونحن أحياء.

ترك غريب من أمسك بالمطية وصوب بندقيته للرجال الواقفين عن يمينه وشماله وقتل عدداً منهم وفر البقية ثم عاد على من أمسك بزمام المطية فأرداه قتيلاً وأرخص الزمام لمطيته ولكدها فانطلقت به تحت جناح الظلام وعلى دوي طلقات البندقية بين صفحات تلك الجبال وتردد صداه اجتمع الناس من أفراد القبيلة من أودية الجبال وتلاعها وشعابها، وما كاد هذا الحشد من الرجال يقرر متابعة الفاعل حتى كان غريب قد اجتاز المضيق الخطر الذي يمكن حجره فيه والسيطرة عليه وأفضى به الطريق إلى فساح من الأرض أدى به إلى شط الأمان.

* * *

واصل غريب ليله بنهاره على كور نجيبته حتى وصل الشام مبتدأ بمعان
ثم عمان والقدس وحيفا ويافا وغزة، ثم اتجه شرقاً إلى السويداء ودرعا ثم
دمشق. وبقي يتقصى أخبار رفيقه من مكان لآخر ومن مدينة إلى أخرى في
مدة زادت عن الشهر والنصف، وكلما جاء إلى مدينة أخبر أنه خرج منها قبل
يومين أو ثلاثة أيام، وربما يسبقه بيوم واحد، حتى إذا وصل إلى دمشق للمرة
الثانية وجد رفيقه قد غادرها لتوه مع قافلة إلى وجهة ثانية مما حذاه أن يلحق به
ويعيده من منتصف الطريق، وبعد هذه المتابعة المضنية أدرك رفيقه، وكان لهذه
المفاجأة وقع كبير في نفس المبحوث عنه عندما رأى مالم تصدقه عيناه،
فقال بصوت يمتزج فيه الانبهار بوقع المفاجأة.

— غريب!! هل حقيقة ما أرى!!؟

: نعم، كل الحقيقة.

— ما الذي جاء بك؟

: جئت أبحث عنك؟

— أنت تبحث عني؟

: نعم، كما ترى... أبحث عنك.

— عقيد قومه، غريب يبحث عن شاب مثلي!!؟

: هكذا تقتضي الشيمة والحمية للمحافظة على الرفاق.

— ولكنه من غير المتوقع أن تبحث عني بنفسك يا غريب!!

: لماذا؟

— لأنني لست من أفراد عشيرتك، أو قبيلتك.

: ولكنك رفيقي!!

— رفيقك!!

: نعم رفيقي ولو لم يكن من أفراد قبيلتي فإنني أحرص عليه حرصي على نفسي.

— ونعم العقيد، «تغشاك البيضاء» وترفرق لك البيضاء على كل مكان رفيع

ولكنك جشمت نفسك من العناء ما أنت في غنى عنه.

: لا تدرك الطائلات إلا بالتعب، ماذا أقول لأملك لوعدت بدونك؟

— : أمي !!

: أمك ربما جاءتني تتلهف عن أخبارك، ولسان حالها يردد قول الشاعر :

١٧٩ — لَأَزِمَ تَجِيكَ أُمُّهُ نَكْبَدُهُ لِوَاهِيْبِ تُبْكِي وَ مِنْ كَثْرِ أَلِيْكَاءِ مَائِدَارِيْ

١٨٠ — وَتَشْدُكَ بِاللَّيْلِ يَغْلَمُ السَّرَّ وَالْغَيْبِ وَنِزْنُ أَنْبِيِ الْأَلْبِيْ لَكَ رَفِيْقِيْ مُبَارِيْ

— : لكن أمي ليست كما قال الشاعر.

: لا تقل هذا، فالأم هي الأم، وشعورها نحو ابنها لا يختلف فحواه، وإن حصل

اختلاف في مظاهره.

— : لقد تكبدت عناء السفر ومخاطر الطريق من أجلي، فقد تسنمت ذروة الوفاء

مع الرجال الأوفياء.

: هذا جزء من الواجب، المهم أن تجهز نفسك لنعود هذا اليوم إلى أهلنا.

— : ولكنني لا أملك مطية تحملني.

: سأردفك معي على مطيتي.

— : أتحملنا معاً؟

: فيها بركة.

— : إذا سأشتري لوالدتي بعض الملابس من المدينة المجاورة.

: لا تتأخر.

وعاد غريب برفيقه على كور مطيته إلى أهله، وكان لهذا الحدث أثره البالغ في نفس رفيقه مما جعله يسرح في تفكير عميق عندما كان رديفاً لغريب ترقل بهما المطية فقال في نفسه : الله أكبر، هكذا يكون الوفاء!! رجل في هذا المقام عقيد رفاقه، يتعب نفسه للبحث عن رجل ممن انضم إليهم في هذه الغزوة مع أنه من غير أفراد عشيرته، ربما لو كان غير هذا الرجل لما أولى مثل هذا الأمر جل اهتمامه، إذ ربما بعث أحد رفاقه الآخرين للبحث عنه، وقد لا يبحث عنه إطلاقاً مثله مثل من قتل أو من لم يعثر له على أثر وما أكثرهم في مثل هذه الغزوات، أو حتى السفرات العادية، فما أكثر من يفقد ولا يوقف له على خبر، فيذهب وتطوى أخباره لكن هذا الرجل، الرجل بما تعنيه هذه

الكلمة لم تطاوعه نفسه أن يغضى عن رفيقه مثلما يغضى الكثيرون، فلا يأبه بتحسر أب أو تآوه أم أو نحيب زوجة أو صرخات أخت أو غيض أخ، لا يهمه ما يحدث من ذوي المفقود وإنما يترك تلك التفاعلات تمر من خلف أذنيه دون أي تأثير وتتعامى عنها عيناه وكأنه لم يرها، ويتجاهلها وجدانه فلا تجد لها مكاناً ترفرف فيه، أما رفيقي فقد حسب حساباً لسؤال والدتي عندما يعود مع رفاقه يحدون غنيمتهم من الإبل بعد أن سقط من رفاقهم من سقط في ميدان المعركة وفقد من فقد فيأتي ذروهم لسؤال عقيد القوم عن مصير أبنائهم أو إخوانهم، وفوق هذا دفعت به حميته وشهامته ومروءته للبحث عن رفيقه أو رفاقه لأنه يعتبرهم أمانة في عنقه حتى يعودوا إلى أهلهم. ولهذا السبب قطع هذه المسافات الطويلة متنقلاً بين هذه المدن فيما يقارب الشهرين بحثاً عني. يا الله!! إنني لا أكاد أصدق نفسي، أن عقيداً مثل غريب يبحث عن شاب مثلي ما كاد يفلت من قبضة من وقع في أيديهم حتى التحق بأول قافلة مرت بقربهم، حتى إذا وصل إلى أول مدينة بدأ يعمل راعياً لأذواد من الإبل، وأجيراً بصاحب هذه الأذواد المجلوبة من الإبل من مدينة لأخرى مقابل أجر معين، ولا تكاد تستقر قدمه في مدينة حتى ينتقل إلى أخرى وراء طلب الرزق، وما يدري أن صاحبه يتابعه باحثاً عنه في كل طريق يسلكه حتى عثر عليه في منتصف طريق جديد وأمسك به. يا الله!! كيف تحمل هذا الرجل هذه المهمة الصعبة، وفرط بزهو النصر لمن عاد مع رفاقه بغنيمة كسبوها، كيف لم يحسب لفرحة سكان الحي من عشيرته وقد عاد عقيدهم سالماً غانماً مع معظم رفاقه يحدون هذه الهجمة من الإبل؟ كيف فرط في مرقفه بنشوة الانتصار عندما يأخذ خزيرته من هذه الغنيمة ويقسم الباقي على رفاقه حسبما رآه من مواقفهم القتالية في ميدان المعركة؟ كيف استعاض عن هذا كله بالبحث الجاد عن واحد من رفاقه ومن قبيلة ثانية؟! وترك سبيل ذلك القلق يقرع قلوب رفاقه وأفراد عشيرته عن مصيره وربما جعلهم يتوقعون أن يكون أصيب بمكره، وربما لاقى في طريقه هذا من العوائق والمشاكل ما لم يخبرني عنه، وذلك بفعل أنفته وكبريائه، ولكنه بلا شك قد تعرض لمشاكل في طريقه،

هذا الطريق الذي سلكه لا يخلو من الصعاب والبلاوي وقد لمست ذلك بنفسي مع قوافل كبيرة، فكيف بمن جاء لوحده على كور مطيته، لا شك أنه مخاطر في نفسه، كل هذا فعله من أجلي!! من أجل والدني، لقد خشي أن يتحطم قلبها أمامه كما يتحطم الزجاج، بل ساقته حميته وأنفته ومروءته إلى البحث عني حتى وجدني، فجزاه الله أفضل الجزاء. هاه!! إنه يحاول إناخة مطيته ربما لتناول القهوة أو الغداء في هذا المضحى.

وهكذا استمر مسير هذه المطية الوحيدة براكبيها حوالي عشرين يوماً بلياليها حتى ثنت خفها في حي فريق غريب، عند ذلك عمت الفرحة الحي بكامله بعودة عقيدته ومعه رفيقه المفقود الذي فرحت به أمه وكاد يطير لها، فدوى خبر هذه العودة وتناقله الركبان في كل اتجاه.

* * *

ومضت السنون والشهور والأيام تطوي في عمر غريب وقواه، حتى أحس بالضعف ودنو أجله، وعند ذلك أحس من أعماقه بأنه يجب أن يتوجه إلى تلك الأماكن المقدسة ليقضي فيها بقية حياته فأمر ابنه «شولاح أو فرحان» بأن يصحبه إلى هناك وسار به من صباح اليوم الثاني وفي طريقهما مرّا على أمير المنطقة الذي حاول أن يثنيه عما عزم عليه وأن يوجهه إلى جهة فيها طبيب ربما عالجه لاستعادة صحته وبعض قواه التي فقدوها لكنه أصر على الذهاب إلى الأماكن المقدسة ووصل إلى المدينة السورة وقد أنهكت قواه وشعر بدنو أجله فقال لابنه :

— أي بني!! إن اختارني الله إلى جواره فلي طلب أرجو أن تنفذه.

: بعد عمر طويل يا أبي.

— الأعمار بيد الله يا بني، ولكن...

: ما هو مطلبك؟

— طلبي أن تزوج أختك وضحاء لمرضى الرفدى.

: لمرضى!!؟

— : نعم إذا وافقت على ذلك ونفذت هي رغبتى .

: ولكن لماذا هذا الرجل بالذات؟!

— : آه... لأننى وعدته إياها من قلبى، كان ذلك عندما كانت صغيرة.
: كيف؟

— : إه!! لذلك قصة قديمة يا بنى!! لقد كانت أختك طفلة صغيرة، وكان جالساً
عندى يتناول القهوة، فخرجت علينا من داخل البيت تبكي وإذا ملابسها رثة
ووجهها يحتاج إلى تنظيف كما هي حالة بعض الأطفال عند استيقاظهم من
النوم فنهرتها وأمرتها أن تعود إلى أمها لتنظيف وجهها فزاد بكاءها فتناولها مرضى
وأقعدها في حجره يربت على كتفيها، يمسح دموعها يقبل وجنتيها كعادة
الواحد منا مع أي طفل يعطف عليه، ثم قال على سبيل المزاح: إذا كنتم لا
تريدون هذه البنت فأعطوني إياها زوجة لى. فقلت له «جك خذها» فقال
قبلتها وعليك إبقائها عندك حتى تكبر، فقلت له إنها من نصيبك ونويت بها له
منذ ذلك الحين، والآن كما تعرف فتاة في سن الزواج وهو شيخ قبيلته
وعقيدتها فهو كفؤ لها وهي كفؤ له وإن لم يكن من قبيلتنا.

: لا شك أنه رجل كفؤ ويستاهل، ولكن أخشى ألا توافق.

— : أعرض عليها رغبتى ولا أظنها ترفض لى طلباً فهي ابنتى وأعرفها.

: أبشر، أبشر يا أبى، هل هناك من وصية أخرى؟

— : أبدأ، لكن هذا الموضوع هو الذى يحوك فى خاطري فإن أحياني الله نفذته
بنفسي وإن اختارني الله إلى جواره فأرجو تنفيذه من بعدى.
: ستم رغبتك إن شاء الله.

ولم تطل الحياة بغريب بجوار الرسول الكريم ﷺ حيث وافاه الأجل هناك
ودفن بالمدينة المنورة عام ١٣٥٤ هـ وعاد ابنه إلى أهله ينقل لهم العزاء بهذا
المصاب الأليم، وفي طريق عودته تراءت له الصور العديدة التي انعكسب فيها
مواقف الوفاء التي وقفها أبوه إزاء من اقتربوا منه أو احتكوا به من أقاربه أو
أصحابه أو حتى رفاق سفره، الله أكبر، رحمك الله يا أبى ما أوفاك!! ما أشد

تعلقك بالوفاء حتى الرمق الأخير، لقد وفيت لكل من ربطه بك أدنى سبب،
وها أنت الآن تضيف موقفاً آخر من مواقف الوفاء، إنها النية التي قطعها قلبك
حينما كانت تلك الطفلة في حالة بكاء بعد النوم وقد تناثرت دموعها على
وجنتيها، فأشفق عليها ذلك الرجل الجالس عندك كما يشفق أي واحد منا
على طفل يراه يبكي بينا أبوه أو أمه تعتبر هذا التمتع من إظهار العطف عليه
نوعاً من التأديب أو التأنيب في إطار التربية العامة، غير أن ذلك الرجل قد
أخذها بعصدها ومسح دموعها وأجلسها في حجره أو بقربه وقال كلمة لا
يقصد بها شيئاً «زوجني إياها» فكانت تلك الإجابة العفوية، هي لك صحيح
أنها كانت من طرف اللسان وتفهم عند الكثير من الناس بأنها لا معنى لها،
سيما والصبية في تلك السن، لكنها عند أبي لها ألف معنى ومعنى، لقد
أخبرني أنه جزم بقلبه أن يعطيه إياها زوجة له عندما تكبر وتشب سيما وأنه
رجل كريم وشيخ عشيرته، وهي بمكانة لا تقبل عن مكانته، إذاً فكل واحد
كفو للآخر، عدا فارق السن الذي يتم التغلب عليه في معظم الأحيان، إيه!!
لعلها أن توافق على هذه الخطوة، ستوافق بدون شك، آه... لا أظنها سترفض
رغبة أبي مهما تحملت في سبيل ذلك، إن لأبي مكانته في نفسها، لا يمكن
أن ترفض له أي طلب.

هكذا الوفاء والمحافظة على الكلمة، رحمك الله يا أبي، أين أنت من
أولئك الناس الذين لا تثق بكلامهم ولا حتى ليوم واحد أو ساعة واحدة وربما
لحظات؟! كلمة قلتها قبل ما يزيد على خمسة عشرة سنة مضت ولا تزال
تحتفظ بها حتى الآن، نعم إنها كلمة صادرة من القلب ولا بد أن تقع في
مكانها في القلب، وما دامت هذه الرغبة قد نقلتها إلى فستكون بإذن الله بيد
أمانة حفية على تنفيذ هذه الرغبة وستكون ابنتك وكريماتك أشد حرصاً على
تنفيذ رغبتك. لكن لا ندري ما رأي الجانب الآخر الذي هو الزوج، فقد
تكون لديه وجهة نظر أخرى؟! قد لا تكون لديه الرغبة في الزواج إما لفارق
السن بينه وبينها، أو شعوره بأن مثل هذا الزواج في غير محله سيما بعد وفاة

أبيها، أو شعوره بأن قبولها به ربما كان تابعاً من تنفيذ وصية أبيها، فربما لأجل هذه الأسباب أو غيرها لا يتم هذا الزواج، لكن المهم تنفيذ هذه الوصية فإن قبلها وإلا فالنية التي قطعها والدي على نفسه قد نفذت وانتهى الأمر، ولا أعتقد أن الرجل بمكانته بين قومه أن يسيء إلى صديقه فيما يتعلق بإبنته مثل من يتزوجون ويطلقون أبداً، لا أظنه سيتخذ هذا الإجراء فهو أسمى ممن يفكرون بمثل هذه الأمور.

وتواردت في ذهنه الكثير من هذه الهواجس خلال المسافة التي قطعها إلى أهله برحلة استمرت نحواً من عشرين ليلة وعندما وصل إلى أهله، نقل لهم الخبر الأليم فضج البيت بل الحي بأكمله وخيم الحزن عليهم مدة من الزمن، وبعد أن انقشعت قتامة الحزن انتحي بأخته المعنية بالأمر وقال لها :

— : لقد أوصاني أبي وصية وأنت الطرف الفعال في تنفيذها.

: وصية!! أي وصية من أبي سأنفذها بكل دقة وبأسرع وقت.

— : إنها تتعلق بك شخصياً.

: تتعلق بي!! لم أفهم؟!

— : تتعلق بزواجك.

: أنا!!؟!

— : نعم أنت، لقد زوجك الشيخ «مرضى».

: الشيخ!!! الشيخ مرضى، لم يكن عندي خبر بذلك؟!

— : صحيح لم يكن عندك خبر، ولكن ذلك حدث عندما كنت صغيرة وقص عليها القصة.

: ما دام أبي قد نوى بهذا الأمر واعتبر تنفيذه وفاءً بوعده فلن أكون أقل وفاءً لأبي من أبي لرفيقه.

— : كثر الله خيرك يا أختاه. هذا ما كنت أتوقعه منك.

: لا فضل لي بذلك، فهذا مطلب من أبي لن أردّه حتى لو ترتب على ذلك حياتي كلها.

— : إذا سأخبره بالأمر وأنصرف.

: كما تريد.

— : وأملك؟!

: أمي... أمي... أنا كفيلة بها.

— : هل أنت متأكدة؟

: بلا شك، وهي الأخرى لا تقل وفاء لزوجها من أن توافق على ما طلب منا.

— : قد يكون لها رأي آخر، كأن تقول إنه رجل كبير أو من غير قبيلتنا وما إلى ذلك من الأعذار.

: ليست أمي من هذا النوع.

— : وقد تكون نوت أن تزوجك أحد أبناء أخيها.

: لن يحول ذلك دون تنفيذ وصية أبي.

— : إذا أبدأ على بركة الله.

: أنت وشأنك.

وأراد هذا الشاب أن تكون مفاجأة للشيخ بأن جهز أخته بما يلزمها

واصطحبها معه على مطيته حتى وصل إلى منزل ذلك الشيخ الذي رحب به

أجمل ترحيب واستقبله بكل حفاوة وحرارة، وعزاه في والده ورفيقه، وبقيت

الفتاة جالسة عند المطية عند ذلك قال الشيخ :

— : تفضل، تفضل في هذا المكان وأمر غلامه أن يصب القهوة ثم استأنف،

إسمح لرفيقة سفرك بأن تدخل إلى قسم النساء.

: عند ذلك قال الضيف هذه لا تحتاج من يدخلها البيت، إنها صاحبة البيت.

— : ظن الشيخ كلامه من باب المجاملة فقال: وإن يكن فهي غريبة عن البيت

ويجب أن تستقبل من أهله.

: وهي من أهل البيت أيضاً، ألا تعلم أنها زوجتك؟

— : زوجتي؟! يقول ذلك بدهشة.

: نعم إنها زوجتك، هذه أختي وضحاء وقد زوجك إياها، أبي وما عليك سوى عقد القران والدخول بها.

— : وينفس الدهشة قال الشيخ: إنها مقبولة، كريمة وبنت كرام، وهبة كريم، ولكن...

: سأروي لك وصية أبي.

— : وصية أبوك!!؟

: نعم، وقص عليه القصة.

— : عند ذلك تنهد الشيخ وجذب زفرة من أعماق قلبه، وقفزت الدموع من مقلتيه وأجهش بالبكاء وهو يردد حشرات بصدرة يتخللها كلمات «رحمك الله يا غريب، رحمك الله يا رمز الوفاء، رحمك الله يا رمز الرجولة والشهامة والشجاعة. والإقدام، وبعد أن إرفض الدمع من مقلتيه مسح ما على وجهه ولحيته من بقايا الدموع ثم استأنف، رحمك الله يا أعز الأصدقاء، لقد وصلتنى هديتك بيد أمينة وهي مقبولة وموفورة.

كان لهذا المشهد أثره البالغ بمن حضر المجلس فترحم الجميع على غريب.

: رحمك الله يا أبي، وأفسح لك في جناته.

— : وأطرق الشيخ سابحاً في ذكريات عميقة ثم قال: كان رحمه الله من صفوة الرجال البارزين برأيه وأفعاله، فلقد جاورت عرقته عن كذب في مدة غير قصيرة. هكذا الرجال يا أبا فلان.

— : ولكن أباك رحمه الله يختلف عن الكثير من الرجال في خصاله الحميدة وخلاله الطيبة.

: لا عليك «زود» يا أبا فلان.

وقدم الشيخ من الحفاوة والتكريم ما يليق بالضيف، وأرسل على عجل في تلك الليلة من يأتي بالكساوي وتجهيزات العروس وقبل الصبح كان كل شيء جاهزاً، وبعد قهوة الصباح وتناول طعام الإفطار قال الشيخ: هذا الجمل

المجهز بهودجه وتلك الأحمال من الأطعمة والكساوي، وهذا الذود من الإبل مهراً لفلانة خذوها عاتدين لأهلكم تصحبكم السلامة، فلقد وفي رفيقي رحمه الله ووفيتهم من بعده بما أوصاكم به، ووصلتنا مبرته وهي مقبولة وموفورة ستر الله علينا وعليكم، وقد يكون أحد أبناء عمها من الشباب أكثر مناسبة لها من شيخ مثلي، فأستودعكم الله وفقكم الله لما يحب.

كانت هذه الكلمات الأخيرة مع قبلات الوداع التي تبودلت بين الشيخ وضيغه حينما كانت تساق الإبل بأحمالها والذود يسوقه راعيه أمام القافلة بينما أركبت الفتاة في هودجها وودعت القافلة المكان وتوارت عن الأنظار خلف الأفق.

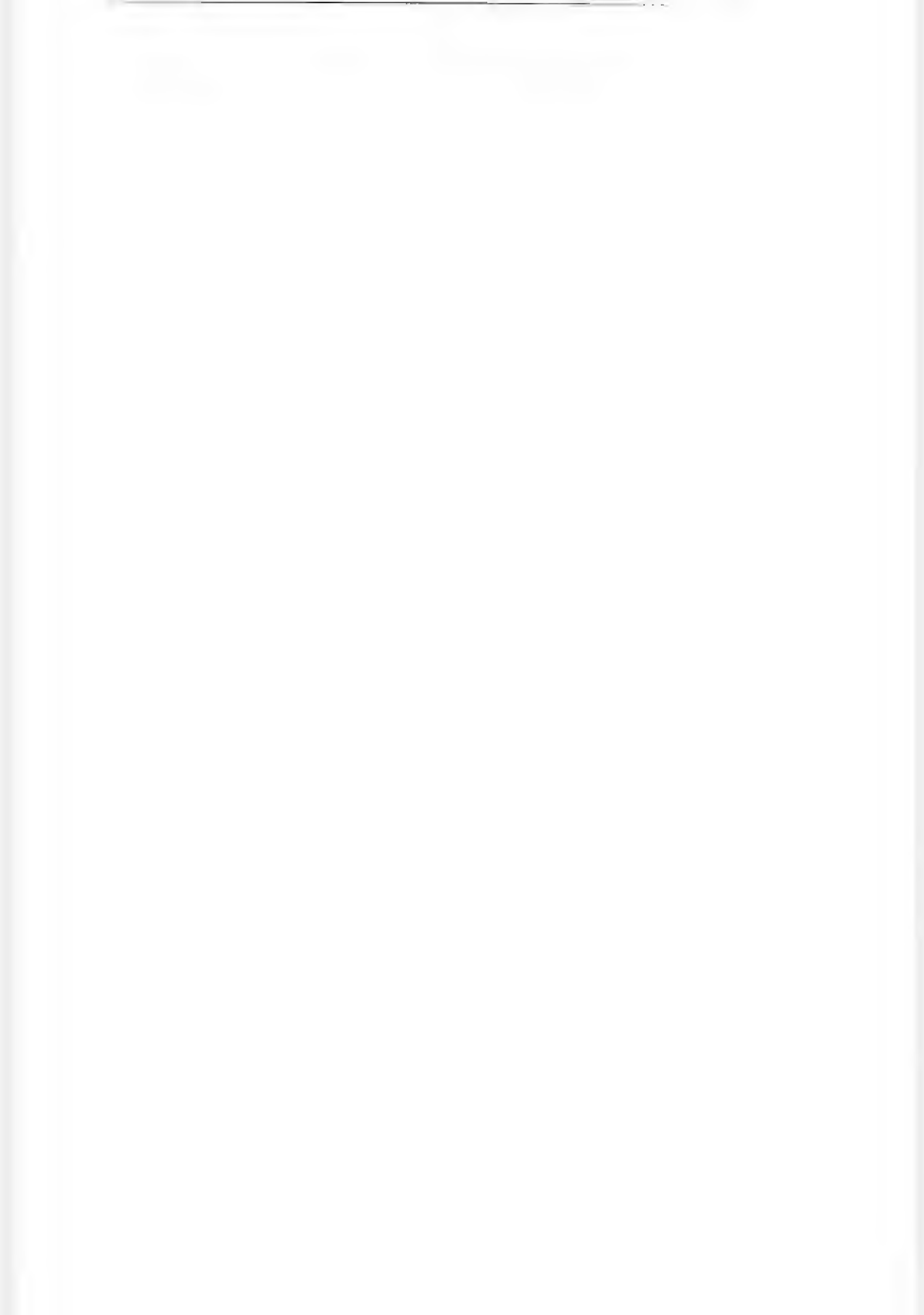
وتلفت الشاب يمنة ويسرة ومعه هؤلاء الرجال الذين يصاحبون الحملة، وساروا يومهم ذاك حتى إذا جن الليل أمرحوا وتناولوا عشاءهم واستمر سمرهم حتى قرب منتصف الليل حيث أخلد كل واحد إلى الراحة في فراشه، فنام خلئ البال غير أن الشاب ابن غريب لم يداهم جفنه النوم، فقد بقي طوال ليله يصارع أفكاره لقد أدبنا الواجب الذي علينا وينبغي أن نؤديه، وأخذت الرجل الشيمة والحمية من أن يعتبر مثل هذه المناسبة فرصة مؤاتية له، فمن ذا الذي يحصل له ابنة شيخ مقدم تأتيه بكل سهولة ويسر ومع هذا فإنه يؤثر الشيمة العربية على أي شيء آخر، يعيد العروس التي يتمناها الكثيرون، ولم يعدها خالية الوفاض، بل أسبغ عليها مما اعتبره مهراً مقدماً لها، وقد وفأها مهرها مثل مثيلاتها من كرائم القبائل ورؤساء العشائر، ها هو قد أعطاها ذوداً من الإبل، وهذا الكم من اللباس والهدايا وهذا العدد من الريالات الفضية «الفرانسية» إذاً لقد وفي الشيخ، وتجمّل، وأعادها إلى أهلها دون أن يراها إلا من بعيد مثقلة بالهدايا، فهو رجل كريم قدّر المعروف وقدر موقف رفيقه منه، وموقف الفتاة من تنفيذ وصية أبيها وتحقيق رغبته ولهذا فقد أهداها هذه الأشياء لا شك أنها تستاهل أكثر منها، ولكن في ذات الوقت فلن يكون أكرم منا نفساً وفعلاً، لن

يكون موقفه هذا أنبل من موقفنا، ولن يكون أكثر منا إثرةً، فهذا المال الذي دفعه إلينا بأي حق نأخذه منه، لا شك أنه شيخ كريم أعطى فجاد ولكن شيمتنا تأبى علينا أن نأخذ ماله، كما أبت مروءتنا أن نرده عليه في الحال، لما قد يحدثه ذلك من ردة فعل قد تترك انعكاساتها على نفسه ما تترك، لكن بعد أن هدأت نفسه في صباح هذا اليوم واطمأن إلى أننا قد أخذنا ما جادت به أريحيته، وكان مفاجأة لنا، فلا أقل من أن نفاجئته بإعادة ماله إليه موفوراً، ذلك ما تمليه عليّ شيمتي وأنفثني العربية سأعيد إليه ماله في الصباح الباكر مع رجاله، وأعود بأختي كما جئنا من أهلنا على كور مطيتنا، هذا ما عزمنا عليه وقررت في نفسي وسأنادي أختي وأبلغها قراري، ولكن هل تراها تقبل هذا الإجراء الذي رأيته؟ لا شك أنها تدرك الكثير من الأمور الصائبة وإن لم تدركها فسوف أقنعها تفتنح، عند ذلك قام من فراشه الغير بعيد عنها ونبهها من رقدتها وعرض عليها ما دار في صدره، وما يريد اتخاذه من قرار فقالت: لقد نويت أن أرفض هذا الإجراء من أساسه وعلى مجمع من الناس في صباح هذا اليوم، لكنني تركت الأمر لك، وتوقعت أن يكون لديك إجراء آخر، أما وقد اتخذت هذا القرار فأتسمه على بركة الله، وأعد إلى الرجل ماله كاملاً مع رجاله.

عند ذلك عاد إلى مضجعه، وفي الصباح الباكر بعد أن تناول الرجال القهوة وطعام الإفطار أمر الفتى الرجال المرافقين له بالعودة بما معهم من أحمال وأزواد الإبل وكامل النقود والأشياء الأخرى إلى الشيخ بعد أن أوصى بذلك كبير هؤلاء الرجال، وأبلغه أن يبلغ الشيخ وافر الشكر والتقدير والعرفان بالجميل.

وامتطى كور نجيبته التي قدم عليها واستردف أخته وودع الركب العائدين إلى أهلهم ثم توجه إلى مضارب قومه.

قصة رقم (٢٨)



«راعية البويت»

ما كاد يلوح بارق الوسمى في فصل الخريف حتى تركزت الأمزان في الجهة الشمالية من الأفق مما حدا بالقبائل التي كانت تسكن إلى الشرق والجنوب والغرب من مساقط الغيث إلى التوجه فوراً إلى الأماكن التي قد جرت عليها السحائب أذيالها، وتراكت تلك القبائل بمواشيتها على تلك الأرض التي أصابها الوبل، ولم يمض طويل وقت حتى اكتست الأرض بثوبها السندسي، وتوالت عليها شآبيب الغيث فترعت كل قبيلة فيما يواليها من الأرض وشبعت أنعامها في مكانها دون الحاجة إلى النزوح إلى أقرب ما تحتله القبيلة الأخرى من الأرض، فعاش كل في أرضه بريع وافر وكلاً متغطف وكان هناك ثلاث قبائل رئيسة في هذا المكان هي قبيل شمر والظفير وعنزة بالإضافة إلى القبائل الأخرى التي تعتبر أصغر من هذه القبائل حجماً وكانت هذه القبائل الثلاث وما لحق بها من التقارب والاختلاط حيث لا تستطيع التمييز بين قبيلة وأخرى وكان هذا التجاور وما يتوقع منه حدوث احتكاك بين أفراد هذه القبائل وقبائل أخرى، وقد نظر زعماء هذه القبائل أن يعقدوا حلفاً بينهم يتم بموجبه منع مثل هذا الاحتكاك وكان من عادة العرب أن: إذا ارتكب أحد جرماً ضد طرف آخر أن يدخل على أهل أقرب بيت يواليه ليمنعه صاحب هذا البيت ويحميه من خصومه أيّاً كان مقامهم باعتباره «دَحِيلَةً» وعليه تحمل إثم دخيله مما يجعل صاحب هذا البيت يدخل في جريرة رجل لا دخل له به، بسبب دخول هذا الجاني في بيته. وقد أدرك زعماء هذه القبائل ما لهذا الجانب السلبي من مخاطر على إجهاض هذا الحلف وزرع بذور الشر بين هذه القبائل فقد جعلوا إحدى مواده الرئيسية: ألا يدخل أحد أيّ إنسان قد ارتكب إثماً أو جنى جناية ودخل إلى أي بيت يطلب لحمايته ماداموا

في هذا المكان، بل على صاحب البيت أن يسلمه إلى خصمه في الحال ليقتص منه، دون أن يكون على صاحب البيت أي جرم أو معية بين أفراد قبيلته أو غيرهم، وبهذه الخطوة ضمن رؤساء هذه القبائل أن يكون حلفهم قوياً ومتيناً لا يمكن تفكيكه.

استمرت هذه القبائل «في روضة الأديان» تحت مظلة هذا الحلف طيلة الشتاء والربيع، في هذه الفترة كان هناك فتى اسمه «ماجد» على خلاف ما عليه الناس من رغد العيش والانبساط، فقد كان كاظم الغيظ يتجرع مرارة القهر، وهو يرى خافراً ذمته حين قتل من استجار به في وقت مضى، هذا الغريم الذي كان صديقاً حميماً له بالإضافة إلى القرابة بينهما، إذ يعودان لقبيلة واحدة ولكنه الآن أصبح عدوه اللدود حيث يتمنى الأخذ بحقه منه وإعادة اعتباره، ولكن صورة هذا الحلف الذي يمنع الاعتداء من أي فرد على الآخر حتى لو كان قاتل أبيه، مع عدم إجارة المستجير مهما كانت الأسباب التي من أجلها إرتكب خطيئته أو جرمه، لهذا بقي هذا الشاب يصارع آلام نفسه، حيث يرى غريمه أمامه في طرف النزل، بل ويسمع بين الحين والآخر الكلمات أو الرموز، أو الإشارات التي توحى بتلك الحادثة التي تعتبر عاراً ومسبة عليه، وكلما سمع شيئاً من هذا شعر وكأن أحد السكاكين وأطراف الخناجر تحز في نياط قلبه، فبقى ساهماً كاظماً لا ينبس بكلمة لأقرب الناس إليه فضلاً عن أبعدهم عنه، وكلما ضاقت الدنيا في وجهه خرج من الحي وانتحى مكاناً نائياً في أنف ذلك الجبل أو كهف أو غابة شجر، يختلي بنفسه هناك، وأحياناً يحمل معه ربابته ليشها شجونه ويجذب بصوتها بعض الآمه، يمضي يومه كاملاً وأحياناً الجزء الأول من الليل وحيداً في هذا المكان، ومع مرور الوقت انسلت حاله، وهزل جسمه، لا يعلم أحد ما به، يبقى سرّه مكتوماً بين حنايا صدره، مما حير من حوله، وجعل أقاربه يتساءلون عن السبب الذي أوصله إلى هذه الحالة، حتى ظن رئيس عشيرته الأقربين «عمرو» به الظنون فقال لأحد جلسائه :

— ما تظن في ماجد؟

: لم أفهم ماذا تريد؟

— ماجد كما تراه منذ شهور وكأنه مريض، مع أنني تفصيت عن أخباره وسألت

والدته فلم أجد ما يدل على مرضه أو أنه يشتكي من أي آلام أو علة.

: إذا ما باله هكذا؟

— : حتى الآن لم يتبين لي من أمره شيء.

: قد يكون في نفسه شيء على أحد من رجال عشيرتنا ربما تكلم عليه وأشار

إلى ما جرى بينه وبين «مفوز».

— : لا أظن، لأن ما جذاً لا يصبر على مثل هذا الأمر، ثم أنني قد أكدت على

جميع رجال عشيرتنا ألا يتكلم أحد عن هذا الموضوع أو أن يشير إليه من

قريب أو بعيد، ولا حتى مجرد إشارة.

: قد يكون سمع همزاً أو لمزاً كأن يكون من أحد الصبيان أو بعض النساء فأثر

على نفسيته ولم يستطع منع المتسبب والاقتصاص منه وبقي يطحن غيظه في

نفسه.

— : هذا الاحتمال وارد، ولكن لا أعتقد أن أحداً يتجرأ ويعصي أمري.

: وما يدريك، فربما حدث مثل هذا الأمر دون أن تعلم.

— : أبداً، أبداً، قلت لك أن أحداً لن يتخطى أوامري يقول ذلك بنبرة غضب.

: أجل ما سببه يا ترى؟

— : إن صدق حدسي فإنه عاشق.

: عاشق!!

— : كما تعرف منذ أن نزلنا في هذا المكان تجمعت فتيات ثلاث قبائل، وكما ترى

هناك تجمع واختلاط عند المياه وحول بيوت الحي والمراعي فقد يكون رأى

إحدى الفتيات من إحدى هذه القبائل ودخلت نظره وأحبها ولم يستطع البوح

بما يعتلج في نفسه، فصار يث أشجانه عبر رابته في خلوته التي يبتعد فيها

عن الناس.

: والله إن حدسك لقريب من الصواب، ذلك أن اجتماع هذه البدائد قد يحدث

شيئاً مما أشرت إليه.

— : وشعر عمرو بالنشوة عندما سمع حديث رفيقه فاندفع يقول: قد يكون أحب

فتاة من غير قبيلته ولذلك شعر بالحرَج من الحصول عليها لأسباب منها أن تلك الفتاة قد تكون «محيرة» من ابن عمها أو تكون مخطوبة لغيره.

: أترى هذا هو السبب؟

— : إن صدق ظني، فكما ترى ماجد في عنفوان شبابه ولا غرابة أن يقع في غرام إحدى الفتيات.

: كيف نتأكد من ذلك، ونقطع الشك باليقين؟

— : لدي طريقة لكشف سره. يقول ذلك باندفاع.

: كيف؟

— : في اعتقادي أن من دخل الهوى إلى قلبه وتعلق بفتاة ما فإنه لا بد أن يرق قلبه عندما يرى فتاة أخرى إذا كانت مماثلة لها أو أجمل منها ولو لم يتعلق بها في الحال ولكن ربما جددت شجونه وأثارت عنده كوامن الحب ولواعج الشوق فعند ذلك نعرف سببه.

: إن ما تقوله يا عمرو لرأي صائب.

— : نعم هو الصواب بعينه. يقول ذلك باندفاع.

: ولكن؟! يقول ذلك ثم يسكت.

— : ماذا تريد أن تقول؟

: من الذي يستطيع كشف هذا الأمر؟

— : أنا. يقول ذلك بزهو وثقة.

: كيف؟!

— : سأرسل له أجمل فتاة في حيننا بعد أن ترتدي أجمل ملابسها وتلبس حليها وكامل زينتها فتمر عليه في المكان الذي يختلي فيه بنفسه وتحدث إليه وتمازحه فإن رأت منه ميلاً إليها وتعلقاً بها، أو على الأقل أحيت كوامن الشوق عنده لمن تعلق بها، ثم تعود إلينا لتخبرنا بكل ما رآته منه.

: هذه خطة سليمة قد نكشف سره، ولكن ألا تتوقع أن يعتدي عليها؟

— : لا، لا يمكن أن يحدث منه ذلك، وكلما في الأمر ربما تحدث إليها بلطف إن ساغ له وجودها عنده.

: أترى هذه الخطة تكشف مكنون صدره؟

— : بلا شك، ووالله إن كان عاشقاً لأي فتاة من فتيات حينا فسوف نقف إلى جانبه ونساعده في الحصول عليها، وإن كانت من إحدى القبائل الأخرى لنبذل الغالي والرخيص في سبيل الحصول له على ما يريد.

: كثر الله خيرك، وبرك بما تفعل من معروف.

* * *

ومنذ الصباح الباكر أوعز عمرو لتلك الفتاة بأن تدنف إلى ماجد في مكان خلوته وتحاول إغراءه بالكلام وتليين الحديث معه ومحاولة جذبها إليها بما ترتديه من ملابس، وما تلبسه من حلي، علّها أن تكتشف ما إذا كان قلبه قد هفا إلى فتاة أخرى من فتيات الحي، وهكذا فعلت ما كلفت به وعندما وصلت إلى جانب ذلك «الرّجم» وهو مجموعة من الصخور قد ركم بعضها على بعض حتى أصبحت علماً بارزاً مرتفعاً له ظل وكنّ ما إن أطلت عليه وسلمت حتى رد عليها السلام، وكان في حالة استغراب من مجيئها إليه في هذا المكان الذي ينفرد فيه بنفسه دائماً، ووقفت منه على مسافة بضعة أمتار تحدّثه بكلام يقطر عذوبة وينساب ليناً إلى السمع، مما زاد في دهشته، وعندما استأذنت منه للجلوس عنده جحضت عيناه وتطايّر منها شرر الغضب، فنهّرها بالابتعاد عنه، والعودة من حيث أتت وفي محاولة يائسة منها للمكوث عنده بعض الوقت للتحدّث إليه وتسلّيته وتوسيع صدره نهّرها بشدة، وعندما حاولت امتصاص ثورته بكلمات لطيفة وابتسامة ساحرة أخذ ملء كفه من الحصى ورجمها به وطردها بعيداً عنه، فعادت تجر ثوب الخجل، وأخبرت من أرسلها بما جرى لها قائلة: إن هذا الشاب خلاف ما تظنون، فليس عنده أي ميل إلى الجنس اللطيف، وربما كانت لديه شجون أخرى، أما هو فبعد أن ابتعدت عنه سرح في تفكير عميق: ما الذي حصل لهذه الفتاة وجعلها تأتي إليّ في هذا المكان؟ إنني أعرفها تماماً فهي من عشيرتي والتقي بها عند مورد الماء أو قرب بيت أهلها، ولم يسبق أن سمعت منها مثل هذا الحديث الذي

سمعتة اليوم رقة وعذوبة، ولم يسبق أن سمعت منها هذا الكلام اللين، ماذا جرى لها؟ هل هذا الكلام من نفسها؟ إذا كانت تتكلم بصدق، فما الذي جعلها تتكلم هكذا؟ هل خفق قلبها في لحظة واحدة ونزل عليها هذا الأمر فجأة وبهذه الدرجة من التهافت؟ قبل بضعة أيام قد صادفتها بطرف النزل وأنا في طريقي إلى هذا المكان ولم أكد أسمع منها رد السلام!! فكيف أراها اليوم بهذه الهيئة وأسمع منها هذا الكلام المتدفق الرقراق؟ هذه الفتاة أعرفها وأعرف أمها وأخواتها وكل نساؤها، إنهن على درجة من العفة والمنعة بما لا يخامر العقل لأدنى ذرة من الشك، إنهن أنزه أعراضاً وأدفاً أفواها من أن يسمع من الواحدة منهن مثل هذا الكلام لرجل في خلوة نائية بعيدة عن أعين الناس!! هل أصيبت بمس من الجنون بحيث تقدم على ما أقدمت عليه؟ على العكس إنها تتكلم بكامل قواها العقلية وبكل براعة وفن، ثم إنني في هذا المكان منذ وقت بعيد لماذا لم تهتد إليه سوى هذا اليوم؟ سيما وأنها تعلم كما يعلم غيرها من سكان الحي أن ما جذاً يدنف إلى هذا المكان كما 'يدلف إلى أماكن أخرى غيره، يجلس لوحده، لا يحب أحداً أن يجلس معه، فما الذي أتى بهذه الفتاة في هذا اليوم؟ بالتأكيد أنها مدفوعة من أحد، فقد تكون مدفوعة من «مفوز» يريد أن يضيف خزيًا جديدًا إلى ما البسنيه من عار، وذلك حينما يشاع أنني اعتديت على إحدى نساء عشيرتي!! إنه يريد أن يحطمني دفعة واحدة، ربما نصب هذه الفتاة بمثابة الأحيولة!! ربما أوعز إليها أن تصبح بأعلى صوتها عندما تجلس بجاني، وعندها ستأتي الأفراع من النزل وتقول لهم ما تريد أن تقوله، وهي مصدقة علي بما تقول بلا أدنى شك، وعند ذلك يزداد وجهي إسوداداً أمام عشيرتي، فربما أتخذ من بعض النساء حبالل لبعض الرجال، أتراها مدفوعة منه؟ والله لو أعلم ذلك لانتقم من أقسى انتقام، هاه!! أعود بالله من الشيطان الرجيم قد تكون مدفوعة من غيره!! ومن الذي سيدفع بها إلي؟ ربما دفع بها أقرب الناس إلي!! قد تكون والدتي أو أحد أعمامي؟ ظناً منهم أن ما أضناني وجعل حالي تصل إلى هذا الحد المزري بسبب العشق والهيام!! قد يكون من أرسل هذه الفتاة يحسب أنني ممن تغريه

الابتسامة الساحرة، والتهانف الأخاذ، والغمز الجذاب، والكلمات الرقيقة،
والعبارات المترققة؟ هل يعتقد أنني ممن يأخذ لُبُّه الوجه الصبوح، والجبين
الأبلج والأنف الأشم، والعينان النجلوان، والخذ المتورد، الثغر الساحر،
والأسنان الأقحوانية؟ أو من يأسر لُبُّه العنق الأتلع، والصدر النافر، والقوام
الرشيق، والوسط الأهيف، والأرداف الواقفة، وجدائل الشعر الأشقر المنسدل؟
أو من يجذبه منظر الملابس الزاهية، والحلي اللامعة، أو من تشده بِنَّة العطر
الفواح، والرائحة العبقة؟ أو ما علم أن كل هذه المغريات لا تحرك في قلبي في
ظرفي الراهن رَمْعَةً واحدة وإنما يشغل تفكيري، ويشد كامل انتباهي شيء أهم
من كل ذلك، لقد شغلت بنزع هذا الجلباب الأسود الذي جللني إياه
«مفوز» حين قتل من استجار بي، لقد قتل الرجل وهو يعلم أنني مجيره، وقد
رأى بنفسه علامة الاستجارة التي طرحتها عليه، وهي إحدى وحدات ملابسي
«عقالي» ومع هذا فقد اعتدى عليه وطعنه برمح ولم يجهز عليه في الحال
فبقى حياً حتى التأم عليه مجموعة من الصبيان والنساء أبلغهم أن قاتله هو
«مفوز» بعد أن علم أنني مجيره، وذلك بحجة أنه قاتل أبيه، «سود الله وجهك
يا مفوز كما سودت وجهي أمام الناس» أقتل «دَحِيلِي» ومن استجار بي
وتريدني أن أعيش عيشة هائنة دون أن أرد اعتباري؟ والله لن يحدث ذلك، حتى
أخذ بشأري وأريج عن وجهي هذا الغشاء الأسود الذي وضعته علي، كيف
جاءت هذه الفعلة من أعز أصدقائي، وخير أبناء عشيرتي؟ ولكن للأسف قد
لطخني بهذا العار الذي لن يغسله سوى هذا السيف «يقول ذلك وقد جرد
سيفه من غمده وهزه بيده عدة مرات ثم أعاده إلى مكانه» إن لم آخذ حقي
بيدي هذه فلن يهدأ لي بال، ولن يلد لي عيش أو يرد غليل صدري، سيبقى
دمي يغلي في عروقي إلى أن يصل إلى درجة الانفجار حتى آخذ حقي، كيف
أستطيع الصبر وغريبي أمام عيني؟ متى ينتهي هذا الحلف الذي جمع هذه
القبائل؟! من ذا الذي سيصبر حتى تنقضي هذه السنة؟ هذا الحلف الذي
حرم الاعتداء من أي فرد على الآخرين مهما كانت الأسباب، وحرم على أي
فرد أن يجير أي فرد آخر يلتجئ إليه بعد أن يقوم بأي عمل من شأنه إيذاء

الآخرين؟ وهل سأبقى أتململ فوق لظى آلامي حتى ينتهي هذا العام؟ ومن الذي سيجيرني إن أنا فعلت ما فعلت؟ هل سيجيرني «الجرباء» أو «ابن هذال» أو «ابن صريط» أو غيرهم من شيوخ القبائل الأخرى؟ لن يجيرني من هؤلاء أحد حيث يخضع الجميع لحلف واحد ينتهي بعد انقضاء هذا العام أوه!! ومن الذي سينتظر حتى نهاية هذا الحلف؟ إن لم أنفذ ما عزمت عليه فقد أحترق قبل أن يمضي علي بضعة أشهر فضلاً عن بقية هذا العام، إيه، دعني أتحدث على رباتي وأبثها بعض أشجاني بهذه الأبيات.

وأخذ ربابته وجس وترها وبدأ يجربها حتى إذا ضبط صوتها انطلق مع نغمات صوتها بهذه الأبيات :

- | | |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| ١٨١- ياعنرو يا لمدلاة يازل الخوف | عذبي وأنت تثلث من العام |
| ١٨٢- ياحو فهيد اللي بك الطيب موصوف | أكل منك يخبغ الطيز لأحام |
| ١٨٣- عن حالي اللي كنها حال أبالعوف | والأعليل اللي عن الزاذ صوام |
| ١٨٤- لوقربوا عندي من الزاذ بصتوف | ولؤنة فقاز ويخ الزاذ يندام |
| ١٨٥- ولو حنطة ألقا وتمرة هل الجوف | ما تقيلة نفس عليها الطنا حام |
| ١٨٦- ولو يعرض لي لأيس الخميز واشتوف | في دنيرة لأحول كفر ولا إسلام |
| ١٨٧- ما عارضة لوقو بأمان من الخوف | ولا أليه لؤنة على النفس عزام |
| ١٨٨- شفى مقور نفوة الربيع منقوف | حيالهن ما بين عشت ورضام |
| ١٨٩- اللي كسائي ثوب أسود وأنا أشوف | خله يقغ في سهر عيني وأنا أنام |
| ١٩٠- من عقب ما بني قتب خطبي صوف | إجور لأحضر المقيمين خدام |
| ١٩١- أقطع عليه التزل طوف وزا طوف | أفقط عليه بزقة البني قدام |
| ١٩٢- ثم أضربه بمصقل يرد الجوف | ما صوغه عند الصنائع بلحام |
| ١٩٣- إمّا عليه البيض يصفقن بكفوف | وإن عاش ما يمشي على كل الأقدام |
| ١٩٤- وإن كان ما فعلت في خد مرهوف | وجهي مع الحفراث دقوة بوشام |

لم يفت عمرو بيتاً واحداً من هذه القصيدة إلا وصافح مسامعه حيث أقبل إليه بمجرد أن عادت الفتاة من عنده فوجد ماجد يغني هذه القصيدة بأعلى صوته الذي يمتزج مع أنغام الربابة، وما إن فرغ من هذه القصيدة حتى انكأ

على عباته بعد أن لفها، وكأنه أقرغ من جسمه شحنة كهربائية عارمة اهتزت لها فرائصه، ظل بعدها لفترة من الزمان مسترخياً في مكانه فيما يشبه الإغفاءة، أو الشرود الذهني وهو يسرح طرفه في مدى الأفق الرحب وكأنه يبحث بطرفه الفاتر عن جسم معلق في تلك القبة السماوية الزرقاء الصافية في الوقت الذي انسحب فيه عمرو من خلف الرجم دون أن يعلم به، وعاد أدراجه إلى بيته بعد أن اكتشف السر الكامن وراء انسلال حال ماجد ونحول جسمه، وأن ما يعانيه لم يكن بتأثير الحب كما كان يتصور، وإنما هو بسبب ما يشعر به من آلام إزاء من كساه ذلك الغشاء الأسود بخفر ذمته، هذه القعلة التي لم تكد تبرد آلامها بابتعاد مفوز عن القطبين الذي ينزل فيه ماجد بعد الحادثة مباشرة قبل فترة من الزمن حتى جمعت بين الخصمين تلك المناسبة في مكان واحد، وعلى مرأى العين ربما في معظم أوقات اليوم، وعند تلك الساعة التي سمع فيها عمرو ما باح به ماجد من مكنونه أيقن أن الشر واقع بين الإثنين لا محالة، وقال في نفسه: الله أكبر!! لقد حسبت أن ماجداً قد نسي هذا الموضوع بعد مرور حوالي ستين عليه، أو على الأقل مال إلى التغافل عنه أو المصالحة فيه، وإذا هو يحمله بين حنايا أضلاعه!! وإن لم يتضح أمام الناس أنه يحمل أي شيء، ولكن الدم يغلي في عروقه ويكاد أن ينفجر خافقه في قفص صدره، إنه الدم العربي الصميم الذي لا يقبل الضيم ولا يقر المهانة، ولا يتحمل تبعات العار، ويربأ بنفسه عن المكانة الدنيا إلى المكانة العليا، يتفانى في الوصول إلى مكان الصدارة مع من حوله، فياترى ماذا سيفعل؟ أترأه يقدم على الانتقام من غريمه في الوقت الذي منع فيه الاعتداء بين الأفراد والجماعات مهما كانت الأسباب بموجب الحلف المعقود بين هذه القبائل؟ وحتى لو أراد اختراق هذا الحلف والسطو على غريمه فلن يجد من يجيره أو يمنعه، حيث أن من مواد هذا الحلف ألا يجير أحد جانباً مهما كانت درجة جنايته ومهما كان السبب الكامن وراءها، ولذلك فلو أقدم على أي عمل سيكون الاقتصاص جزاءه، وقد لا يتمكن من الصبر حتى تنتهي مدة هذا الحلف وتنفرد هذه القبائل إلى مواطنها، سيما وأن

بنيته العامة الهزيلة لن تمكنه من البقاء إلى ذلك الحين إن استمر على ما هو عليه، الله أكبر!! على ذكر البنية أترى ماجد لو أراد أن يفعل شيئاً، هل يستطيع بجسمه الناحل الهزيل الذي لم يبق منه سوى الأعصاب والعروق بين الجلد والعظم أن يفعل شيئاً بالنسبة لمفوز بجسمه الضخم الممتلئ صحة ونشاطاً وحيوية؟ لا أظن أن هناك من التكافؤ الجسماني بين الإثنين فيما لو التقيا وجهاً لوجه، فإن مفوزاً سيتلقى مجموعة ممن هم في مثل جسم ماجد، ليس في ذلك أدنى شك، لكن يجب ألا تغفل ما للجنان من أثر فعال في مثل هذه المواقف، فلا يقطع إلا القلب، ولن يقدم على أي أمر من الأمور إلا صاحب الجنان الصارم، ولن يفعل إلا صاحب الكف الساطي بغض النظر عن ضخامة الأجسام أو قوة العضلات، ولهذا فقد يفعل ماجد بجسمه الناحل ما لا يفعله أضخم الرجال جسماً، ورب طعنة نجلاء من كف شاحبة الأشاجع، تنفذ إلى الأعماق التي لم ترصلها طعنة الكف الثخينة، ورب ضربة بالسيف من يد عارية الأزداد تقطف من الرؤوس ما لم تقطعه ضربات متكررة من ساعد عبل المجاسد، ولهذا لا أتوقع أن يصبر ماجد على ما هو عليه دون أن يقدم على أي عمل قد يطفئ ثورة الغضب المحتدمة في وجدانه، وما دام الأمر كما يبدو لماذا لا نتدخل مادماً قد عرفنا السبب، ونزع هذا الفتيل المتأجج الذي ربما قاد في جريته إلى أمور سلبية لا حاجة لنا بها؟ ولكن أترى ماجد يقبل مثل هذا الأمر؟ سيما وهو يتجرع مرارة تلك الفعلة منذ مدة طويلة؟ لا أعتقد أنه يقبل هذا الأمر حيث جرت محاولات يائسة لإصلاح ذات البين قبل ذلك فلم يقبل، وخير ما تم التوصل إليه هو التفريق بين الإثنين حتى لا يرى أحدهما غريمه ثم شاءت إرادة الله أن تجتمع هذه القبائل حول هذا المرعى في ربيع هذا العام، ومنعاً للتصادم فقد عقد هذا الحلف المؤقت، حيث وفر الكثير من المصادمات والخسائر، واستفاد الناس بمختلف قبائلهم من هذا المرعى، وبقي شخص واحد لم يستفد من هذا التجمع بل جرَّ عليه ويلات المعانات وبقي يتجرع صابهاً ألا وهو ماجد.

أما ماجد فكان ينظر للموضوع بمنظار آخر، فقد كان يخطط للخروج من آلامه المبرحة في الانتقام لكرامته المهدورة وكبريائه الجريحة بأن يعتمد إلى خصمه ويأخذ حقه منه، فقد بدأ يحدث نفسه: أين تراني أستطيع الظفر به؟ هل أواجهه على ظهور الخيل؟ لكن لن أتمكن من ذلك، سيحول الفرسان بيني وبينه، هل أواجهه على الأرض في بيته أو بيوت أحد الجيران؟ هل أخاتله وأخذه على حين غفلة منه؟ لا، فهذه ليست من طرق الرجال في مواجهة خصومهم، هل آتبه ليلاً وأقضي شأفة نفسي منه؟ أبداً سيعتبر ذلك من باب الغدر وهذا لن أرضاه لنفسي، هل أتعبه حول الحي عندما يذهب وراء إبله السارحة إلى مرعاها، أو يستقبلها عندما تكون عائدة منه؟ ولكن هذا سيكون بعيداً عن أعين الناس، ولن يكون لما أفعله أي صدى في هذا الحي، أو الأحياء المجاورة من العرب، هاه!! لقد وجدتها؛ لماذا لا يكون إقدامي عليه عند مورد الماء؟ حيث تتكاثر أعين الناس من الواردين والصادرين وفي نفس الوقت لا يتوقع وجود أحد من الفرسان حول الماء، وفي حالة توارد الأفزع عند الماء أكون قد نجوت بنفسي على أي وسيلة، لكن مورد الماء بعيد عن النزول بعض الشيء وقد يدركني من يدركني إذا ركضت على قدمي!! لماذا لا أستعين بجوادي، أرسلها مع أحد الغلمان «يُشْكِر» لها ويتركها ترعى غير بعيد عن المورد؟ ثم آتي وأقضي أربي وألوذ بصهوتها فأصل إلى النزول قبل أن يتمكن أحد من اللحاق بي، أترى هذه الطريقة ناجحة أم سيكون مجالها الفشل؟ ولكن حتى إذا نفذت ما في نفسي، فهل أُلجأ إلى شيخ قبيلتي أو أحد أفرادها؟ قد لا يجيرني منهم أحد، لأنهم قد عرفوا الموضوع برمته، وفي نفس الوقت فإن الشيخ «مطلق» أحد رؤساء القبائل الذين اتفقوا على هذا الحلف «المشثوم»!! وقد كفل جميع أفراد قبائله، هاه!! قد يكون «ابن هذال» هو الذي يحميني ويمنعني من قومه ومن قومي، نعم إنه شيخ له مكانته بين قومه، ومع رؤساء القبائل الآخرين، هذا شيخ قبيلة مشهورة بكثرة العدد والكرم والشجاعة والحظ، نعم فإن حظهم طيب إذا ما قيس بحظوظ بعض القبائل الأخرى، ولهذا أتوقع أن يضيف علي حظهم فيحمونني، إن أملي كبير بحمايتهم، فهم

رجال يحجون ويذرون، هل تراني إذا فعلت ما فعلت امتطيت ظهر جوادي
ولدت بحيمهم و«زينتهم» فأدخل على الشيخ بنفسه في بيته؟ لا شك أنه
سيجبرني، هاه!! ولكن لماذا أقتل ابن عمي الذي يعتبر واحداً من خيار رجال
قبيلتي؟ لماذا أقتله وأتحمل هذه الجريمة الطويلة التي قد لا يعرف نهايتها إلا
الله؟ بودي لو لم أفعل، لكن ما ألبسنيه من ثوب العار قد غطى على بصبرتي،
وطمس تفكيري، وجعلني لا أكاد أبصر طريقي، وذلك بما فعله من خفر ذمتي
مما جعلني لا أستطيع النظر إلى الناس، أخجل من الصبي اليافع، ويندى
جيني عندما أرى النساء، مخافة أن أسمع من إحداهن همسة لرفقتها وهي
تلمزني بكلمة سامة أشعر بلسعها وكأنها ذباب الخنجر ينوش ثومة قلبي،
أنصب عرقاً إذا جلست مع الرجال وسرت الأحاديث بقصص البطولات
والدفاع عن النفس والدمم، والذود عن الحيض من الوقت الذي أشعر فيه بوخز
الرماح تتعاقب على قلبي فأنا مضطر لإزالة هذه الآلام عن قلبي وإزاحة هذا
الثقل الجاثم على صدري بما سأفعله، وقد لا أقتله، لأنني إذا قتلته فقد
خسرت، وقد ينسى ما فعلت بعد مرور فترة من الزمن، ولكني سأبقى به عاهة
يتذكرها كل من رآه، ممن يعرفه أو لا يعرفه على مدى حياته، نعم سأبقى به
هذا الأثر الذي يتحدث عنه هذا الحي وأحياء أخرى جيلاً بعد جيل، هذا
الأثر الذي ستذكره مدى حياته، هذا إذا جاءت الأمور على ما أريد ونجحت
خطتي، أما إذا حصل خلاف ذلك فلكل حدث حديث، ولكن ترى من هو
الغلام؟ ي أكل إليه إيصال فرسي إلى المكان الذي أريده غير بعيد عن مورد الماء
و«التشكير» لها بربط عنانها بيدها لتبقى ترعى ولا تستطيع الجري قبل أن
أتحرك من هنا؟ بالتأكيد لن يشفيني غير «مريض» فهو غلام يتوقد حيوية
ونشاطاً رغم صغر سنه، حيث لم يتجاوز العاشرة من عمره لكنه يلوذ بصهوة
الفرس كفارس متمرس، وفي نفس الوقت فهو كتوم للسر، مع أنني لن أبوح له
بأي كلام، وسأكلفه بالمهمة في الوقت المناسب.

لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انتشرت قصيدة ماجد في أحياء العرب كلها، فقد تناقلتها الألسن، وأصغت لها الآذان وحفظتها الأذهان، وكانت حديث المنتديات وحلقات السمر في تلك الليلة، حيث تناولها المحللون من مختلف الاتجاهات، هناك من أيد ماجد وأطربه ما جاء في أبياتها، ومنهم من تشاءم مما جاء في هذه القصيدة وتوقع منها الشر، وفي إحدى حلقات السمر في واحد من هذه الأحياء جرى حوار بين مؤيد ومعارض لهذه القصيدة فقال مُعزِّي لرفيقه فرحان :

— أتري ماجد صادقاً فيما ورد في قصيدته؟

: ولماذا تشك في الأمر؟

— لأن فئة من الشعراء «يقولون ما لا يفعلون».

: ماجد ليس من هذه الفئة وإنما هو ممن إذا قال فعل، ثم إن من «يقولون ما لا يفعلون» ليس مقصوراً على الشعراء، وإنما هناك الكثير من الناس من يتهدد ويتوعد وعند وصول الأمر إلى غايته يزوغ ويختفي كخفاش الليل.

— ولكن أين ماجد، وأين مفوز؟

: من أي ناحية؟

— إن عضد مفوز يساوي حجم جسم ماجد بكامله، وإيماءة من أصبع مفوز توازي قوة ماجد كاملة.

: لا عبرة في ضخامة الأجسام، وقوة العضلات.

— بل عليها المعول، أجل بماذا العبرة؟

: بالجنان، وهو موئل الشجاعة والإقدام وما صاحب ذلك من القوة.

— تصعب المقارنة بينهما.

: من حيث الجسم فأنا معك.

— وحتى القوة، فكما هو معروف القوة تغلب الشجاعة.

: ولا تنس ما للإندفاع من قوة، وما للإقدام من صرامة، خاصة إذا كان المنطلق الذي تنبعث منه شبيه بما يعيشه ماجد من ظرف قاسي.

— ماذا تعني؟

- : لا يخفاك ما يعانيه ماجد إزاء خصمه، وقد تبين ذلك من قصيدته التي سمعت، ومن هذا المنطلق فسوف يسميت لأخذ حقه.
- ولكن لا يستطيع وجهاً لوجه للتفاوت الواضح بين الرجلين.
- : قلت لك ليس الأمر بالأجسام.
- ولا حتى في الإقدام، فلن يستطيع ماجد مواجهة مفوز بأي حال من الأحوال، وإنما قال هذه القصيدة للتنفيس عن نفسه من شيء يجده فيها، وربما ليقال أن ماجداً قال كذا وكذا.
- : إذكر ربك يا رجل، ولا تحتقر الرجال.
- أتراهنني إذا فعل ماجد أي شيء؟
- : أتوقع أنه سيفعل.
- ولو افترضنا أنه أقدم على ما أراد ونجا من خصمه فأين يذهب..؟
- : سينجو بنفسه.
- بل ستخطفه السيوف قبل أن يدرج من مكانه، وستنوشه الرماح فيما لو حاول الفرار، وتمزق جسمه النحيل إرباً إرباً في أسلحة رجال عشيرة مفوز.
- : أراك مستهيناً بماجد؟!
- لثقتي التامة بخصمه.
- : ولكن لكل رجل حقه، ومكانته، وموقفه، لا يمكن لأي إنسان أن يستهين به حتى الفرسان الأبطال فيما بينهم تجد كل واحد منهم يقدر قيمة نذّه، ويتحاشى الإستهانة بمواقفه.
- أنت واهم، أما تعرف شيئاً عن تحديات الفرسان والأبطال بعضهم لبعض كقولهم «عليك مردود النقا»؟
- : أعرف ذلك، ولكن عندما يقول الفارس هذا الكلام لا يستهين بشجاعة وقوة خصمه، وإنما يريد أن يستثيره في هذا القول.
- أجل أتصدقه أنه سيقطع النزول بعد النزول إلى أن يصل إلى خصمه فيقتله؟
- : لا أستبعد عليه ذلك، فالرجال لا يستهان بهم.
- أوه، إنك تحلم يا فرحان، هذا أمر مستحيل، فلو أراد ماجد أن يفعل شيئاً لفعل

ذلك منذ العام الأول، وإنما أقعده عن ذلك عجزه عن تنفيذ ما أراد، ولهذا بقي يطحن آلامه في صدره كل هذه المدة إلى أن أخرجها في هذه القصيدة التي صارت حديث الناس من صباح هذا اليوم.

: أما أنا فأقول... الله السائر.

— : كن مطمئناً وضع يدك في ماء بارد، فلن يحدث في هذا الربيع ما يكدر الصفو، مادام شيوخ القبائل قد ضمن كل واحد منهم، أفراد قبيلته وكتفوهم فلن ترى إلا الخير.

: خوفي من كبت ماجد أن ينفجر، ويفعل فعلته فيحدث ما لا نحمد عقباه.

— : آه... لا تخف إن حدث منه شيء فسينحمل جريرة عمله بنفسه ولن ينال أحداً منه شيء، فالتقص عليه وعلى قبيلته.

: أعوذ بالله، كأنك يا معزى لا تحس بإحساس الآخرين!؟

— : كنا نتحدث عن أمر هام، وإذا بك تنتقل منه إلى أمور تافهة.

: إنها مهمة عندي، فهي أهم مما تفكر به.

— : إذا تصبح على خير.

ما إن بسطت الشمس ثوبها الفضي على الأرض حتى توالى قطعان الأغنام تنساب من مختلف الاتجاهات، تكسو الروابي وتغطي على الوهاد، وتجعل الحزون، وتوشي الحزوم، تندلق مع الشاياء، وتتداح مع الأودية والشعاب في اتجاه المرد وأخذ الرعاة وأصحاب الغنم يمتحون لها بأيديهم من هذا المورد الكل يدلي دلوه ممسكاً بمشاة رشائه، يخرج الدلو مليئة بالماء، فيسكبها بحوض الماء الجلدي، فتكرع به أغنامه التي ترسل على أرتال متتالية، فتشرب وترتوي ثم تصدر، وهكذا تتعاقب هذه القطعان الكثيفة حتى انتهت، ثم وردت أذواد الإبل وكثر زحامها على حياض الماء، وجدَّ أصحابها ورعيانها وسقاتها في متح الماء لإخراج الكمية الكافية منه لسقيا إبلهم وحينما يشعرون بالتعب تسمعهم يرددون الأهازيج والحداء بإيقاعات زانة تلائم وقع أكفهم على الأرضية والحيال التي يخرجون بها الدلاء، هذه الأهازيج تدفع عنهم السأم وتعيد

إليهم الحيوية والنشاط من جديد، حيث يقف الماتح على جانب فم البئر فاحجاً ما بين رجليه، يمتح الدلو إما على بكرة مثبتة على خشبة واقفة بميل نحو البئر، أو يمتح الدلو على يديه بدون أي مساعد آخر، تمر الساعات على هؤلاء السقاة وهم ينضحون الماء ويسقون به أنعامهم حتى قرب أذان الظهر، حين يخف العمل لديهم بعض الشيء، فتقبل النساء يحملن القرب الفارغة لتعبئتها بالماء من هذا المورد من متح هؤلاء الرجال الواقفين قرب فوهة البئر، وإن لم يجدن أحداً من الرجال متحن بأنفسهن وملأن قريهن بالماء.

في هذا الجو الصاخب، وبهذا المكان الذي يعج بالحركة، وبينما «مفوز» يمتح الدلو من البئر قد اكتريت عليه وشدت ظهره وسمرت قدميه على الأرض وانشغلت يديه وتفكيره عن السمع والبصر، انقض عليه ماجد كالعقاب الصارم أو الأسد الكاسر وضرب مفوز مع إحدى رجليه فبتر ساقه في الحال مما أخل بتوازنه، فأطلق رشاء الدلو من يده وسقط على ظهره قرب فوهة البئر، فصاح الناس وفرعوا وحاولوا الإمساك بالفاعل، لكن ماجداً انصلت بسرعة البرق وامتطى صهوة جواده التي قد «شكر» لها غير بعيدة عنه وفرّ هارباً نحو النزل، انشغل من كانوا حول البئر بربط رجل مفوز جيداً، حتى لا تنزف منها الدم فيموت، وارتفع الصياح من النساء، ووصل الصريخ إلى البيوت بعد أن وصل ماجد إلى مبتغاه، حيث دخل بيت الشيخ «ابن هذال» لكنه عند وصوله وجد من يقول له: إن هذا البيت لن يجيرك ولن «يزينك» لأن صاحبه أحد أقطاب الحلف، فعليك بيت الشيخ «ابن سويط» فلوى عنان جواده واتجه من لحظته إلى بيت «دُعيم» فدخل عليه فأمنه في بادئ الأمر لكنه وجد من يهمس في أذنه أن دُعيم أحد أقطاب الحلف هو الآخر، ولا يمكن أن يخون عهده، أو يحالف أمراً من الأمور التي تم الاتفاق عليها، وهناك بيت يمكن أن يجيرك ويحميك، ذلك هو بيت «أم دُعيم» فهو بيت كان مع صاحبه في الحج ولم تحضر الحلف، وكذلك بيتها لم يكن وقت العهد من بين بيوت النزل، فعليك بالدخول في بيتها وستحميك وتجيرك، و«يزينك»

بيتها، وعند ذلك خرج من بيت دغيم إلى بيت والدته الغير بعيد عن بيته، فرحبت به تلك السيدة وقالت له: «تَزَيَّنْتَ وَزَيَّنْتَ لَكُنْ يَذُورُكَ ذَائِرٌ مَادُمْتُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ» ووقفت تلك السيدة الكريمة ونادت بأعلى صوتها أن ماجداً قد استجار بها، وأنها أجارته، وأي مساس به يعتبر مساس بكرامتها.

* * *

في هذا الوقت أسرع كواكب الفرسان من قبيلة مطلق متجهة نحو النزل مقتفية أثر الفاعل، فاتجهوا إلى نزل ابن هذال، لكنهم أخبروا أن الجاني قد اتجه إلى نزل ابن سويط، فأسرع الفرسان إلى هناك، فأوقفهم فرسان ابن سويط، وأسرع دغيم يطلب التريث حتى يتم. بحث الأمر مع الرؤساء المعنيين، واجتمع أقطاب هذه القبائل عند الشيخ دغيم طالبين منه تسليم الجاني فقال مطلق لدغيم :

— عليك أن تسلمنا الجاني الذي لجأ إليك.

: من تعني؟ يقول ذلك بتجاهل.

— أعني ماجد الذي أحدث في أمرنا ما أحدث.

: آه... تعني الجثري؟!

— نعم هذا الذي بتر ساق مفوز، وربما أدى ذلك إلى وفاته.

: لقد دخل ماجد في بويت والدتي. يقول ذلك بصوت مجرور.

— عليك أن تحضره من البيت الذي دخل فيه.

: لكن بيت والدتي له حرمة، ولن يقترب منه أحد إلا بإذنها.

— لن يقترب من بيت والدتك غيرك.

: سأخذ رأيها!! يقول ذلك بتراخي.

— بل عليك أن تحضره، حتى دون موافقتها.

: يستحيل ذلك إلا إذا وافقت.

— كأنك تريد نقض العهد الذي بيننا. يقول ذلك بنبرة حادة.

: العهد!! يقول ذلك وهو مطرق وكأن وقع هذه الجملة وقع الصاعقة عليه.

— : أنسيت ما بيننا من ميثاق يكف الاعتداء بين هذه القبائل ويسلم الجاني مهما كانت جنايته؟

: لا... لم أنس ذلك، ولكن... يقول ذلك بشرود من فاجأه أمر من الأمور.
— : ولكن ماذا؟

: لكن لبيت أمي حرمة، لا يمكن إخراج من فيه إلا بموافقتها.

— : موافقتها!!

: نعم، ولا أظنها توافق.

— : ألم أقل لك أنك تريد نقض الحلف القائم بيننا.

: لا تقل هذا يا مطلق... لكن دعني آخذ رأيها.

وعندما سمعت أم دغيم لغط القوم في بيت ولدها، أطلت على المجتمعين وهي متلثمة وقالت بأعلى صوتها: أيها الرجال ليبلغ الحاضر منكم الغائب بأن ماجداً لجأ إلى بيتي و«زين» فيه وهو في حرز مكين، فلن يناله نائل أو يذوره ذائر مادمت على قيد الحياة، ومادام لي رجال يذودون عن حرمة «بويتي» أما ما يتعلق بحلفكم ومعاهدتكم، فإن بويتي لم يحضر هذه المعاهدة، وقد كان معي في الحج حينما عقدتم هذا الصلح والتحالف بين قبائلكم، وعلى هذا فإن البيت وصاحبه لم يكونا حاضرين المعاهدة التي تمت بينكم، وبذلك فإن البيت وصاحبه يعتبران خارج هذه المعاهدة ولها حق حماية من لجأ إليهما واحتمي بحماهما فلا تكثرُوا الأخذ والرد في هذا الموضوع وعليكم باعتباره منتهياً وسيبقى ماجد في حرز مكين تحميه فرسان «نخيل القروي» سُوَيْط، فعليكم بالعودة كل إلى نزله واعتبار الأمر منتهياً.

وتدخل ابنها دغيم محاولاً تهدئة غضبها قائلاً: يا أماه... وقيل أن يكمل كلامه قالت له: «اسمع يا دغيم، لقد بينت لكم وللحاضرين معكم في هذا المكان ما استندت عليه في تبرير دفاعي عن احتمي بحماي، ولجأ إلى بيتي، وكلكم يدرك ويفهم ما قصدت، ووالله لئن خفرت ذمتي، وانتهكت حرمتي بأخذ «دخيل» بويتي وأنت حيٌ دون أن تدافع عني لأقطعن ثدياً

رضعته من مشّة زورى وأرمي به لكلاب الحي، وسأتولى حماية بيتي
بنفسي»... ثم غادرت المكان عائدة إلى بيتها.

— : تحفز مطلق وقال: هذا كلام عجوز هرفة.

: ليس القول كما قلت، وإنما «القول ما قالت حذام»!!

— : ماذا تقول يا دغيم؟

: أقول: إن والدتي معها حق فيما قالت، فلم تكن حاضرة هي وبيتها الحلف
الذي عقدناه بيننا وبينكم، وهي مصيبة فيما رمت إليه.

— : هذا غير منطقي، نحن نريد الرجل، وإلا يعتبر الحلف ملغي وكل واحد يأخذ
حقه بيده. يقول ذلك باندفاع.

: لا تقل هذا يا مطلق، وحكم عقلك، ولا تتسرع في أمر قد تكون عاقبته
وخيمة.

— : ماذا تعني؟ يقول ذلك بحدّة.

: أقصد أن نفكر في الأمر هذه الليلة ونجتمع غداً مع الشيخ ابن هذال، ونرى
صواب مارمت إليه صاحبة البويت ونتفاهم بشأن هذا اللاجيء الذي أثار هذه
العاصفة.

— : أوه!! غدا!!؟ ومن الذي سيصير إلى الغد!!؟

: لا تتعجل، يا أخا جوزاء. يقول ذلك مع ابتسامة عريضة.

— : سنقول غداً إن والدتي معها حق في إدخال الدخيل وحمايته!!.

: إنني مع الحق والمنطق، وسيكون الحق تحت حمايتي ورعايتي.

— : إنني أكاد أشم التصلب في موقفك من الآن، فكيف يكون وضعك في غداة
غد!!؟

: كما قلت لكم، إنني مع الحق، وسيكون بويت أُمّي في حمايتي وتحت
رعايتي وعنايتي مهما يكن من الأمر.

— : هذه بداية التصلب والاعتداد بالرأي. يقول هذا الكلام بلهجة مجرورة.

: في اجتماع الغد سيتحدد كل شيء. يقول ذلك مبتسماً.

* * *

وانفض الاجتماع فعاد كل رجل إلى بيته، لكن هذه الحادثة أمست حديث الناس، يتحدث بها من بيدهم العقد والحل، ومن ليس بيدهم من الأمر شيء، الكل يدلي برأيه، وما يتوقع أن يكون، فمن متفائل بما سيحدث في صبيحة الغد، ومن متشائم بأن تجتاح الخيل الخيل مع الصباح الباكر، وصار إغارة أناس على أناس الهاجس المزعج لمن نظروا إلى تلك الحادثة بالتشاؤم، وكان «مطلق» يغلي صدره غيظاً وحنقاً عندما غادر المكان وهو يقول في نفسه: كيف يريد دُغيم أن يحمي هذا الجاني والمجني عليه من أفراد قبيلتي، فالمفروض أن يسلمه إليّ ولي حق التصرف فيه، الإثنان من قبيلتنا، فكيف يحول بيني وبين الاقتصاص للمجني عليه من الجاني؟ هل هو صادق فيما تفوه به من كلام في هذا المساء من أنه سيحمي من استجار به؟ أم أن هذا الكلام مجرد تصلب في الموقف بادية الأمر مدفوع بغيرة الغضب التي أثارها أمه أمام هذا الجمع من الرجال؟ وأنه حالما يستعمل عقله ويثوب إلى رشده هذه الليلة، سيعود إلى المنطق ويعيد علينا في الصباح هذا المعتدى لنقتص منه؟ وما الذي حدا بتلك العجوز لأن تقف هذا الموقف، وتدعي مثل هذا الإدعاء وهي كما تقول أنها لم تحضر عقد هذا العهد، ولم يكن بويتها ضمن بيوت النزل عندما تم الاتفاق، أو ما علمت أن هذا الاتفاق يشمل الحاضر والغائب من أفراد هذه القبيلة أو تلك؟ إذا كان كل واحد سيحتج بمثل هذه الحجة فكثير من الأفراد من القبائل الثلاث لم يحضروا الاجتماع إما لكونهم في سفر، أو غزو، فإذا كان كل واحد منهم سيدخل مع هذا الباب الذي تريد أن تفتحه أم دُغيم فسيكون هناك اعتداءات متكررة، ويلجأ مرتكبيها إلى هؤلاء الذين لم يحضروا الاجتماع، وبذلك ينفرط عقد هذا الاتفاق، ألم يكن شيخ كل قبيلة يكف أفراد قبيلته كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم؟ إذا كان الأمر على هذا المفهوم، فلماذا لا يكف تصرفات والدته؟ وإذا كان له مفهوم آخر فماذا يعني عنده شيخ القبيلة وأنه يكف أفراد قبيلته؟ أم ترى أن «دُغيماً» قد اشتهى نقض الاتفاق معتمداً على قوة فرسانه، ولم يصدق أن يحصل له مثل هذه الحادثة

لتكون نقطة ينطلق منها ويقوض ببيان هذا الاتفاق الذي عشنا في ظله طيلة هذه السنة لم يحرك فيها ساكناً ولم يُرْعَ أي إنسان؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إذا كان دغيم أراد بهذه الذريعة أن ينقض العهد فالله في عون الجميع لتحمل جريرة ما سيحدث لهذه القبائل الكبيرة والصغيرة بأعدادها الكثيفة ومنازلها المتعاقبة وأنعامها المختلطة في هذا المرعى الخصيب، أما حقنا حسب نصوص هذا العهد فسوف نأخذه، ونستعيد الجاني من دغيم، إن لم يرضخ لهذا العهد رغماً عن أنفه حتى لو جرت الخيل على الخيل في صباح اليوم التالي، لا يمكن أن نسكت على حقنا، إذا كان هو زعيم قبيلته، فنحن زعماء قبائلنا، ولن يقف في وجهنا أحد كائن من كان، ولن نتأخر يوماً واحداً عن حقنا، ولن نتزحزح قيد أنملة عن مكاننا، أما إذا عاد إلى الحق، وحكم عقله، وحافظ على تماسك هذا الاتفاق لتنعيم هذه القبائل بقية هذا العام في بقايا أعشاب الربيع فهو قَمِينٌ بمثل هذا الأمر، ومن أهله، وكفو له، وإلى أن يصبح الصباح ونرى ما عنده في الاجتماع المرتقب.

بينما كان دغيم في حالة مغايرة لما كان عليه مطلقاً، فهو من جانبه مقتنع بأنه مع حق في الذود عن حرمة بيت أمه، وأن والدته محقة في الحجة التي أدلت بها من أنها لم تحضر العهد وأن هذا البيت لم يكن من ضمن بيوت النزل حينذاك، ولهذا فمن حقها كامراً عربية أن تجبر فيه من نشاء حسب عادات العرب وتقاليدهم ومن واجبنا أن نحميها، ونذود عنها بشتى الوسائل ولا يمكن أن نسلم من أجارت إلى خصومه مهما كلف ذلك من ثمن، وإذا كان مطلقاً أو غيره من زعماء هذه القبائل يريد أن يأخذ دخیلنا فنحن دون حقنا، سندود عنه بقوة السلاح، فنحن ندرك ما للدخيل من حقوق على من التجأ إليهم، فهي من الطبائع التي تميز العربي عن غيره في الدفاع عمن استجار به، والتجأ إليه ووالدتي هذه العربية الصميمة، والمسلمة الحقة، تدرك هذا المعنى تماماً، ولولا إدراكها له لما وقفت أمام هذا الحشد من الرجال وأبانت لهم وجهة نظرها التي تعتبر مقبولة لمن أراد مخرجاً من هذا الموقف، وفضل حقن

الدماء على إهدارها، سيما وأن المصاب لم يمت، وإنما بقي على قيد الحياة، وإن حمل هذه العاهة بقية حياته، المهم أنه بقي حيًّا، وإذا أراد مطلق أن يتخذ من هذه الحادثة ذريعة لنقض هذا العهد الذي شارف على الانتهاء، فليس لدينا ما يمنع على شرط أن نحفظ بحق من استجار بنا ونحميه في هذا الظرف بالذات ومتى انتهى هذا العام وتفرقت هذه القبائل، وعاد كل إلى موطنه فإن المستجير له الخيار أن يبقى عندنا ويعيش في حمايتنا كواحد من أبناء قبيلتنا أو أن يعود إلى قبيلته فيدركه خصمه أو يقتص منه، في ذلك الوقت نكون قد خرجنا من ورره وغشيتنا البيضاء في حمايته. آه... هداك الله يا أخا جوزاء، هداك الله يا أبا مسلط، أتريد مني أن أسلمك من استجار بييتي وبيت أمي بهذه السهولة؟ أما علمت بمكانتي بين قومي؟ أما علمت مكانة قبيلتي بين القبائل؟ أما علمت أنني وأنت نعود إلى جذم واحد هو الجذم القحطاني، فكلانا يتفرغ من أرومة ظيء، وإن إلتف مع قبيلتي وتحت كنفي فروع من قبائل أخرى، إلا أنني أعتز بإرتباطي ببني لام القبيلة الطائية العريقة، وتريدني أن أتقاعس عن واجبي وأسلم من استجار بي ودخل بيت والدتي بكل هذه السهولة؟ لا شك أنك تعلم ما لدي من القوة التي تمكنني من الدفاع عن حمى قبيلتي فضلاً عن محارمي، ومن التجأ إليّ ولكنك رغم هذا التجاهل للأمر قد أخذتكم الحمية إلى أن تركب رأسك وتريدني أن أسلمك من دخل بييت والدتي.

إيه!! إن هداك الله إذا اجتمعنا غداً مع الشيخ «ابن هزال» ورأيت أن الأمر صائب، وأن هذه السيدة العربية قد أصابت بحجتها فنحن على العهد الذي كنا عليه، وإن تصلبت وطاوعت نفسك فليس عندي لك إلا «صُمَّ الرَّمْلُ»، ومصقلات الهند، ولكن نرجو من الله أن يتغلب العقل على ما سواه ونظمر آذان هذه الفتنة، ويعتبر الرجل قد استعاد كرامته الجريحة، ورفع عن نفسه ما يعتبره غشاً أسوداً قد كساه إياه مفوز، حينما خضر ذمته.

ولابد أن تفرق هذه القبائل بعد انقضاء هذا العام وإن كان له حق يمكنه أخذه.

أما العجوز فقد عادت من فورها إلى بويتها حيث وجدت فيه ماجد جالساً متحفزاً مجرداً سيفه مسنداً رمحه على عارض البيت تلمع عيناه المتقدتين متوجساً لكل حركة حوله، وعندما أطلت عليه في حالته تلك قالت له: إطمئن يا بني فقد وصلت إلى حرز مكين، ولدت في حصن حصين، ولن يذكرك ذائر ما دمت في وجهي، وأنا أم دغيم، لا طالت يدُ ستنا لك بسوء، تقول هذا وهي تقدم له شيئاً من التمر والزبد واللبن قائلة له: كل يا بني واشرب ولا تقلق، فدونك آل سويط، هذا الجدار المنيع من الفرسان الذين سيدودون عنك ضد أي محاولة الاعتداء عليك بكل الوسائل، ثم ذهبت عنه لتترك له المجال إذا أراد أن يطعم، وذهبت ولسان حالها يقول: سبحان الله كيف يتحول الإنسان إلى هذا الوضع؟ هذا الشاب التحيل بدا وكأنه الفهد المتوثب، أو النمر المتحفز للإنقضاض يريد أن يلتهم ما أمامه من البشر وغيرهم، كيف جحضت عيناه الغائرتين بالأمس، فجلس على رؤوس أنامل قدميه ممتشفاً سيفه، يتوقع أن يدخل عليه أحد من أعدائه وكأنه في جانب من الخلاء!! كأن لم يكن في بيت؟! إطمئن يا بني، إنك في بيت من تجير المستجير، وتؤمن الخائف، وتشبع الجائع، وترقد العاني، في بيت أم دغيم، شيخ هذه القبيلة العريقة الذي ياتمر بأمره عشرات، بل مئات وآلاف الفرسان يهبون لأقل إشارة، ويقتحمون لأقصر عبارة منه، وهم بذلك طوع بنانه، لا يحيدون عن أمره قيد أنملة سيحسون هذا البويت من أي اعتداء عليه، وحتى لو افترضنا لا سمح الله ولا أعدمنا رجالنا أنه لا يوجد من يحمينا فسوف ندافع عن دخل في حمانا بأنفسنا، سأجرد هذا السيف وأدافع عن حمى بويتي، وأذود المعتدين عنه بما أوتيت من قوة حتى آخر قطرة من دمي، سأموت قبل أن يُمسَّ من التجأ إلى بويتي بسوء، فالعربي والعربية لا ترضى أن تخفر ذمتها، ولا أن يقترب من حماها، أو تمس محارمها بأي سوء، أما علمت يا بني ماجد أنك حين التجأت إلى بيتي أنك أصبحت مثل إبني دغيم من حيث الدفاع عنك وحمائتك، ولو أنك ستدافع عن نفسك عند الحاجة، لكن لن تقترب منك يد من الأيادي ما دمت في كنف هذا البويت، الله أكبر ما أجراك

يا مطلق!! الله أكبر ما أكثر استخفاف بعض الرجال بأعمال النساء؟! كيف تنجراً أن تقول لي أمام هذا الجمع بأن هذا كلام عجوز هرفة!! أما علمت بأنني عربية أئبى الضيم على الآخرين فضلاً عن أن تتحملة بنفسها؟! أنسيت أن للعربية مكانة مرموقة بين قومها ولديها من الشجاعة والإقدام ما تأخذ بهما حقها، وتدافع عن نفسها، وتحمي جارتها، وتدافع عن المستجير بها؟! أما علمت أنها تقري ضيفها وترقد غانيها؟ ولديها من رجاحة العقل وحسن التدبير وسلامة الرأي وصلابة الموقف ما لا يوجد عند الكثير من الرجال؟! ثم تأتي يا أبا مسلط وتقول إنني عجوز هرفة!!؟ سامحك الله، وإن تقدمت بي السن فلن يزيدني ذلك إلا عمقاً في التجربة وصرامة في الموقف واستنارة في الرأي، وسيصبح هذا الشاب تحت كنفني في مأمن منك ومن بين قومك، فلن يناله أي سوء إن شاء الله مادام هذا الرأس تطرقه الرياح.

ثم اقتربت من عارض البيت وأطلت بحذر لترى ما إذا كان ماجد قد تناول شيئاً من الأكل، أو شرب من اللبن، وإذا هو مطرق يبصره لم يحرك ساكناً سوى يده اليمنى حيث تنقبض على السيف تارة وترتخي أخرى مع تملل في جلسته بين الحين والآخر.

وتساءلت: لماذا يفكر هكذا وقد طمأنته قبل قليل؟ أترى ماجد قد شغله التفكير بمصيره عما سواه؟! لندخل إلى ذهنه ونرى أنه قد سبح في بحر تفكير عميق وكأن لسان حاله يقول:

لا شك أن هذه السيدة صادقة فيما تقول، وقلبها مطمئن إلى مكانتها بمكانة إنها فهو بلا شك منيع مناعة هذا الجبل الشامخ، راسخ رسوخ جذوره ولهذا فهي تعني ما تقول، وقد قدمت لي الطعام تريدني أن آكل، وما علمت أنني لم أذق الطعام كما ينبغي منذ أيام إلا ما يسد الرق ويبقى الحياة والآن وقد نسيت الطعام فلم يخطر لي على بال، لا من شدة الخوف والفرع، وإنما لا أجد لنفسني رغبة فيه، وما يشغل تفكيري أكبر من ذلك، أترى الشيخ مطلق يصر على ضرورة تسليمي إليه؟ أم سيثني دوني الشيخ دغيم؟ وفي حالة

وحتى لو التجأ إلى شخايب الجبال فسأصل إليه، حتى ولو كان في عنان السماء، حتى ولو التجأ عند السويط فلن ينجيه مني أحد، أبحسب أنه إذا «زين» عند صاحبة البويت سيمنعه بويتها مني، لا، أبداً فهو قريب المنال، وكأنه في طرف هذا البيت الذي يظللني، دعني أشفى إن شاء الله وسوف يرى ماذا أفعل به، آه!! ما أقسى قلبك يا ماجد!! كيف تفعل برفيقلك وابن عمك هكذا!! أبعد الرفقة الحميمة الصادقة تفعل بي هكذا!! أتريدني أن أبقى معاقاً طول حياتي أعرج بين الناس!! لا أستطيع ركوب الخيل كما كنت أفعل، لقد برت ساقني عند الركبة فأعقتني عن كل شيء، أتريدني أن أبقى عند النساء والصبيان والشيوخ في الوقت الذي يمتطي الفرسان فيه صهوات الخيل يغيرون على الأعداء ويذودون عن الحي؟ لقد قتلتي وأنا حي لقد قتلت معنويتي وأبقيت جسدي حياً ميتاً، فليتك قضيت على حياتي مرة واحدة لأسلم مما أنا فيه.

أتريدني أن أتركك بعد أن فعلت بي ما فعلت؟ والله لن تنجو مني، آه.. ما أسعد ذاك اليوم الذي أستطيع فيه التحرك!! آه، ليت هذه الآلام تبرد علي الآن وسترى ما أنا فاعل بك، ستكون طعاماً لشذرة سيفي هذا، سأنتقم منك، سأنتقم.

وزحف من مكانه بدون شعور مما جعل النسوة اللاتي يجلسن حوله يمرضنه ينتبهن إلى هذه الحركات التي تتشنج بها يديه ويتقبض جسمه بمفعولها تارة ويتمدد أخرى، وهن يحسبن ذلك من تأثير الألم إلى أن نطق بكلمة سأنتقم، عندها أدركن ما يجول في ذهنه، فحاولن تهدئته لكنه رفض، مما اضطرهن إلى الاستعانة بمقدار آخر من الشراب المسكن لتهدئته، وعندما شرب الدواء استسلم لنوم عميق.

* * *

وفي اليوم التالي اجتمع رؤساء القبائل في بيت دغيم ليجدوا حلاً لهذه المعضلة فقال مطلق:

- : لقد انتظرنا على طلبك يا دغيم وما نحن اجتمعنا الآن ماذا وجدت من الحل؟
 : الرأي متداول بين الحضور.
 — : ماذا تقول يا ابن هذال؟
 : أرى أن يسلم الجاني ويقتص منه.
 — : هذا ما أراه منذ البارحة. هكذا نطق مطلق.
 : ولكنني أعترض على هذا الرأي. قالها دغيم بنبرة حادة.
 — : نعترض؟!
 : نعم.
 — : أجل لم تردك المهلة التي أخذتها البارحة إلا إصراراً وتعنتاً.
 : ولكنني أعتبر نفسي مع صواب.
 — : صواب !! أن تسمح للرجل الذي أحدث في أمرنا ما أحدث أن يلتجئ إليك
 وتحميه وتقول إنك على صواب؟!
 : إنني مصيب فيما فعلت، وما أدلت به والدتي يوم أمس من حجة هو الحق
 بعينه.
 — : ماذا تقول يا ابن هذال فيما تسمع؟ يقول مطلق ذلك بعد أن التفت إليه.
 : يجب أن يتمشي حسب نصوص الحلف ولا يحيد عنه قيد أنملة.
 — : هذا الرأي السليم.
 : وما دخل هذا بالحلف؟ لو فعل الرجل ما فعل والتجأ إلى أي بيت غير بيت
 والدتي لقدمته لكم الآن،، لكن والدتي وبينها لم يحضرا الحلف وهذا ما
 يجعلني أحافظ على كلمتي.
 — : هذا كلام غير منطقي.
 : وأنا أعتبره خلاف ذلك.
 — : إذا بإصرارك هذا ستضطرننا إلى نقض هذا الإتفاق.
 : لم أجبركم على ذلك، وإذا خرجتم أنتم عنه فأنا دون حقي، وسأدافع عن
 نفسي، وأحمي من التجأ بحماي وكنف بويت والدتي.
 — : هذا معناه نقضك لهذه المعاهدة!!

عودتي إلى حوزة مطلق ماذا سيفعل بي؟ أيقتلني صبراً؟ أم سترك خصمي يأخذ حقه مني؟ ولئن قتلني الآن لا فرق عندي في ذلك، فالموت والحياة أصبحت عندي سيات، بعد أن بردت غليل كبدي من خصمي، ولكن لا أظن أنهم يقتلونني إلا إذا مات مفوز متأثراً بجراحه، أما إذا سلم فلن يقتلونني، وسأتحمل إرث ما فعلت به!! وهذا أمر هين حتى لو دفعت عن ذلك دية كاملة!! إنني متأكد من أن دغيم لن يسلمني مهما كلفه الأمر، حتى لو وصل ذلك إلى انتقاض كامل الحلف، يا الله!! هل أكون سبياً في انتقاض هذا الحلف المعقود بين هذه القبائل قبل أوان انقضائه؟ هل تخسر هذه القبائل الكبيرة المرعى بقية هذا العام بسببي؟ هل تتفرق هذه الجموع من أجلي؟ هل تنشب حروب بين هؤلاء الحلفاء من أجل سلامتي؟! إن كانت هذه القبائل ستطاحن وتتحارب من أجلي فإنني أقدم نفسي قرباناً لفداء ما قد ينشب بينها من قتال!! يا الله!! هل سأكون أشأم من البسوس بين بكر وتغلب؟ اللهم لا تجعلني سبياً في فناء أعداد من البشر، والله لئن رأيت أن الأمور ستصل إلى هذا الحد لأخرجن من هذا البيت وأعود إلى قبيلتي ليفعلوا بي ما يريدون، ولا يصل الأمر إلى القتال بينهم، فلقد شفيت ما في نفسي من خصمي واستوت عندي الحياة والموت، أما إذا كان الأمر سيتم بالتفاهم وقرع الحجة بالحجة والذود عني بدون إراقة دماء فهذا ما كنت أتوخاه، مع إيماني أن من لجأت إليهم سيدافعون دوني بكل وسيلة حتى ولو ارتوت الأرض من الدماء، فهم رجال صناديد ومن التجأ إليهم فكأنه في رأس عيطاء منيفة لا ينال ذروتها غير الطيور الطائرة ولقد قتل أميرهم ابنه باهن جارة مما حدا بالشاعر أن يقول:

١٩٥ غَيَالُ السَّوَيْطِ أَلَّيْ لَهْمُ ذِكْرٌ وَاقْتَانُ أَفْعَالُهُمْ تَذَكَّرُ وَلَا هِيَ خَفِيَّةُ
١٩٦ بِالْجَارِ مَا سَأَلُوا مَخَاسِيرَ وَأَلْمَانُ ذِكْرٌ وَلَدَهُمْ مِثْلُ ذَبْحِ الضَّحِيَّةِ

وهم ليسوا مثل غيرهم ممن إذا التجأ إليهم المستجير تذرعوا بمختلف الحجج لعدم إيوائه عندهم وحمايته في كنفهم، إيه!! أدام الله عز الأجواد، فإن

المرأة منهم لها مكانة لا تقل عن مكانة الرجل، هذه السيدة منهم قامت بما يعجز عن القيام به بعض الرجال ممن يرون بأنفسهم، ونافحت دوني بلسانها، وهي ولا شك مستعدة لأن تدافع عني بلسانها إذا لزم الأمر، غير أنها تحت مظلة ابنها الشجاع المقدام ورجاله الصناديد الكرام. إيه!! أقول هذا بالطبع دون انتقاص من حقوق الآخرين أو الحط من مكانتهم، هاه!! هذه السيدة وقد أحضرت أصنافاً أخرى من الطعام، أين ماجد والأكل يا أم دغيم!!؟

* * *

هذا ما كان يجري في جانب الحي، أما الجانب الآخر الذي يقطن فيه «مفوز» فبعد أن سارع من حضر الحادثة إلى مفوز وربطوا ساقه المبتورة من أعلى حتى لا ينزف الدم ثم نقلوه إلى بيته وقد أغمى عليه، وبدأت العجائز في علاجه بالضمادات والمسكنات من مساحيق الأعشاب والأدوية والعلاجات، حيث أسرع إحداهن فأعطته شربة من دواء عندها مما تدخره النساء من الأدوية لمثل هذه الحالات، وبعد بضع ساعات انتبه من غيبوبته فرجد نفسه على هذه الحال، وبدأ يقاسي من آلام ساقه، فناولته إحداهن دواء شعر معه بالراحة وسكنت عليه بعض آلامه فصار يتلفت إلى من حوله حيناً ويسرح طرفه نحو الأفق أحياناً مع معانات بعض الآلام ولسان حاله يقول: لقد فعلها ابن...، لقد أتم ما في نفسه، آه!! ليتته قتلني ولم يتركني على هذه الحالة، هذا الوضع الذي سيلازمني طول حياتي، قاتلك الله!! لقد نفذ ما عناه بقصيدته، هاه!! ليتته قضى على حياتي مرة واحدة ولم يتركني بهذا الوضع أعيش طول حياتي أعرج بين الناس، ويبقى من يعرفني يذكر هذه الحادثة كلما رأني، ومن لا يعرفني قد يسأل عن سبب ما أنا فيه، ثم تقص عليه القصة بكاملها آه... قد يوجز القصة الصديق أو يشير إليها إشارة، وربما أسهب العدو في تفاصيلها إن لم يزد عليها أو ينمقها ببعض الحواشي والزخارف، آه!! ليت عظامي تحملي، والله لأقتصن منه أشد القصاص، ولن يمنعي عنه مانع مهما كان، من الذي سيمنعه مني؟! لن تستطيع قوة فوق الأرض أن تحول بيني وبينه،

: أيها الرجال، لا تظنوا بي هذا الظن السيء، وحكموا عقولكم رجل التجأ إلى بيت لم يحضر المعاهدة، ولم تكن صاحبتة موجوده يومها، فهناك مدخل يرىء ذممكم ويجعل لكم مخرجاً أمام الناس، فلا يلومكم أحد في موقفكم هذا، ثم إن الرجل المصاب لا يزال حياً، وأرى أن ننتظر حتى يشفى بعد شهرين أو ثلاثة، عند ذلك قد نجد المخرج المناسب وربما تسامح الخصمان، أو على الأقل تكون مدة المعاهدة انتهت أو أوشكت على الإنهاء.

— أوه!! أتريدنا أن نبقي كل هذه المدة، ننتظر بالشهور ومن ذا الذي سيصبر إلى ذلك الوقت!! نحن نريد الآن أن تسلمنا الجاني وإلا اعتبرنا الاتفاق منتقضاً من هذا المكان.

: أنا لا أعتبره كذلك، وإن أجبرتموني على نقضه فسوف أحمي نفسي، وأدود عمن استجار بي بهذا هذا السيف ولن أسمح لمن أراد أن يخفر ذمتي أن يتقدم شبراً واحداً.

— معنى هذا أنك نقضت العهد؟

: لا مزيد عندي أكثر مما أوضحت.

وقام الرجال من مجالسهم وتفرقوا من المكان.

بقي دغيم يحتدم غيظاً على هذا الموقف، كان ماجد الغير يعيد عن المكان يصفى بكل حواسه ورقيق مسامعه لما يجري في الاجتماع من لفظ الكلام واحتدام الجدل وربما انسانيته إلى مسامعه حتى الأحاديث الخافتة التي تجري في طرف المجلس، وربما تسربت إلى أسماعه حتى الهمسات الخاصة، ولما انفض المجلس وأدرك القرار النهائي رفع عقيرته بقصيدة منها:

١٩٧ يَا زَاكِبَ خَمْراً رُدُّومَ وَخَايِلَ مَسْلُوءَةَ الدُّرْعَانِ خَمْراً سِجْلَةَ
١٩٨ أَلَلِّي لُشَادِي مَمْرَسَاتِ الْمَحَايِلِ أَفَرَّدَ يَهَا الْجَبْتُوغَ لِلتَّيْرِ دَلَّةَ
١٩٩ تَلْفِي عَلَى .. أَهْلَ التَّقَابِلِ سَرَدَ الْوَجِيهَ فَرَضَعَيْنِ الْإِمْلَةَ

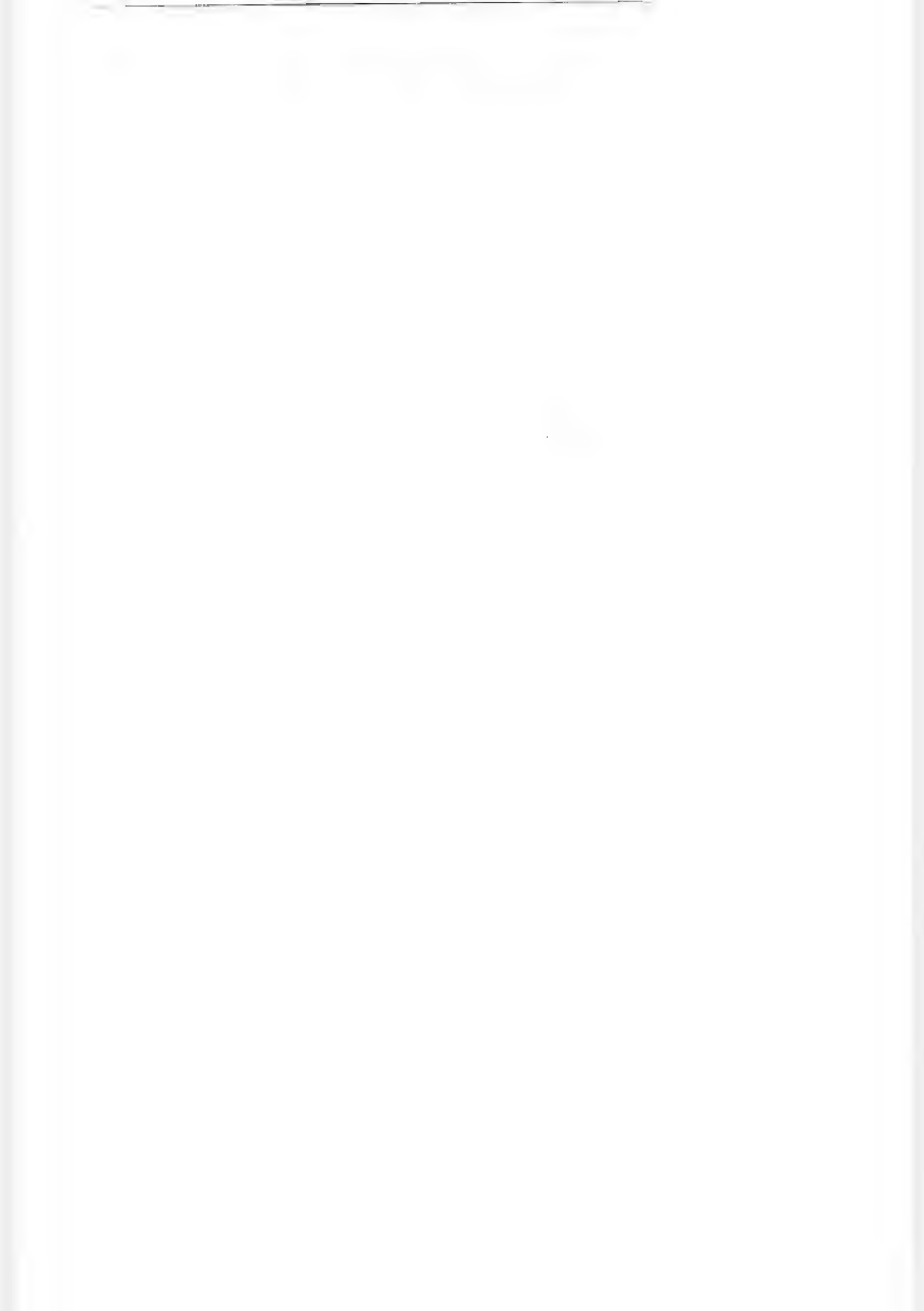
٢٠٠

٢٠١ مَاضَالُ لِي غَيْرَ السُّوَيْطَاتِ ضَايِلَ دَغِيمَ ثَنِي بِالسَّيْفِ دُونِي سَلَّةَ

٢٠٢ سَوَيْطَاتُ مَا هُمْ مِنْ رِذَالِ الْحَمَائِلِ لَبَّاسِيَةِ لِلْجُوعِ وَثِيَابُ مَلَأَ
 ٢٠٣ سَوَيْطَاتُ يَغْطُونَ الْمَهَارَ الْأَصَائِلِ وَالْمَغْرِقَةُ هِيَ وَالرَّسَنُ زُهْوَةٌ لَهُ
 ٢٠٤ مَا سَلْتُ عَنْ رَأْسِهِ الزُّومَ مَا يَلِ إِلَّا لِسَعْدُونَ قَائِمًا مِقْنِي لَهُ

سمع دغيم صوته مجلجلاً فهرع إليه حيث وجدته يترنم بهذه الأبيات، وما
 إن رآه ماجد حتى قفز إليه وقبل جبينه وأنفه وطلب منه أن يسمح له بغناء هذه
 الأبيات على الربابة، فقال له دغيم، إصبر قليلاً حتى يتضح لك الأمر، فأجابه:
 إنني في مأمن خلف فرسان آل سويط فقال له: إذا غن كما شئت.

قصة رقم (٢٩)



الابن البار

كاد الفلاح سالم أن يطير من شدة الفرح حينما جاءه البشير ينقل إليه الخبر، أنه رزق بمولود ذكر، وقد تحقق ما رآه في المنام من أنه سيرزق بمولود وسيكون اسمه «مُسْلِمًا»، هذا ما حصل، فما إن جاءه البشير بالخبر حتى حمد الله وأثنى عليه، ثم أسرع إلى المنزل ليطمئن على الوضع، وليهمس في أذن أمه أنه سيسميه بالاسم الذي رآه في المنام، وهكذا انشرفت أسارير وجهه عندما رأى الحقيقة، وكأنه في بداية الأمر لم يصدق، وذلك لطول المدة التي قضاها الزوجان دون أن يرزقا بأي مولود، وغمرت الفرحة من المنزل والأقارب والجيران.

سارت السنوات بشهورها وأيامها ولياليها وساعاتها والطفل ينمو فتجاوز مرحلة الطفولة والصبا، حتى إذا شب على الطوق أصبح يساعد أبواه في أعمال المزرعة دون أن يرزق الزوجان بغيره، وكانت الأعمال التي تسند إليه في بادئ الأمر خفيفة مما يناسب عمره وقد تدرجت معه هذه الأعمال حتى صلب عوده، وأصبح يتحمل ما يوكل إليه من أعمال، ولم يبلغ هذه المرحلة من عمره حتى خطر له ما لم يكن بالحسبان، فقد مرضت والدته مرضاً شديداً، فأصبحت بحاجة إلى من يعتني بها، ولما كان وحيد أبويه فقد أصبح يساعد أباه في أعمال الفلاحة طيلة النهار وجزء من الليل من قبل أذان الفجر وحتى أذان المغرب، ينتهز الفرص بين الآونة والأخرى ليظل على والدته المريضة ليقدم لها ما تحتاج إليه، في الوقت الذي لا يوجد فيه من المستشفيات شيء والمريض يعرض في بيته، بالإضافة إلى اطلالته المستمرة فهناك حالته «سلمى» التي تقوم هي الأخرى بتطبيب أختها بالاستعانة ببعض السيدات وما يجمعونه من الأدوية من مستخلصات الأعشاب ومركبات المواد الكيماوية الخام أو

المصنعة بطريقة بدائية هذه المواد التي تكون في مجموعها الحلتيت والشب والصبر وغيرها إضافة إلى الاستعانة بمن يُجِدُّنَ عملية الكي بالنار أو القصد، من الرجال والنساء.

في هذا الجو وهذا الجهد الموزع بدأ مسلم حياته الفعلية وهو لا يزال يافعاً، طيلة يومه، أما إذا فرغ من عمله في المزرعة عند غروب الشمس أو بعدها بقليل فإنه يتفرغ لخدمة أمه يسهر على راحتها طول الليل، ينام بجانبها، يظل نائماً يقظاً، يصحو لأي حركة تحدثها، أو نبرة تنبس بها، يمد لها الفراش، يضيف عليها الدثار، يلازمها طيلة ليله، فهو بجانبها يقظان نائم، يناولها ماتشتهي من طعام، وما تريد من الماء، يحاول تخفيف آلامها بالكمامات الساخنة حيناً والباردة أحياناً أخرى إذا ارتفعت درجة حرارتها، يرد لها الكمامات في هذه الحالة تحت قاطر القربة المعلقة في مدخل المنزل، أو في قبة البيت، إذا كانت مرتاحة من المرض بعض الشيء يحاول أن يؤانسها بالحكايات التي يعرفها أو الأخبار التي سمعها من هنا وهناك، محاولاً إدخال السرور والراحة إلى نفسها، يتحرى منها أي إشارة إلى نوع معين من الطعام أو الشراب ليقوم بتحضيره وتقديمه لها، تجتمع حولها في المساء عدد من نسوة الأقارب والجيران لزيارتها ومؤانستها لمحاولة التخفيف عن آلامها وذلك بعد أن يفرغن من أعمالهن اليومية، كانت تشكو من آلام مبرحة في المفاصل بيديها ورجليها يستمر أثنين معظم الوقت وترتفع صرخاتها في بعض الأحيان بحيث يسمعها من كان في أقصى المنزل أو خارجه، وكلما اشتد عليها الألم لجأت إلى الأدوية التي أحضرت لها من السيدات علّها أن تخفف عنها آلامها، وأحياناً تجد بغيتها إذا كانت موجة الألم قد خفت وأحياناً أخرى لا يجدى مع حدة الألم أي دواء، وكلما ذكر لها دواء في نوع من الأعشاب أسرع ابنها وأحضره لها ثم بدأ في تحضيره حسب المواصفات المذكورة عنه، وأحياناً تتولى تحضيره أختها، أو المرأة التي ذكرته لها، وذات يوم قالت الأم لابنها في وقت خف عليها الألم وشعرت أنها أثقلت على ابنها في مرضها.

— : آه .. لقد آذيتك يا بني.

: بماذا؟

— : لقد أثقلت عليك بطلباتي وأتعبتك معي في مرضي.

: لا تقولي هذا يا أماء، فلم أقم نحوك ولا بجزء من الواجب.

— : بل قمت بالحمل كله على كاهلك الغض.

: عسى الله أن يقدرني على خدمتك.

— : آه... ليت كثيراً من الأبناء مثلك يا بني.

: نفسي فداك يا أماء!! ماذا تريدان؟

— : بودي لو أستطيع التخفيف عنك من هذا الشقاء الذي أنت فيه.

: أي شقاء تعنين؟

— : طيلة يومك، تركض بين البيت والبستان، تؤدي عملك هناك ثم تخطف

نفسك فتأتي إلى المنزل لتطل علي وتقضي حاجتي.

: يضحك من أعماقه بضحكته المدوية وهو يقول: ألا تعلمين أن ذلك من

مصلحتي.

— : مصلحتك!! كيف؟ تقول ذلك بانبهار.

: ألا تعلمين أن ذلك ينشطني حينما آتي من البستان راكضاً بشوط واحد وأعود

إليه راكضاً كذلك عدة مرات في اليوم؟

— : هذا ما أخشى أن يرهقك!! تقول ذلك بلهجة حانية.

: ألا تعلمين يا أماء أننا نجرى في الليل بسباق جاد لمسافات أطول من هذه

المسافة مع أقراني من أجل أن نفوز بقصب السبق ولا يتتابنا التعب، فكيف

تريدان أن أتعب من شوط أقطعه قبل أن يرتفع نفسي؟

— : لكن البستان بعيد عن المنزل يا بني!!

: أوه .. أتعرفين الأثلة الواقعة قرب بستان الفوزان؟

— : نعم، أتعنى أثلة الظلّماء؟

: هي بالضبط، كم تساوى المسافة منها إلى مناخ الإبل؟

— : مسافة طويلة.

: كم تقديرين هذه المسافة بالمقارنة بما بين بستاننا والبيت؟

- لا أدري يا بني، ولكنها لا تقل عن الضعف.
- : لقد أخذت السبق على أقراني عدة مرات بتلك المسافة وفي شوط واحد.
- سلمك الله يا بني وستر عليك، تقول ذلك وقد أحست بالإنفراج من التقبض الذي تشعر به وهو ما يهدف إليه.
- : ألا تعلمين أنني بتردد يومي بين البيت والمنزل يعطيني التمرين اللازم على الركض لممارسة مثل هذه الرياضة الليلية التي نمارسها مع أقراننا؟
- تمارسها ليلياً!! متى؟
- : كما تعلمين قبل أن يصيبك ما أصابك أننا نتبارى بهذه الألعاب بالقرب من مبارك الإبل، وغير بعيد عن النساء اللاتي يعلفن الإبل، وكنت إحداهن أما الآن فإنني أغتنم من وقتي برهة قصيرة بعد صلاة العشاء مباشرة وأشارك أصحابي في هذه الألعاب لفترة وجيزة شرط أو شوطين ثم أعود إليك مسرعاً.
- لقد حسبتك تذهب لأداء صلاة العشاء.
- : بالفعل أذهب لأداء الصلاة مع الجماعة ثم أترجه إلى أصحابي وأخطف تلك الفترة الزمنية أشاركهم فيها قبل أن أعود إليك.
- آه .. !! بالفعل إنني أشعر أن وقت الصلاة في بعض الأحيان يكون أطول فحسبت ذلك عائداً لإمام المسجد.
- : هذا يحدث إذا رأيتك مرتاحة بعض الشيء، ولست بحاجة ملحة إلى خدمتي في مدة أطول، أما إذا رأيت أنك بحاجة إليّ فإنني أعود من المسجد لمجرد إنتهاء الصلاة.
- سلمك الله يا بني، تقول ذلك بنعمة حانية.
- : والآن ماذا تريد أن أقدم لك؟
- بارك الله فيك، فلقد عملت لي خالتك بعض ما أشتهي ولم أعد الآن بحاجة إلى مزيد.
- : أما تريد أن أعمل لك شيئاً من الطعام؟
- سلمت يداك يا بني.
- : قد لا يكون يعجبك صناعي للطعام؟

- وكيف لا !! بل يعجبني وألذ عندي من أي صنع آخر.
- : يبدو أن خالتي قد أذاقتك من جيّد صنعها ما غير مزاجك عما أصنعه من الأكل. يقول ذلك وهو يربت على كتفها حيث يجلس إلى جانبها وابتسامة عريضة تكسو محياه.
- : لن يصرف نفسي عن عمل هذين الكفين أحد في الوجود تقول ذلك وهي تضع كف ابنها قرب أنفها وتممره على شفتيها قبله بشغف وشوق ثم تتساقط عليه الدموع حارة متناثرة.
- : فذاك نفسي يا أماه، عسى الله أن يقدرني على خدمتك وتقديم الأفضل لك. يقول ذلك وهو يمسح الدموع من عينها ويقبلهما.
- : لم تقصر في شيء، ولكنني أويت لك حيث أضفت إلي ما على كاهلك من حمل عمل الفلاحة ثقلاً جديداً.
- : لا تقولي هذا يا أماه، فخدمتك ألزم علي من أي عمل آخر، سأعود إليك بعد قليل، سأعود إلى الفلاحة استودعك الله.

كانت هذه آخر جملة ترن في آذانها عند مغادرته المكان، فانهمرت الدموع على وجنتيها مرة ثانية وهي تقول في نفسها: حفظك الله يا بني، وأبقاك سنداً أعتمد علي الله ثم عليك، يالك من ابن بار، يالك من شاب غيور، يا الله!! من ذا الذي يفعل فعله؟! من ذا الذي يقسم جهده إلى نصفين، نصف يقضيه ما بين سياق السواني لإخراج الماء من البئر لسقي نخيل والده وزرعه وذلك للحصول على لقمة العيش الحلال، ونصف يقضيه في خدمة والدته المريضة، يا الله!! لقد أثقلت عليه في مرضي هذا وهو لا يزال شاب غض لم يبلغ الحلم بعد، ولكن ما يساعده على هذه المهمة هو طول جسمه وجثالة لحمه وقوة عضلاته، إيه.. صانه الله بعينه من كل سوء، الحمد لله الذي أنزل الرحمة في قلبه عندما وصلت إلى هذا الوضع فكان بي رحيماً، والشكر لله الذي لم يجعله مثل ابن آل فلان الذي لم يحسن معاملة والديه،

إيه.. ولم تكن رحمته خاصة بي، وإنما كان يعطف على والده أيضاً ويحنو عليه، وهو الساعد الأيمن له، يشد أزره على كسب لقمة العيش الحلال حيث يقوم بهذا العمل المضني طوال يومه يتردد في منحة البئر مع سوانيه، وأحياناً يقوم بتفجير الماء في النخيل أو الزرع، يتعاقب مع والده هذه الأعمال، فإذا حانت له فرصة انطلق إليّ راكضاً وكأنه الحصان المنطلق، ثم وقف عليّ ورأى حاجتي فقضاها ثم عاد من حيث أتى، ولم تكن حالة والده المادية تسمح له بأن يستأجر أجيراً يسنى له الإبل أو يفجر له الماء أو يحضر له علف الإبل من البر، وإنما يقومان بهذه المهمات معاً بالتناوب ولكن الله كريم ومعين، آه!! لست أنني أستطيع العمل كما كنت من قبل لأقوم بأحد هذه الأعمال عن إبني و«جَنِينِي»، آه.. ليتني أملك من متاع الحياة الدنيا شيئاً من المقتنيات الثمينة فأبيعه وأدفع ثمنه لمن يساعد إبني على أحد هذه الأعمال التي يقوم بها، إيه.. الشكوى إلى الله، إنني لا أملك من حطام الدنيا سوى هذه الأواني النحاسية القديمة التي نستعملها في حياتنا اليومية، وهي في ذات الوقت لا تساوي شيئاً يذكر، ولو بعثها فلن يبقى لنا ما نستعمله ونقضى فيه حاجتنا، آه.. ليتني أملك بدل هذه الخواتم المعدنية خواتم من الذهب، أو ليتني أملك أساور من الذهب أو حتى الفضة لأبيعها وأدفع ثمنها أجرة لمن يقوم بمساعدة إبني على أعمال مزرعته، إيه... لا حول ولا قوة إلا بالله، إنني لا أملك من هذه المصوغات الثمينة التي يمكن الاستفادة منها شيئاً، وكلما أملكه بيدي هي خواتم من معدن لا تسمن ولا تغني من جوع وإنما وضعتها بيدي لا للزينة، وإنما تجنباً للتشبه بالرجال حين تكون كفاي مثل أكف الرجال لا حلية فيها، ولكن الحمد لله على ما قدر وقسم لنا من متاع الحياة الدنيا، وإنما الأرزاق بيد الله إلا أنها تحتاج إلى سعي وجدّ واجتهاد لتحصيلها، وما أرجوه من الله عز وجل أن يمنحني الصحة والعافية بعد أن يرفع عني هذا المرض الذي أعاني منه، لأستطيع معاودة عملي ومساعدة زوجي وإبني على أود الحياة ومتاعها، أو على الأقل أكفي إبني هذا العناء، فأقوم بشئوني بنفسي دون الحاجة إلى أختي التي تأتيني من أقصى البلد لتقضي حاجتي وتعمل لي

بعض متطلباتي، وأخفف عن ابني الذي شططته وألهيته عن عمله، يا الله... إذا تحقق ما سمعت من أن أختي ستتزوج وتنتقل مع زوجها في تلك البلدة النائية، ومن الذي سيساعد ابني على خدمتي؟ إن أختي تقوم بخدمتي الخاصة جداً، والتي أستحي من أن يقوم بها ابني، فكيف إذا تزوجت وانتقلت عني؟ ولكن الله لا يضيع أحداً من خلقه، لا أريد أن أعترض على زواج أختي من أجل أن تبقى عندي، دعها تتزوج وتذهب مع زوج يسعدها ويؤمن لها لقمة العيش مع طفلها الصغير، فلقمة العيش الآن عزيزة المنال لا يستطيع الإنسان الحصول عليها إلا بشق الأنفس، وبأيدي الرجال ومساعدة النساء بطرق الفلاحة أو العمل عند الآخرين، وما دام الله قد يسر لها هذا الزوج وإن كان في بلد بعيد نسبياً إلا أنني أتمنى لها من كل قلبي دوام التوفيق، ومهما تحملت من فقدتها من التعب والآلام فلن يضيرني ما دام ذلك يؤدي إلى سعادتها إليه .. وفقها الله.

أما ابني فأرجو من الله له العون والسلامة والتوفيق، آه... يا الله.. ما هذا الألم الذي أصاب مفاصلي وتورمت بحيث أصبح كل مفصل وقد انتفخ بشكل يلفت النظر، لماذا هذا الورم بالمفاصل فقط؟ لو كان بأحد الأعضاء لأمكن معرفة الموضع الذي يكرى منه، أو عرف الدواء الذي يشرب لشفائه لكن جميع مفاصل الجسم. الظهر والرجلين والقدمين واليدين كل مفاصلها قد تورمت، يا الله.. من أين يكوى مثل هذا المرض؟ لم يبق مفصل من مفاصلي إلا وداهمه الورم حتى رقتي، يا الله، يا أكرم الأكرمين، يا من شفيت أيوب من مرضه ثُمَّنْ علي بالشفاء والعافية هاه!! هذا صوت ابني قد أتى. وقف مسلم عند أمه وقد سمع شيئاً من تمتعها فضحك ضحكته العميقة المدوية وهو يتساءل:

— : ما الذي كنت تقولينه يا أماه؟

: آه.. لا شيء يا بني، إلا أنني أطلب الله لك العون والتوفيق.

— : جزاك الله خيراً، ومنَّ عليك بالشفاء.

- : كنت أتساءل يا بني عن سر هذا المرض الذي أصابني؟!
 — المرض.. الله أعلم يا أماء.
 : لقد حدثتني إحدى العجائز اليوم أنه من تأثير أكل البروق.
 — البروق؟! وهل البروق يفعل هكذا؟
 : تقول تلك العجوز الطاعنة في السن أن مثل هذا الذي أصابني قد أصاب قريباً لها منذ حوالي عشرين سنة مضت عندما جاءت سنة مسغبة مثل هذه السنة وأكل الناس البروق، وقد حدث في تلك السنة عدة إصابات من هذا المرض.
 — هاه!! لا أدري، ولكن لماذا لم يصب بهذا المرض أحد غيرك؟
 : الله أعلم يا بني وربما أصيب فيه آخرون وكنت أولهم إذ ربما تكون عندي قابلية لذلك.
 — لا تصدقي ما يقال لك يا أماء.
 : لكن تلك المرأة تتحدث بلهجة واثقة عن صدق ماروته.
 — لماذا لم تسألها عن العلاج؟ يقول ذلك بنبرة حادة.
 : العلاج!! تقول ذلك بنغمة المبهوت.
 — نعم، أتعرف المرض ولا تعرف علاجه؟
 : لم يكن ذلك لمعرفة المرض إياه، ولكنها ساقط رواية الخبر عندما تساءلت مجموعة من النساء كن عندي عن كنه هذا المرض.
 — ألم تقل لك عن علاج يشفي هذا المرض؟ يقول ذلك بتلهف من يحرص على الوصول إلى نتيجة.
 : لقد ذكرت لي شجر «الْحَرْمَلُ» تنقع غصونه وأوراقه بالماء ثم يصفى ماؤه ويشرب.
 — الحرمل!! ولكنه شديد المرارة لدرجة لا تطاق.
 : الشكوى إلى الله... نصبر على مرارته طلباً للشفاء.
 — هل تريد أن تجربيه؟
 : إي والله يا بني.
 — سأحضره لك عصر هذا اليوم.

: لا، لا يا بني، لقد أخبرتني عن موعد قطافه.

— هاه!! موعد قطافه؟

: تقول إنه يجب أن يقطف من رؤوس أغصانه قبيل طلوع الشمس بقليل ثم يغمر بالماء قليلاً فيخرج ويجفف بالظل ثم ينقع بالماء الدافئ ويشرب قبيل طلوع الشمس.

— : إنني مستعد لإحضاره لك في الوقت المحدد.

: سلمك الله، ولكن من أين؟

— : أنسيت أنه يوجد في أسفل البلد، ولا يحتاج إلا إلى شوط من الركض وبنفس واحد، وسأحضره لك غداً.

: لا عدمت وجودك يا بني.

— : وأرجو أن يكون فيه الشفاء، ولكن ألم تقل لك أم فلان ما تأثيره على المرض؟

: بلى، لقد أخبرتني بأنه يخفف هذه الأورام ويلين عضلات المفاصل.

— : هاه!! لا أدري.. إنه شديد المرارة. وقد يؤدي إلى هضم الورم، ولكنه قد لا يلين الأعصاب.

: نجربه يا بني ونرى.

— : أعانك الله على مرارته وجعل فيه الشفاء. يقول ذلك وهو يغادر المكان مردداً

بينه وبين نفسه: سبحان الله بعض الناس إذا زار المريض بدأ يعلل ويحلل

مرضه، وقد يوهمه عندما يجزم أن مرضه مثل مرض فلان، وأن سببه كذا

وكذا، لاشك أن الأمراض تختلف من شخص إلى آخر، وربما تشابهت

مواضعها وبعض أعراضها لكن المرض يختلف، والمفروض من هذه الزائرة ألا

تقطع بنوع المرض، وتجزم أنه مثل مرض قريبها الذي أصابه قبل عقدين من

الزمن، فقد يختلف عنه وقد يختلف مسببه، ويا ترى هل صدقت هذه العجوز

أن سبب المرض هو البروق؟ وهل يسبب أكل هذه العشبة مثل هذه الأمراض؟

صحيح أنها عشبة ذات أوراق كأوراق البصل مدببة ريانة تقطر ماءً إذا عصرتها

وليس لها طعم طيب ولا خبيث وإنما لها نكهة كريهة تخف أو تزول إذا

طبخت، فإذا قطعت وطبخت ووضع معها الملح والفلفل أصبحت عصيدة

خضراء لرجة قد تسد رمق الجائع وتقيم صلبه ولكنها لا تغذيه إلا بمقدار ما فيها من الأملاح والبهارات وقد تضره إذا أصبحت رواية تلك العجوز ثابتة، ولكن لماذا لم تضر أحداً غير أمي؟ أنرى هذه الحالة الأولى التي تبين حتى الآن؟ وإذا كانت هذه الوجبة التي رصننا عليها الحاجة، وأجبرتنا عليها الفاقة حين أصبح لا يوجد في البيت أي شيء يؤكل وجبة ضارة، فماذا نفعل سيما وأن الزرع لا يزال ورقاً لم يتجاوز الشهرين من عمره وقد بقي عليه ثلاثة أشهر من عمره حتى تؤتى أوائله، والطعام شحيح بالبلد وبأغلى الأثمان، ولا يوجد معنا من النقود ما نجلب به وجبة الطعام، فليس أمامنا سوى أن نأكل مما تيسر لنا من أعشاب الأرض مع قليل من اللبن، نأكل بالنهار من جني العشب وفي الليل نأكل من هذه الوجبة التي يعيش عليها الكثير من الأسر الفقيرة في هذا البلد وغيره وإن حصل شيء من طعام فقد نفرد به الوجبات بعد أربعة أو خمسة أيام، أما بعد أن مرضت أمي، فقد خبأت بعض الطحين الذي أحضره أبي في مكان سري لكي أعمل منه لأمي وجبتها حسب رغبتها، بالإضافة إلى تلك التميرات التي أحضرتها قبل أيام إحدى الزائرات لوالدتي، فقد لبّدتها هي الأخرى لأناولها منها بين اليوم والآخر قليلاً منها لتحلي بها ريقها، وما علينا سوى أن نصبر حتى يفرجها الله.

يا الله.. ما أقوى بأس الإنسان؟! إذا اضطرتته الحاجة أو ضايقه المرض، يأكل أي علاج، يشرب أي دواء، يلتهم أي سفوف يرجو بسببه الشفاء، إذا كان هذا الدواء الذي وصف لها يكاد الإنسان أن يشق ويختنق من شدة مرارته إذا شمه بأنفه، فكيف يستطيع أن يشربه؟ ولكن في سبيل الشفاء يدفع الإنسان ثمناً للعافية أي شيء يتجرع أشد الأمرار، يتحمل الكي بالنار مع أشد المواضع حساسية بحثاً عن الشفاء من هذا المرض، هذا على أساس التخمين من إنسان لآخر لا يعرف في التطبيب شيئاً اللهم إن مثل هذا الدواء قد نفع الله به فلاناً من الناس، فيمكن أن ينفع هذا الآخر، بحيث يصبح المريض حقلاً للتجارب بهذه الأدوية المستخلصة من الأعشاب والحشائش وقد يضره

بعضها أكثر مما ينفعه!! وماذا يعنى أنه يجب أن تقطع أغصان شجر الحرمل
قبيل طلوع الشمس ويجفف في الظل؟ هل يتبخر منها اكسير الشفاء مع
أشعة الشمس؟ أم هي من الترهات التي يدعيها أولئك المتطبيون ليوهموا
المريض بأن فائدتها تكمن بمثل هذه التريبات؟ أم تراهم على صواب؟ الله
أعلم، المهم أنني سأبني لأمي رغبتها وأحضر لها الدواء الذي أرجو أن يكون
فيه الشفاء.

* * *

ما كاد مسلم ينتهى من عمله ويعود إلى المنزل حتى وجدأ خيراً مفاده أن
أباه قد سافر من البلد للبحث لهم عن طعام، فكان لهذا الخبر وقعه السيء في
نفسه، صحيح إن لقمة العيش ثمينة وعزيزة المنال لكن أعباء عمل الفلاحة
ستصبح عليه بالكامل من سباق السواني وتفجير الماء، وهذا لا يتيح له فرصة
الإطالة على والدته، سيما وأن حالته قد تزوجت وانتقلت مع زوجها إلى قرية
أخرى تفصل بينهما مسافة يوم كامل، ولهذا فقد ضاقت عليه الأرض بما
رحبت، ثم وجد الحل في زوجة عمه «منيرة» وهي التي تحب عمل الخير
وتقديم المساعدة للآخرين، وقد عرضت خدماتها على زوجة أخي زوجها عدة
مرات، لكن لوجود أخت المريضة غير بعيدة عنها لم يسغ لها أن تزاحمها
على خدمة أختها، أما وقد خلت الساحة لها الآن فكانت فرصة جيدة
لإسداء خدماتها وتقديم مساعدتها، وبأقل إشارة من مسلم جاءت إلى أمه
وأولتها عنايتها ورعايتها طيلة غياب ابنها عنها في عمله اليومي بالمزرعة، وما إن
دخلت عليها حتى بادرتها المريضة «هياء» بقولها:

— أهلاً وسهلاً «يامنيرة» تقول ذلك بصوت متهدج من شدة الفرح.

: الحمد لله على سلامتك، أرجو أن تكوني بخير.

— بخير والله الحمد.

: مالي أراك وكأنك متضائقة!! هل تشعرين بأي ألم؟

: لم يكن ألماً جسمانياً بقدر ما هو ألم نفسي.

- : لم أفهم؟! :
- : لقد سافر «سالم» وترك عمل الفلاحة على عاتق هذا الشاب الذي لا يدري كيف يصنع.
- : ألا يوجد من يساعده؟ :
- : كل الناس لاهين بأعمالهم كما تعلمين.
- : صحيح، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بخدمتك فإنني مستعدة للقيام بما تريد.
- : لا عدنا وجودك يا أم عبد الرحمن ولكن...
- : لا تقولي هكذا، سأكون لك بمثابة أختك الصغرى فلا تحملي همًا.
- : كثر الله خيرك. تقول ذلك بصوت متهدج، ثم تستأنف ولكن ابني الذي أجهده العمل وأنهكه.
- : أوه... كل الرجال يقومون بمثل ما يقوم به، لا تنقلي همًا يا أختاه.
- : إيه.. سامحك الله يا سالم.
- : لقد ذهب ابن الأجواد للبحث لكم عن لقمة العيش فربما لم يجد في البلد من يبيع عليه طعاماً.
- : هناك من يبيعه الطعام ولكنه لا نقود معه.
- : هذه المشكلة يا أختاه!! فربما ذهب الرجل للبحث عن يديّنه طعاماً أو قيمة الطعام حتى يحين موسم حصاد الزرع ودرسه.
- : أوه.. أتعنين «الصائرة» ومن ذا الذي يدين الآن؟ :
- : كثير من الناس، ولكنهم وللأسف يرفعون الأسعار إلى ما يقارب الضعف.
- : لا يهم، فكلها معيشة للمحافظة على الحياة.
- : ماذا تعنين؟! تقول ذلك باستغراب.
- : أوه، ألا ترين الفلاح يأكل زرعه وهو أخضر، ويأكل تمر نخله وهو لا يزال بسراً.
- : حتى الآن لم أفهم ماذا تعنين؟ :
- : ألا تعلمين أن الفلاح يأخذ بالدين طيلة فترة الزرع ولا ينتهي من الزرع ويصفيه إلا ويدفعه وفاء لما أكله بالدين، ولا يجدُّ تمر نخله إلا ويدفعه كذلك للوفاء بما عليه من دين.

: آه.. لقد فهمت الآن!! ولكن الفلاحين أحسن حالاً من غيرهم يجدون من
يديهم.

— ماذا تعنين؟

: أعنى العمال الذين لا مزارع لهم، وكذلك الحرفيين وأصحاب المهن.

— هؤلاء يعيشون في ظل الفلاحين ولكنهم أريح منهم بالاً.

: لا فرق، لا فرق، المهم ماذا نحبين أن أعمل لك من الطعام؟

— هاه!! لا أدري، تقول ذلك بارتباك لا أدري ماذا يوجد من الطعام؟

: لا يهم ما يوجد لديكم، فلدي ما سأعمل لك منه ما تشهين.

— أنت مابنة وتعرفين ما أريد.

: أستاذك، وهذا صوت ابنك قد دخل الباب.

— أهلاً به وسهلاً، عافاك الله يا بني.

: وشفاك يا أماه، كيف حالك هذا الصباح؟

— بخير والله الحمد، ولقد جاءتنى أم عبد الرحمن وأنستني وأدخلت إلى نفسي

الطمأنينة بعنايتها الفائقة بي.

: جزاها الله خيراً يا أماه، إذا أستاذك، سأعود إلى عملي ثم أرجع إليك ظهراً.

وعاد مسرعاً إلى عمله وهو يردد هذه الجملة، جزاء الله خيراً يا أم

عبد الرحمن، إيه.. الصديق عند الضيق، لقد أحسنت صنعاً، الله كريم، لا

تضيّق الدنيا على الإنسان من جانب إلا ويفرجها الله من جانب آخر، لقد

سافرت خالتي مع زوجها وسافر أبي بالأمس للبحث عن لقمة العيش، فبقيت

وحدي في الميدان بين المزرعة وأعمالها المتعددة، والعناية بوالدتي وفزع الله

لي حين أسرعت امرأة عمي وابنة عمتي بالقيام بخدمة والدتي، إيه.. هذا

المعدن الطيب يخرج منه عنصر طيب، والناس معادن كمعادن الذهب

والفضة والنحاس، فالذهب يبقى ذهباً حتى لو تعرض لأي مؤثرات أخرى، بل

يزيده الصقل لمعاناً ويزيده الصهر نقاوة وصفاء، وهكذا الإنسان الطيب لن

تزيده الشدة إلا تماسكاً وظهوراً على حقيقته، وهذه الإنسانية تمتدّ يدها البيضاء

إلى محتاج إلى خدمتها، في وقت شقيت عنها بأعمال المزرعة، هذا العمل

الذي تتوقف على محصوله حياتنا في هذا الوجود، فلو تركت الزرع وعطش لمات وبموته نكون قد خسرنا عملنا لعدة أشهر مضت، وسيترب على ذلك تراكم الديون التي أخذناها من الآخرين، وصاحب الحق يريد حقه، فماذا نعطيهم وفاء لدينهم في نهاية الموسم؟ إنهم لن يقتنعوا إلا بحقهم كاملاً وما سوف نبقيه لأنفسنا من لقمة العيش ليقوم بأودنا حتى موسم الزرع من العام القادم وأكبر من هذا موضع الثقة بنا والمحافظة على سمعتنا، فإذا اهتزت ثقة الناس بنا، كيف يمكن أن نطلب من الآخرين أن يعطونا بالدين مادماً لم نوفهم حقهم؟! وما موقفنا أمام الناس من الفلاحين إذا علموا أننا تراخينا عن سقي زرعنا حتى ضعف محصوله أو هلك؟ لا شك أننا سنبقى أضحوكة للآخرين ومجالاً للهمز واللمز عند الكثير من الناس، وخاصة أولئك الذين لا يعذرون أحداً، وقد لا يقدرّون المواقف الإنسانية التي يقضها الإنسان من أحد والديه أو من قريب له، فإن بعض الناس يتعاملون عن مثل ذلك وينظرون على النقطة التي يعتبرونها مثلباً، إيه.. الحمد لله على ما قدر، حين جعلنا من فئة الفقراء الذين يلهثون وراء لقمة العيش من غلة مزارعهم وثمار نخيلهم، ينزفون من العرق، ويتحملون من التعب ما يعادل قيمة لذة ما يحصلون عليه، لكنها لقمة العيش الغالية التي تترتب عليها حياة الإنسان فوق هذه الأرض، لا تصل اللقمة إلى فم الإنسان إلا وقد نزف من العرق ما يوازي ثقلها لو وضعت في الميزان، هذا والذي قد ذهب على قدميه إلى القرية المجاورة لمسافة يوم كامل للبحث عمن يبتاع منه صويعات من الحب، وربما لم يجد في تلك القرية من يقبل نقوده ويبيعه بها طعاماً، وربما دنف إلى قرية أخرى، وقد يصل إلى ثالثة أو رابعة يطوى الأرض على قدميه للبحث عن هذه اللقمة العزيرة المنال، فكيف يتسنى لي أن أتقاعس أو أهمل زرع مكّون من القمح والشعير وتتكون غلته من مئات الأصواع إن شاء الله، كيف أتراخى عنه في مثل هذا الوقت؟ ومع أنني مشغول بخدمة والدتي وتمريضها إلا أن ذلك لن يقف حائلاً دون القيام بواجبي نحو عملي وسهري على ما يمثل قوام حياتنا حاضراً ومستقبلاً؟ فمن هذا الزرع نأكل الآن، حيث أخذ والذي تلك الدريهمات التي وضعها في

جيبه ديناً على هذا الزرع، وسوف يستمر في الأخذ من عميلنا حتى يتم
حصاد الزرع فنوفيه حقه وندخر الباقي لنقتات منه بقية العام وحتى الشتاء
القادم للحى منا، ولكن الله قد فرجها عليّ بفرعة هذه الإنسانية الحنونة، وابنة
الحلال الحقّة حين مدت يد المساعدة إلى أمي، فجزاها الله خير الجزاء في
الدنيا والآخرة، يا الله كم أتمنى من كل قلبي أن يمن الله على والدتي بالشفاء
العاجل آه، ما أسعدني عندما أرى والدتي تستعيد حيويتها وعافيتها وتقوم على
قدميها لا تحتاج إلى من يساعدها، آه!! ليتني أعرف أي دواء يخفف الآلام
عن أمي ويؤدي إلى شفائها.

* * *

انتبه مسلم من نومه ذات ليلة على تأوهات أمه لما تقاسيه من آلام مبرحة.
— ما بك يا أماه؟! فداك نفسي!!
: آه، آه، أنا آسفة يا بني أن أزعجتك وأيقظتك من نومك.
— لا ضير عليك يا أماه، فداك روحي.
: لقد اشتدت عليّ الآلام فارتفع صوتي رغماً عني.
— خفف الله عنك، ترى ما هو الشيء الذي يخفف آلامك؟؟
: لا أدري يا بني، فلقد جربت كل هذه الأدوية، ولم أجد من بينها ما يخفف
الأوجاع التي أشعر بها في مفاصلي وطفئت أمرارها في فمي ولم أستطع شرب
أي منها.
— أتريدن أن أحضر لك من يقرأ عليك آي من القرآن الكريم فلعل ذلك أن
يخفف آلامك.
: هاه!! يقرأ عليّ؟!
— نعم، فكما تعلمين في المرة السابقة عندما دعوت لك إمام المسجد وقرأ
عليك شيئاً من القرآن بردت عليك آلامك.
: صحيح، ولكن هذا الوقت غير مناسب يا بني، أن تيقظ الناس من رقدتهم
وتزعجهم في هذا الوقت من الليل.

— لا يهم يا أماء!! ما دام سيخفف عليك آلامك ومن سأوقظه فلن يحرمه الله من الأجر والثواب.

: كم تريد يا بني، ولكن أليس من الأفضل أن أشرب من ذلك الدواء الذي قرأ فيه الرجل في الأسبوع الماضي؟

— لا، دعي هذا وسوف أذهب إليه، ألا تعلمين يا أماء أن الرجل من المحتسبين ويفرح بمن يأتيه في أي وقت من الأوقات؟

: لكن الوقت الآن بعد منتصف الليل.

— وإن يكن، فقد أجده الآن ساهراً لأداء صلاة التهجد التي قيل لي أنه يصلي طيلة الثلث الأخير من الليل وها نحن الآن قريب من ذلك الوقت.

: كما تريد يا بني.

— سأذهب إليه فوراً.

ولم يلبث إلا قليلاً حتى حضر ومعه الإمام الذي طرح السلام على المريضة واطمأن على صحتها ثم بدأ يقرأ آيات من القرآن الكريم أحست ساعتها أنها ارتاحت نفسياً، ثم خرج من المنزل متمنياً لها الشفاء، وعاد ابنها إليها ليطمئن على راحتها، وعلى ضوء السراج الخافت رآها تتضور تحت موجة من الآلام المبرحة وهي تحاول كتم آلامها حتى لا تزعج ابنها فقال لها:

— ألم يبرد عليك الألم يا أماء؟

: بلى، بلى، يا بني. تقول ذلك بتمنع شديد وذلك بالشد على أعصابها.

— ولكنني أرى وجهك تعصف به الآلام؟!

: لقد بردت آلامي وارتحت بعض الشيء عندما كان الشيخ «عبدالمحسن» يقرأ القرآن عليّ وعندما خرج عادت إليّ الآلام من جديد.

— أتريدين أن أدعو لك الشيخ فلان؟

: لا يا بني، لا داعي لإزعاج الناس فهذه الآلام ليست من الأمراض التي ينفع بها مثل هؤلاء القراء.

— ماذا تريدين أن أفعل؟

: لا شيء، سأصبر عليها حتى يأتي الله بالفرج من عنده.

— : الله فراج كريم.

: عليك أن ترتاح يا بني.

— : أرتاح وأنت تتألمين بجاني؟! والله إنني لأشعر أن قلبي يتمزق مما تعانيين.

: الشكوى إلى الله يا بني، أرجو أن يرفع هذا الألم من يستطيع رفعه وهو رب العزة والجلال.

— : يارب.. خفف عن هذه المريضة ما تعانيه، سأقوم وأتوضأ وأصلي لله عدداً من الركعات فأدعوه أن يخفف عنك هذه الآلام.

: إيه.. الله سميع مجيب.

وقام الابن بالصلاة والدعاء حتى أذان الفجر الأول، وقرب وقت ذهابه لأداء عمله اليومي، فهاً لها ما قد تحتاجه من الماء وقرب لها الأدوية التي تتناول منها، ثم ذهب من عندها تحت جناح الظلام للبدء بعمله اليومي وهو سياق السواني قبل أذان الفجر الثاني، خرج من عندها بجسمه، وقلبه يدور حواليتها يعتصر ألماً وحزناً، يتمنى أن يجد الوسيلة التي تخفف عنها آلامها، وتعيد إليها راحتها ولكن أنى له ذلك، حيث لا يوجد من طرق الاستشفاء سوى تناول هذه الأدوية المنقوعة بالماء أو المحفوظة على هيئة مساحيق ناعمة يسفها المريض ويتبعها جرعة من الماء، أو يستعطفها من أنفه على هيئة سوائل، وما عدا ذلك فلا شيء يوجد لتخفيف الآلام عن المتألم والمريض.

— : إرفق بنفسك يا بني، لقد أصبحت ثقيلة عليك. هكذا فاتحت ولدها قبل أن يحملها بين يديه إلى دورة المياه.

: لا عليك يا أماه، لا عليك.

— : آه!! لقد آذيتك يا بني، وأثقلت كاهلك.

: آذيتني!!؟ سامحك الله يا أماه، أرجو ألا أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى،

إنني شاب نشيط ومستعد لحملك إلى أي مكان وكأنك وزن الريشة.

— : زادك الله قوة يا بني ولكن...

: لا تقولي هذا.

— آه!! إنني أحتاج إلى العناية والنظافة في أماكن لم تعد يدي تصل إليها بعد أن تصلبتا وتعقدت أعصابها فلا أستطيع تنظيفها أو الوصول إليها.

: إنني مستعد يا أماء لتنظيف أي موضع في جسمك.

— سلمت يداك.. وحتى رجليّ تعقدت الآن ونصلبت وبقيت مثنيّة لا أستطيع مدّها أو كفّها.

: أنت بعيني يا أماء، فلا تحملي همّاً للوضع الذي أصبحت فيه.

— لكن الأمر سيطول عليك، سيأخذ من وقتك وجهدك الشيء الكثير.

: وهل يوجد لي أم غيرك؟! ليس لدي أعز منك، ولن أقدم شيئاً على السهر على خدمتك.

— هذا أمني فيك!! ولكن متطلبات الحياة يحتم عليك أن تعمل لتعيش، بل لتعيش معاً.

: لا شك، لكن التزامي نحوك يتقدم على أي عمل آخر.

— سلم لي هذا الجبين.

: سأنتقل الآن إلى عملي ثم أعود إليك.

— أين ذهب أبوك اليوم؟

: لقد سافر إلى البادية يستأجر لنا بعيراً نسقى عليه نخيلنا، فلقد أعطانا صاحب البعير الحالي مهلة ثلاثة أيام.

— وهل انتهت فترة إجاره؟

: نعم، قبل حوالي عشرة أيام، لكنه أمهلنا هذه الفترة حتى يحصل والدي على بعير بديل.

— كثر الله خير، إذاً إحمليني بعد أن قضيت حاجتي وأعدني إلى فراشي.

: سمعاً وطاعة يا أماء.

— إيه، الحمد لله، أعانك الله يا بني. هكذا كانت تردد بعد أن وضعها لإنها في فراشها وقرب لها الماء وانصرف إلى عمله.

ثم استأنفت تحدث نفسها، الحمد لله على السراء والضراء لقد أصبحت مقعدة تماماً لا أستطيع التحرك من مكاني، لقد تعقدت أعصاب يدي ورجلي بحيث لا أستطيع مد أي واحدة من رجلي، بل لا أستطيع أن أرفع أي شيء إلى فمي، والحمد لله على ما قدر عليّ، وقد أصبح إبني ينقلني من مكان إلى آخر كما ينقل القطعة من المتاع، يضع لي الطعام، يضعه في فمي كما تفعل الأم لطفلها الصغير، يسقيني الماء كما كنت أسقيه عندما كان طفلاً في حجري، يفرش فراشي ويضجني عليه، يضيفني علي دثاري، يسهر الليل بجاني إذا لم أنم، يتململ بحذائي ويتألم إذا أحس بأنني أعاني من بعض الآلام، ينام غير بعيد عني، يصحو لأقل حركة تنتج عني، يتيقظ لأقل نبرة تصدر مني، يتحمل البرد ليدفني بدثاره، يلتحف الغبراء ليضع فراشه تحت جنبي، يفرح ويتسم إذا رأي مرتاحة، يضحك من أعماقه لأي كلمة تصدر مني وذلك ليدخل السرور إلى نفسي، يا الله !! ما أبره من ابن !!؟ وما أطفه من ولد؟! حفظه الله وأبقاه لي.

— : ماذا ترين يا أماء؟! هكذا بدأ مسلم حديثه مع أمه بعد تردد طويل.
: بماذا؟

— : كما تعلمين لا يوجد لدينا من قوت الحياة ما يسد الرمق، وقد ضاقت علينا الدنيا بعد أن أكل الجراد غلة الزرع هذا العام والتهم طلع النخل، ولم يعد هناك من نستطيع الاستدانة منه على أمل الوفاء من تمر النخل، وقد بقي علينا الدين لعميلنا من العام الماضي.

: كل ما ذكرته صحيح، ولكن ما العمل يا بني؟

— : إنني في حيرة من أمري بين الذهاب إلى المدينة لطرق باب الرزق والاشتغال عند الآخرين، وبين البقاء بجانبك أراكم وأشرف على راحتك، وكلا الأمرين يحتم عليّ الوفاء به ولا أدري أيهما أقوم به.

: لا تردد يا بني، إنك إذا بقيت عندي سنعاني من لسعات الجوع معاً، أما إذا

ذهبت لطلب الرزق فإننا سنعيش عيشة كريمة من كسب يدك المعطاء.

— والاشراف عليك؟! —

: لن يضيعني الله، فلدى أم عبدالرحمن سوف تشرف علي ولن تقصر نحوي بشيء.

— سلمها الله من كل سوء، ولكن أخشى أن يثقل عليها الأمر.

: لا تخف يا بني، فهي امرأة تحسب الله في أي عمل تقوم به، ولكن علي أي شيء ستذهب إلى المدينة.

— هاه!! علي قدمي.

: علي قدميك، مسيرة يومين بلياليها؟! —

— لن تبعد علي مسافة أستطيع بعدها أن أحصل علي لقمة العيش الحلال.

: شد الله أزرع يا بني، وهل سبق أن دخلت المدينة؟

— كما تعلمين لأول مرة أغترب فيها عن بلدي.

: أخشى أن تضيع في المدينة.

— أضيع!! وهل ضاع أحد قبلي؟

: لا أدري، لكن المدينة كما يتحدثون عنها كبيرة الرقعة كثيفة السكان كثيرة

الشوارع يكاد المرء الذي يأتيها لأول مرة أن يضيع فيها.

— لا تخافي يا أمه، لا تخافي. أستودعك الله وسأمر علي أم عبدالرحمن

وأوصيها عليك، يقول ذلك وهو ينحني عليها ويقبل عينيها وجبينها ويودعها.

: رعاك الله يا بني ووقاك من كل سوء إن منيرة لا تحتاج من يوصيها. تقول ذلك

والدموع تنهمر من عينيها بغزارة. بينما أخذ مسلم طريقه إلى أم عبدالرحمن

وأوصاها بأمه خيراً، ثم اتجه صوب المدينة علي قدميه متسلحاً بعصى في

يده، وقد تحزم بحزام يشد صلبه ليذهب عنه لسعات الجوع التي تلوى جوفه،

واستمر في مسيره يقات من وريقات بعض الأعشاب، ويربوع اصطاده في

طريقه تلك الليلة، وهكذا واصل ليله في نهاره حتى أطل علي المدينة، فبهرتة

مبانيها الشاهقة، وعندما وصلها أدهشته كثرة الحركة في أسواقها، عند ذلك

تذكر كلام أمه، لكنه تمالك نفسه وسار بخطى وثيدة يتعرف علي أجزاء

السوق، يتفرس في وجوه الناس بنظرات المبهور مما يرى، يركز بنظراته البلهاء على الناس والأشياء، وكأنه يبحث عن شيء قد ضاع له، وقد ذهل نفسه ونسي حالة الجوع التي يعاني منها، وقد أخذته حالة الإنبهار هذه وقال في نفسه: يا الله!! كيف أبدأ مع هؤلاء الناس؟

الكل يسعى حثيثاً، الكل ينهب الأرض نهياً!! ترى أين يذهبون؟ هذه الوجوه الجديدة التي أراها في كل لحظة من أين تأتي وأين تذهب؟ وماذا يعمل هؤلاء الناس في حركتهم الدائبة؟ إذا كان هذا عملهم بهذه السرعة فكيف يتسنى لي أن أعمل معهم؟ إذا كنت قد أتيت إلى هذه المدينة للحصول على لقمة العيش، فكيف أستطيع الحصول على ما أريد وسط هذه الجموع الكثيفة ذات الوجوه الجادة والنظرات المتحفزة؟ وهل تتاح لي فرصة بمعرفتي البسيطة، أن أنتزع لقمة العيش من بين تلك الأيدي المتقبضة؟ هاه!! ولكن الله جواد كريم، سأجد من بين هذا الحشد من الناس من يحتاج إلى عمل أستطيع القيام به حسب معرفتي فهؤلاء الناس يحتاج بعضهم إلى ما أتقن من مهارات لكنني أرى نشاط السوق يتركز على البيع والشراء وتحميل البضائع ونقلها على الدواب، وهذا ما أفقر إليه، فلعلني أخرج من معمعة هذه الحركة، وأتجه إلى أطراف المدينة قرب المزارع علني أجد من الفلاحين ممن يحتاج إلى ما أتقن من خدمة، هاه!! ولعلني أجد عند تلك المباني الجديدة التي مررت بها من يحتاج إلى عمل مما أستطيع القيام به، دعني أرتاح قليلاً بجانب هذه السارية قبل أن أستأنف طريقي نحو ما سعت إليه، وقبل أن يأخذ مجلسه على السارية شعر بيد رجل تمسك به على الكتف والتفت إليه فوجده واحداً من أقاربه الذين سبقوه إلى المدينة للاشتغال بها في فصل الصيف، وسلم عليه ثم أخذه معه إلى البيت الذي يسكنه مع مجموعة من رفاقه العمال.

وفي الصباح شق مسلم طريقه في عمل مع أحد رفاقه لأداء عمل عنيف

ينطلب ذوي العضلات القوية ويحصل في أدائه على أجر يساوي نصف ريال في اليوم مع الأكل والشرب، وهذا يعتبر أجراً مجزياً، وبعد مرور عشرة أيام على اشتغاله بهذا العمل، غلبت عليه عاطفته وتاقت نفسه للاطلاع على أمه والاطمئنان على صحتها وراحتها، فاشترى بتلك الدريهمات صاعين من «التَّمَن» الأرز العراقي مع بعض اللوازم الضرورية لأمه ووضعها في كيس صغير على كاهله واستأذن من رب العمل لمدة يومين ثم امتطى قدميه وسرى ليلته تلك بطولها وعند ظهر اليوم التالي وصل إلى والدته بعد مسيرة ثمان عشرة ساعة متواصلة، وقد أهل باطلاته البشر على والدته وأحضر لها ما تتوق إليه نفسها وقدم لها مما أحضر تلك الوجبة الشهية التي كانت تتمناها، وكان والده غائباً وقتها وفي جلسة هادئة قالت له:

- الحمد لله على رجوعك بالسلامة يا بني، هاه!! كيف وجدت المدينة؟
: أوه، مباني شاهقة، وحركة دائبة، ونشاط مستمر لا ينقطع، ووجوه كثيرة لا تكاد تعرف منها أحداً.
— أما ضعت وسط الزحام؟
: أضيع!! سامحك الله يا أماء.
— لقد خفت عليك، وأنت تعرف يا بني قلب الأم نحو ابنها.
: كما تعلمين أنني رجل والله الحمد، أكاد أقرب من بلوغ الحلم، ومن المستبعد أن يضيع أحد في سني.
— صحيح، لكن الإنسان إذا دخل المدينة لأول مرة قد يغتر ببعض الناس، وقد ينخدع ببعض الآخر سيما وأنت في غضارة شبابك.
: لا تخافي يا أماء فالرجل يعرف كيف يتصرف.
— أخبرني كيف حصلت على العمل؟
: الواقع أنني في بداية الأمر عندما رأيت كثرة الناس وحركتهم وحيويتهم قد داخل نفسي بعض الشك في عدم الحصول على أي عمل، ولكن الله جواد كريم، فقد التقيت بفلان في الشارع، وآواني عنده ذلك اليوم مع مجموعة من

الرفاق واصطحبني أحدهم إلى العمل الذي يقوم به حيث بدأت العمل منذ اليوم الثاني لوصولي.

— : وفقك الله يابني، ربما كان ذلك بسبب دعواتي فلعل ربي قد استجاب دعواتي لك منذ أن غادرت هذا المكان.

: لا حرمتنا الله من دعواتك الطيبة.

— : أرجو ألا يكون العمل الذي قمت به قد أتعبك؟

: أبدأ يا أماء، صحيح أن العمل شاق ومرهق ولا يستطيع الكثير من الناس القيام به، لكن بفضل الله ثم بقوة هذه العضلات قد استطعت إثبات جداتي والقيام به على ما يريد صاحب العمل.

— : رعاك الله يابني.

: وقد أعجب عملي صاحب الشأن ومن شدة تعلقه بي لم يسمح لي إلا بيومين فقط للعردة إليه لمدة شهر آخر.

— : منحك الله القوة والعافية وأرجو أن تكون محل ثقة من تعمل عنده.

: سأثبت جداتي إن شاء الله في كل عمل.

— : أليس من الأفضل الاستمرار في عملك لمدة أطول؟

: بلى، ولكن قلبي يأبى أن يطاوعني لأبقى مدة أطول، لقد كانت نفسي تنازعني عندما أفرغ من عملي وأفكر فيك وأنصور ما ستكونين عليه، وما تحتاجين إليه من العناية والرعاية، فلا أكاد أضطجع في فراشي حتى تأتيني هذه الهواجس، وأبقى متململاً حيناً ثم أقوم وأقعد حيناً آخر، تنازعني الهواجس، وتعصف بي لواعج الأسى، حتى أن بعض رفاقي في المسكن قد فطنوا إلى هذه الحركات، أبقى الصدر الأول من الليل أصارع أفكارى حتى يغلبني النوم بعد الإجهاد والعمل اليومي.

— : رعاك الله يابني، ووقاك من كل سوء. تقول هذه الكلمات وقد أجهشت بالبكاء وغصت ببقية الكلمات.

: لا عليك يا أماء، لا عليك. يقول ذلك وهو يرت على كتفها وينحني مقبلاً جينها.

— : وبعد أن هدأت العاصفة استأنفت: لا تخف عليّ يا بني، فالله قد هباً لي هذه
الإنسانة اللطيفة الرقيقة القلب التي تقوم بخدمتي وكأنني طفلها الصغير الذي
تمدد في أحشائها هذه الإنسانة توليني من الاهتمام والعناية مالا تولي أم رؤوم
لطفلها الوحيد.

: جزاها الله خير جزاء.

— : إنني أدعو لها يا بني مع والديّ بعد كل صلاة بأن يجزيها الله خير جزاء، وأن
يوفقها لما فيه خير الدارين وأن يذر لها الذرية الصالحة.
: إنها كفؤ، وتستأهل كل خير.

— : إذا لا ينشغل بالك نحوي مادامت هذه الإنسانة بجاني واذهب إلى عملك،
ويمكنك أن تنام وأنت مطمئن أن والدتك بأيد أمينة حفية.

: سأعود غداً إلى عملي، حتى أحصل على مبلغ من المال أستطيع به تأمين
احتياجاتنا من الطعام. يقول ذلك وهو مكب عليها يودعها.

— : وفقك الله يا بني. وتغروق عيناها بالدموع وتكتم صوتها حتى لا تؤثر عليه.

* * *

وعاد الفتى إلى المدينة منتظياً قديمه بصحبة أحد الرفاق حيث واصل
عمله لفترة من الوقت عاد بعدها بكمية من الطعام وملابس لوالديه وشيء من
الحلوى التي نزلت أسواق المدينة جديدة لأول مرة حيث أخذ منها كمية
معينة وآلى على نفسه إلا يذوقها قبل أن تذوقها والدته، حتى إذا وصل إلى أمه
فتح علبة الحلوى بين يديها وأخذ يناولها القطعة بعد الأخرى فتذوقت منها
قطعة وناولته قطعة منها قائلة:

— : تفضل يا بني فداك نفسي، إنني أعلم أنك لم تذق هذه الحلوى قبلي.

: فتبسم وقال: وما يدريك، جعلت فداك.

— : أعلم يا بني أنك لم تذوق لحم العصفور إذا اصطدته ووقع بيدك حتى تشويه
وتناولني إياه كاملاً لآكله أو أعطيك بعضه.

: وهل فطنت لمثل هذه الأمور يا أماه؟!

— : ولم لا؟ وأنا أذكر أنك تأتيني بأوائل الرطب تلتقطه من عذق النخلة وتحضره إليّ بجيبك دون أن تذوقه وأنت بأمر الحاجة إليه وأشد شهوة لأكله.
: هذا أمر بسيط يا أماء.

— : أنسيت تلك الليلة التي جلست عندي وأنا نائمة ولم ترد إيقاظي لتعطيني قطعة لحم كانت نصيبك من بين رفاقك حين اشتريتم تلك الذبيحة وطبختموها، وأكلوا لحمها ولم تشاركهم في الأكل بل طلبت نصيبك منها كاملاً وأخذته بيدك وأحضرتة إليّ دون أن تذوقه وأنت بأشد حالات الجوع وجلست عند رأسي حتى استيقظت وأكلت نصيبي منه؟
: أوه، ألم تنسى ذلك؟!

— : ولم أنس يا بني تلك الليلة التي أحضرت لي فيها لبناً في أول موسم اللبن، وجلست تهز به عند رأسي تنتظرني حتى استيقظت، وكان اللبن في ذلك الوقت من السنة نادراً ولم تذوقه حتى صحت فوجدتك جالساً بيدك طاسة اللبن؟!

: أوه، وتذكرين هذا يا أماء!!

— : وأذكر أنك قد أتيت بذلك اللبن من مسيرة يوم من رفيق لك بالبادية كل ذلك من أجلي.

: هذه أمور تدخل ضمن الواجبات التي تستحقين أكثر منها.

— : روحي فذاك يا بني.

: سلمت روحك، وأعاد الله إليك عافيتك.

— : تفضل يا بني خذ هذه، وربما عاد والدك من السفر هذا اليوم فليتك تبقى له شيئاً منها.

: لقد ادخرت لوالدي نصيبه، وإن كان لا يفضلها، إنما من باب المساواة بينكما، ولقد أحضرت له ما تشتهي نفسه.

— : ماذا تعني؟

: لقد أحضرت له كمية من القهوة وبهار الهيل وهذا ما تنوق إليه نفسه.

— : أجل كل منا قد أحضرت له ما يشتهي؟!

: نعم، أنت هذه الحلوى وكمية من السكر والشاي، أما هو فالقهوة، والهيل والقرنفل بالإضافة إلى كمية من الطعام والملابس.

— : أطل الله عمرك يا بني، ووهبك الصحة والعافية وسلمك من كل مكروه، أهذه الثياب لي؟! تقول ذلك وهي تشهق بصوت مرتفع.

: نعم، ونستأهلين أحسن منها.

— : لكنها يا بني ثياب فتاة شابة ترفل بها وترقص وتمرح.

: وأنت؟! ألسنت شابة مثل بقية النساء؟

— : آه جعل الله الدنيا شابة في وجهك يا بني ورواك من كل سوء ثم أجهشت

بالبكاء تختلط دموع الفرح بلواعج الأسى ثم أسهمت مطرقة تنأمل هذه

الأقمشة التي أحضرها وسرحت من تفكير عميق عندها قام ابنها يرد على طارق

خلف الباب، ودار في ذهنها عدد من الصور وهي تردد في نفسها، سلمك الله

يا بني ونعم الابن، لقد عوضني الله فيك عن كثرة الولد، فأنت ابني الوحيد،

ولست كبقية الأبناء، إنك تساوي العديد منهم، لقد رحمني الله عندما صرت

إلى هذه الحال بك حين أصبحت مقعدة لا أستطيع حتى قضاء حاجتي، ولا

رفع الطعام إلى فمي أو إيصال الماء إلى شفتي، عوضني الله بك، جعلك الله

لي يداً تناولني طعامي وتسقيني، تمهد فراشي وتدثرني، تحضر لي ما أريد من

مسافات بعيدة، تذهب على قدميك إلى المدينة، وتبذل من الجهد والعرق

لتحصل لنا على لقمة العيش، ثم تسرع به عائداً على قدميك لتقدمه لي

ولوالدك، لقد وهبك الله هذا الإيثار على النفس تحتفظ بالشيء الطريف لا

يتجاوز شفتيك، ولا يذوقه لسانك حتى أتعلم به قبلك، تحرص على راحتي

أشد الحرص، تسهر الليل بطوله لأنام، لا تريد إيقاظي من سبات النوم حتى لا

تزعجني وأنت تحمل بين يديك شيئاً تنهالك نفسك عليه وتمنعها، وتلجمها

بالصبر حتى استيقظ من نومي وأذوق ما بيدك، تقطع مسافة بعيدة إلى أحد

رفاقك عندما علمت أن لديه بواذر اللبن لتحضر لي شيئاً منه، وتجلس به

عندي حتى أستيقظ لتناولني إياه ونفسك تفتت شهوة له، يا الله!! ما أبرك من

ابن !!، تأتي لوالدك بالغذاء والكساء لا تنحني لضغط الحاجة تقطع البيداء

على قدميك، تبذل من الجهد والعرق ما تقيم به صلبك وترفع هامتك، لا تركع
لعامل الفاقة، تلحي من عضلات عضديك وذراعيك لترفع به كابوس العوز عن
والديك وتزيح به غبار الفاقة عن والدتك، تحب أن تفرح والديك بكل ما تتوق
إليه نفس كل منهما، الأم تحضر لها ما تريد، والأب تحضر له أعز شيء عنده
وهو القهوة، ما أبرك يابني، وما أطيب أصلك وأزكى أرومتك، وما أرحم قلبك،
وأقوى أواصر روابطك حين لم تترك أحداً من أقاربك إلا وأحضرت له هدية من
سفرتك هذه، وما أطفلك وأبصرك في تقييم الناس ومحاولة مكافأتهم، حين
أحضرت لأم عبدالرحمن من الثياب مثلما أحضرت لي، وما أمرحك حين
أحضرت لي هذه الثياب التي لا يلبس مثلها إلا الشابات، وتوخيت بأنني لا
أزال شابة أفرح وأمرح، فلك مني كل الحب والدعاء من الأعماق أن يوفقك
الله إلى خير ما تصبوا إليه نفسك وحقق آمالك في الدارين الدنيا والآخرة.

* * *

واستمر مسلم في خدمة والديه وبصفة خاصة أمه التي يقف على خدمتها
لدرجة تعوقه بعض الأحيان عن عمله بمزرعته مما جعل أباه يلومه أحيانا على
هذا الإخلال بعمله. لكنه لا يأبه بأي أمر يحول دون خدمته لأمه والسهر على
راحتها، وما إن حان فصل الصيف وبدأت أعمال البناء تنشط في المدينة حتى
استأذن والدته وذهب إلى المدينة مع السيارة التي بدأت تمر ببلدتهم مرة
واحدة في الأسبوع، حتى إذا جاء يوم الجمعة بحث عن أي سيارة شحن
تذهب إلى أهله أو تمر بقربهم، خاصة وأن هناك طريق عام للمشاحنات بين
المدينة ومدينة أخرى رئيسة تمر السيارات يوميا مع هذا الطريق، وإن كان
طريق هذه السيارات يبعد عن بلدته حوالي ثلاثين كيلاً إلا أنه كان ينحملها
مشياً على قدميه للوصول إلى والدته والإطمئنان عليها والبقاء بقربها يوم
الجمعة ثم يعود إلى عمله قافلاً إما بالسيارة التي تمر ببلدته أو مع ذات الطريق
التي جاء منها على قدميه ليعترض السيارات العائدة إلى المدينة، هذا دأبه
طيلة أشهر الصيف الثلاثة، حتى إذا أقبل الشتاء عاد إلى أهله ومعه أعز

ما تحب أمه من كساء وغذاء وأجمل هدية لا ثقة بأم عبد الرحمن، وأغلى ما يتمناه أبوه وهو طقم من دلال القهوة التي لا يملك مثلها سوى بعض الصفوة من رجال المجتمع مع ما يلزمها من أدوات عمل القهوة، وكان لهذه الهدية النفيسة أكبر الأثر في نفس والده، حيث استبدل دلال القهوة القديمة الموجودة لديه بأربع دلال جديدة من النوع النادر الثمين، وأصبح بذلك ممن يشار إليهم بالبنان خاصة إذا علمنا ما للقهوة العربية وتقديمتها للضيوف والزوار من صدى واسع رنان في المجتمع آنذاك، ولهذا السبب فإن هذا الشاب قد نال مكانة مرموقة بين أقرانه بالإضافة إلى ما أدخله في نفس والده من البهجة والسرور، وما يحيط به والدته من العطف والحنان، وذات مساء دعا والده مجموعة من الرجال المرموقين لشرب القهوة في بيته فقال أحد الزوار:

- ما شاء الله، من أين لك هذه المجموعة الجديدة من الدلال؟
: فابتسم ابتسامة الرضى وقال: هذه هدية من إبنى سلمه الله ووقاه من كل سوء، فلقد أحضرها في مجيئه الأخير من المدينة.
— هذه من النوع الممتاز.
: نعم، فلقد عوضني بهذا «الطقم» عما كان عندي من الدلال القديمة.
— بارك الله لك فيه.
: لم يكتف بهذه الهدية، وإنما أرفق بها مجموعة من الهدايا الأخرى لكافة أهل بيته ومن يرتبط بنا.
— لو لم يفعل سوى عطفه على والدته التي نسمع عنه أنه يعتنى بها عناية فائقة لا يوجد لها مثيل لكفى.
: أما عنايته بأمه، فلا أتصور أن أحداً يقوم بما يقوم به.
— ونعم الرجل، هذا ما سمعناه عنه منذ صارت أمه إلى هذا الوضع.
: لم يقتصر نفعه على أمه يا أبا سعد، إنه لا يترك فرصة يستطيع أن يخدمني فيها إلا وبذل قصارى جهده، والله إنه في بعض الأحيان يصل به الجهد والعناء مبلغاً لا زيادة عليه، ومع ذلك فهو بنيري لأداء أي عمل عني أو جلب أي مصلحة لنا جميعاً.

- من برّ والديه برّه أبنائه.
- : لا شك، وليتنا نستطيع أن نزوجه فيكون له أبناء.
- ستحسن الأمور إن شاء الله وربما استطاع هو بنفسه أن يتزوج.
- : لا شك أنه يستطيع، ولكنه مرتبط بوالدته لا يريد عن خدمتها غياباً، ولا يرضى فيها تهاوناً.
- هذا ما يرفع قدره عند ربه إن شاء الله.
- : إيه!! ولكن...
- لا تقل هذا، فشاب يسهر على خدمة والديه وخاصة والدته المريضة ويبذل الغالي والرخيص في سبيل خدمتها وراحتها سوف يرفعه الله في الدنيا إلى أعلى المراتب ويجزيه ما بذل في سبيلها أعظم الجزاء.
- : نرجو له التوفيق.
- ألا تعلم أن كل خطوة يخطوها المرء في سبيل إرضاء والديه في طاعة الله، فإن الله سيرفعه بهذه الخطوة درجة، حيث أن رضى الله عز وجل من رضى الوالدين.
- : كنت أريد أن أقول...
- أعلم أنك ستقول إنه حان على والدته، وبعض الأحيان يعطل بعض أعماله أو يؤخرها في سبيل راحتها، وأنت معذور في أحد جوانب هذا الاعتبار، لكن لا تنسى أن هذه المريضة المقعدة التي لا تستطيع تحريك أي جزء من جسمها كما يقال، بأمس الحاجة إلى من يكون بجانبها ويسهر على راحتها ليل نهار، وخير من يقوم بهذا العمل هو ابنها، وقد قام بواجبه خير قيام كما اشتهر عنه، ورجل بهذا الوضع سيرفعه الله وسينال الربح الوفير في هذا السبيل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا قد حصل على السمعة الطيبة والثناء الجميل من الناس وفي الآخرة سيجد إن شاء الله الأجر والثواب من الله.
- أكرمك الله، هكذا خرج محمد مستأذناً، ولا يزال يدور في ذهنه بقية الحديث الذي دار بينه وبين رفيقه إيه.. هكذا يفكر سالم أن ابنه مقصر نحو

عمله!! الله أكبر ما أفضله من ابن، وأبره من ولد حين يستطيع التوفيق بين خدمة والدته المريضة المقعدة وعمله اليومي الشاق في فلاحه والده!! وما أجوده من شاب حين يضيع الكثير من الشباب ما يكسبه في عمله في فصل الصيف في شراء الملابس والأموال التافهة، وتجده يبرز ما كسبه في خلال هذه الفترة في أشياء لوالده تُبَيِّضُ وجهه عند الرجال الآخرين مثل «طقم» الدلال وتجديد فراش غرفة القهوة، هذا فضلاً عما سمعت بأنه أحضر لوالدته ولزوجة عمه القائمة على خدمة والدته من هدايا نفيسة، حقاً إنه ابن بار، ولكن في بعض الأحيان قد لا يوفق الإنسان في الواجهة المقابلة لجهد، فقد يكون الابن باراً ولا يرى قبيله أثر هذه المبرة، وقد يكون الأب مجتهداً متفانياً لإسعاد ابنه أو أبنائه، ولا يجد عندهم في المقابل أثراً لهذا الاهتمام، وقد تكون الزوجة لطيفة رقيقة تحاول بكل جهدها إسعاد زوجها لكنه لا يشعر بذلك، وقد يكون الزوج متهاكماً في إرضاء زوجته وتأمين متطلبات حياتها وهي تنظر إليه بعين الجحود... مشكلة إذا فَقَدَ الوجه الآخر الذي تنعكس عليه الصورة الحقيقية لما يبذل نحوه وجزاك الله خيراً أيها الشاب الطموح الذي لا يقف طموحه عند حد خدمة والديه وإدخال البهجة والسرور إلى نفسيهما، بل يتعدا ذلك إلى أمور الحياة الأخرى، لقد حدثني ذات مرة أنه يطمح أن يتعلم، وأن يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب فيصل إلى أعلى درجات العلم والمعرفة وكان يتلهف في هذا الأمر أشد التلهف، لكن للأسف لا يوجد في البلد من سبل طلب العلم سوى إمام المسجد الذي يعلم الناس القرآن الكريم وبعض الأحاديث، وحتى هذا لم يلق حضوة عنده، ولم يلمس أي بادرة طيبة نحو تعليمه، إيه!! بارك الله فيك من شاب مكافح تصل الليل بالنهار لكي تؤدي غرضين مهمين، أحدهما خدمة والدتك وتمريضها وثانيهما السعي العاجل لتأمين لقمة العيش لوالديك ولقد ذهبت إلى المدينة على قدميك مرات ومرات لتحصل على لقمة العيش وتحرم نفسك منها فلا تذوقها قبل أن تأكل منها أمك وأبوك، وها أنت الآن تذهب في فصل الصيف وتأتي بنتاج عرقك، هذه

الأشياء التي رفعت بها رأس والدك بين الرجال، ومع هذا فإنه يتجرأ لينهمك
بأنك تقصر في أداء عملك.

* * *

كان للخبر الذي سمعته الأم المقعدة وقع هائل فجّر عندها طاقات الفرح
والابتهاج، وما إن دخل عليها ابنها حتى بادرت به بقولها:

— أحقا ما سمعت يا بني؟

: ماذا سمعت؟

— لقد سمعت إن أباك سيخطب لك؟!؟

: نعم، لقد أخبرني به عمي الآن، وكنت سأزف إليك الخبر لكن سبق كان
من نصيبك.

— ومن تكون تلك الفتاة؟

: لقد أخبرني عمي أنها «نورة ابنة عمي فهد» وقد تم ذلك بتأثير من عمي.

— أي عملك؟

: زيد بالطبع فهو الذي سعى في الموضوع ويمكن أن يتم الأمر عن قريب.

— وفقك يا بني في الدارين تقول ذلك بنغمة هادئة وصوت رزين وهي سارحة في
التفكير ثم تستأنف، وهذه الزوجة ستقل عنك أعباء عمل المنزل.

: عسى الله أن يوفق.

— إنها من نساء طبيات. وهي في نفس الوقت من أقاربك.

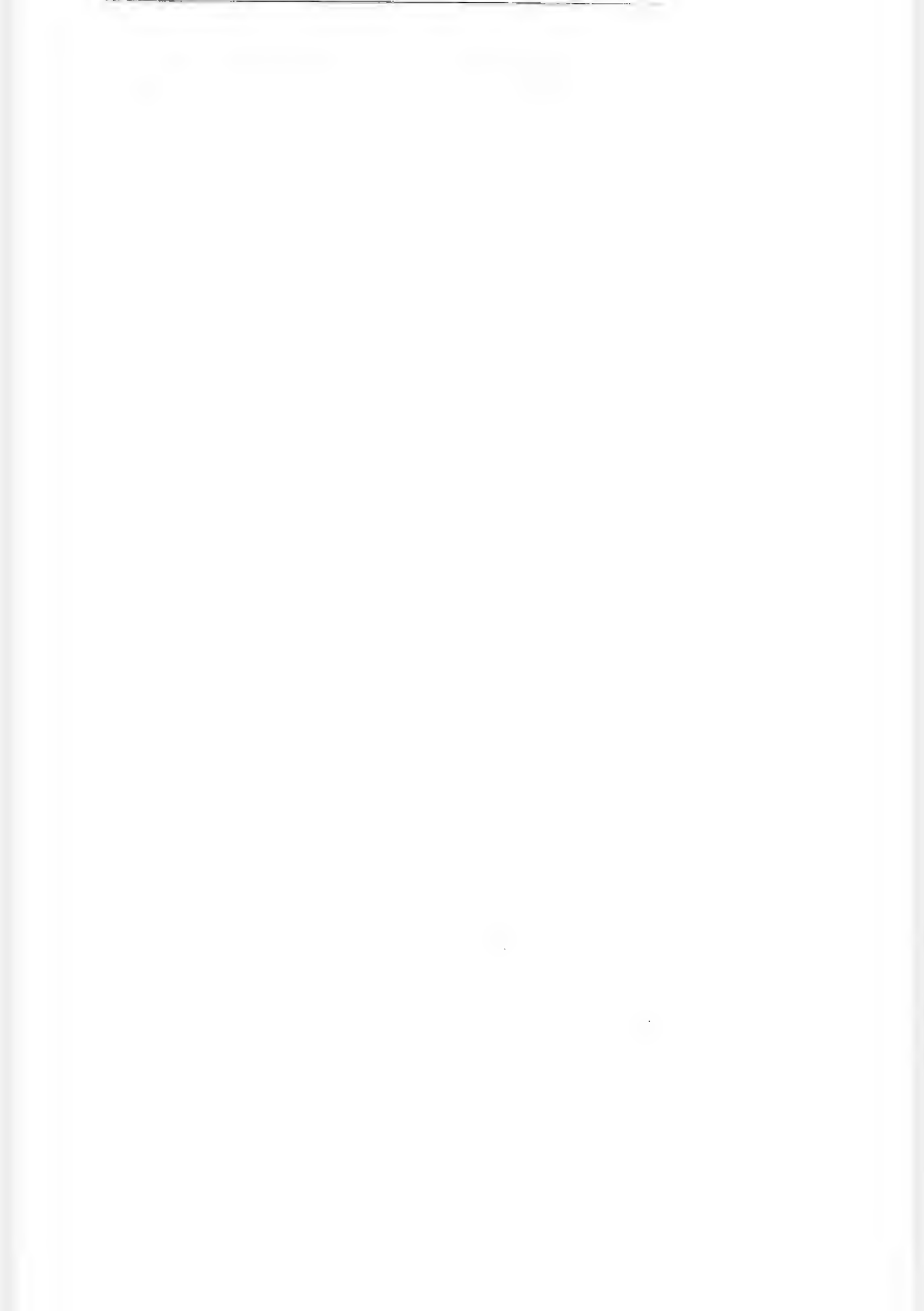
: بلا شك، أستاذك للذهاب إلى البستان، أتريدين حاجة؟ يقول ذلك وهو
يغادر المكان

ولم يمض طويل وقت حتى تم الزواج ودخلت العروس إلى بيت الزوجية
فأدخلت معها السعادة والبهجة لزوجها والخدمة المتفانية لهذه المريضة
المقعدة، وقامت بخدمة المنزل وترتيبه على أحسن ما يكون ولم يكد يمضي
على هذين العروسين العام الثاني حتى رأى الشاب أنه بحاجة إلى الدعم
المالي للوفاء بالتزاماته، فترك والديه وزوجته ونزل إلى المدينة ليكسب بـ

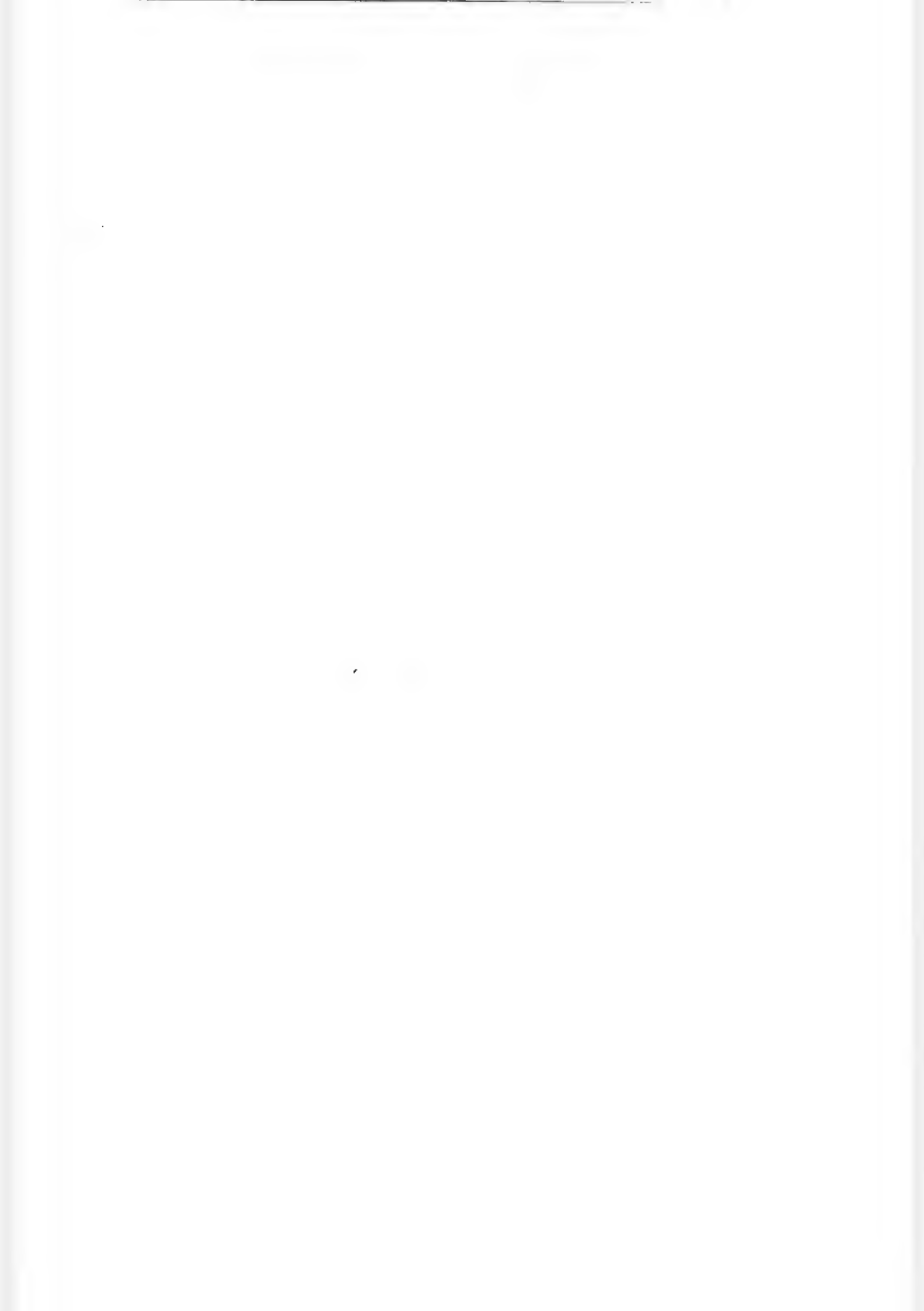
جبينه ما يقوم بحاجته، وبدأ العمل من أول يوم هبط المدينة بمادة الأسمنت التي لا يعرف أسرارها ومضارها، فبدأ يخلطها بقدميه دون أية أحذية واقية كما كان يخلط الطين وقد ظنّها مثل الطين، هذه المادة الجديدة التي دخلت المنطقة حديثاً، ولم يدرك مضارها التي تكمن في المواد الكيماوية المخلوطة معها، وبقي طول يومه بوسط خلطة الأسمنت، وفي المساء أحس بالآلام المبرحة التي حرمته من النوم، وتورمت قدماه ثم ارتفع الورم إلى ساقه، واضطر أن يعود إلى أهله في اليوم الثاني ومكث عند والديه وزوجته بضع ليال بعدها سلم روحه إلى بارئها تاركاً خلفه هذه الأم المسكينة المقعدة تحت رعاية الله ثم رعاية زوجها وأم عبد الرحمن.

ووقع الخبر على الأم وقع الصاعقة، وإن لم يقل حزنها عليه حزن والده وزوجه ووأعمامه وأقاربه، وتسرب الخبر المحزن إلى أهل بلده، إلا أن والدته فاقت الجميع في هذا المصاب الجلل، حيث بقيت حزينة كسيرة القلب محطمة النفس تنهمر زخات الدموع منها بين اللحظة والأخرى، لا تكاد تنتهي زخة من هذه الدموع حتى تتصيب أخرى، فهي تتذكره في كل لحظة، ويعصف بقلبها الألم مع كل حركة وسكون ومع كل نبرة صوت حتى فقدت بصرها من البكاء عليه، ورغم ما ينقله إليها المعزون من طمأننتها ومحاولة إعادتها إلى صوابها إلا أنها لا تتمالك نفسها، ولا تستطيع كبج جماح عاطفتها عندما تتذكره، وما الذي لا يذكرها إياه؟ تذكر ضحكته المدوية، وكلماته العاطفية الرقيقة، ولطفه المتناهي وحنانه الجم، ورحمته الفائقة، وخدمته العالية، وعزة نفسه، ورجولته وشهامته، وحديثه اللطيف الذي ينسيها حالتها التي تعيشها، وينقلها إلى حالة من المرح والحبور، كل هذه الخصال تجعلها لا تنساه لحظة واحدة وفي ساعة من ساعات الليل أفاقت مما هي فيه، وبدأت تناجي ربها قائلة: اللهم لا جزعاً مما فعلت، اللهم إنه أمانتك في يدي أعطيتني إياها فترة معينة من الزمن ثم استردتها من يدي في هذه الفترة التي كانت بيدي استفدت منها الاستفادة الكاملة، وأدت لي خدمة جليلة

قلماً يؤديها ابن لوالدته، فاللهم اجعل جنة الفردوس مثواه، واجزه خير الجزاء
على ما قدم لي من خدمة جليلة، وعلى ما بر به والده وذويه من مبرة واسعة،
وعلى ما بذل في سبيل إسعادي من عرق وجهه وتعب، وأكثر من أمثاله بين
أبناء وبنات المسلمين الذين يرعون حقوق الوالدين، ولا تفتني بعد موته، واجز
أفضل الجزاء من أحسنوا إلي من بعد ولدي وأصبحوا يعاملونني كما يعاملني
إبني، ولا تؤخر حياتي فتطرى أكثر مما ينبغي فأكون عبثاً ثقيلاً على الآخرين
يا أرحم الراحمين، هكذا كانت تردد له الدعاء في كل ساعات النهار طوال
ساعات الليل لبضع سنين عاشتها من بعده.



قصة رقم (٣٠)



«خوينا بالحق ما به جدالي»

ما إن نألت شمس ضحى ذلك اليوم الربيعي المشرق حتى ظهرت طلائع قافلة من الإبل مع الجادة المحاذية لقطين الشيخ خلف، يسير إلى جانبها وأمامها وخلفها الحرس الموكول إليهم حماية القافلة، فأشرأت الأعناق تتشوف هذه القافلة وحدقت العيون تعدد هذه الإبل التي تنوء بأحمالها، وبدأت الأطماع تدغدغ شهية ذوي النفوس الدنيئة بالاستيلاء على هذه القافلة، لكن ما يبدو من كثرة الحرس عليها جعل هذه الأطماع ترتد إلى نفوس أصحابها محطمة مبعثرة، ما كاد خلف يرى طلائع هذه القافلة حتى أرسل طليعته من رفاقه ليأتيه بخبرها، فامتطى جواده ولكده نحوها، ولم يلبث هذا الطليعة سوى وقت قصير حتى عاد بالخبر اليقين أن هذه القافلة لأحد الأمراء مرهوبي الجانب الذي لا يستطيع هو أو غيره أن يقترب منها، عند ذلك جلس القوم في رفة البيت يرتشفون القهوة ويتطارحون الأمانى بامتلاك هذه القافلة ويجترون الذكريات التي اعتاد بعضهم أن يرويها فيما غنمه في يوم من الأيام سواء أكان ذلك حقيقة أو من نسج الخيال، وما إن وازت القافلة بالقطين حتى انفصل منها صاحب بعير واحد ميمماً الحي، ومع اقترابه من القطين شيئاً فشيئاً حتى أكلته الأعين، وانهاالت التساؤلات عنه، وكثرت التنبؤات، واحتدم المحدث والظنون حتى اقترب من الفريق وأماط لثامه، وإذا هو التاجر المدني «محمد» الذي اعتاد أن يفد إلى خلف بين الحين والآخر مرتين أو ثلاث مرات كل سنة. يحضر من المدينة ويجلب معه البضائع المختلفة يبيعها على سكان قطين خلف ومن جاورهم، ويكون مقره عند خلف، إلى أن عرف «بتاجر خلف» عند ذلك فرح القوم وتباشرت النساء لما يحضره من الأقمشة والعطور التي يشتريها لهن أزواجهن أو

يشترينها بأنفسهن، وما إن وصلت الراحلة إلى بيت خلف وأناخها صاحبها حتى هسَّ خلف ورجاله وبنوا في وجه القادم وأفسحوا له المكان، وباشره عامل القهوة بعدد من فناجين القهوة حتى انتعش وانقشع عنه تعب السفر، وبعد ذلك أعطاه خلف ماء ليغتسل ويتنظف، ثم يعود ليقدّم له طبقاً من التمر مع إناء من اللبن، وبعد فترة أديرت القهوة مرة ثانية. وبدأت الأسئلة تنهال عليه فقال له رفيقه خلف:

— من أين أتيت يا محمد؟

: لقد قدمنا من المدينة واغتنمت فرصة مرور هذه القافلة التجارية بالقرب من منزلكم فاتفقت معهم أن أصحابهم لكي آمن على نفسي وتجارتي تحت حمايتهم حتى أصل إليكم.

— عسى ألا تكون قد صادفتكم مشاكل في الطريق؟

: لا يخلو الطريق من المشاكل، ولكن لهيئة القافلة وقوة حمايتها أثر جيد في طرد الأعداء عنها، فلقد قام أمير القافلة بأخذ استعداداته من الرجال المسلحين ليقوموا بحمايتها، وقد صادفنا في الطريق أفراداً من قطاع الطرق ولكنهم كانوا متفرقين وقلة قد لا تتعدى المجموعة منهم الثلاثة والأربعة وليس لهم طاقة في مثل هذه القافلة الكبيرة.

— إذا ستر الله عليكم من الغزو من أناس أقوياء فالشراذم من قطاع الطرق لن يقتربوا من مثل هذه القافلة الكبيرة.

: لقد سمعت من أمير القافلة أنه لا أحد يستطيع غزو هذه القافلة لأنها لأمر مهيب الجانب.

— هذا صحيح إذا كانت لفلان، ولكن في بعض الأحيان حتى مثل هذا الأمير يأتيه من قطاع الطرق من ينهبون قوافله ويختفرون بالجمال سيما في مثل الطريق الذي سلكتموه.

: والله لقد سمعت هذا الكلام من أمير القافلة، فقد كان هاجسه الوحيد الخوف من مثل هؤلاء عندما كنا نسير مع ريعان تلك الجبال الوعرة قرب المدينة،

وعندما خرجنا من تلك الجبال والحرار سمعته وكأنه يتنفس الصعداء قائلاً:
الحمد لله لقد اجتزنا مرحلة الخطر.

— : بلا شك فهي منطقة خطر، قد يكمن للقافلة رجل واحد أو عدة رجال في
صخرة من صخور الجبل عند مضيق أحد الريعان أو ملاوي الحرار، ويكون من
الرماة الجيدين فيقضي على رجال القافلة ويستولي عليها.
: الحمد لله الذي أوصلنا إياكم بالسلامة.

— : عساكم أحضرتم لنا أشياء جديدة وجيدة.
: لقد أحضرت معي من كل شيء جديد من الأقمشة الرجالية والنسائية والعطور
وطيب العود وأشياء كثيرة جداً.

— : كثيرة جداً وهي على ظهر هذا البعير!!
: نعم في هذا الحمل الذي تراه البركة، فلقد تحاشيت إحضار الأشياء الثقيلة،
وأحضرت معي ما خف حملة وغلي ثمنه من إبرة الخياطة حتى العود والزعفران
والهيل والقرنفل.

— : أحسن الله إليك، وما يدريك أننا محتاجين لمثل هذه البضائع، فالمدينة بعيدة
عنا، وحذرنا التي تذهب للعراق لا تكاد تحضر لنا المواد الغذائية، ثم إن
الملبوسات التي ترد للمدينة أفضل بكثير مما يأتي من العراق وذلك لمناسبتها
لنا، أضف إلى ذلك البهارات والعطور التي تأتينا عن طريق «طيبة» لا يماثلها
شيء آخر.

: متى تريد أن ترينا بضاعتك؟
: كما تريدون، لو أردتم الآن.
— : آه.. الآن قد اقترب أذان الظهر، وأخشى إن فلتت بضاعتك ألتهنا عن صلاة
الظهر حتى يفوت وقتها ولكن دعها حتى نصلى الظهر.

: كما تريدون، كما تريدون!!
— : وكيف بيعك هذه المرة؟ هل تصرُّ على البيع بالنقد أم تبيع «بالمعاريض» أعني
المقايضة شيء بشيء كما كنت تفعل في بعض المرات.
: سأبيع عليكم باليسر والمسامحة، إذا توفرت النقود من الريالات الفضية

«الفرانسي» أو «النيرات الذهبية» كان ذلك أفضل عندي وأخف وإن لم يتوفر فسوف أقبل البيع بالسمن والأقط وغيره.

— : حسناً، إذا قبلت البيع بالسمن والأقط فسوف تقبل عليك نساء الحي وربما اشتريين كل ما معك بهذين الصنفين من السلع وذلك لتوفرهما هذه السنة المريعة والله الحمد.

: سأصرف وأخذ من السمن والأقط بمقدار معين.

— : لا تخف يامحمد ستبتاع منه بأقل من سعره في سوق المدينة.

: لكن ذلك سيكلفني نقله إلى هناك ومخاطر الطريق كما تعلم.

— : لا تخف، ستبيعه بالمدينة القريبة منا وليست المدينة المنورة، وسوف تكسب فيه، وليس هناك أي مخاطر عليك علماً بأننا سنوصله لك إلى هناك.

: حسناً، حسناً!!

— : أذن ياعقيل للصلاة، وبعد الصلاة يكون خير.

: الله أكبر.

* * *

مكث التاجر عند خلف قرابة الشهر باع شيئاً من بضاعته في هذا الحي، وجلب بعضها إلى الأحياء المجاورة حتى انتهى، وبقي عند خلف بانتظار قافلة تعود إلى المدينة ليصحبها، وذات ليلة خريفية جانب النوم عينية فاستلقى على ظهره في فراشه وحلّق في خيال مجتّح مع النجوم السابحة في أفلاكها يناجي نفسه، سبحان من خلق هذا الكون على عظمتة وسعته وزينه بهذه النجوم المتألّية بعضها والمتوهج بعضها الآخر، وكأن بين غمزاتها وسكناتها سرّاً كامن لا يعرفه إلا الله!! إيه .. سبحان الحكيم العليم، نجوم وكواكب كل منها قد عرف مجراه يدور في فلكه لا يحيد عنه شعرة واحدة منذ أن خلقه الله حتى ينتهي أجله، لا يحاول أن يقترب من مسار جاره ولا يحتل مكانه، لا يزاحمه في مساره ولا يأخذه منه، فماذا لنا نحن البشر؟! ليتنا مثل هذه النجوم الكل يسير في مداره ساعياً وراء رزقة دون أن يؤذي الآخرين أو يسلب

ما بأيديهم وينهب ممتلكاتهم وربما وصل الأمر الخطر على أرواحهم، ما بالناس
 نحن البشر نسير بطريقة غير سليمة، نحاول إيذاء غيرنا بنهب أموالهم، نعترض
 قوافلهم، نضربهم ونجرحهم بل ونقتلهم لنظفر بممتلكاتهم العينية والنقدية
 وحيواناتهم، ويصل ببعضنا الأمر إلى درجة سلب ملابسهم التي على
 أجسامهم، يا الله!! ما أقساها من صورة!! وما أشنع من عمل عندما يصل
 الأمر إلى سلب الملابس، وقتل الأرواح، يا الله!! كيف لا يأمن الإنسان على
 نفسه أن يسافر من مكان إلى مكان إلا مع قافلة كبيرة تحميه حتى يصل إلى
 موطنه وأهله، أما يرعوى قطاع الطرق هؤلاء ويكفوا عن هذه الأعمال التي
 يقومون بها؟ أما يخافون الله يوم لقائه!! يا إلهي.. كيف أصل إلى أهلي؟! هل
 أصل إليهم بأمان؟ هل أصل إليهم وهذا المال الذي معي لا يزال بحوزتي
 أطعم منه أولادي وأستعيد تنمية تجارتي فأعود مرة أخرى إلى هنا، إلى جوار
 هذا الرجل الطيب؟ أم يعترضني في طريقي أحد قطاع الطرق فيسلب مالي
 بأسهل طريقة؟ سأعود سأعود إن شاء الله مع أول قافلة تمر من هنا ويثق في
 رجالها رفيقنا خلف، ولكن حتى وإن كنت مع هذه القافلة فيجب عليّ ألا
 أظهر أن معي من المال شيء ويتطلب مني أن أخفي صرة هذه الريالات الفضية
 والجنيحات الذهبية في داخل متاعي وفي وسط وعاء الطعام حتى لا يعرف
 أحد عنها شيئاً حتى من أفراد القافلة ولكن... هاه!! أخشى أن يجني وعاء
 الطعام على ما بداخله، هذا شيء متوقع لأجعلنها في صرة داخل ثيابي صرة!!؟
 قد تبين الصرة، وقد يكون من الأفضل أن أفرقها في داخل جلد حزامي العريض
 وأحزمها على بطني فلا هي تبين ولا أحد يعرف إن كان معي شيئاً من المال
 أم لا، وهل يأخذها جوف حزامي الجلدي؟ لأضع فيه الجنيحات الذهبية
 وتبقى الريالات الفضية أستطيع تدبيرها هنا أو هناك في جيوب ملابسي أو
 مثاني جبتي، ولكنها ستفضحني بصوت رنينها، هاه!! لماذا لا أخيط على كل
 مجموعة منها في مثاني جبتي الخلقة المتهلهلة التي لا يطمع فيها حتى قطاع
 الطرق، ولكن لو اعترضنا قطاع طرق وكانوا من ذوى النفوس الرديئة، وسلبونا
 حتى ملابسنا فلا شك ستكون الكارثة بالنسبة لي، سيأخذون كل ما جمعته

وما ربحته، ولكن... أين سأضع هذه النقود وأخفيها...؟ إيه... لا يسعني في هذه الحال إلا أن أطلب من الله الحماية والستر، وسوف أتأكد من ضمان القافلة التي سأرافقهم إلى المدينة حتى لو طلبوا مني مبلغاً مضاعفاً من المال على ما يأخذه من غيري، وذلك ضماناً لسلامتي وصيانة لمالي، ولقد وعدني رفيقي خلف أن يتأكد من القافلة التي سأصاحبها أمانة وقوة ومنعه ضد المعتدين، وسأعود إن شاء الله إلى هنا بعد ذلك في وضع أحسن.

* * *

طال غياب التاجر محمد الموني، وكاد أن ينساه فريق خلف لطول غيبته عنهم، وكان يحضر لهم الكثير من البضائع الممتازة، وذات يوم جلس إلى خلف مجموعة من رفاقه في رفة البيت يتذكرون رفيقهم فقال رديني:

— ترى أين ذهب رفيقك ياخلف؟

: من تعني من رفاقي؟

— أعني رفيقك التاجر محمد الذي انقطع عنا منذ أكثر من سبع سنين.

: آه، لقد غاب عنا من ذلك الحين ولم نعرف له أي خبر غير أن أحد رجالنا في العام الماضي قد أخبرني أنه رآه بالمدينة وقد حمّله لي ولكم السلام.

— ما باله قد انقطع عنا؟

: الله أعلم، قد يكون تعب من السفر خارج المدينة، وقد يكون تهيب المجازفة في ماله ونفسه عبر هذه الطريق الخطرة.

— وربما تضععت أحواله وقلت تجارته؟

: لا أظن ذلك ياثويني، فالرجل لديه أموالاً كثيرة حسب إفادته، إلا أن يكون أصيب بكارثة أو خسارة أفقدته أمواله.

— وقد يكون بقي له ديون عند سكان حينا أو الأحياء الأخرى؟

: أما هذا فلا، لقد استوفى جميع أمواله وأخبرني عندما ودعني أنه لم يبق له أي مبلغ على الناس.

— أجل ما باله توقف عنا كل هذه المدة؟ سيما وأنه أفاد من هذه السفرة التجارية

: ربما أنه ينوي أن يأتينا بتجارة أكبر من تلك التي يأتينا بها على بعير واحد.
— وهل يستطيع أحد الآن أن يحضر تجارة بقافلة كبيرة؟
: نعم كما يفعل كبار التجار.

— حتى لو أراد فلن يتحمل حيناً استيعاب تجارة لقافلة من الإبل.
: حتى لو لم نتحملة فبإمكانه أن يصل إلى الأحياء المجاورة لنا أو إلى هذه القرى المتناثرة حولنا، وفي نهاية المطاف قد يجلب بقية ما معه إلى تجار المدينة المجاورة لنا.

— صحيح، سيفعل كما يفعل في المرات السابقة، يترك الثقيل من تجارته عندك، ويتردد بالخفيف منها يبيع منه شيئاً حتى يستفد ما معه.
: إيه كالمعتاد.

— لقد فقدنا والله طيبَ العود الممتاز والبهارات الفاخرة من الهيل والقرنفل، كما افتقدت نساءنا الملابس الزاهية الناعمة والمتينة، والحلي الذهبية وعقود الخرز من المرجان وغيره.

: إيه.. ربما سيعود، وكل حيٍّ على الحيِّ عائد.
— لا أعتقد ذلك، أبعد سبع سنين يعود هنا؟
: الحي يعود، ولو بعد عشرات السنين، وما الذي ذكرك بهذا التاجر يارديني؟
— ذكرتني إياه ابنتي الصغيرة، التي تسألني هذا الصباح قائلة: متى يعود التاجر محمد لكي تشتري لي أمي منه «خصور ومخناقة»؟
: ومن أعلمها به؟

— تقول إن أمها قد وعدتها إذا عاد التاجر أن تشتري لها تلك المنظومات الخرزية التي يعلق بعضها في العنق «المخناقة» وبعضها بمعاصم اليدين وهي «الخصور».

: ما أطيب نفسيات الصغار!! يتعلقون بالوعود الصادرة من والديهم حتى وإن كان بعضها من باب التسلية والتعلة.
— لكن عاد لأشتري لإبنتي منه ما يسمح نفسها.

: سيعود إن شاء الله، سيعود.

* * *

لمح محمد عند بعد في المسجد النبوي أحد الرفاق الذين عرفهم عند صاحبه خلف، وحاول الوصول إليه لكن زحمة الناس عند الخروج من المسجد أضاعت عليه الفرصة، ووصل إلى دكانه وهو يمضغ الأسف لإفلات هذا الرفيق منه وعندها تذكر أولئك الرفاق وما جناه من الأرباح بقربهم وتلك الليالي والأيام الحلوة التي قضاها عندهم فعقد العزم من فوره على معاودة الرحلة إليهم، وسيحمل معه هذه المرة بضاعة كبيرة وأصنافاً كثيرة على مجموعة من الإبل بقافلة كاملة، وأخذ يعد العدة لهذا الأمر محاولاً الاستفادة من موسم عودة قوافل الحجاج إلى بلدانهم وذلك للاستئناس بقربهم حتى يصل إلى هدفه ولم يمض بضعة أيام حتى جهز الأحمال واستعان بأحد أصدقائه ليصاحبه في هذه الرحلة التجارية، وعندما سارت إحدى قوافل الحجاج العراقيين سار معهم بعد أن نسق مع أمير القافلة بما يلزمه من مال لقاء حمايته وقافلته حتى يصل إلى مبلغه، كان يماشيه يبيت مبيتهم، ويقبل مقبلهم ويرد مواردهم، حتى إذا وازى مواطن رفاقه ودع صاحبه من الحجاج وأخذ الانجاء الذي يريده، وبعد مسيرة يوم كامل حين بلغ منتصف الطريق إلى رفاقه، صادفه ركب من الغزو من قبيلة رفاقه بقيادة عقيدهم «سعد» حيث عدوا هذه الحملة غنيمة سعت إليهم دون أن يقصدها ويحثوا الركاب نحوها فأخذوها بكاملها من صاحبها ورفيقه وقد أخبر التاجر عقيد الركب: إنه التاجر الحضري الذي يأتي دائماً إلى «خلف» غير أن العقيد ورفاقه لم يأنهوا لأقواله ولم يعيروها أدنى اهتمام أمام إغراءات البضائع التي يسيل لها اللعاب، سيما وأنهم اعتبروها غنيمة باردة سعت إليهم، وسار التاجر ورفيقه على قدميهما بعد أن سلب ما بأيديهما من الأموال والبضائع، وحلاً ضيفان عند أحياء العرب الواحد بعد الآخر يقيمان في هذا الحي يومين أو ثلاثة حتى وصلا إلى رفيقهما خلف.

أما سعد ورفاقه فقد عادوا من غزوتهم تلك ومعهم هذه البضائع التي سلبوها من صاحبها واقتسموها فيما بينهم، وأخذ كل واحد منهم ما خصه من القماش والأشياء الأخرى فوزعها على أهله وذويه، وانتشر الخبر في الأحياء العديدة من عشائر سعد، وتناقلت الركبان الأخبار إلى أن وصل الخبر إلى خلف قبل أن يصل رفيقه التاجر، من أن رفيقه التاجر الحضري قد استلبه ماله أحد رجال قبيلته، فلم يغمض له جفن ليلة سمع الخبر وتأكد من رفيقه فأخذ يعد العدة للتوجه إلى سعد لمطالبته بإعادة ما أخذ من رفيقه، وعزم على اصطحاب اثنين ممن يثق بهم من جماعته في الصباح الباكر متوجهين إلى ديار سعد، وبقي تلك الليلة متكئاً على شداد مطيته الموجود بمجلس الرجال من بيته وهو يضرب أحماًساً بأسداس ويتساءل: كيف تجرأ سعد على خفر ذمتي حين أخذ تجارة رفيقي الذي قد أخبره أنه رفيقي وجاري منذ سبع سنوات خلت، صحيح أن المدة طويلة ولكن يكفي علمه أنه رفيق لي في يوم من الأيام، أما يكفيه أنه ذكر اسمي؟ ألا يعرف من أنا؟ أيعني هذا تهاوناً بوجهاتي؟، ألا يعلم أنني عقيد مثله؟ هل غاب عنه أننا من قبيلة واحدة وأبناء عم يقدلني ما يقذله؟ هل أراد النقيصة لي بهذا العمل؟ هل أعمته الرغبة في هذه الأصناف المتعددة من البضائع فنسى أنها بوجه إنسان سيطالب بها، وإذا طالب بها فسوف يحصل عليها بكل تأكيد؟ لقد أخطأ حدسك ياسعد، أما تعلم أن بضاعة هذا التاجر ستعود إليه بعينها أو أقيامها وأرباحها كاملة غير منقوصة؟ آه!! ليت هذه الفعلة من غيرك ياسعد، لكان ذلك أهدأ للنفس، وأبرد على القلب، ولكنها جاءت منك، وفي هذه الحالة فلا مناص من المطالبة فيها وردّها إلى صاحبها مهما كلفني ذلك، يا الله!! يكفيك ياسعد أنه ذكر اسمي عندما داهمته أنت ورفاقتك، المفروض أن تحميه حتى توصله إلى هدفه، لا أن تأخذ ماله وتتركه يتنقل بين القبائل والأحياء ويروي لهم ما حدث له، إيه... سوف تعيد له كل شيء إن شاء الله.

* * *

وفي الثالث الأخير من الليل امتطى خلف وصاحبه أكوار مطيهم متوجهين إلى هدفهم وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصلوا إلى حي سعد حيث حلوا ضيوفاً عليه، فأكرمهم غاية الإكرام وفي جلسة هادئة قال خلف:

— لقد جئنا إليكم لغرض ذكر عندكم.

: غرض!! أي حاجة لكم فاعتبروها بحكم المقضية.

— هي حاجة ولا كل الحاجات.

: هاه!! ماذا تعنى ياخلف!!

— أعنى مال التاجر الذي أخذتم. يقول ذلك وهو يتسم.

: آه!! مال التاجر!! يقول ذلك بنغمة مجرورة.

— نعم، هذا ما جئنا من أجله.

: إيه!! تلك غنيمة عرضت لنا واعتبرناها فرصة سانحة فأخذناها واقتسمناها في

وقتها مثل أي غنيمة نحصل عليها.

— ولكن هذه تختلف عما سواها.

: كيف؟

— ألا تعلم أنها بوجهي!! يقول ذلك بلجة تعجب.

: بوجهك!! يقول ذلك مستغرباً.

— نعم، أما قال لكم صاحبها إنه رفيقي!!

: بلى... ولكن...

— ولكن ماذا؟

: لقد أخبرنا أنه التاجر الذي نزل عندكم في سنة من السنين.

— ألا يكفي هذا لحمايته منكم؟

: أوه!! لو أن كل من نزل عند أناس ضفى عليه ستارهم لما وجدنا من نأخذ من

ماله شيئاً، فكم نزل عندك وعندي من الناس من الضيوف والتجار وعابري

السييل ولم يمنعهم نزولهم عندنا أو حلولهم ضيوفاً علينا.

— ألا تعلم أنه ذاق ملح زادي؟

: بلى أعرف، ولكن لو كان كل من نزل عندك وطعم من زادك منعه أو منعت

الناس منه لأصبحت شيئاً آخر.

— : بل إن ذلك يمنعه.

: والله لو كنت الحاكم لما قلت ما قلت.

— : كل واحد دون حقه يأسعد.

: أنا لا أعتبر لك حقاً عندي، أمن أجل ذلك التاجر الذي قال أنني التاجر

الحضري الذي كنت أسكن عند خلف قبل سبع سنين وأتاجر عنده، تريدنا

أن نكف عن غنيمة عارضة لنا؟

— : المهم أنني أطالبكم بإعادة مال التاجر.

: أوه، ذاك مال أخذناه واقتسمناه ولم يبق منه شيء.

— : ولكنني أطالبكم برد قيمته.

: قيمته!! وهل أنت جاد في كلامك أم تمزح؟

— : الكلام جد وليس فيه مزاح.

: ماذا دهاك يا خلف؟

— : أنت تدرك موقفي تماماً، أما علمت بأن العرب أصبحت تتحدث منذ جرت

الحادثة من أنني مخفور الذمة ليس لي هبة عند أقرب الناس إليّ وهم أبناء

عمي فما بالك بأبعد الناس عني؟

: لم أسمع مما تقول شيئاً!!

— : أنت رجل عاقل ومدرك، وتعرف كل شيء ولكنك تتغابي عن مثل هذا الأمر

الذي لا يمكنتني السكوت عليه.

: يارجل، أنت تعرف أن الناس يغزو بعضهم بعضاً، ويكسب بعضهم من بعض،

وأحياناً يحدث ذلك من فروع قبيلة واحدة، ويفنى في سبيل ذلك من الرجال

العدد الكثير للحصول على الغنيمة، فما بالك تتجاهل الوضع الذي نعيشه؟

ثم تأتي تطالبني بغنيمة ظفرت بها مع رفاقي واقتسمناها في حينها!!

— : دعنا من هذا يأسعد واسمع ما قلته لك.

: أما ماقلته فلن أسمع منك.

— : أنت ابن عمي ولك مكانة في نفسي ولا أريد أن يقع بيننا الشر من أجل توافه المال.

- : أتهددني!!؟ عليك أن تُعِنَّ من خيلك عشر.
- : لم آت في بيتك لأهددك، وإنما أطلب منك اللجوء إلى العقل وتدارك الأمر قبل أن يقع الشر.
- : ماذا تعني بالعقل؟
- : لو لم يذكر الرجل إسمي وأخذتموه لما جئت أطلبكم، ولكنه مادام ذكر إسمي فلا بد أن أرد إليه ماله بأي ثمن.
- : لن أعيده إليك أبداً.
- : إن كنت ابن عمي ولي عندك من القدر مالك عندي فأعد إليّ مال الرجل.
- : هاه!!
- : ليحكم بيننا واحد من أعقل الرجال.
- : نحكم!! نحكم!! لا أعقل عندنا من «العارفة»
- : سمع ما شئت، المهم إنه الرجل الذي تحتكمون إليه في حل المنازعات وإصلاح ذات البين.
- : وماذا سيقول في مثل هذا الأمر؟
- : ليقول ما يقول، فهذا شأنه.
- : مادام الأمر هكذا فلا بأس من تحكيمه، فهل ترضى بحكمه؟
- : إذا كان غير منصف ورضى به من يحضر من عقلاء الرجال.
- : إذا تنتظره حتى يعود من سفره بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

وأما خلف يومه ذاك يدافع عن رأيه في مختلف المنتديات والمجالس والمقاهي التي يدعى لها، فوجد بعض الآراء التي تؤيده لكنه يجد الكثير من الآراء المعارضة لوجهة نظره سيما وأن معظم الناس يعدون ذلك غنيمة عارضة وكسباً مباحاً قد تعارف عليه هذه الشريحة من المجتمع، ولكن ما يمس سمعته وتخثر ذمته هما اللذان يشفقان له عند الكثير من الناس، وفي المساء عندما أوى إلى فراشه تمثلت أمامه فقرة من الحديث الذي دار بينه وبين سعد وهي قول سعد: إن الناس يغزوا بعضهم بعضاً، وينهب أموال بعضهم البعض

الآخر، فكان لهذه الكلمات المتتابعة وقعاً سيئاً في نفسه، كيف يتجرأ الإنسان على قتل أخيه الإنسان واستلاب ماله؟ بأي حق يهدد دمه؟ بأي مبرر يستبيح ماله؟ لأي شيء يحدث هذا؟ أنسى الناس أنهم مسلمون يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت؟ بأي شرعة يسبرون؟ وكيف يتسنى للواحد منهم أن يفعل ما يفعل بأخ له عربي مسلم وقد يكون من قبيلته وعصبته؟! هل إن الجهل بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف قد ران على العقول، فأعماها عن طريق الصواب، وسلك بعض من طمس الجهل على عقولهم هذا المسلك؟ أم هل بلغ بهم حد الجوع والعوز إلى أن أنساهم نصوص تعاليم دينهم؟ هل بلغ بهم الفقر إلى هذا المستوى فجعلهم يأكل بعضهم بعضاً؟ لا أظن ذلك فإن لديهم الآن من سبل العيش ما يسد رمق الفقراء منهم أما الأغنياء والأقوياء جسدياً وهم الذين يقومون بعملية الغزو فإن لديهم من لقمة العيش ما يكفيهم عن احتلال أموال الآخرين، أم ترى هذا العمل العدواني يحفزه اعتبار اجتماعي بادعاء الشجاعة والفروسية والبطولة؟! هذا الإدعاء الذي تعود جذوره إلى الجاهلية الأولى، قد أبرضت أغصانه الهامدة منذ أمد بعيد ونثرت وريقاتها وترعرعت أغصانها من رذاذ الجهل الذي غطى على معالم نصوص الدين الإسلامي، وأصبح الشاب منذ أن يشب على الطوق وهو يتطلع إلى اليوم الذي يغزو فيه مع رفاقه ويعود بالغنيمة التي اكتسبها بنفسه أو مع رفاقه وبذلك يكون حديث المجالس والمنتديات، ينظر إليه بإجلال واحترام، يقدره رجال عشيرته، تعزز به أمه وأخته وابنته وعمته وخالته، وتتشوق إليه صبايا عشيرته، وتأنس بوجوده فتيات حيّه من أجل أنه أحضر هذه الغنيمة المنهوبة من مَنْ؟ قد تكون من حي من أحياء العرب المجاورين له، وقد تكون من أحد أحياء قبيلته، هذا لا يهم، المهم أن يكون هذا الحي الذين أغار عليهم من المستضعفين، أو الذين يشعر الغزاة أنهم أقوى منه، وأحياناً يقع الغزاة بقوم أقوى منهم فيذهب بعضهم أو أكثرهم ضحية لهذا الطمع الذي سعوا إليه على أقدامهم أو ظهور مطيهم وربما عاد من يكتب له النجاة منهم على قدميه، فيهلك من العطش

ويلحق برفاقه الذين ماتوا تحت غبار المعركة، كل هذا من أجل الطمع في الحصول على المال، أو الحصول على لقمة العيش، يا الله!! بإمكان هؤلاء الغزاة الذين يذهبون إلى رفاقهم وبني جلدتهم ليقتلوهم ويستلبوا منهم أموالهم بإمكان هؤلاء أن يتخذوا طرقاً أخرى للحصول على لقمة العيش الحلال بالطرق المشروعة، كفلح الأرض وزراعتها وتنمية مواشيتهم والاقتناع بما عندهم من الرزق، والابتعاد عن هذا التفاخر بالبطولات الزائفة التي تكون لبعضهم على البعض الآخر كما قال الشاعر:

وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أختانا
وادخروا طاقة هؤلاء الشباب التي تذهب هدراً في أمور تعود عليهم بالنفع، ووفروا من يسقط من زهرة أولئك الشباب وثمار أولئك الكهول في ميادين القتال من أجل عصص بعير أو أذن شاة أو قرن عنز أو هرس بيت أو أخلاق ملابس أو لقمة طعام، وبقي أولئك الشباب والكهول والشيخوخ لتكاثر عددهم وملأوا هذه الصحاري الشاسعة والبراري المقفرة، ولو تنازلوا عن ذلك الافتخار بالأفعال المشينة من بعضهم ضد بعض وعاشوا جنباً إلى جنب في مودة وأخوة حقيقية، لو عاش الناس كذلك لما تجرأ ابن عمي على أن يأخذ إنساناً سبق أن جاورني وذكر اسمي على مسامعه مما اضطرني إلى الدفاع عن وجهي برد أمواله إليه بأي شكل من الأشكال.

وبعد فترة قدم العارفة إلى الحي فحضر عنده سعد وخلف لي طرح كل منهما وجهة نظرة فقال خلف:

— لقد حضرنا إليك لتحل مشكلتنا.

: أي مشكلة هي؟

— لقد أخذ سعد هذا الجالس أمامك أموال جاري.

: أخذ أموال جارك!!

— : نعم.
: بأي حق يأخذها؟
— : كما تعرف أن من عادت العرب ألا يسمح لأحد أن يعتدي على جاره أو أن يمس شيئاً من أمواله.
: بلا شك، هذا شيء متعارف عليه، وإن كان أخذ شيئاً من مال جارك فيجب أن يرده إليه فوراً، وإن اعتدى عليه فالمفروض أن يرد اعتباره دون أدنى مواربة.
— : مادمت حكمت بهذا فيجب أن تجبره برد ما أخذ من جاري.
: ليس قبل أن تعرف ما عنده.
— : هاه!!

: نعم، ما عندك يأسعد؟
— : لقد خرجنا للغزو كما هو الحال في هذه الأيام طلباً للرزق وصادفنا حملة صغيرة معها رجلان يدعى أحدهما أنها ملكاً له، فأخذنا الحملة باعتبارها غنيمة لهؤلاء الغزو واقتسمناها فحاز كل واحد منا نصيبه.
: لكن خلف يقول إنها لجاره.
— : أبداً، ليست لجاره وإنما هي لتاجر من حضر المدينة كما يدعي.
: وما الذي جاء به لخلف إذا؟
— : يدعي خلف أنه سبق وأن نزل بجانبه بتجارته في سنة من السنين يبيع بضائعه لفترة ثم رحل شأنه شأن التجار الذين يتنقلون في أحياء العرب وينزلون بقرب البيوت، يبعون ويشتررون، يقيمون اليوم واليومين ثم يرتحلون إلى حي آخر.
: آه!! إذا الوضع هكذا.

— : نعم هكذا، ولو أن كل واحد من أهل الحي ادعى جيرة مثل هؤلاء التجار الذين يعدون بالعشرات ينزلون كل يوم في أحياء العرب لتغير مفهوم الجار المعتبر.

: صحيح، إن التجار كثيرون كما أسلفت ويحلون بأحياء العرب للبيع والشراء لمصلحتهم، وغالباً ما يكونون على حسابهم في طعامهم وشرابهم، إلا أن يدعوهم أحد لتناول القهوة والطعام والشراب، ثم إن هذا الرجل ليس عند بيته

أو قريب منه حتى يدعى علينا بهذا الادعاء وإنما كان بوسط البرية حيث وقع بيد هذا الفريق من الغزو الذين أخذوا ما معه واقتسموه، ولو لم يأخذوه هم لأخذه غيرهم.

: بلا شك فالوضع في هذه الأيام مضطرب والقوي يأكل الضعيف.

— : إذا أنا رجل غير ملزم بما ادعاه على خلف.

: حتى نسمع رأيه الأخير. ماذا تقول ياخلف؟

— : أقول إن الجار جار، سواء نزل عنده يوماً وليلة أو حتى ساعة وذاق ملح وطعم زاده وشرب من قهوته فهو جار له ما للجار وعليه ما عليه حسب عادات العرب المتعارف عليها.

: ينبغي سعد قائلاً: إذاً على هذا الاعتبار ينبغي لك أن تدافع عن كل إنسان نزل بقربك في يوم من الأيام!!

— : يرد عليه خلف: إن هو استنجد بي واستعان بي فسوف أدافع عنه بكل ما أملك.

: هذا شيء متعب بالنسبة لك، إذا كنت ستدافع عن كل إنسان. هكذا يرد العارفة.

— : سأتحمل أي متاعب، أعتبرها دفاعاً دون جاري.

: متى جاورك الرجل؟

— : قبل حوالي سبع سنين.

: إيه.. هذا وإن اعتبر جاراً فمن المرتبة الثالثة.

— : لا تقل هكذا، فالجار يعتبر جاراً وإن طال الزمن، فوالله لو أخذ ماله رجل غير سعد لكان ذلك أبرد على نفسي ولاستعدت مال جاري بالقوة، ولكن عند أبناء العم يجرى في النفس استعمال القوة مادام هناك مجال لاستخدام العقل، أما يكفي ابن العم سعد أن هذا الرجل قد ذكر اسمي حين قال له: إنني جار خلف؟

: أه... هكذا الرجال أصحاب الشهرة كل واحد يحاول أن يستظل بظلهم ويستفيد من سمعتهم.

— : وهم بالمقابل يحمون جيرانهم ويصونون سمعتهم.
: على أي حال حسب رأيي: أنه ليس لك عند سعد شيئاً فالرجل مع رفاقه في غزوة وصادفوا غنيمة فأخذوها كما هو الحال بالنسبة لك، وأنت تعرف أن الناس في هذا الوقت يغير بعضهم على بعض وينهب بعضهم بعضاً.
فتنهذ خلف وقال: وهذا آخر ما عندك!! سأذهب إلى من هو أقدر منك على حل هذه المشكلة.
: إذهب لمن تريد فلن تجد غير ذلك.

* * *

وغادر خلف المكان مغضباً وهو يتمتم بكلمات لا يفهمها حتى من كان واقفاً عنده وهو يقول في نفسه: أهذا عاقل القوم وعارفتهم الذي يرجعون إليه في حل المنازعات؟! سبحان الله.. لماذا نحتكم لمثل هؤلاء وعندنا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ يا الله!! ما لأمثال هؤلاء الرجال الذين يتدخلون في أحكام هي من شأن الشرع؟ لكن الشرع أساساً لا يقر مبدأ الغزو والسلب والمسلوب، فهذا مما حرمه الإسلام ونهى عنه، وقد التزم بهذا المبدأ غالبية الناس في حين ندد عنه بعضهم، واتبعوا هذه الطريقة العدوانية، وبدأوا يحاولون حل ما يترتب عليها من مشاكل عند مثل هؤلاء الرجال الذين يكون في العادة ممن يحفظون العديد من عادات الأعراب وتقاليدهم، ويتصفون بالهيبة والوقار عند أفراد عشائرتهم، إلى جانب ما وهبهم الله من الذكاء الفطري لهذا السبب رضى بهم أفراد قبائلهم وعشائرتهم لحل مشاكلهم الصغيرة التي لا يستدعي حلها اللجوء إلى النصوص الشرعية أو التي لا يقرها الشرع أساساً، ولهذا كنت ممن لجأ إلى مثل أولئك، ولكن هذا الرجل الذي تداعينا عنده قد يكون لديه بعض التحيز لسعد لأنه من أفراد عشيرته، ولأن سعداً يتمتع بمكانة مرموقة بين أفراد عشيرته وربما كان لهذا الاعتبار ما رجح كفته عليّ، صحيح أننا من قبيلة واحدة ولكن كل واحد منا من بطن من بطون هذه القبيلة فربما مال معه ضدي لاحتياجه إلى سعد أكثر مني في كثير من شئون حياته هاه!! هل أنا

محق فيما أرمى إليه؟ أم أن ذلك من وساوس الشيطان؟ ولكن حتى لو افترضنا أن الأمر كما يدعى فليس ما أصدر من حكم يعتبر أمراً عادلاً، فلو أنه كان بموقفي لما رضى عن مطالبة خصمه بديلاً، آه.. لو أن هذا «العارفة» استند إليه أحد وذكر اسمه كما حصل لي لاكتسب الحصانة ضد أي معتد عليه، ولوقف هو يدافع عنه بقوة وثبات حتى يحصل له على استرداد حقه غير منقوص، وهذه من أقل ما يطالب به العربي إزاء من التجأ إليه، أو طالبه بحق كما هي عليه عادات العرب ومروءاتهم، فكيف إذا يملأني من حقي؟ ويدعى أن مطالبتي ليس لها وجه حق؟ ولكني لن أترك مال جاري يذهب هدراً مهما كلفني الأمر، سأذهب إلى من هو أعلم منه بهذه الاعتبارات، ومن بطن ثالث من بطون قبيلتنا حتى أكون أنا وهو بعينين بعض الشيء عن هذا البطن الذي ستداعى عند «عارفته» فلعله أن يصل إلى حل أقنع به ويزيح عن نفسي مما أكابده من معاناة إزاء مال ريفي الذي استلب من بين يديه، أترى هذا الرجل الذي سندهب إليه سيدرك ما أعانيه من هذا الموقف؟ أم أنه سيصم أذنيه ويتجاهل تأثير هذا الموقف على نفسي وعلى سمعتي؟ وهل ترى سعد يوافق معي للذهاب إلى ذلك الرجل في البطن الثاني من قبيلتنا على مسافة خمسة أيام؟ أم أنه سيحزن عن المسير ويكتفي بما توصل إليه عارفة عشيرته؟ لا شك أنني سأجد من يساعدني عليه من أعيان عشيرته أو رئيس العشيرة، هذا إن لم يسر من نفسه دون الإشارة من أحد.

وفي اليوم التالي طلب خلف من سعد الحضور عند رجل من فرع آخر من قبيلتهم، فلبى سعد طلبه، وسافر الإثنين إلى الرجل الذي اختاره خلف، وبعد مسيرة بضعة أيام وصل الركب إلى ذلك الرجل، فحلوا مع أصحابهم ضيوفاً على الحي حيث فرح أمير الحي وسكانه بهم وأكرمهم بما يستحقون وبعد أن استراح الركب اجتمع خلف وسعد عند «عارفة» الحي فقال لهم:

— ماذا تريدان ياخلف، وسعد؟

: نريد أن تحل خلافاً قد حصل بيننا.

- : أي خلاف تعني ياخلف؟
- : لقد اعتدى سعد وفاقه على سمعتي وأخذوا مال رجل ذكر لهم أنه بمعرفتي وسبق أن جاورني.
- : زدني تفصيلاً فيما حدث.
- : سرد خلف عليه ما حدث ثم أردف قائلاً: والآن أنا بوجه الله ثم وجهك أن تحل هذا الإشكال مع ابن عمنا.
- : إذا كان هذا ما حدث بالضبط فإن سعداً قد أخطأ.
- : جزاك الله خيراً، إذاً فالحق لي.
- : لا بأس ولكن لنستمع إلى رأى سعد، ماذا عندك يا سعد؟
- : لم أعتد على مال جاره أبداً.
- : أخبرني بما حدث بالضبط.
- : قص سعد ما حدث فيه ومن رفاقه وبين له الظروف والملابسات التي حرت فيها هذه القضية.
- : والله إن الأمر بينكما يكاد أن يكون متساوياً.
- : كيف يكون كذلك وأنت تدرك تمام الإدراك ما تعنيه شيم العرب وعاداتهم وتقاليدهم. هكذا تكلم خلف.
- : لا شك أنني أدرك ذلك لكن الأوضاع السائدة في هذا الظرف بالذات ربما أوجدت مبرراً لما فعله الرجل.
- : مهما كانت الظروف، فالعربي يبقى متمسكاً بعاداته وتقاليده وعلى العكس فإنه يحافظ عليها في أوقات الشدة أكثر مما يحافظ عليها في وقت الرخاء.
- : هاه!! لم أفهم؟
- : لو جاءك ضيف في أوقات الشدة هل تعتذره عن تقديم القرى، وتقول له عليك بالعودة إليّ في وقت أكون فيه ميسور الحال؟
- : بالعكس سأقدم له قراه بأي وسيلة حتى لو حرمت نفسي من الطعام ومت جوعاً، من أن ينام ضيفي ساغباً على الطوى.
- : ولو استجار بك إنسان وأنت لوحدك ولكنك تستطيع دفع الأذى عنه، هل

تعدّه بأنك ستفعل إذا جاءك من يساعدك على صد الأذى عنه!؟

— بل سأدافع عنه بقدر استطاعتي.

: إذا فإنني بهذا الموقف الذي سأبذل فيه جهدي لرد اعتباري وإعادة مال صاحبي.

— ماذا تقول ياسعد؟ هكذا سأل العارفة.

: أقول بأن الوضع في هذا الوقت بالذات لا يشفع له بتحقيق مطلبه حيث يوجد بين الناس ناهب ومنهوب وسالب ومسلوب من قطاع الطرق، ولو لم آخذه أنا لأخذه أحد مجموعات قطاع الطرق.

— وهل تعد نفسك من قطاع الطرق؟

: أبدأ، أنا مع رفاقي غزو كما تعرف مثلنا مثل غيرنا ثم هل أن خلفاً سيسترد هذا المال لو كان عند غيري من أفراد القبائل الأخرى؟ أم أنه تجاسر على مطالبتني لكوني ابن عمه؟

— ابني خلف له قائلاً: ليس كما تذكر من أنني تجاسرت عليك لكونك ابن عمي، ولكنني شححت بك على ما سأفعله بغيرك لو كان مال رفاقي عنده، فوالله لو كان عند غيرك لما رضيت بأن أستخدم العقل معه، ولا استخدمت القوة منذ البداية.

: آه.. أنت إذا تضرر له الشر!؟

— لكنني أدفع الشر بالخير، وألجأ إلى تصرفات العقل.

: هاه.. ماذا تقول ياسعد؟ هكذا سأل العارفة.

— أقول بأنني لن أحقق شيئاً مما طلب.

: ليس الحق ما يقول هو، فأبته معروف منذ البداية ولقد جئنا هنا لتحل الأمر بنفسك. هكذا تكلم خلف.

— إذا نظرنا لهذا الظرف بالذات فإننا نجد في حجته ما يرجحها، وأنت كذلك محق فيما تطالب به.

: لا نريد هذا التذبذب في الرأي، بل نريد رأياً قاطعاً. هكذا نطق خلف.

— أرى أنه غير ملزم برد ما أخذ في مثل هذه الظروف.

- : هذا رأي خاطيء ولا يمكن القبول به. هكذا رد خلف.
— ولكنه حصيلة ما عندي.
: لا قبول لما توصلت إليه، أستودعك الله.
— لو ذهبت إلى أي عارفة فسوف يحكم لك بما حكمت.

* * *

ففر خلف من مكانه مغضباً واتجه إلى مطيته طالباً من رفاقه أن يرحلوا معه متوجهين إلى أهلهم، ورغم المحاولات التي جرت لثنيهم عن الرحيل ذلك اليوم إلا أنه صمم على مغادرة المكان، ومع أنه مع رفاقه حيث يتطارحون أطراف الحديث، إلا أنه بقي واجماً متلثماً مصوباً نظراته على رأس مطيته، سارحاً في تفكيره لا يكاد ينوء بما فوق كاهله من ثقل خيبة الأمل التي أحس بها بعد أن حكم إثنان من هؤلاء الرجال المحكمين في حل مشاكل الناس ضده، وهو في ذات الوقت يشعر بالمسئولية الجسيمة التي تثقل عاتقه إزاء رفيقه، فتنهد على شداد مطيته وجرّ نفساً عميقاً ثم قال: يا الله، لا تردنا مرد الخاسرين، هذا ثاني رجل يرى هذا الرأي، ما الحيلة في رد اعتباري عند الناس؟ ماذا سيقولون عني؟ لا شك أنهم سيتهمونني بالعجز، ومن الذي سيقنع الناس أن العارفة قال: كذا وكذا؟ ستبقى هذه الحادثة على أفواه الناس وقتاً طويلاً، وربما ورثها أبنائي من بعدي، لأن الناس قد يجعلون من الحجة قبة، يكبرون الشيء، ويخفف الخبر على ألسنة الناس فيتناقلونه من حيٍّ إلى حيٍّ، ومن جيل إلى آخر، وأخيراً أشتهر بمثل هذه الأمور التي لا أرغبها، آه.. لا حول ولا قوة إلا بالله، هل التجيء إلى عارفة ثالثة قد يحصل لي نفس الجواب الذي حصل من الاثنين ولو التجأت إلى الشرع فإنه لا يقر هذه الأمور إطلاقاً من أساسها، ولا يوجد في الوقت الحاضر سلطة تستطيع إجبار خصمي على إرجاع ما أخذ، لأن السلطة على ضعفها لا تستطيع مجابهة مثل هذه الأمور بنفسها، لكون الخرق قد اتسع على الراقع، وهي أضعف من أن تواجه مثل هذه التصرفات الفردية والجماعية التي نحدث في رقعتها لتثير بذلك المشاكل التي هي

بحاجة إلى الهدوء عنها، وتكتفي باعتبارها من أعمال قطاع الطرق، ولكن من يستر وجهي أمام الناس إزاء ما قام به سعد وجماعته؟!

إيه... لا بارك الله بتلك الساعة التي نغصت عليّ حياتي فمئذ أكثر من شهرين وأنا أدلج على مطيتي بحثاً عن حلّ يبيض وجهي أمام الناس، ماذا تراني أفعل الآن لرد اعتباري والخروج من هذا المأزق الذي أدخلت فيه على كراهية مني؟ هل تراني أدفع لذلك الحضري ماله من مالي الخاص؟ آه... لكنني لا أستطيع ذلك لكثرة المال بالنسبة إلى ما أملك، ولودفعت جزءاً منه حسب مقدرتي فإن ذلك قد لا يرضى به التاجر، ولو حاولت جمع مازاد على ما أملك من عشريني ورفاقي فإنهم لن يقصورا في ذلك ولكن ربما سمعت من أحد السطحيين الاتهام بأنني عاجز من إعادة مال رفيقي ممن أخذه وأكله، فما ذنب رفاقي أن يدفعوا مالاً لم يتمتعوا به ولم يروه!!! إيه... دعنا نصل إلى أهلنا وعند ذلك ربما برزت فكرة جديدة.

استمر خلف مع رفاقه يشاركونهم الحديث حيناً ويكظم أحياناً أخرى حتى وصلوا إلى حيّهم، وأول من قابله عمه الشيخ الكبير الذي كفّ بصره فبادره بالسؤال:

— : هاه!! ماذا فعلت يا خلف؟

: بماذا؟

— : بما ذهبت من أجله؟

: آه.. لقد فلجني خصمي.

— : فلجك!!؟

: نعم، لقد فلجوه بغير حق.

— : إيه!! إيه... «أنا أخو ميثاء» ياليتني كنت بسنك وفي مكانك.

: هاه!! ماذا ستفعل؟

— : والله لو كنت مكانك وفي سنك لما أخذ مال رفيقي وأنا حي يطرق الهواء رأسي.

: ماذا تقول؟

— أقول ما سمعت، فمنطق العقل الذي تتمسك به لم يعد مجدداً في هذه الأيام.

: صدقت.. صدقت!! وصرف خلف مطيته من فوره متوجهاً إلى حي خصمه.

وعند وصوله إلى الحي، حلّ ضيفاً عند رفيق له في طرف الحي في اليوم الذي عاد فيه سعد من سفره، وقد عزم خلف على سلوك منطق القوة فبقي مضجعاً في فراشه عند مضيفه تلك الليلة ساهراً حتى نام الحي، فأخذ سلاحه واتجه إلى بيت سعد حتى إذا اقترب من البيت بدأ يمشي على أمشاط قدميه دون أن تنتبه له الكلاب وهو يحدث نفسه: أتراني أقتله وأبرد ما في نفسي من الغل؟ لكن انتبه بوجودي وبدأ بالشر فسأقضي على حياته، أتراه يسكت ويستسلم إذا رأيته في بيته في مثل هذا الوقت من الليل؟ أبداً هذا غير متوقع منه وهو الرجل الشجاع ولا يمكن أن يقبل بالضميم، سيندفع نحوي لمجرد الإحساس بصوتي، أو لمح شبحي، وسوف يقضي على حياتي بدون جدال آه!! في هذه الحالة لابد من المقاومة، سيما وأنا القادم إليه بدور المهاجم، ولكن الناس في هذا الوقت من الليل كلهم قد غطو في نوم عميق، نحن الآن بعد منتصف الليل، ولا يتوقع أن تجد إنساناً يقظاً، سيما وأن سعداً قد قدم لتوه من سفر، ويعاني من مشاق السفر ووعثائه فتراه إذا نام غط في سبات عميق، هاه!! وقد تستيقظ زوجته إن كانت من ذوات النوم الخفيف، وحتى سعد لا أعرف مدى خفة نومه فقد يكون من ذوي النوم الخفيف الذين ينتبهون لأقل حركة أو صوت، هانذا أدخل من مقدمة البيت، لم يكن سعد بقسم الرجال كما يفعل البعض، إذاً، سأجتاز الرواق إلى داخل البيت، هذه أمتعة البيت، وهذا هو نائم مع زوجته وقد التحفا وتدثرا بهذه القطيفة السمينة إنهما يغطّان في نوم عميق، هل أقتله مع زوجته؟ هاه!! ما ذنب الزوجة؟ إنها بريئة، وليست من عادات العرب قتل البريء سيما النساء، هاه!! كيف أقتله لوحده؟ لا شك أنها ستفزع وتصيح ويجتمع على صياحها أهل الحي دعني أميز بينهما، هذا هو، وكل واحد منهما غارق في النوم سأقضي على حياته دون

أن تشعر بذلك، سأقذ بطنه بهذا الخنجر، هاه!! وهل ستمتد يدي على قتل ابن عمي بهذه الطريقة؟ آه... والله إني لَضَتِّينَ به أن تذهب حياته بهذه الصورة، إنني أشح به أن أقتله بهذه الصورة، والله لو لم يفعل بي ما فعل لما تجرأت أن أخطو إليه خطوة واحدة، هل أقتل إنساناً نائماً؟ ليس ذلك من طبعي أن أقتل رجلاً شبه ميت يغط في نوم عميق، فلو كان مستيقظاً من نومه لأتيت وجهاً لوجه، وحتى لو استيقظ الآن فإنه أعزل من السلاح أمام رجل مسلح وهذه أيضاً ليست من طباعتي أن أفعلها، إيه!! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أتدري ياسعد؟ والله لن أقتلك هذه الليلة مشحاً بك على القتل، ولكني سأضع لك برهاناً تعرف منه أنني أستطيع الوصول إليك في أي مكان لعلك أن تثوب إلى رشذك وتدرك الموقف الذي أنا فيه أمام الناس إزاء مال جاري فتعيده إليه، هاه...، إذاً هذا الخنجر بدلاً من أن أغرزه في خاصرتك وأثر فيه محتويات جوفك لتصبح جثة هامدة، ها أنذا أغرسه في الأرض من خلال طرفي القטיפه التي التحفت ببعضها وتدنرت ببعض الآخر أنت وزوجتك وذلك مضتة بك على الموت وعسى أن ترعوى من هذه الفعلة، ولتعلم أنني أستطيع الوصول إليك في أي وقت أريده، ولكن رغبة مني في رده الشر وحقق الدماء من أجل مال يأتي ويذهب، فهذا الخنجر يكون شاهداً على وصولي إليك، ها أنذا أغرسها بالأرض إلى مقبضها مخترقه طرفي القטיפه قد أثبتتها وسأعود من حيث أتيت لأرى صدى هذه الخطوة عندك فلعلك أن تبدل موقفك وترى بعين العقل والبصيرة مالا تراه بعين الطمع والغرور، فإن صار هذا منك وإلاً استطعت المسير في الخطوة التالية، سيبقي معي سيفي وأعود إلى مضيقي، هاه!! لقد انتهت الكلاب وبدأت تهزني حيناً وتهزني آخر، سأذود عن نفسي بهذه العصا لطرد الكلاب حتى أعود إلى فراشي، عسى ألا ينتبه مضيقي على نباح الكلاب، إيه... سيظنني قد ذهبت لقضاء حاجتي.

* * *

واستيقظ سعد من نومه مع أذان الفجر وحاول أن يزيع عن نفسه طرف القطيفة التي تغطي بها فوجده ثابتاً ثم كرر المحاولة وجذبه بقوة فخرج الخنجر المغروس في الأرض وسمع له صوت فتلمسه بيده وسط حندس الظلمة فوجده قد شك طرفي القطيفة ثم أخرجه وأخذه بيده ووضعه تحت طرف الفراش الذي يجلس عليه في مجلس الرجال، وبعد أداء صلاة الفجر اجتمع الرجال إليه في مجلسه لتناول القهوة واستطلاع ما استجد من أخبار في بيت عقيدهم كما هي عليه العادة كل يوم وعندما اكتمل المجلس قال سعد:

— لقد حافنا البارحة حائف.

: حائف!! كيف؟ ومن هو؟

— هل خلف موجود في الحي؟

: لا نعلم، ولكن لم يذكره أحد.

— إنه موجود في الحي، أما رآه منكم أحد؟

: أبداً، غير أنه ذكر أن صاحب مطية ضوى إلى طرف الحي البارحة.

— هو خلف، وقد حاول قتلي البارحة.

: قتلك!!؟

— نعم، لقد أتى وأنا نائم يريد قتلي ولكنه لم يفعل.

: كيف حدث ذلك؟

— لا أدري، إلا أنه قد دخل بيني، ووقف على فراشي.

: هل رأيت له أثراً؟

— هناك ما هو أوضح من الأثر.

: ماذا تعني؟

— أعني هذا الخنجر، أليست هذه خنجره المسماة «هيفا»؟

: بلى، بلى هذه هي، أين وجدتها؟

— آه!! وجدته قد شكها بطرف القطيفة التي نمت عليها.

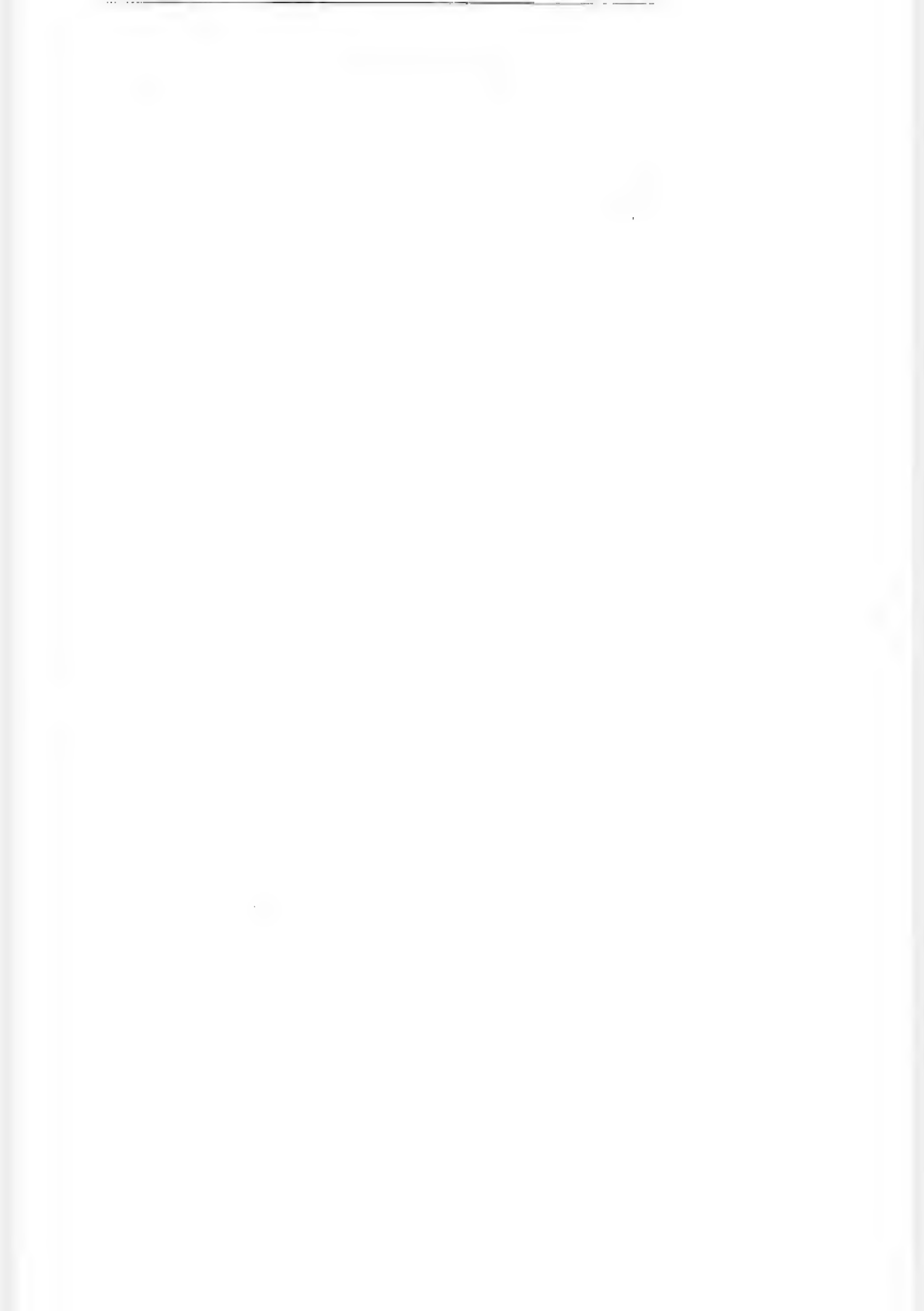
: ماذا تقول!!؟

— أقول ما سمعت.

- : ماذا كان ناوياً أن يفعل؟
- لا شك أنه قد عزم على قتلي فصرفه عن ذلك سبب من الأسباب.
- : وهل بلغت به الجرأة إلى أن يصل إلى هذا المكان؟
- لقد وصل الرجل، وغرس هذا الخنجر بمثابة الإنذار.
- : إنذار!! كيف؟!
- كما تعرف أن ما يعقب الإنذار هو الفعل.
- : لن يستطيع ذلك وأنت في كامل قواك ونحن من حولك.
- لا تقل هذا يا ابن أخي، ولكن... يقول ذلك ثم يطرق.
- : سيدحره الله، وسوف نطارده في عقر داره.
- بل هناك رأى خير مما قلت.
- : ما هو؟ يقول ذلك بتحفظ.
- لا شك أنه قد وصل إليّ وربما منعه من الشر حبه في حقن الدماء، ولن يكون أسبق مني على هذا الأمر، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم سنحقن الدماء بيننا التي ستهدر من أجل نزر يسير من المال، وسنعيد إليه مال جاره وننتهي المشكلة من أساسها.
- : تعيد إليه مال جاره!! كيف؟ وقد تقاسمناه وأكلناه؟!
- نعمد إلى تقدير قيمة المال ونعيده إليه.
- : لم يسبق أن سمعت منك مثل هذا الموقف!!
- إذا عدنا للحق فهو محق في حماية ذمار جاره، وإعادة ما استلب منه.
- : ولكن قد يقال...؟
- أعلم ماتريد قوله، فلم يكن ذلك جبناً منا، ولكن حقناً للدماء وحماية للأرواح من هلاك لا طائل من ورائه بين أبناء عم من قبيلة واحدة.
- : هل أنت مجد فيما تقول؟
- كل الجد، فابعثوا إليه ليأتي ويستلم قيمة مال صاحبه من هذا المجلس، ولنعتبر أنفسنا أننا لم نغنم بتلك الغزوة.
- : وذهب الرسول إلى خلف ليجده في طرف الحيّ بضيافته أحد الرجال

يتناولان القهوة، وأخبره الرسول أن سعداً يقول له: ليتوجه إلينا وعليه من الله الأمان ألا يذوره ذائر مادام في حينا، فاليأت ليأخذ قيمة مال صاحبه، ومن فوره توجه مع مضيفه إلى بيت سعد الشعمري حيث وجد الرجال هناك، ثم أرسل في طلب التاجر ليحضر لحضر ماله، فحضر التاجر وأحصى ماله ثم أخذ قيمته وانصرف هو ورفيقه خلف الذي رفع عقيرته منشداً هذه القصيدة التي قالها مخاطباً بها عمه ساعة مغادرته إياه في حيهام قبل بضعة أيام.

- ٢٠٥ يَا رَاكِبَ حَمْرًا زَهَاهَا الْحَيَالِي
 ٢٠٦ تَرَعَى طَرْفَ دَائِمٍ غَنَ الْخَوْفَ وَالْيَاسِي
 ٢٠٧ فِي ضِرِّ خِيَالٍ يَفُكُّ الْيَمَالِي
 ٢٠٨ يَا مَاهَا عَلَيْهَا قَامَ بَنِي الْعَدَالِي
 ٢٠٩ مَا قُورَفَهَا الْأَكُورَهَا وَالذَّلَالِي
 ٢١٠ سَلَّمَ عَلَى عَمِّي وَرَاغَ الْحَلَالِي
 ٢١١ أَصْبِرْ عَلَيَّ يَا عَمُّ قِطْعَةً لِيَالِي
 ٢١٢ أَصْبِرْ وَتَسْمَعْ عَرَضِي لَدَى ظَلَالِي
 ٢١٣ أَمَا قَرَسُ وَالْأَخْيَارِ الْعِيَالِي
 ٢١٤ لَوْ هُوَ مِنَ الرَّبْعِ الْقَرِيبِ الْمَوَالِي
 ٢١٥ وَالْأَيْدِي يَا عَمُّ يَأْتِي كِمَالِي
 ٢١٦ أَصْبِرْ كَمَا تُصْبِرُ عَوَاصِي الْجَمَالِي
 ٢١٧ بِالسَّيْفِ الْأَبْتَرِ عَهْدِي وَإِحْتِمَالِي
 ٢١٨ خَوِّنَا بِالْحَقِّ مَائَةً جَدَالِي
- مَا تَدَانِي الْمَشْعَابُ يَلْمَسُ نَحْرَهَا
 مَا ذِيْرَةٌ عَنِ وَادٍ قَفَرٍ يَذَرَهَا
 جَلَابُ رُوحِهِ مَا يَدَارِي لِحَطَرَهَا
 مِنْ قُطْفِ زَمْلُوقِ الْكَمَرِ مِنْ زَهْرَهَا
 مَانُونُ سِرِّ رَاكِبٍ فِي ظَهْرَهَا
 يَا عَمِّي أَصْبِرْ لَا تَبْطِئْ شَهْرَهَا
 لَا زِمَ بِجِحْكَمِ يَالْشَامَا خَيْرَهَا
 تَلْحَقْ بِهَا النَّفْسُ الْغَزِيْرَةُ دُورَهَا
 مَلْزُومٌ مِنْ يَمْنَانِي يَنْتَرُ حَمْرَهَا
 أَخِيرَ عِنْدِي مِنْ نَجْرَعٍ كِدْرَهَا
 وَلَا تَسْمَلِ الْقَالَةَ وَجَنَّا بِأَثَرَهَا
 وَلَوْ طَالَتْ الْفَرَجَةُ وَطَوَّلَ سَفَرَهَا
 غَيْبٌ عَلَيَّ أَلَلِّي قَالَتُهُ مَا حَضَرَهَا
 وَلَا عَادِلِي حَقٌّ بَعْضُهُ نَظَرَهَا



الهوامش

شرح مفردات وأبيات الشعر العامي

١ — ذب: أي دفع أو رمى وهي فصيحة، النعل: الأحذية فصيحة مغيزل العين: من تشبه عين الغزال، اشلق: قد وهي فصيحة رذن كم: فصيحة، لئانة: وطاء لين من اللين أصلها فصيح.
يأمر الشاعر رفيقه حسين أن يرمى بنعليه لتلبسها زوجته التي قد أدمت قدميها من وعثاء الأرض وخشونتها وبأمره أيضاً أن يشق من طرف أكمام ثوبه الطويلين ما يلين موطيء قدميها على النعل إذا دعست عليها ليخفف عنها آلام الوجى.

٢ — إقطع: قد، سبت الأقدام: أساس السبت للحذاء الذي يلبس ليقى القدم خشونة الأرض، فصيحة وهو يعنى هنا جلدة القدم مما يلي الأرض أو النعل وسميت بسبت القدم من باب تسمية الشيء بما يليه، طرفين: طبقتين يلحى: يحس فصيحة، أريش العين: صاحبة الرموش الكثيفة التي تشبه الريش، إذانه: الضمير يعود على النعل وهي الأجزاء التي يثبت بها سيور النعل عن يمين القدم ويساره.

يوصي الشاعر رفيقه بأن يضع ما بين قدميها وجسم النعل طبقتين من القماش حتى لا يؤثر جسم النعل على قدميها، وربما كان ذلك من أجل تضيق النعل حيث أن قدمي حسين أكبر من قدميها لكنه أكد أن ذلك من أجل الرأفة فيها حتى لا تؤلم النعل قدميها.

٣ — السبت: كما سبق هو جلدة القدم مما يلي النعل وهو المقصود هنا، هكعانة: من هكع أي ضلع ضلعاً خفيفاً، مما يكون في أقدامها من الحفى أو الوجى.
يرر الشاعر لرفيقه حسين بن ملاقى الشمرى رحمه الله أن سبب شفقته على زوجته هو ما تعانيه من آلام في قدميها من أثر خشونة الأرض التي قد برت قدميها فاصبحت تضلع في مشيتها وتأرجح من شدة ما تعانيه في قدميها وهذا الذي قد آلمه وشاب ضميره مما يرى ولذلك فلا لوم عليه إن هو أمر رفيقه بدفع حذائه إليها.

٤ — حطات القاع: الأرض الخشنة وهي فصيحة، واربع: إرفق وتأن وهي فصيحة، أمش مشيانه: سر مسيرها.

يأمر الشاعر رفيقه بأن يرفق بزوجه ويتأنى لها وأن يمشي على مقدار مشيها فهي مجعدة بالحمل قد برت خشونة الأرض قدميها الخافتين حتى تمزق جلد القدم المسسى سبت القدم ولذلك يوصيه بأن يتبع الأرض اللينة والسهلة لها ويماشيها.

٥ — الضلع: الجبل وهي فصيحة من باب تسمية الكل بالجزء؛ صيور: لابد مأخوذ من الصيرورة والمصير، النفود: الكشبان الرملية فصيحة وجمعها أنفاد.

يقول الشاعر لرفيقه إن هذه المسافة التي نمشيها بين مكاننا الذي نحن فيه والأرض اللينة لن تطول فلا بد أننا قاطعون هذه الأرض الحثة الخشنة بجانب الجبل وخلال تلاعة وريعانه وهي مسافة ليست طويلة «حوالي ٢٠ كيلاً» وعندها سنصل حتماً إن شاء الله إلى النفود برماله اللينة وموطئه الناعم، وفي هذا البيت دليل قاطع على أنها للشاعر لما فيها من تحديد للمسار الذي سلكوه وهناك قصيدة أخرى تشبه هذه القصيدة على نفس القافية سأوردها في نهاية الكلام.

٦ — شلتها: أي حملتها على كاهلك لمساعدتها وإزاحتها عن قطع الطريق على قدميها ترى: أعلم مابها شين: أي لا يوجد هناك شيء محذور عن الضرورة مادامت الثقة موجودة ترى: أعلم، الخوى: رفيق السفر أو العمل وغيره.

يلقى الشاعر ثقته برفيقه الوفي بعد أن أوصاه بالاعتناء بزوجته والسير معها في رحلة المعانات وإن دعت الضرورة القصوى لحملها على ظهره أو كاهله فلا مانع عنده في ذلك باعتبارها أمانة في عنقه فرفيق السفر وغيره يعتبر بمثابة الأمانة التي يجب المحافظة عليها.

٧ — يشتك: من الشك فصيح، كود: غير، الرديين: الرديين وسبع بطانة: كناية عن سعة الأفق المصحوب بالثقة والطمأنينة إلى الآخرين وحملهم على المحمل الطيب في كل تصرفاتهم. يوضح الشاعر لرفيقه وجهة نظره ويعطيه مزيداً من الثقة مبنياً له أنه لا يشك في مثل هذه الأمور إلا من كان في نفسه خبايا ونوازع تخالف ما يظهر، ومن لا يثق بالآخرين لما يوجد في نفسه من بذور الشك، أما الرجل الطيب الصافي النية والنظيف الطوية فلا يكون في نفسه من نوازع الشر ما يجعله يشك في الآخرين بل يأخذ الناس على ما ينعكس في نفسه من الطيبة. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه القصيدة تتداخل معها قصيدة أخرى على نفس الروي والقافية وينسبونها للشاعر حسن التيناوي وهناك من ينسب هذه القصيدة السابقة لحسن وليست لبعده غير أن هناك فرق بين الموضوع في القصيدتين، فالقصيدة التي مر ذكرها موضعها معانات وآلام والقصيدة التي سنورد أبياتاً منها موضوعها غزل خالص وما عثرت عليه من أبياتها التي يخلطونها مع القصيدة السابقة هي.

١ — الخد قرطاس قروه المصلين شفته مع اللي يتبعون الديانة

٢ — أو زندي يشبه بياض مع اللين قطن مع اللي يتدفونه بعانة

٣ — سمها اللي يلبسون الفلازين ما يلبس الا في نهار الكيانه

٤ — ما قلت من باب العذاريب به شين عذروها يا حسين قل حصلانه

وهنا يتضح الفرق بين موضوع القصيدتين إضافة إلى أنه في القصيدة الأولى بيت يعتبر

أكبر دليل على مسير الرجل وزوجته ورفيقه في رحلة المعانات تلك، وهو البيت القائل:
لا بد ماحداً عن الضلع مقفين وصيورا ما ناطا النفوس وليانه

كما أن البيت الأخير من الأبيات الأربعة الوارد ذكرها آنفاً يدل على أن قائلها ليس زوجاً لمن عنيت بالقصيدة حيث يقول «عذروها يا حسين قل احصلانه» وهذا من المستبعد أن يقول الرجل لزوجته هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يروي البعض أن اسم الزوجة هي «خنساء» ويروي البعض الآخر أن اسمها «منيرة» وهي التي عانت مع زوجها آلام الرحلة الشاقة وبقيت في جبة فترة وفي الجوف فترة أخرى عند السراح أحد أمراء الجوف والذي قال شاعرهم خطاب أو ابنه غالب أو شاعر آخر عندما انقلبت موازين الأمور عليهم فيما بعد وضغط عبدالله وأخوه عبيد على خطاب وابنه غالب وحليفهم أو قريبهم خليف وألقوا بالأولين في السجن قال الشاعر يذكر عبدالله بما له من فضل سابق عليه وعلى زوجته وابنه ويعتب عليه لما فعل به:

- ١ — انشد منيرة يوم فيها الدهر شان يوم إن عياله مع الناس ضيعة
- ٢ — كد بعد الله نهج درب خان لا عاش من ضيع بماله وديعة
- ٣ — ياما بقت بيلادنا وقم مقطان لا ماغدت لاختوان نورة وسعة

ملاحظة: لقد سبق نشر جزء من هذه القصيدة في الجزء الثاني ولم أعثر عليها كاملة إلا بعد ذلك وعليه فإن هذا النص والشرح يعتبر هو الصحيح لأنه من نص موثق قد كتب عام ١٣٠٨ هـ.

- ٨ — يا: للتشبيه وهي ياء النداء، هيه اسم إشارة، وداد: محين فصيحة، ياغزوتي: يا من أعترى به وهي فصيحة، ليه: لماذا.

يفتح الشاعر هذه القصيدة بنداء يشبه صوت الاستغاثة موجهاً كلامه لمن يوده من أقاربه وبني عمه وعصبته وقبيلته ومن يوده من الآخرين قائلاً لهم أما ترحمون من ترونه يمر بمثل هذا الظرف الذي أمر به وتفرعون له بمد يد العون إليه لمساعدته على اجتياز هذا الموقف.

- ٩ — غدا: صار، أباداد: متناثراً وهي فصيحة. يضيف الشاعر حالة مؤثرة أخرى تستدعي الشفقة والرحمة وهي دموع القهر التي يذرفها الإنسان عندما يرى أنصاره ومؤيديه ينفذون من حوله ويتركونه فريسة لخصمه.

- ١٠ — الرقاد: النوم فصيحة، قصر العشا: كناية عن قلبه وما يحيط به من حنايا الاضلاع وهو يعني كيانه الخاص.

يضيف الشاعر حالة أخرى يمر بها وهي عدم تمتعه بالنوم المريح الذي يهنا فيه الآخرون، ويحس كأن كيانه الخاص بدأت تنحطم أركانه لما يراه من تصاريف الأيام التي أثقلت كاهله.

١١ — الشوق: من أشتاق إلى رؤيته ويعنى زوجته، مزبور الأتهاد: ذات النهدين الوافين وهي كناية عن أنها شابة، مجلى: مطرود فصيحة.

يصف الشاعر بعض هذه المؤثرات التي أثارته ونغصت عليه حياته وهو رؤية زوجته في الحالة التي ذكرها في البيت قد أجليت عن بيت أهلها وذلك لإصرارها على مصاحبة زوجها.

١٢ — الثوب: هو ثوب المرأة الذي ترتديه، في ذلك العهد وتتكون ملابس المرأة من «المقطع» الذي هو اللباس الخفيف تلبسه داخل بيتها وفي الأحوال العادية والثوب هو الفضفاض له أكمام واسعة تلبسه فوق «المقطع» عند خروجها للشارع «أنظر تفصيل ذلك في كتابنا نجد في الأسس القريب» الضلع: هو الجبل وهي فصيحة من باب تسمية الكل بالجزء، مشلح: قد رفع أسافل ثوبه، ياطا: يطاء فصيحة، أقدام رجله: مقدمة أقدامه لشدة ما تعانيه من الحفى والوجى في باطن القدم وسؤرختها فلذلك تمشي على أطراف أقدامها في تأرجح واضطراب وضلع «هكعان» من شدة ما تعاني من آلام في قدميها.

يصف الشاعر وصفاً دقيقاً حالة زوجته وما تعانيه من آلام في مشيتها المضطربة مع ثقل الحمل ومعانات التعب والمسالك الوعرة والخشنة إضافة إلى المعانات النفسية التي تعيشها.

١٣ — الشوك: معروف فصيحة، ماله: ليس له، مواطيه: مواطىء أقدامها فصيحة، رداد: مانع فصيحة، سبت: كما ذكرنا في رقم ٥٣ هو جلد القدم مما يلي النعل وسمي سبتاً باسم النعل من باب تسمية الشيء بما يليه، يوقيه: يقبه لسع هذا الشوك.

يضيف الشاعر مؤثراً آخر يعوق زوجته عن المسير ويجعلها تتعثر في خطاها وهي الأشواك المتناثرة في الطريق الوعر والخشن وهذه الأشواك لا يوجد حذاء أو نعل تقيها شدة لسعاته وحتى جلدة القدم التي من المفروض أن تكون غليظة تقي القدم حدة وخز الأشواك إلا أنها عند زوجته المترفة رقيقة ناعمة لا تكاد تقيها وخزات الشوك.

١٤ — مشمرحات هيف: أغلب الظن أنها مشمرخة أجأ وهي أقرب جزء من الجبل نحو المدينة وأقرب نقطة انطلاق للطريق الذي سلكوه في مسيرهم، والمشمرة شماريخ جبال عالية جداً في الجزء الشمالي الشرقي من أجأ والهيفاء من الجبال هي العالية المسلوقة، بالزحف: أي تزحف على الأرض، ماعر: المكان الوعر فصيحة، الأروام: يقصد هنا الأتراك، وهم يسمون الأتراك والأجانب عموماً بالروم أو الأروام.

يصف الشاعر مسير زوجته حين صعودها على صخور تلك الجبال الوعرة والشماريخ العالية بأنها تزحف زحفاً لعدم مقدرتها على المسير معتدلة لأنها لم تتعود على ذلك ولما تعاني من الثقل، وزحفها هذا خوفاً من الأتراك القادمين إلى المنطقة من القصيم بواسطة خصوصهم.

١٥ — ثمان مع ثمان: يقصد ليالي، لقي: وجد، العزوة: من يعتزى به يخبر الشاعر أن زوجته بعد أن أصرت على اللحاق بزوجها نفر عنها من حولها خوفاً من أهلها وسطوتهم فلم يقتربوا منها أو يسمحوا لها بالاقتراب منهم.

١٦ — جبّة: قرية بوسط النفود وقد أصبحت الآن مدينة متوسطة وهي قاعدة الرخيص من الرمال من شمر تبعد عن حائل ١٠٠ كيل إلى الشمال الغربي. الوسم: مطر الوسمي، خشم: أنف الجبل، أم سلمان: جبل يقع إلى الغرب عن جبّة بعيل إلى الجنوب، وفي أعلى الجبل ذري وشخايب تشبه أسنمة الإبل مما جعل البعض يلفظ اسمها «أم سمن» وهي من أعلام النفود البارزة هي وعُليّمْ العَطَشْ وعُوطَة.

يدعو الشاعر لجبّة بأن يسبل الله عليها شآبيب الوسمي هي وما أشرف عليه جبل أم سلمان مما حوله من الأنفاد وهذا الجبل بطبيعة الحال يرى من أماكن بعيدة لبروزه بوسط النفود فدعوته بالغيث شاملة للمنطقة لتخضر جوانبها بالعشب وتكتسى بالأزاهير وأغصان السليح المتغطرة.

١٧ — الضمير هنا يعود لجبّة: لأذبه: إتنى بها فصيحة، كن: كأن، الحرم: يقصد الحرم المكي الشريف. يبين الشاعر السبب الذي من أجله دعا لجبّة بأن تبادرها سحائب الوسمي وذلك لأنها نعم الملاذ لمن التجأ إليها منهزماً من أعدائه لما تتميز به من موقع جغرافي منيع بوسط النفود الذي يحيط بها من جميع الجهات وبمسافات شاسعة ولما يوجد بها من الرجال الذين يمنعون من التجأ إليهم ويحمرنه من أعدائه ويشبه الشاعر مناعة جبّة بمناعة الحرم والكعبة المشرفة التي حماها الله من الأعداء على مر العصور فيقول: إذا وصلت إلى جبّة فكأنك وصلت الحرم مناعة وحصانة.

١٨ — مصيخ: هو الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص من الرمال من شمر شيخ آل رخيص، نكسه: أعادها، اليه: لقب تركي رفيع وهو يرمز هنا إلى المفردة التركية التي جاءت تتبع الشاعر للقضاء عليه.

يوضح الشاعر ما وجده من مساعدة رجالات جبّة وعلى رأسهم الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص حيث أعاد المفردة التركية مع طريقها دون أن تبلغ مرامها خالية الوفاض يتبعون قائدهم «اليه» عائدتين من حيث أتوا.

١٩ — نكس: رجع، محسن: هو محسن الفهيدى النماصي الشمري، وغامر: هو غامر الصلح الرمالي الشمري، وزّاد: هو زياد المختار الفضيلي الشمري، ماضاف: ما رأى وأصلها فصيح، حبه وأهاليه: أي من له من الأحياء والأهل، يتضح خلل في وزن عجز البيت لكن هذا ما أثبت بالمخطوطة ولم نرد تغييره.

يوضح الشاعر مصير هذه المفزة التركية التي جاءت في طلبه التي رجع معها محسن وعامر وزباد ليدلوهم الطريق في النفود ولما انتصفوا بالطريق يقول لـ الرواة أن الأدلاء عندما نام العسكر بالليل خرقوا قرب الماء التي معهم وانسحبوا عائدين إلى أهلهم وأصبح العسكر فوجدوا ما في القرب من الماء قد تسرب ولم يبق معهم ماء في فصل الصيف ولا دليلة معهم فتأهوا في النفود وهلكوا عطشاً ولم يبق منهم أحد كما أشار إلى ذلك في آخر البيت حيث لم ينجو منهم أحد ويرى أهله.

٢٠ — فزنا: غادرنا على عجل، شهب الغوارب: الإبل وهو نعت فصيح، غاد: من وراءها والضمير يعود على جبة، العيل: الطفل الصغير أساسها فصيح، القيط: الصيف فصيحة، حاديه: متعبة ومنهكة فصيحة.

يوضح الشاعر المرحلة الثالثة من مسير رحلتهم حيث غادروا جبة على عجل عندما علموا بمطاردة خصومهم لهم بتلك المفارز والسرايا من العسكر فاتجهوا إلى الشمال الشرقي عن جبة على ظهور تلك الإبل التي زودهم بها صاحب جبة والتي قد شابت غواربها من كثرة الشد عليها فهي إبل مدربة ومجربة قد عركتها التجارب والمران، وكان مسيرهم في جمرة القيط حيث أن الطفل الذي معه لا يكف عن البكاء مما يحس به من حرارة الصيف ولم يذكر الشاعر المدة التي بقىها في جبة.

٢١ — جينا: جئنا فصيحة مقلوبة الهمزة إلى ياء، قليب: البشر فصيحة، الأنقاد: جمع نفود فصيحة، ندليه: أي نستخرج منه الماء بواسطة الدلاء.

يقول الشاعر أنهم بعد سيرهم إلى الشمال الشرقي من جبة وردوا ذلك البشر الموجود في وسط النفود والذي يبلغ عمقه ٤٥ بوغاً والبوع تساوي مترين أي أن عمقه ٩٠ متراً فشرّبوا منه وأسقوا ركايبهم وأخذوا حاجتهم من الماء للمرحلة القادمة ثم استمروا في سيرهم.

٢٢ — ابن رخيص: هو الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص وحاضرتهم جبة كما سبق وباديتهم ينتقلون مع مراعي الربيع ومراتعه، الأجواد: جمع جردة وهي الأرض المستوية الخالية من الغطاء الشجري غير الأعشاب الموسمية وهي فصيحة، ياهيه: كلمة نداء، وتعنى أقبلوا هلموا إلينا. يقول الشاعر أنهم ما إن ساروا من حول ذلك القليب وقطعوا مرحلة حتى وصلوا إلى قطين الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص ومضارب عشيرته الذي رحب به وفتح له ذراعيه وقلبه وقال له أنت ومن معك أهل الدار والبيوت فادخلوا على الرحب والسعة وفي حرز مكين من خصومكم ما دمت في ضيافتنا وتحت كنفنا.

٢٣ — ييغون: يريدون، الحيصري: الحضري، الهدى: الترويض والتأقلم، تيدويه: أن يصبح بدويا ويعيش عيشة البادية.

ينادي الشاعر رفيقه ومضيفه الكريم الشيخ ابن رخيص مبنياً له وجهة نظره في قضية نزوله

معهم والعيش بجانبهم وهو أنه حضري قد تعود حياة الحضارة وقد لا يستطيع التحول من الحضارة إلى البداوة بفترة وجيزة كما أن له طموحات أكبر من كونه يحمي نفسه فقط ولكنه لم بينها بل غلفها بهذه الحجة الظاهرة وهو أنه يصعب على الحضري التأقلم والتكيف مع حياة البداوة في وقت قصير حتى ولو درب وروض لذلك فإن ذلك مكروه في نظره.

٢٤ — نبغى: نريد، الجوف: هي المدينة العريقة في شمال المملكة وتكون من دومة الجندل وقارا وسكاكة ويطلق عليها جميعاً اسم الجوف، خلاد: بني خالد رؤساء سكاكة آنذاك ومشيختهم لآل سهيان.

يبرر الشاعر موقفه أمام رفيقه ابن رخيص بأنه سيجاور بني خالد في الجوف وشيخهم ابن سهيان وهم يعودون بأرومتهم إلى طيء ويطلب من الله أن يمن بشايب الغيث لتسقي مفاالي ومرابع مواشيه وهذه الدعوة بالغيث كانت تقوم عليها عصب الحياة في حلول الربيع والأعشاب التي تقوم عليها حياة الناس.

٢٥ — سكاكة: بلد عريق منذ آلاف السنين هي ودومة الجندل وذو قارة «قاراه» وهي الآن أكبر مدينة في الجوف وقاعدة المنطقة، بذالة الزاد: يصفهم بالكرم والجود، النكيف: المنكف وهو العائد من سفر أو غزو جائعاً متعباً منهكاً، السير: السير لمسافات طويلة.

يشي الشاعر على أهل سكاكة ويصفهم بالكرم والجود فهم نعم المضيف لمن لفي إليهم طابواً منهكاً ظمآنًا من السير والسرى فسوف يجدهم أمامه يقدمون له ما يريد من الطعام والشراب والمأوى والدفع فهم نعم المضيف لمن وفد إليهم.

٢٦ — أوى والله: أي أنهم والله لنعم المضيف حقاً، الضويحي: هم آل الضويحي فخذ من بني خالد أمراء سكاكة المتقدم ذكرهم، أجواد: جمع جواد كريم وهي فصيحة، نصا: اتجه أو وصل. يكرر الشاعر اعترافه بجميل هذه الفئة من بني خالد الذين منهم آل الضويحي ويقسم بالله إنهم لنعم الأجواد الكرماء والرجال الصناديد وذلك إذا اتجه المدح إلى أهاليه ووصل إلى من يستحقونه فإن هؤلاء الأجواد في مقدمتهم.

٢٧ — كن: كان محذوفة الألف للضرورة، جيت: جئت فصيحة، بدوان: جمع بدوي فصيحة، الأذواد: جمع ذود من الإبل والذود من ٣ — ٣٠، العشائر: جمع عشراء والعشراء الناقة اللقحة مضى على لقاحها عشرة أشهر، ويسمون الناقة إذا اشتبهت الفحل وشالت بذنبها بالعشراء جمعها عشائر ومعاشير والعشائر أو العشائر بالياء مخففة فصيحة، نواديه: النداءات والأهازيج التي يحدو بها الرعاة عند سقي إبلهم ودعاء الإبل إلى الماء لتشرب منه، وما على الماء أن ترتوى بدرجة كافية.

ينتقل الشاعر إلى مرحلة أخرى من رحلته ويصف وصوله إلى شط نهر الفرات ويصف

هذه الأذواد من الإبل التي يسقيها رعاتها من شط النهر وكل ينادي إبله بالأصوات المحببة لها والتي تدعوها إلى ورود الماء وإلى الشرب والإرتواء منه.

٢٨ — شرح: القطعة من الإبل ما زاد على ٧ — ٢٠، المغاتير: الإبل ما غلب في لونها البياض كالوضحاء والقسماء والشعلاء وما في حكمها خلاف المجاهيم وهي ما غلب في لونها الجهمة والسواد كالأملحاء السوداء والصفراء وما قاربها، دوه الراعي: إذا نادى لإبله بصوته المسموع المميز في نداءات منها «دوها».. العلباء: وما إلى ذلك، التداويه: ترديد هذه الأصوات من الرعاة كل ينادى لأذواد إبله بالنداء الذي تستجيب له.

يصف الشاعر ما يجري على شط النهر من الحركة الدائبة من ورود هذه الأذواد من الإبل، وقد شاقه لهذا المنظر وطرب لأصوات الرعاة وهم ينادون أذوادهم بالنداءات التي تستجيب لها إبلهم وتنقاد وراءهم بعد أن ارتوت من الماء.

٢٩ — ليا: إذا، الشط: جانب النهر فصيحة، منقاد: مستمر، كن: كأن، الشفلح: شجر صحراوي شوكي ينمو ويكبر وتتراكم أغصانه وتشمخ على بعضها بما يميزه عن الأشجار الأخرى وأكثر ما ينمو بالقيعان.

يصف الشاعر جريان نهر الفرات بموجاته المتتابة وكأنها أشجار الشفلح الشامخة على ما حولها من الأشجار، ويوصف رباب السحاب بالشفلح أيضاً كما جاء في بيت للشاعر محسن الهزاني من أمراء الحريق من قصيدة يقول فيها:

تسقى الحريق من ناوي كنه الليل تضحك مقاديمه وتبكي عقابه
لين ينفطى قبر سلمى من السيل من مزنة مثل الشفلح ربابه

٣٠ — ياما عليه: الضمير يعود للنهر، المخاليق: جمع مخلوق ويقصد الناس يصف الشاعر هذه الحركة الدائبة على النهر من الناس كل يقوم بعمله، هذا يسقى إبله، وهذا يسقى أغنامه، وذاك يملأ أوانيّه وأوعيته بالماء وغير ذلك وكل قد أشفاه الله بالقيام بعمله الذي زين في عينه كما سيرد في الآيات الآتية.

٣١ — دواليه: الدوالي هي ما يخرج به الماء من النهر للأراضي التي ينخفض عنها مجرى النهر على هيئة التواعير.

يضيف الشاعر جانباً من الصورة التي رآها فهذا فلاح يسقي الزرع وهذا كراد يحرق الأرض ويذرهما، وذاك مريح في جسمه وتعمل دواليه لإخراج الماء من النهر إلى الأماكن الأرفع من المجرى بطريقة ذاتية يحركها جريان الماء فتتحرك ويحركها تخرج الماء ذاتياً لتسقى الأراضي الزراعية وهو بهذه الصورة يشير إلى الحضر.

٣٢ — يهل: يمد، الغزل: خيوط الأنسجة الصوفية المعدة للنطو فصيحة، الأوتاد: التي تمسك أركان شقة النسيج الصوفي والأوتاد فصيحة، الإبرام: فصيحة يسدويه: يضع له السدو، والنسيج يتكون من السدو واللحمة فالسدو هو الخيوط الطولية واللحمة الخيوط العرضية وكل من الكلمتين فصيحة.

يكمل الشاعر الصورة التي رآها حول النهر بإضافة عنصر آخر وهم البدو الرحل فهذا يمدد خيوط النسيج الطولية السدو وهذا يحرك لحمة النسيج وهي الخيوط العرضية وهو يرمز بهذه الصورة إلى البادية المقيمين حول النهر.

٣٣ — كن: كان محذوفة الألف للضرورة، الدبا: صغار الجراد قبل أن يستطيع الطيران بأطواره المختلفة، «العوقاني — الكتفاني... الخ» ويكون لونه أصفرأ به مسحة خضرة تضرب في لونه دكنة من جراء النقط السوداء الموحدة على أكتافه ولونه العام أصفر الكتفان: الأصفر الذي على أكتافه نقط سوداء يسير على الأرض ويقفز قفزاً ولا يطير، يزهي: يزدهي فصيحة، لوحه: جانبه واللوح الجانب للجبل فصيحة واستعارها الشاعر للشارع مجازاً.

يصف الشاعر المرحلة الأخيرة من رحلته عندما وصل إلى بغداد وعبر الجسر إلى داخل البلد، وتقول بعض المصادر التاريخية أنه صادف حالة ارتباك أو غارة على بغداد أو الحلة واشترك مع المشتركين فيها، ويبالغ بعض الرواة في هذه الأمر، لكنه يصف هذا الشارع الذي رآه يزدهي بجانبه بالمصوغات الذهبية التي يسيل لمنظرها لعاب الإنسان ووصفها بصفرة الدبا إذا صعد على الجدار، وهذا اللون هو خير ما وصل إليه خيال الشاعر.

٣٤ — المصطحي: هو رفيقه حسين بن مصطح الشمري رحمه الله يصف هذه السوق، وهي سوق الذهب ببغداد بأنها قبة من الذهب والياقوت والزمرد وغيرها ولو رآها رليقه المصطحي صاحب الجنان الثابت والعقل البصير لزاع قلبه من هذه الأشياء النفيسة التي يراها أمامه.

٣٥ — الشف: الإرادة والرغبة في الشيء، طاري: ما يطراً على النفس من أي أمر من الأمور وهي فصيحة أو هي محذوفة الهمزة.

يقول الشاعر إن هذه المصوغات والنفائس الذهبية والأحجار الكريمة التي يزوغ لرؤيتها جنان العاقل من الرجال وتقطر لتملكها شفاه الكثير من الناس لم تكن تشغل باله ولا تساوي عنده أي شيء ولا خطرت على ذهنه ولا طرأت على باله للسبب الذي سيورده في البيت اللاحق.

٣٦ — الأركاد: الخبير الأكيد، العساكر: يعني عسكر الأتراك حين اتجه من القصيم غرباً لمساندة خصومه عليه، تلى: تنبع، اليه: لقب تركي رفيع كما أسلفنا ويستخدم في العسكرية التركية. يقول الشاعر أن الذهب والفضة والجواهر والأحجار الكريمة التي رآها لم تكن تهمة منذ

أن جاءه الخبر الأكيد من أن عسكر الأتراك قد سددت غرباً لمساعدة خصومه وهذا الخبر الذي أزعجه وجعله يزهد في كل شيء أمامه مهما غلي ثمنه.

٣٧ — بديرة: ببلد فصيحة، يعدون الأجداد: أي يحافظون على أصولهم وتعددتهم التناسلي أباً عن جد.

يقول الشاعر من باب العتاب كيف يستعين بعضنا على بعض بالقوى الأجنبية ونحن أبناء عم وجد واحد، وأبناء هذا البلد كلهم يحافظ على نقاء ذريته والمحافظة على عصبة أباً عن جد.

٣٨ — هب الهوى: أي قام الحظ، قضى حاله: قضاء حاجته، وأهاليه: سداد حاجات أهله. يرمز الشاعر في هذا البيت يرمز غامض فقد يعني نذب خطه وقيام حظ خصومه فقد استقام حظهم وذرؤا في نسيم الهواء ما يريدون تنقيته كما يقول المثل: «إذا هبت هبوب إذر فيها لابد الهبوب من السكون» أو أنه يستهض الهمم للانقضاء على خصومه مرة واحدة لينتزع الإمارة منهم.

٣٩ — أهل الواد: يقصد جماعته، الخاليق: الناس فصيحة مقلوبة الهمزة إلى ياء تراعيه: تنظر إليه، فصيحة.

يعتب الشاعر بأسى ومراراً على أقاربه وجماعته ويطلب من الله أن يسرد وجوههم كسواد السماء التي يراها الناس لما بذلوه من المساعدة لخصومه أو ما قابلوه به من الخذلان في وقت محنته.

٤٠ — خدام: هو خدام الضمادي وعواد: هو عواد بن رشدان الضيفمية: نسبة لآل ضيفم وهو الجد الأول للشاعر وخصومه، ويتخى: يعتزى

يحدد الشاعر المكان الذي يدعو عليه بسواد الوجوه وكذلك يحدد العصبة التي تشملها دعوته في هذا البيت.

٤١ — الأجرب: من أنصار خصومه، وفهاد: من أنصار خصومه أيضاً، قهاويه: جمع قهوة وهي الغرفة التي تشرب فيها القهوة وهي مجلس الرجال التي يجتمعون بها ويشربون القهوة ويتبادلون الأحاديث ويبحثون في شئونهم الخاصة والعامة.

يلوم الشاعر جماعته على دخولهم مقاهي من أشار إلى أسمائهم بالقصيدة وهم يعرفون موقفهم من خصومه ومساندتهم لهم ووقوفهم ضده.

٤٢ — وزيد ومنيع: من أنصار خصومه.

يستمر الشاعر في تعداد أنصار خصومه والمتواطئين معهم وقد حذفت بقية البيت لعدم ملاءمته للنشر.

٤٣ — جراد: أحد أنصار خصومه، ساد: صار سيداً فصيحة، يسرقن له: أي يتهمه بالسرقة وأساسها فصيح، مجلية: أي مبعدة عن بلده وهي فصيحة.

يقول الشاعر من باب الاستخفاف والاحتقار حتى هذا الرجل صار له سلطة وسيادة على الناس يؤدي هذا ويتهم هذا بالسرقة ويجلي هذا عن بلده.

٤٤ — عيسى: هو عيسى. آل علي: خصم الشاعر، هبة تسائس، ذابية: أي قام له الحظ وساعفه وهبت له رياح السعد ليذرى فيها ما يريد.

يقول الشاعر إن خصمه يقول إن الحرب مكلفة ومنقذة للعمال، ثم يعارضه بقوله إن المال سيساعد من قام حفظه وهبت له نسيمات السعد يذرى فيها ويصفى النقى من الزائف.

٤٥ — إنشد: إسأل، مسوى: عامل وصانع السيف.

يتساءل الشاعر موجهاً كلامه لخصمه بلهجة التعجب قائلاً له: إذا كنت تقول إن الحرب لا يوجد بها زيادة لنا فعليك أن تسأل عن صانع السيف لماذا حنى رأسه؟ لم يصنعه كذلك إلا من أجل أن يضرب به في ميادين القتال وإلا لما كان على هذا الشكل.

٤٦ — يديه: يؤديه فصيحة: العرفجية: هي لؤلؤة بنت عبدالرحمن العرفج.

يقول الشاعر إذا كان المرء لا يستطيع إرواء شذرة سيفه من رقاب أصداده فالأولى به أن يؤديه إلى تلك المرأة البطلة التي أخذت بثأر ابنها من خصومه بحد السيف.

٤٧ — لا صار: إذا صار، المر: هي المرة محذوفة التاء وهي شدة الخلق والحدة في الطبع الذي تستثار نخوته بسهولة فصيحة، الصنديد: السيد الشريف الشجاع فصيحة، الأولاد: الشباب.

يقول الشاعر إذا لم يكن بالشاب أو الرجل المرة والنخوة والحمية الذي يأخذ حقه كاملاً ويسد الخلة التي يوضع بها ويقضى الحاجة التي وكل إليه قضاؤها فإن الموصى إذا كان بارد الطباع عديم المرة يذهل ما يوصى به ويوكل إليه.

٤٨ — الهم: الاهتمام للأمر، الصنديد: سبق شرحها، العلك: أي عليك اللعنة.

يقول الشاعر إذا كان الرجل لا يولي الأمر الذي يهمه شأنه ما يستحق من الاهتمام فعليك اللعنة أيها السيف الذي طوى الهم صاحبه وجعله واقفاً متحيراً لايت في أمر من الأمور.

٤٩ — المر: سبق شرحها، يزغرت: يغلى ويحترق، ويصاحب الرجل المرور إفرازات بالمعدة يشعر

معهما كأن شيئاً مرأ وحامضاً يغلى في جوفه وهي من تفاعلات الجهاز العصبي فإذا ما أنهى الأمر أو المهمة التي اضطلع بها شعر بزوال هذا الغليان وبروده وأحياناً لا يبرد ما في جوفه

حتى يستفرغه قد يكون اختياراً وقد يكون إجباراً كما قال الشاعر سلطان بن عبد الله الجلعود من قصيدة له:

خله على داره وقله له ذلوفه إن كان به مر تبقى يزله
يختم الشاعر هذه القصيدة بقوله: إذا لا يوجد مر يغلى على كبد الرجل أو الشاب وتتولد عنه الحمية والشجاعة فيأخذ حقه كاملاً ويحتل المكانة المرموقة فلجنة الله على مثل هذا الشباب الذي لا يهيه صاحبه ويهيه من البهاء والحسن والاكتمال.

«٥٠» سعدون بن حسين أبا قرين الشمري وهو بطل هذه القصة الذي قاد رفاقه لمقاومة الاحتلال اليهودي لجزء من وطننا العربي الإسلامي العالي فلسطين إلى أن فرضت الهدنة على العرب عام ١٩٤٨م ثم عاد إلى وطنه المملكة العربية السعودية في ١٣٦٨هـ مع مجموعة من الضباط وهو برتبة نقيب وواصل خدمته العسكرية في الجيش العربي السعودي حتى وصل إلى رتبة عقيد وأحيل على التقاعد عام ١٣٨٢/٤/١هـ ثم تم التعاقد معه في سلاح الحدود ونظر السواحل من ١٣٨٣/٤/٢٧ حتى ١٣٨٨/١/١هـ تفرغ بعدها لشئون الخاصة حتى انتقل إلى رحمه ربه في ١٣٩٩/٩/١٠هـ/١٩٧٩م.

وسألت الشيخ علي حسين المراك الشمري عن يذكر أنهم اشتركوا في هذه الحرب فأفادني أن منهم الملازم نواف بن مناور السعيد الشمري ومن جرح سعد شرقي الدليمي وشطي البطحاوي العنزي وواصف فريد فلسطيني وملازم أحمد خضر المعزاوي والعريف عبد الله حسين العقيل الشمري ومن يذكر هناك عبد الكريم الخشمان وسعود الخشمان، وعبدالرحمن الجحان من أهل حائل ومحمد الصايغ ومرزوق بن رميزان.

ومن زملاء سعدون في العمل ورفاقه الرقيب أول سميحان حماد الشلاقي الشمري والرقيب أول مطنى بن شايع الشمري والجندي رشيد نحو الشمري.

- | | |
|--|-----------|
| ٥١» زين بن خريم بن عيادة الشمري. | رحمه الله |
| ٥٢ — عبيد بن عبد الله بن عيادة الشمري | رحمه الله |
| ٥٣ — علي بن سلامة الشمري. | |
| ٥٤ — صالح بن عقلا الشمري «عميد متقاعد». | |
| ٥٥ — علي بن وقيان الشمري. | رحمه الله |
| ٥٦ — عمر بن عبد الوهاب السويطي «نقيب متقاعد» | رحمه الله |
| ٥٧ — نقيب/ محمد صفا. | |
| ٥٨ — ملازم/ حسن مهنا. | |
| ٥٩ — يوم الاثنين ١٦/٢/١٩٤٨م. | |

٦٠ —	عريف / عشوي عثمان الشمري.	رحمه الله.
٦١ —	جندي / محمد عيد الشمري	رحمه الله.
٦٢ —	» / علي محمد الصالح حجازي	رحمه الله.
٦٣ —	» / محمد عبدالله السعد المطيري	رحمه الله.
٦٤ —	» / صالح مرزوق الجهني	رحمه الله.
٦٥ —	» / يتيم جبر العنزي	رحمه الله.
٦٦ —	» / زين خزيم عيادة الشمري	رحمه الله.
٦٧ —	» / عبدالرحمن محمد حجازي	رحمه الله.
٦٨ —	» / معاشي عبدالباري الرويلي	رحمه الله.
٦٩ —	» / عبدالرحمن سعد المطيري	رحمه الله.
٧٠ —	» / عطية سليمان الجهني	رحمه الله.
٧١ —	» / زعل بن حمود العنزي	رحمه الله.
٧٢ —	» / محمد نومان الجوفي	رحمه الله.
٧٣ —	» / محمد بن عمر راشد الشمري	رحمه الله.
٧٤ —	» / حميد بن دحيلان الشمري	رحمه الله.
٧٥ —	» / قاسم بن جليدان الجهني	رحمه الله.
٧٦ —	عريف / عبيد عبدالله بن عيادة الشمري.	
٧٧ —	» / شليويح زيد الرشدي.	
٧٨ —	» / العبط بن محمد الرويلي.	
٧٩ —	» / اسماعيل بن سلطان الشمري.	
٨٠ —	جندي / عبدالهادي بن عقاب العنزي.	
٨١ —	» / عودة بن موسى الشمري.	
٨٢ —	» / شهيان بن حميد الصخري.	
٨٣ —	» / محمد بن فريح الشمري.	
٨٤ —	» / عايد بن سظام الرشدي.	
٨٥ —	» / عيد بن حسين الشمري.	
٨٦ —	» / محمد العبيدي الشمري.	
٨٧ —	» / عبدالله بن أحمد أبو الخير حجازي.	
٨٨ —	مساء الخميس ليلة الجمعة ١٩/٣/١٩٤٨م.	
٨٩ —	الجيش البريطاني الذي يتولى حماية عصابات اليهود.	

- ٩٠ — جندي/ عبيد بن ناصر الرشيدى.
- ٩١ — العريف/ محمد أيوب.
- ٩٢ — الساعة الرابعة صباحاً من يوم ٢٩/٣/١٩٤٨م.
- ٩٣ — قيادة القوات البريطانية.
- ٩٤ — مقدم/ محمد صفا من القوات السورية.
- ٩٥ — الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ١٢/٤/١٩٤٨م
- ٩٦ — قائد القوات البريطانية.
- ٩٧ — يوجد مع قائد القوات البريطانية قوة تتكون من ٣٠ دبابة وحاملات المدافع الثقيلة.
- ٩٨ — العريف/ اسماعيل عبدالله.
- ٩٩ — منتصف ليلة ١٥/٤/١٩٤٨م.
- ١٠٠ — العريف/ صالح شنيوي.
- ١٠١ — ضابط يحمل إشارة المنجل والمطرقة.
- ١٠٢ — العريف/ صالح شنيوي.
- ١٠٣ — الجندي/ حسين سلمان.
- ١٠٤ — الساعة العاشرة والنصف من يوم ٢٠/٤/١٩٤٨م.
- ١٠٥ — الأسير/ بردخاي برهم.
- ١٠٦ — نائب/ عبيد عبدالله الشمري.
- ١٠٧ — نائب/ حافظ مخلف الشمري.
- ١٠٨ — جندي/ خلف مرشد العنزي.
- ١٠٩ — ٥ / حسن محمد عسيري.
- ١١٠ — ٥ / عويد بن خطاب الشمري.
- ١١١ — ٥ / حمد بن معيتق الحربي.
- ١١٢ — عريف/ فهد سرور المطيري.
- ١١٣ — مقدم/ خالد الداغستاني.
- ١١٤ — قائد/ شوكة شقير.
- ١١٥ — من يوم ١١/٦/١٩٤٨.
- ١١٦ — عريف/ عبدالله بن عشان الشمري.
- ١١٧ — عريف/ عايد منيس الشمري.
- ١١٨ — جندي/ أحمد عبدالرحمن المطيري.
- رحمه الله.
- رحمه الله.
- رحمه الله.
- رحمه الله.
- رحمه الله.
- رحمه الله.
- رحمه الله.

رحمه الله.	» / علي سليمان الشمري.	— ١١٩
رحمه الله.	» / شلش بن غانم العنزي.	— ١٢٠
رحمه الله.	» / عيّد بن عيسى الصخري.	— ١٢١
رحمه الله.	» / سليمان بن إبراهيم الصخري.	— ١٢٢
رحمه الله.	» / علي بن وقيان الشمري.	— ١٢٣
رحمه الله.	جندي/ مصلح بن صالح الحربي	— ١٢٤
رحمه الله.	» / عبدالمنعم عطية فلسطيني.	— ١٢٥
رحمه الله.	» / سليمان بن عوض الجوفي.	— ١٢٦
رحمه الله.	» / معتق بن محمد الحربي	— ١٢٧
رحمه الله.	» / خلف بن فالح الشمري.	— ١٢٨
	عريف/ فهد بن رباح الجوفي.	— ١٢٩
	عريف/ إبراهيم بن مشعان الشمري.	— ١٣٠
	عريف/ مرزوق بن خميس الشمري.	— ١٣١
	جندي/ محمد بن عبدالله الحربي.	— ١٣٢
	» / سليمان بن راشد الجهني.	— ١٣٣
	» / مسفر سعيد الحارثي.	— ١٣٤
	» / علي بن محمد جمعة النجدي.	— ١٣٥
	» / علي بن سليمان أردني.	— ١٣٦
	» / هلال بن مسعود الشمري.	— ١٣٧
	» / حامد عودة الشمري.	— ١٣٨
	» / فرحان براك الرشيد.	— ١٣٩
	» / عبدالله عبدالرحمن حجازي.	— ١٤٠
	» / سعود عبدالله حماد الشمري.	— ١٤١
	» / مسفر راشد الشمري.	— ١٤٢
	» / سليمان مرزوق الحربي.	— ١٤٣
	» / كان ذلك يوم ٣/٣/١٩٤٨.	— ١٤٤
	القائد/ عبدالقادر الحسيني الذي قتل في الفسطل في ٧/٣/١٩٤٨م	— ١٤٥
	رحمه الله.	
	قال لي الشيخ علي حسين العراك الشمري أن النجدة كانت بقيادته وقيل	— ١٤٦
	غير ذلك.	

- ١٤٧ — الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ٢٢/١٠/١٩٤٨ م.
- ١٤٨ — الساعة الثالثة بعد الظهر ٢٢/١٠/١٩٤٨ م.
- ١٤٩ — النائب الأول/ كامل رستم.
- ١٥٠ — نائب/ نشا محمد الشمري. رحمه الله.
- ١٥١ — وكيل/ عامر سعد القحطاني. رحمه الله.
- ١٥٢ — جندي/ حميد سعيد الجهني. رحمه الله.
- ١٥٣ — « / محمد عبدالله فرحان الشمري. رحمه الله.
- ١٥٤ — « / مشلخ فهاد الشمري. رحمه الله.
- ١٥٥ — « / مذود رسام الشمري. رحمه الله.
- ١٥٦ — « / عبدالله بن شلاش الشمري. رحمه الله.
- ١٥٧ — عريف/ رشيد نحو الشمري.
- ١٥٨ — جندي/ منور سلمان العنزي.
- ١٥٩ — جندي/ محمد مرزوق الشمري.
- ١٦٠ — هيفاء العثماني صاحبة مدينة روضة رمان.
- ١٦١ — زيد بن سليمان التميمي صاحب مدينة روضة رمان.
- ١٦٢ — لُقُأَح: هو سالم بن إبراهيم السويداء صاحب مدينة روضة رمان.
- ١٦٣ — ناصر بن موسى الحيدان/ صاحب الوسيطاء ثم مدينة روضة رمان.
- ١٦٤ — حليان التميمي صاحب الغزاليه بقرب رمان.
- ١٦٥ — طوق: اسم الرجل المرسل، قازي: أي غير نائم ساهر على كور مطيته، أكوار: جمع كور وهو شداد المطية فصيحة، ضامر: البطن فصيحة، تبوج: تقطع، الفياهي: جمع فيفاء وهي الأرض القفر فصيحة، ناحلات: قد تآكلن فصيحة، خذايمة. أعصاب الرقية التي تشد الرأس مع العلباء يقول الشاعر منادياً رفيقه الذي سيرسله إلى تلك الغاية وهو على تلك الناقة الضامر التي تقطع المسافات الطويلة دون أن تتعب أو تكل حتى تصل بك إلى ما تريد.
- ١٦٦ — لاسرئها: إذا سرت عليها، عشر كوامل أي عشر ليال بأيامها كاملة، طالعت: رأيت فصيحة، الدعيمي: هو صديقه ولم أعثر على كامل اسمه، وقد يكون من الدعوم من بني خالد علاقته: علاماته أصلها علائمه فصيحة.
- بوصي الشاعر مندوبه أن يسير على تلك الناقة عشر ليال كاملة مع أيامها وعند ذلك يصل إلى مقصوده وهو قصر الدعيمي الذي سيوصل إليه المكتوب الذي يحمله.
- ١٦٧ — أجاويده: جمع جواد فصيحة، داسوا: من الدوس وهو الدعس فصيحة، لائمة: ما يلام عليه الإنسان من المعائب والمحذورات.

يوصي الشاعر رفيقه بأن يسلم على ذلك القصر ومن يسكن فيه وهذا من باب الشمول
والإفالمقصود هي تلك الفتاة التي أخذت عليه له.

١٦٨ — الويل: المطر فصيحة، الحيا: المطر فصيحة، لايح القمري: طار في النهار والتأم بالليل.
يحمل الشاعر رفيقه سلاماً لذلك القصر ومن يسكن فيه بعدد ما يهمل من السحاب من
قطرات المطر وبعدد ما يطير الحمام في الصباح ويعود للمبيت في المساء في كل صباح
ومساء.

١٦٩ — نقر: أعلم، النقر: الحفر فصيحة، الصفا: الصخور الصلبة فصيحة، ما عاد: لا يمكن، تمحي:
تزال فصيحة، وسايمة: اسمه والأثر المحفور عليه فصيحة.

يقول الشاعر لرفيقه إن حب من سكن بذلك القصر والمقصود تلك الفتاة مثل الحفر
على الصخر والحفر على الصخر لا يمكن أن تزال أو تمحي بسهولة آثاره أو علامته.

١٧٠ — يضيف الشاعر مؤكداً أن النقر أو الحفر على الصخور لو هبت عليه الرياح فلا يمكن أن
تزيل أثره ولو نزل عليه المطر فمن المستحيل أن يزيل آثاره أو علاماته.

١٧١ — الحبيبي: هو ماجد الحبيبي صاحب القصيدة، المعادي: المكان الذي يسكن فيه، وربما
يكون المعنى للمعادي هو جمع معدي أي المكان الذي تقع منه الإغارة، وسايمة: جمع
وسم أو علامته وهي فصيحة.

تقول الشاعرة موجهة كلامها إلى المندوب طوق إذا جئت ماجد الحبيبي وهو بمكان
تعلمه أنت واضح العلامات والإشارات.

١٧٢ — من هاب ورد الماء: كناية عن وصول الحبيب إلى محبوبه، شارات: واصلات، كظايمة:
الكظائم هي الصخور العاطسة في الماء والتي تتحكم بخروج الماء وإيقافه والكظيمة
الصخرة التي تغلق الماء وكظم الباب أغلقه وهي فصيحة.

تقول الشاعرة من نهيب الوصول إلى شيء ذهب عنه ولم يقض وطره ورمزت بذلك إلى
الماء الضروري للإنسان بأن من تردد في ورده صدر منه ولم يرتو حتى لو كان غاطساً في
وسط الماء ويده تصريفه.

١٧٣ — التصديده: الصدود الالتفات يمينا وشمالاً وهي فصيحة، مخطر: أي أنه من المؤكد أنه لن
يجتمع به، يلازمه: يلتزم معه ويكون زوجاً له.
تقول الشاعرة أنه من أكثر الصدود عنن يوده ويحبه دون أن ييغضه من قلبه فإنه لا
محالة لن يجتمع به ولن يلتزم معه بزواج أو غير.

١٧٤ — **يرجى بالعسى:** أي بالتمني بعسى وأخواتها، مات بالعسى: أي مات على الأمل والرجاء الذي لا فائدة منه، غارات الصبا: أي نزوات الشباب، ولايمه: من يرجوه وقد استعد له وتولم. تقول الشاعرة أنه من بات على الرجاء بعسى ولعل وربما وليت دون أن يعمل شيئاً فإنه لن يحصل على ما يريد وستلبيه نزوات الشباب وشطحاته عن بلوغ هدفه.

١٧٥ — **لا واهني:** أتمنى وأهنيء نفسي، يلائمه: يلائمها أي يقترب منها ويكون زوجاً لها. تفصح الشاعرة له عن شيء يجيش في نفسها من حبها له وهي التي قد خطبها الكثير من ذوي الشأن والمكانة المرموقة من شيوخ العرب ورجالهم.

١٧٦ — تستمر الشاعرة في التعبير له عما يجيش في نفسها فتقول إن ملاعبي لك اعتبره جنتي في هذه الحياة ولا جنة في هذه الحياة ستدوم لحي مهما كان.

١٧٧ — **طرباك: ذكرك، رؤياك:** طيفك وخیالك في مخيلتي أصلها فصيح. تواصل الشاعرة في تعداد الأمور التي جعلتها تتعلق به منها رائحته التي يقول الرواة أنها ضمت على صدرها ولذلك أصبح خياله يحوم في مخيلتها ويوقظها من نومها فرحاً بقدمه.

١٧٨ — **وش: أي شيء مختزلة فصيحة، الخيف:** يبدو أنه نوع من الأنسجة محتى: أي منسوج بالأيدي، نظائمه: نظائمه أي صفوفه وهي فصيحة. تذكر الشاعرة المعنى بالأمر بذلك اللقاء الذي تم بينهما في ليالٍ متتابة وكان هذا اللقاء على العفة والطهارة التي لا شائبة فيها.

١٧٩ — **حمامات مكة:** كناية عن العفة والطهارة ويضرب المثل بحمام مكة في الطهارة والنقاء، الفرط: هو الطفل الصغير لم يدرك الذي لم يرتكب ذنباً وهي فصيحة، حزامه: أربطه وما يحزم به فصيحة.

تختتم الشاعرة قصيدتها في تذكيره بتلك اللقاءات التي تمت بينهما تقوم من مكانها وهي أظهر من حمامات مكة أو من طفل صغير لم يرتكب ذنباً من الذنوب فهي طاهرة مطهرة يربط بينهما الحب العفيف.

١٨٠ — **لواهيبي:** جمع لاهب وهي كناية عن الآلام التي تصيب الإنسان، تداري: أي تترفق بنفسها وهي فصيحة.

يقول الشاعر أن أم ذلك الفتى ستأتيك تسأل عنه متلهفة عن أخباره وكأنها تحس لهب النار في جوفها تذرف الدموع لا تدارى على نفسها من شدة البكاء.

١٨١ — **تنشدك:** تسألك، أساسها فصيح، باللي: بالذي مبارى: مرافق موازي لك. يقول الشاعر إن والده ذلك الشاب متسألك بالله العلي العظيم عالم السر والغيب أين

إبني الذي قد صاحبك ورافقك في هذه الغزوة أو ذلك السفر.

١٨٢ — عمرو: هو عمرو الشمري، المدلاة: ما يدلي به وهي كناية عن الرجل الذي يوصل من يريد إلى الهدف الذي يريد، يانازل الخوف: هي كناية أيضاً عن الشجاع الذي لا يهاب ولا يخاف من أحد، تشد: تسأل بالحاح يمتدح الشاعر رفيقه عمرو وأمير عشيرته الذي علم أنه يسأل عن حاله التي قد أصابها الضعف والوهن منذ العام الماضي وهو يسأل سؤال المتغابي الذي يعلم عن حاله ولكنه قد يؤل معرفة إلى احتمال آخر لا علاقة له في الموضوع.

١٨٣ — أخو فهيد: هو عمرو، يشع الطير: كناية عن الشجاعة والإقدام فهو يشع الطير من لحوم أعدائه، حام: استدار في الهواء فصيحة. يمتدح الشاعر عمراً ويكنيه بأخي فهيد ويصف رجال عشيرته بالشجاعة والإقدام وإشباع حائمات الطير من جثث الأعداء.

١٨٤ — كنها: كأنها مخففة أصلها فصيح، أبا العوف: هو العوف من فصيلة النمل نحيف رفيع الأرجل، الزاد: الطعام فصيحة. يقول الشاعر لعمرو بعد أن مدحه وأخوته وأفراد عشيرته إنك تسأل عن السبب الذي جعل حالي بهذه الصفة وكأنني حال تلك الحشرة الخفيفة النحيفة أو كأنها حال من صام عن الطعام والشراب.

١٨٥ — فقار: يقصد فقار ظهر لحم الجزور وهو أطيب لحمها وهي فصيحة، سيج: صب عليه حتى يسيل يميناً وشمالاً فصيحة، بيدام: بأدام وهو ما يؤتد به من السمن وغيره فصيحة قلب الهمزة إلى ياء.

يبدأ الشاعر بتعداد الأشياء التي لو قدمت له وهي من ألد المأكولات في ذلك الوقت لماذا قها وهي أصناف الطعام وعلى هذا الطعام فقار لحم ظهر الجزور ولو ساج الإدام فوق هذا الطعام وهو مما يجعل الطعام طيباً في ذلك الوقت.

١٨٦ — البلقاء منطقة بشرق الأردن مشهورة بجودة حنطتها، الجوف: المدينة المشهورة بشمال المملكة وتشتهر بتمرة الحلوة الفاخرة التي يضرب بها الوصف، الطنا: الغضب وحما المرة، حام: أي عصف بها إثر الظرف الذي سيأتي ذكره.

يضيف الشاعر أنه لو قدم له طعام مصنوع من حنطة البلقاء المعروفة بجودتها ولذتها، وتمر حلوة الجوف المشهورة بتركيز حلاوتها وزكاء نكهتها فلن تقبلها نفسي التي تركز فيها الغضب وغشت عليها المرة وعصف بها الغبن والشعور بالظلم.

١٨٧ — **لابس الخصر:** الخصر هو عقد من خرز المرجان وغيره تعقده المرأة في معصم يدها مكان الأساور وتلبسه النساء عند الحاجة وقبل توفر المصاغات الذهبية وهو يرمز هنا إلى الفتاة الجميلة التي تعتني بنفسها وتلبس الملابس الجميلة والمصاغات الثمينة، تشوف: نوع من الأقراط تشف به الفتاة أذنيها لاستكمال زينتها، في ديرة: أي بلد أو مكان خالي. يستمر الشاعر في تعديد المغريات التي لو أعطيت له لما قبلها ومن ضمنها تلك الفتاة الجميلة والمتجملة التي لبست كامل حليها لو عرضت له في مكان خالي من الناس وأمن على نفسه لما دنفت نفسه إليها ولما اقترب منها لما يشغله عنها.

١٨٨ — **أبيه:** أريده، عزام: مقدم على.

يقول الشاعر لو أن تلك الفتاة المتجملة عرضت له في مكان آمن وأقبلت عليه نفسها وعزمت على اقحام نفسها عليه مشتاقة مثلهة لما رغبها نفسه ولأبعدها ونحاهها عن نفسه.

١٨٩ — **مفوز:** هو مفوز.. الشمري غريمه، نقوة: من الفئة المنتقاة، الغوش: الفتيان المغاوير الشجعان وأعتقد أن هذه الكلمة من أصل أجنبي وربما كانت عبرية، خيالهن: أي فارسهن فصيحة، عنفت: الأرض الخشنة فصيحة، رضام: أرض ذات أحجار وعرة وأصلها فصيح وربما كان يعني مكانين يهذين الإسمين.

هنا يبوح الشاعر عما يشغل باله عن تلك المغريات السابق ذكرها وهو غريمه مفوز ذلك البطل الشجاع الذي يقع عليه سهم الانتقاء من بين الشبان والرجال الشجعان وهو الفارس المغوار الذي يقرء الخيل مع الأرض الحثة الوعة.

١٩٠ — **اللي:** الذي، أشوف: أرى فصيحة، خلّه: دعه.

يبين الشاعر لماذا يريد الاقتصاد من غريمه مفوز وذلك لأنه كساه ثوب العار وكساه بالسواد بين أهله وعشيرته وذلك بخفر ذمته وقتله من استجار به وجعلني في هذه الدوامة وسأقلب الوضع عليه سأجعله يسهر كما أسهر أنا الآن وسوف أنام بعد أن آخذ حقي منه.

١٩١ — **القنب:** نوع من الكتان تتخذ منه الجبال قوى متين فصيحة، الصوف: معروف شعر الضأن فصيحة وحباله أقل جودة ومثانة من القنب، حطني: جعلني فصيحة، أجوز: أصلح فصيحة. يتابع الشاعر تعداد الأخطاء التي ارتكبها خصمه إزاءه فيقول لقد غير وضعي من حال إلى حال وضرب مثلاً بين مثانة جبل القنب ورداءة جبل الصوف بعد أن أثر في معنويتي بهذا الوضع وفي هذه الحالة التي هبطت فيها معنويتي فإنني أصلح للحضر المقربين من جملة الخدم وهذه في نظر الشاعر أسفل درجات الإهانة.

١٩٢ — النزل: الفريق من العرب فصيحة، طوف: طائفة أو صف من البيوت الشعرية المبنية وأصلها فصيح، أفلط: أتقدم بربعة البيت: المكان الذي يجلس فيه الرجال فصيحة، قدام: أمامه. يقول الشاعر إن هدفي وأمنيتي أن أتقدم على غريمي الذي فعل بي ما فعل واجتاز إليه النزل صفاً بعد صف حتى أصل إليه بربعة بيته وأقدم عليه لأغسل من نفسي العار الذي كسانني إياه.

١٩٣ — مصقل: السيف فصيحة، يرد الجوف: أي فعل السيف يرد لاهب الأسى في نفسي، صوغه: أي صاغه والمقصود السيف وهي فصيحة، بلحام: أي ألحمه بعد أن انكسر أو انفرد واللحام فصيحة، الصنائع: الصنائع وأصلها فصيح.

يصف الشاعر ذلك السيف الذي سيقدم به على غريمه ويقتله بأنه سيف صقيل جيد الصنع لم يسبق أن أجرى عليه بعض الترميمات والإصلاحات للإعوجاج أو الكسور والقذور فهو سيف صقيل جداً من قطعة واحدة.

١٩٤ — البيض: النساء فصيحة، يصفقن بكفوف: يندبهن بعد أن أقتله وإن عاش سليماً فسوف أقطع إحدى رجليه.

يقول الشاعر إنني سأقدم عليه وأضربه بذلك السيف الصقيل فإما أن أقضي على حياته وتلج أصوات الناديات وهي يصفقن بأكفهن حزناً عليه وأسى وإن سلم وعاش فلن يمشي على قدميه بعد الآن.

١٩٥ — مرهوف: أي سيف رهيف رقيق ورهيف فصيحة، الخفوات: النساء الجميلات الحيات فصيحة، دقوه بوشام: أي دقوا عليه بالوشم وهي فصيحة.

يقول الشاعر إن لم آخذ حقي وأغسل العار الذي كسانني وأبرد غليل قلبي وأضربه في هذا السيف المرهف فيجب ألا أكون مع الرجال ولا أعتبر نفسي رجلاً والأولى لي أن أكون مع حسبة النساء وتدقون على وجهي الوشم للزينة كما تفعل النساء لتزين وجوههن بالوشم.

١٩٦ — عيال: رجال، شباب السويط: أمراء وشيوخ الظفير من بين لام من طيء على الأرجح وإن كان ابن بسام ينسبهم إلى بني سليم، اللي: الذين أفنان: فن ومكانة مرموقة.

ينسب الشاعر على شباب ورجال وشيوخ آل سويط بما نالوه من المكانة المرموقة بين القبائل التي عاصرتهم وفيهم الشجاعة والإقدام والكرم والمروءة والمحافظة على الجار.

١٩٧ — مخاسير: جمع خسارة، مثل ذبح الضحية: أحد رجال السويط قتل ولده عندما أخطأ على جاره محافظة على حرمة الجار.

يقول الشاعر أن مروءتهم وكرمهم ووفاءهم لجارهم الذي ما إن علم أحدهما باعتداء أحد أولاده على جاره وقيل أن ابن جاره قتل ولا يعلم قاتله فقتل السويطي ابنه إرضاءً لجاره ومحافظة على كرامته وحفاظاً عليه.

١٩٨ — حمراء: ناقة حمراء فضيحة، ردوم: قد تراكم الشحم في سنامها فضيحة حائل: لم تلقح فضيحة، مسلوبة الذرعان: أي ممشوقة الذراعين فضيحة، سجلة: قوية متينة. يركب الشاعر مندوبه على تلك الناقة السمينة التي تراكم الشحم في سنامها حائل لم تلقح وتمتاز بصفات مميزة من الركاب التجائب مسلوبة لحم الذراعين قوية متينة.

١٩٩ — اللي: التي: تشادي: تشبه فضيحة، ممرسات المحاليل: المحالة الممرسة إذا خرج الرشاعن فلكتها فازدادت سرعتها أضعاف ما كانت عليه وأمرست والمحالة كلمتان فضيحتان، الجنوع: الخشبة المسندة على الحاملتين الحاملة الأمامية والحاملة الخلفية، والجنوعان: ما تركب المحالة عليهما بمحورها وكل هذه الأخشاب من عدة البئر، البئر: البئر فضيحة مقلوبة الهمزة إلى ياء.

يصف الشاعر تلك المطية بسرعة مثل المحالة الممرسة في سرعة جريها وهذه السرعة أقصى ما رآه الشاعر في وقته من سرعة الأجسام المتحركة أمامه حوالي عام ١٢٢٠ هـ.

٢٠٠ — تغلي: تصل فضيحة، حذف اسم المعنى بالذم لعدم ملائمة ذكره، الثقيل: النسيمة والكلام المنقول وأساس الكلمة فضيحة، الأثلة: جمع سلال وهو صغار اليهم الذي ولد حديثاً.

يأمر الشاعر راكب تلك المطية التي تلك صفتها وسرعتها إلى المعنيين بالذم ويصفهم بأصحاب النسيمة ونقل الكلام من شخص إلى آخر ويصفهم بضعف الهمة بالأمر العلياً ولا تعدو همهم عن تربية أغنامهم والاعتناء بصغارها وإرضاعها من أمهاتها وهذا أقصى ما يصبون إليه.

٢٠١ — حذف هذا البيت لما فيه من مس لكرامة المعنيين بالذم.

٢٠٢ — ضال: حصل، السويطات: أي السويط وهم شيوخ الظفير وهم من بني لأم من طيء كما ورد في كتب الأنساب، ضايل: حاصل دغيم: هو دغيم بن سويط الذي ثنى دونه الشاعر؛ ثنى دونه: أي حماه وذاد عنه أعداءه.

ينثى الشاعر على آل سويط جميعاً ويخص منهم بالذكر دغيم فهو الذي وقف في وجه أعدائه ومنعه رجاله حينما التجأ الشاعر إلى بيت والدته، أي والدته دغيم، ويقول إنه لم يحصل لي غير آل سويط الذين حموه عندما تخاذل الآخرون عن حمايته.

٢٠٣ — الحمائل: جمع حمولة وهي العائلة، الرذال: الرديهي فصيحة، لباسة للجوخ: والجوخة هي جبة أو صدرية من نسيج صوف ناعم وحرير غالباً تكون من اللون الأحمر يلبسها الفرسان والشيوخ وعلية القوم من الأمراء ومن في مستواهم، ثياب ملة: ثياب من الكتان بلون رمادي في الغالب ولا يلبسها سوى الأمراء والشيوخ وعلية القوم مثل الجوخة وهي من اللباس السائد آنذاك.

يصف الشاعر آل سويط بأنهم من ذروة السنام وليسوا من رذال الناس فهم رجال أبطال صناديد يحمون من التجأ إليهم ورمز للباسهم الجوخ وثياب المل وهذا الرمز يكفي للدلالة على مكانتهم في قومهم كما تدل عليهم أفعالهم إزاءه وإزاء من التجأ إليهم.

٢٠٤ — المهار: جمع مهر وهو ابن الفرس فصيحة ويكنى بها عن الخيل عامة المعركة ما تحت سرج الفرس من وقاء وأصلها فصيح، الرسن: العنان فصيحة، زهوة: أي مما تزهى به. يسنمر الشاعر بامتداح آل سويط فيقول إنهم شيوخ وسادة في قومهم وكرماء بأيد سخية وأعطياتهم من كرام الخيل: الأصيل التي تعتبر عند العربي أثمن هدية في ذلك الوقت ولا وجود بها سوى جواد كريم.

٢٠٥ — ماسلت: ماسألت مخففة فصيحة، الزوم: الأنفة والكبر، مايل: مائل من الكبير والخيلاء، سعدون: هو سعدون بن عريعر حاكم الأحساء آنذاك، مقنى له: مقر له أنه كفء لمكانته موازياً لآل سويط.

يختتم الشاعر القصيدة التي منها هذه الأبيات بقوله إنه لا يبالي بمدح آل سويط ولم يسأل أحداً أن يعترض عليه في ذلك ولن يقر لأحد أن يعترض على ما مدح به آل سويط سوى سعدون بن عريعر حاكم الأحساء الذي كانت شهرته في ذلك التاريخ قد وصلت إلى كل مكان.

٢٠٦ — الحمراء: الناقة الحمراء، زهاها: ازدهت به فصيحة، الحيال: حالة كونها حائلاً لم تلقح وهي فصيحة، ما تداني: لا تتحمل، المشعاب: نوع من العصي بطرفه عقفة أو أصل فرع من فروع الأماسية، النحر: مقدمة الصدر فصيحة.

ينادي الشاعر مندوبه الذي سيركب على تلك الناقة الحمراء الحائل السمينه التي لا تتحمل أن يلمسها العصا حتى تقفز وتسرع في جريها لقطع المسافات الطويلة.

٢٠٧ — ترعى طرف: أي ترعى في أماكن بارزة خطيرة وهذا بطبيعة الحال يكون مرعاه خصباً، ذيره: أفزعها فصيحة، واد قفر: الرادي الذي لم يرع كلؤه والكلمتان فصيحتان، نذرها: النذر من ينذر بالشر وهي فصيحة.

يصف الشاعر هذه المطية بأنها ترعى هذا المكان القفر الذي لم يطقاً أحد كلاًه

وأعشابه وقد اطمأنت في مرعاها فلم يفرعها مفرع أو يذرهما ذائر حتى تراكم الشحم في سنامها.

٢٠٨ — ضر: أي حماية، خيال: الفارس فصيحة، يفك: يحمي فصيحة، المتالي: آخر الظعن والقطين وحيران الإبل ولقاحها وهي التي تكون في الآخر، جلاب: من الجلب وهو عرض الشيء للبيع فصيحة.

يقول الشاعر إن هذه الناقة رعت تلك الأراضي القفر في حماية ذلك الفارس الذي من عاداته أن يحمي مؤخرة الركب أو الإبل أو القطين من أن يقترب منه الأعداء هذا الفارس الذي جلب نفسه وأرخصها في سبيل حماية مؤخرة قومه.

٢٠٩ — ياما: حتى، يني العدالي: أي يني سنامها مما يتراكم فيه من الشحم، زملوق: الزملوق ساق الزهرة والزملوق رؤوس الأغصان الغضة المتعطفة.

يستمر الشاعر في وصف هذه الناقة التي رعت أعشاب الربيع وقطفت غصن الغصون وسيقان الأزهار بأزهارها الغضة حتى ارتكم الشحم فس سنامها ووقف معتدلاً شامخاً.

٢١٠ — الكور: هو شدة المطية فصيحة، الدلال: هي العناكيل المتدلية الشداد حتى تكون موازية لركب المطية وتوضع العناكيل للزينة.

يقول الشاعر أن تلك المطية التي سيركبها مندوبه ليس عليها ما يشغلها سوى شدادها وخرجها وعشاكيله الجميلة التي تتدلى متراقصة من تحت بطنها زاهية بألوانها الجذابة.

٢١١ — راع: صاحب، تباطى: تستبطىء أساسها فصيح. الآن بدأ الشاعر بالبوح عما سيوصي به مندوبه فيقول له يا عمي عليك بالصبر ولا تستبطى مني مدة قد لا تتعدى الشهر وسيأتيك مني الخبر اليقين.

٢١٢ — قطعة ليالي: أي عدد من الليالي، النشاما: جمع نشم وهو الفتى الشهم الشجاع الكريم. يحدد الشاعر المدة التي سيمكثها بعدد من الليالي وسيصلكم عنى الخبر الذي تطيب له نفوسكم جزاء لما قلته لي في تلك اللحظة الحرجة حينما قلت ليتني في منك، ومكاني بمكانك فاستثرتني بها.

٢١٣ — العرصة: الضغط والشدة وأساسها فصيح من عرض الشيء أي وطأة وضغط عليه، له ظلال: أي ظلال غبار المعركة، دورها: غايتها.

يتابع الشاعر الطلب من عمه أن يصبر وسوف يسمع بمعركة شديدة يرتفع فيها غبار المعركة حتى يصير له ظلال وتلحق بها النفس العزيزة مرادها وغايتها.

٢١٤ — خيار: المختار فصيحة، العيال: الرجال والشباب وأساسها فصيح، حمرها: دمه.
يتابع الشاعر وصفه لما سيحدث فيما أن يسقط بفعل يده فرس بفارسها أو المختار
من الرجال والمقصود في الرمز خصمه الذي خفر ذمته وسينتثر الدم من المقصود بفعل
الشاعر أي سيقتله.

٢١٥ — الربع: الجماعة فصيحة. الكدر: معروف ما كدر الصفو فصيحة.
يقول الشاعر حتى لو كان هذا الخصم من أقرب الناس إليّ ولم يرع حرمتي وخفر
ذمتي فإنه سيواجه ما يواجه مني ورغم أنه فقيدة علي إلا أن ذلك أهون علي من تجرع
الأكدار التي أوقعني فيها.

٢١٦ — اليدي: الودي: وهو العوض في الدية والمال وغيره أساسها فصيح، يأتي كما لي: أي عوض
المال يأتي بكامله، تسم: أي يصيبها البلى وهي فصيحة، القالة: المسألة، حنا: نحن.
يضع الشاعر الخيار الثاني أمام خصمه بأنه إذا لم يدفع قيمة ما أخذه بالكمال والتمام
فسوف ينتقم ويفعل فعلته ولن نترك المسألة يطول بها الزمن وتسم بعد الجدة ثم تندثر
ونحن بأثرها بل سنأخذها كاملة مادامت حارة.

٢١٧ — عواص الجمال: الجمال الصلبة القوية وأساسها فصيح، الفرجة: المسافة البعيدة.
يكرر الشاعر طلب الصبر من عمه كما تصبر الجمال القوية الصبورة ولو طالت
المسافة وطال السفر عليها لكنه في النهاية سيصل إلى الغاية التي رسمها لنفسه وهو
استرداد مال صاحبه أو أخذ حقه من خصمه.

٢١٨ — السيف الأبر: السيف القاطع أو القصير القاطع، عهدتي: ما أتعهد بإنجازه وهي فصيحة
احتمالي: ما أحتمل فعله فصيحة، قالته: مسألته.
يقول الشاعر لعمه إنني سأخذ حقي بهذا السيف القاطع البتار وهو ما تعهدت به
وأحتمل تنفيذه وعيب على الذي لم يحضر مسألة تخصه وينهيها على الوجه الذي يناسبه
ويبرد غليله.

٢١٩ — خويننا: رفيقنا
يختتم الشاعر هذه القصيدة الموجهة إلى عمه بأن رفيقه ليس منازع بالحق ولا جدال
في إعادة حقه إليه ولا يمكن أن أغض النظر عن استرداد ماله ممن أخذه منه مهما كلفني
ذلك حتى لو كان الثمن حياتي.

فهرس الموضوعات والرواة في الأجزاء الثلاثة

الرقم	عنوان	الجزء الصفحة	بطل القصة	راويها	ملاحظات
١	المغامر الصغير	١١ ١	شائع بن مرداس الرمالي الشمري	الشيخ/خفيج بن عبدالله الشمري	أساس
٢	الصدفة السارة	٤٣ ١	ثوبى بن قشعم الشمري	الشيخ عبداللطيف بن عقل القشعم	القصة من
٣	بعد نظر	٧١ ١	عميرة بن راشد آل ضيفم	الشيخ/خفيج بن عبدالله الشمري	الراوي بما
٤	النظير	١٢١ ١	عيسى بن سالم السويداء	من معرفي	لا يتعدى
٥	الفارس المثلث	١٧١ ١	مزنة ابنة منصور المطرودي	الشيخ/سعد بن عبدالله الجندل	خمس
٦	الضيف الغريم	٢١١ ١	مزوم الشمري	الشيخ/راجي بن رجاء الشمري	اسطر مع
٧	نظرة صائبة	٢٥١ ١	علياء التميمية	الشيخ/ابراهيم بن دحيم الرديعان	القصة
٨	القاضي الذكي	٢٩١ ١	حمود بن حسين الشغدلي	من معرفي	أما الحوار
٩	الزوجة الوفية	٣٣٣ ١	فهذه زوجة عيادة بن منيس الشمري	الشيخ/محشم الجهيلي الشمري	والمشاهد
١٠	فرعة من الله	٣٧٩ ١	ذياب طلاع الشمري	الشيخ/ابراهيم بن دحيم الرديعان	والمواقف
١١	الشجاعة الأدبية	٩ ٢	أم الفاضل من أهل شقراء	الشيخ/سعد بن عبدالله الجندل	فهو
١٢	الراوي	٤٣ ٢	سعود بن عبدالله الجلعود	من معرفي ورواية ابنه الشيخ عبدالعزیز سعود الجلعود	تصرف
١٣	جمرة وتمرة	٧٣ ٢	إمرأة من العرب	الشيخ/مفتاح بن عبدالعزيز التميمي	مني
١٤	مات قهراً	١٠٩ ٢	فايز بن هذيل الشمري	الشيخ/عيسى بن سالم السويداء رحمه الله	
١٥	رأى ثاقب	١٤٥ ٢	زوجة الشيخ بن حميد	الشيخ/سعد بن عبدالله الجندل	
١٦	حاميتها حاذيها	١٨١ ٢	جري الطائي	الشيخ عيسى بن سالم السويداء رحمه الله	
١٧	تموت الحرة	٢٢٥ ٢	هيا عبدالله السليمان	الشيخ الوالد/زيد بن عبدالرحمن السويداء	
١٨	من شاف شيء	٢٦٧ ٢	مبارك بن عيكة الشمري	الشيخ مطلق بن عواد العيكة الشمري	
١٩	الزوجة المربية	٢٩٩ ٢	إمرأة من أهل عيزة	الشيخ صالح بن سليمان الحيني رحمه الله	
٢٠	بهيسة	٩ ٣	بهيسة بنت أوس الطائي	عدة مصادر والحوار يتصرف	
٢١	كل يد وما قدمت	٤٣ ٣	النوري بن لهيميد الشمري	الشيخ عيسى بن سالم السويداء رحمه الله	
٢٢	أجر يسمعك	٣	منيرة العلي الشمري	عدد من الرواة	

٢٣ ثلة الجهاد	٣	١٠٩	سعدون بن حسين الثمري	صورة وثيقة بخط/عبد اللطيف بن رشيد
٢٤ السيدة المثالية	٣	١٣٧	نوير عبدالله الشلش	من معرفتي
٢٥ «أبو حوطتين»	٣	١٦٩	محمد بن سالم الريعان	الشيخ عبدالرحمن بن سليمان الخطيب رحمه الله.
٢٦ الحب العفيف	٣	١٩٥	سارة الدعيمي ماجد الحسي	الشيخ/سعود عبدالله البكر
٢٧ الرفيق أولاً	٣	٢٢٥	غريب معقل الشلاقي الثمري	الشيخ/راضي بن غريب الشلاقي
٢٨ راعية البيت	٣	٢٥٧	أم دغيم بن سويط	عدد من المصاد الخطية والشفهية
٢٩ الابن البار	٣	٢٥٩	مسلم بن سالم السويداء	من معرفتي ورواية الوالد سلمه الله
٣٠ عوننا بالحق	٣	٣٢٥	خلف فالح الجنفراوي الثمري	الشيخ/نواف بن نهار الجنفراوي

قائمة المراجع في الجزء الثالث

- | | |
|--------------------------------------|------------------------|
| ١ — لسان العرب | لابن منظور |
| ٢ — المنتخب في ذكر انساب قبائل العرب | عبدالرحمن زيد المغيري. |
| ٣ — من شيم العرب | فهد المارك |
| ٤ — مجمع الأمثال | للميداني |

انتهى